ما يقوله القرآن

في سورة يس

ما يقوله القرآن في

سورة يس

من مفردات ولطائف وتعاليم

الجزء الرابع

الشيخ فاضِل الصفَّار

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

الْحَمْدُ للّه رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾

الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهدِنَا الصِّرَاطَ

المُستَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ

عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ

وَلاَ الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ

يس/ ٤١

ذكر بعض المفسرين أن هذه الآية من أعقد الآيات وأصعبها فهماً في سورة يس[١]، والبحث فيها يقع في مباحث:

---

(١) تفسير الأمثل: ج١٤، ص١٤٤.

المبحث الأول: في مفردات الآية

تضمنت الآية المباركة بعض المفردات ذات المضامين العميقة نستعرضها على التوالي:

المفردة الأولى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ﴾

الواو عاطفة على ماسبق، والآية العلامة الدالة على الخالق ووحدانيته كما تقدم بحثه، واختلفوا في مرجع الضمير في (لهم) فبعضهم قال: هم العباد الذين أشارت لهم الآيات السابقة، وقال آخرون هم مشركو مكة[1] الذين ابتدأ الحوار معهم، ووصفهم الباري بأنهم غافلون وأكثرهم لا يؤمنون[2]، وأمر الباري عز وجل نبيَّه الخاتم أن يضرب لهم مثلاً أصحاب القرية يحكي لهم قصتهم وكيف هداهم الله إلى الإيمان، ثم أخذ باستعراض الأدلة الكونية والوجدانية لهم ليحاكي عقولهم وفطرهم، ولا تنافي بينهما؛ لإمكان أن يكون المخاطب قوم النبيﷺ، والمعنى عموم الخلق إلى يوم القيامة لأصالة الاشتراك في التعاليم والتكاليف، وإنما وصف ذلك بأنه آية لهم؛ لأن الآية اتخذت الحوار بأسلوبين عظيمين هما من أهم طرق الحوار وأبلغها أثراً:

---

(١) نفحات الرحمن: ج٥، ص٢٦٩؛ تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٤، ص٤٥.

(٢) انظر سورة يس: الآيتان ٦-٧.

الأول: تحفيز الوجدان النفسي بما يعيشه الإنسان من آيات حسية ويشعره بها بالانتقال من الآيات الفلكية وأفلاك الهواء إلى أفلاك البحار والماء، فإن الأول من المدرك بالحس المفهوم بالعقل، وأما هذا فمدرك بالحس ومفهوم بالوجدان، والتقابل بين الماء والهواء يدل على وحدة القانون وتبدل مظاهره، وفي الآية التي تليها يتحدث عن محامل البر وسفنه.

الثاني: تحفيز العقول للنظر إلى الحقائق الكونية والاعتبار بها، فإن عقل كل منصف يعلم بأن كل ما موجود في عالم الوجود عظيم في ذاته، وعظيم في حركته ونظامه وأثره، ويعلم بأن جميعه محكوم بنظام موزون، ويعلم بأنه ليس من صنع بشر ولا من صنع نفسه، وأنه لا يكون إلّا من صنع قوة أعظم مما يتصوره العقل. هذه الأركان الثلاثة تضمنت برهاناً علمياً تسوق كل منصف إلى اليقين بوجود الخالق الواحد القادر العليم الحكيم المدبر، والذين ينكرون ذلك يخالفون موازين العقول، ويخرجون عن نهج البرهان العلمي والاستدلال المنطقي الصحيح؛ لأن إنكاره يتوقف على إنكار أحد هذه الثلاثة:

الأول: أن ينكر أن العالم يشتمل على أرض وسماء وشمس وقمر وأشجار وثمار وليل ونهار وأساس متكامل ومتبادل الأدوار، وهذا ما لا يفعله عاقل لأن الوجدان فيه أقوى من البرهان، والسفسطة سفَّهها العقلاء وأخرجوها من الموازين العلمية والمدارس الفكرية المعتبرة.

الثاني: أن ينكر وجود النظام في العالم، وهذا الآخر كالأول، ولايتفوه به عاقل فضلاً عن عالم؛ لأن انعدام النظام يعني الفوضى وانهدام العالم، والحال أن العالم موجود ومتقن في نظامه وآثاره.

الثالث: أن ينكر الصانع العظيم لها، وهذا اسوأ من سابقيه؛ لأن لازمه القول بأحد محالين.

أولهما: أن يلتزم بأنها وجدت صدفة من دون سبب، وهو محال أبطله قانون السببية الحاكم على الأشياء.

ثانيهما: أن يلتزم بأنها وجدت من سبب مجهول لنا، وهذا مبهم ولا يوصل إلى حقيقة علمية؛ لأن لسائل أن يفترض عدة احتمالات في السبب وهي لا تعدو عن ثلاثة:

أحدها: أن يقول بأنها هي التي أوجدت نفسها بنفسها، وهذا محال؛ لأنه دور وتوقف الشيء على نفسه، بل ويستلزم تقدم المعلول على العلة، بل تقدم النفس على النفس، وهذا من اردأ المحالات.

ثانيها: أن يقول بأنها قوة خارقة لاندركها، وهذا باطل؛ لأن عدم درك القوة الخارقة في نفسها قد يكون معقولاً ولكن يمكن دركها بواسطة آثارها وخصائص أفعالها، فالجهل بالذات لا يلازم الجهل بالخصائص والآثار، ولهذا قالوا إن الأشياء تعرف بآثارها وبأضدادها وبأمثالها، وهذه قواعد ثلاث للمعرفة كل واحدة منها غير الأخرى.

ثالثها: أن يقول بأنها قوة عظيمة مجهولة الكنه معلومة الصفات والأفعال بواسطة البرهان الإنّي، وهذه القوة هي قوة الله سبحانه.

فان صفات العلة تظهر في المعلول عقلاً، فالنار حارة لأنها تحرق، والماء بارد لأنه يروي الظمأ، والسكَّر طيب الطعم لأنه حلو، وهكذا صفات العلة تظهر على المعلول. هذا في الفاعل بالجبر، وكذا في الخلق والإيجاد، فإن

صفات الخالق تتجلى في مخلوقه، فحيث لاحظنا أن الحقائق موجودة علمنا بوجود الخالق، وحيث علمنا بوجود النظم والتوازن والتأثير الدقيق فيها علمنا بأن موجدها قادر عالم حكيم، وحيث علمنا بكونها حية علمنا بأن خالقها حي، وهكذا كل صفات الجمال والكمال التي تظهر في المخلوق هي تتجلى لصفات الخالق عزّ وجل، فإن كان المدعي للسبب المجهول يقصد المجهول في ذاته لسعة وجوده وضيق وجودها وقصور عقولنا عن دركه فهو سديد؛ لاستحالة إحاطة المحدود باللامحدود، وإن قصد المجهول المطلق في صفاته وآثاره فهو مدعى باطل ينكره العقل والوجدان، وإن قصد انه مجهول الاسم لدينا بمعنى أنه يقر بوجود قوة عظيمة قادرة وعليمة وحكيمة أوجدت العالم ونظمته وأتقنت صنعه لكننا لانعرف اسمها فهذا بحث صغروي وليس في الأصل. والألهيون يسمونه الله سبحانه والعقل والسمع يوجبان عليه القبول بهذه التسمية لسببين:

الأول: لأنه جاهل بالاسم، والجهل بالاسم لايضر بأصل الوجود ولا بأوصافه، فإذا جاء الدليل الصادق والمحكم الذي يسميه يجب عليه أن يذعن؛ لحكم العقل بوجوب تصديق الصادق.

الثاني: لأنه يقر بجهله بالاسم، فإذا أخبر العالم بشيء لايمكن للجاهل أن ينفيه أو يكذبه من غير دليل؛ لأنه من ترجيح الجهل على العلم، والجاهل على العالم، وهذا أيضاً يبطله العقل.

والنتيجة الحاصلة مما تقدم: أن الباري عزّ وجل بقوله: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ﴾ ابتدأ الحوار العقلي مع الكفار والمشركين، ومررهم ببراهين عقلية ووجدانية

تقرّ بها نفوسهم تقودهم إلى الإيمان والتوحيد، والمنكر منهم بعد ذلك يكون قد كابر على الحقيقة، وأنكر بلسانه، وأيقن بقلبه؛ لذلك يقول عنهم الباري عزّ وجل ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ**﴾(١) وسماه جحوداً للإشارة إلى أن كفرهم ليس عن علم ولا استدلال، بل عن عناد ومكابرة ومزاج. هذا مايستفاد من وصف الفلك بالآية عطفاً على ماسبق من الآيات.

المفردة الثانية: ﴿أَنَّا حَمَلْنَا﴾

ورد الضمير مؤكداً بأن وبصيغة الجمع للتعظيم أولاً، ولبيان اشتراك العلل التوسيطية في الفعل، مثل الملك الموكل بالبحر وبالريح الذي يسير الفلك، وبنوح النبي عليه السلام الذي صنع الفلك، وباستمرار الفلك في البحر وعدم غرقها ونحوها من أسباب تشترك جميعها في إنفاذ الأمر الإلهي ثانياً، وثالثاً لبيان أن الفعل الإلهي مجلى جميع صفات الباري عزوجل كالقدرة والعلم والرحمة والحكمة، فإن كل فعل لله سبحانه كالخلق والرزق والإحياء والإماتة هو مجلى جيمع الصفات الإلهية، وفي ذلك تعليم للناس في أمرين:

أحدهما: أن يتوجهوا إلى الله سبحانه بكل احتياجاتهم وبكل ما يريدون، فإنه الوحيد الغني المطلق الذي لا فقر فيه ولا حاجة، وكل غني غيره وإن كان غناه اعتبارياً فهو غني من جهة وفقير من جهات، وكل قادر هو قادر من جهة وعاجز من جهات، وكل حكيم هو حكيم من جهة ومتخبط من

---

(١) سورة النمل: الآية ١٤.

جهات، فلا كمال ولا كامل ولاغنى ولاغني حقيقي في الوجود إلّا هو تبارك وتعالى، فلا ينبغي للمؤمن أن يأمل غيره ويلتجئ إلى غيره.

ثانيهما: أن يعلمهم الجماعية والجمعية في الأعمال والأفعال، فالعمل الجمعي يعلمنا الباري عزّ وجل به، ويعلمنا أن نتخلى عن الإقصاء والانانية والتفرد لمجرد ميزة أوخصوصية من مال أو علم أو قدرة، فمع أنه الواحد الأحد والفرد الصمد إلّا أنه ينسب فعله إلى جمعية صفاته، فكيف ينبغي بمجموعة الناقصين الجاهلين والقاصرين؟ ينبغي أن يفكروا ويعملوا ويبنوا حياتهم على أساس الجمعية، ولا يمكن استغناء بعضهم عن البعض الآخر.

المفردة الثالثة: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾

في الحمل قولان:

الأول: أنه الدفع والهداية كما يقول القائل: حملني فلان إذا أعطاه ما يحمل عليه أو هداه إلى مايحمل عليه[(١)].

والثاني: رفع الشيء على الظهر ونحوه[(٢)] وهو الغالب في الاستعمال، بل الأصل، ويطلق في الماديات والمعنويات.

والمعنى الأول باطل لقرينة (في) الظرفية، أو يعود إلى الثاني؛ لأن الهداية هو تحمل ثقل مسؤولية الهداية، وعلى كل تقدير فإن الظهور هو الحجة، والمتبادر منه هو الحمل على الظهر ونحوه.

---

(١) التبيان: ج٨، ص٣٤٩.

(٢) معجم مقاييس اللغة: ج٢، ص١٠٦، (حمل)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص١٩٩، (حمل).

قال الراغب: الحمل معنى واحد اعتبر في أشياء كثيرة، فقيل في الأثقال المحمولة في الظاهر كالشيء المحمول على الظهر، وفي الأثقال المحمولة في الباطن كالولد في البطن، وكالماء في السحاب، والثمرة في الشجرة، وعلى حمل أثقال الذنوب والمعاصي، وحمل الكتاب والنبوة والعلم وغير ذلك[١]، فلا تنافي بين المعنيين؛ لأن الأول مصداق للثاني.

وفي الحامل لهم قولان قول ذهب إلى أنه السفينة، وقول ذهب إلى أنه الماء، وعلى الأول تكون النسبة إليه سبحانه من باب التوسيط في الفاعل؛ لأنه سبحانه حمل ذريتهم بواسطة السفينة، وهي صنع نوح بناء على أنها المقصودة، أو من صنع البشر بناء على أنها مطلق السفينة، وعلى الثاني يكون من باب التوسيط في الفعل، فإن فعل الماء وقدرته الهائلة على حمل الأجسام الثقيلة هو قانون إلهي أودعه فيه، كما أودع مثل هذا القانون في الهواء.

فإن القطعة الصغيرة من الحجر لا تستقر في الماء ولا في الهواء فكيف تستقر السفن العظيمة المشحونة بالأثقال، وكذا الطائرات وأمثالها، وهذا معناه أن القانون هو الحاكم، فيطفي العظام الكبائر ويغرق الصغار الحقائر، وهو آية من الآيات الدالة على قدرة الخالق وحكمته لو التفت الناس إليه.

والأقوى هو الأول للظهور، ولقوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿**ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ**﴾[٢] فإن منطوقها يحاكي منطوق هذه الآية، ويدل على أن

---

(١) انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢٥٧، (حمل).

(٢) سورة الإسراء: الآية٣.

القوم كانوا يعلمون بقضية سفينة نوح وعما اشتملت وحملت، وكيف نجا الراكبون بها وهلك المتخلفون عنها، وهو ما تقتضيه القاعدة في تناقل الأجيال الحوادث والوقائع الغريبة، وقد تناقلها الأنبياء السابقون، وفصلوا أحداثها؛ لأنها أصل الوجود بعد إغراق الكل.

ومن هنا يرد السؤال إذا كان المقصود حملهم في سفينة نوح كان الأنسب أن يقول: إنّا حملنا أسلافهم أو آباءهم وأجدادهم؟ فكيف قال حملنا ذريتهم مع أن الذرية تأتي لاحقاً؟

والجواب: يعرف من استعراض معاني الذرية وهي عديدة عمدتها أربعة:

الأول: الذروة أي الأعلى والأشرف. يقال بلغ ذروة المجد أي أعلى مكان فيه، وهذا ما تؤكده قرينة العقل والحال؛ لأن الآية في مقام الامتنان على القوم كشفت لهم أنهم امتداد لآبائهم الذين نجاهم نوح بأمر الله في السفينة، فلولا نوح وسفينته لكانوا معدومين، وهذا إشعار لهم بنعمة الوجود والحياة اللتين هما من أعظم النعم التي تستحق الشكر العظيم.

وبهذا المعنى يكون المراد حملنا أشرافهم وكبارهم في الفلك المشحون، وهذا ما تعضده القرينة القرآنية من آيات أخرى تأريخية؛ لأن الذين ركبوا السفينة هم المؤمنون من الناس، وأما الكفار فقد أغرقوا، والمؤمنون هم الأرقى رتبة من غيرهم تكويناً وتشريعاً، أما تكويناً فلأن عقولهم وقلوبهم أكمل من العقول والقلوب الكافرة الجاحدة، وأما تشريعاً فلأنهم آمنوا وأطاعوا ربهم، والمؤمن المطيع أرقى درجة من العاصي، وعلى هذا يحمل قول بعض المفسرين بأن المراد بالذرية الآباء، وهو مأخوذ من الذرء أي

الخلق[١]، ويسمى الآباء والأجداد ذرية لأن الأبناء يخلقون منهم، كما تسمى الأولاد بالذرية لأنهم خلقوا من الآباء[٢].

الثاني: الصغار من الأولاد، فيكون المراد أننا في الحاضر والمستقبل نحمل ذريتهم في الفلك المشحون، وهذايستقيم مع الحمل في سفينة نوح، فلابد وأن نحمل السفينة على مطلق السفينة ليدل على نوع من الإخبار عن المستقبل بأن السفن تحمل أولادهم وذريتهم في البحار طلباً للمعاش من تجارة وصيد ونحوهما، وحيث إن قلوب الناس على ذرياتهم أحن يكون الإخبار استمالة لهم وإشعاراً بالرحمة والنعمة الإلهية عليهم التي تستحق الاستجابة والإيمان والشكر.

فسر تخصيص الذرية بالذكر - أي الصغار - لأنهم ضعاف يحتاجون إلى الحمل والإنقاذ، وفي عين الحال يحققون المنافع، وهما من أهم غايات الآباء من الأبناء، أي أن يكونوا سالمين ومفيدين، وقد ذكروا أن كبار القوم كانوا قد تعاهدوا أن يجلسوا ويرسلوا أبناءهم للصيد والتجارة فيلاحظوا كيف يذهبون ويعودون بسلامة، ويأتونهم بالنفع من دون قدرة للآباء على ذلك ولا سلطة، كما أن ذلك لم يكن بقدرة الأبناء ولا السفن ولا القانون، بل هو بقدرة أعظم من كل ذلك، وليست إلّا قدرة الله سبحانه.

الثالث: ما يشمل الصغار والكبار، ولذا قال بعضهم: إن الذرية من أسماء الأضداد تطلق على الآباء بدليل قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ**

---

(١) بيان السعادة: ج٣، ص٢٨٨-٢٨٩.

(٢) مقتنيات الدرر: ج٩، ص٨٥-٨٦.

وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ۞ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾[١] وصف جميع المذكورين بكونهم ذرية وبعضهم آباء وبعضهم أبناء[٢].

ويساعده الإطلاق العرفي، فإن العرف يطلق لفظ الذرية على السلسلة الناشئة من أصل، كما يطلق لفظ ذرية النبي أو ذرية الزهراء عليها السلام على السادة كباراً وصغاراً، وفي بعض مضامين الأحاديث: «المهدي من ذرية فاطمة عليها السلام »[٣]. وبه قال بعض أهل اللغة[٤]، وبهذا تفترق الذرية عن الآل، فإن آل الرجل قرابته، وأما ذريته فنسله[٥].

وهو يشمل الذكور والإناث، ولذا لم يقل حملنا أبناءهم؛ لأن الأبناء يطلق على الذكور[٦]، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿**وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ**﴾[٧] ثم أدخل عيسى في ذرية إبراهيم ونوح عليهما السلام مع أنه ابن الأنثى[٨].

الرابع: الذرأ أي الزرع. يقال: ذرأنا الأرض أي بذرناها، وبهذا الاعتبار يقال ذرأ الباري الخلق[٩]؛ لأنه يزرعهم في مناشئهم، فالأولاد في أرحام الأمهات، والنبات في رحم الأرض، وهكذا كل شيء يزرعه في أصله.

---

(١) سورة آل عمران: الآيتان ٣٣-٣٤.
(٢) أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها: ص٤٨٩.
(٣) الكافي: ج٨، ص٥٠، ح١٠؛ البحار: ج٥١، ص٧٨، ح٣٦.
(٤) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٣٢٧، (ذرو).
(٥) معجم الفروق اللغوية: ص٦، (٨).
(٦) معجم الفروق اللغوية: ص١٢-١٣، (٣٢)(٣٤).
(٧) سورة الأنعام: الآية ٨٤.
(٨) انظر مواهب الرحمن : ج١٤، ص١١٢ تفسير الآية المزبورة .
(٩) معجم مقاييس اللغة: ص٣٦٦، (ذرأ).

فالذرية في الآية لها مصداقان الأولاد والأمهات معاً. أما الأول فباعتبار أنه الزرع، وأما الأمهات فباعتبار أنها منشأ الزرع، ومن هنا قال بعض المفسرين: أن الذرية هم الأولاد والنساء، ونسب إلى أمير المؤمنينعليه السلام(١).

والحق أن المعنى الأول تام في نفسه؛ لأنه ناظر إلى إيمان المجهولين، وهذا متحقق جزماً بأي معنى كانت الذرية؛ لأن نوحاً لم يحمل غير المؤمنين، والمعنى الثاني مجمل لأنه يحتمل معنيين:

أحدهما: أن الذرية هم الصغار بالفعل وهو غير صحيح؛ لأنه لا يتوافق مع غرض الآية، بل الحمل بصيغة الماضي يتضمن الإخبار عما مضى لا عما يأتي.

وثانيهما: الصغار بالقوة؛ أي الذين كانوا ذرية في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات، فهو صحيح لكنه يعود إلى المعنى الثالث، والمعنى الرابع يعود إليه أيضاً.

والنتيجة المستخلصة من ذلك: أن الذرية هم المؤمنون من الرجال والنساء الذين حملهم نوح معه في السفينة، وإنما نسبهم إلى ضمير المخاطب فلأنهم أصولهم، وبنجاتهم تتم نعمة الباري عليهم، وفيه إشارة لطيفة تحثهم إلى الإيمان لوحدة المنطلق والنتيجة، فإن خبر نوح وسفينته كان مشهوراً معروفاً، وإن الطوفان أهلك الكل إلّا من كان في السفينة، وحيث إن نوحاً نبي من أنبياء الله ودعا قومه إلى الإيمان ونجى من صدّقه وآمن به - وهذا

---

(١) تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٦١؛ تفسير الصافي: ج٤، ص٢٥٤.

ماكانوا يعتقدون به - فيجب عليهم أيضاً ان يصدقوا النبي المصطفى في دعوته، ويؤمنوا به لينجوا من العذاب والهلكة.

وبهذا يحاكي ثقافتهم ويلزمهم بما يلتزمون به؛ لأن ثقافة أهل الجاهلية كانت قائمة على تقليد الآباء والأجداد فيما يعتقدون ويعملون، وكانوا يجيبون على دعوى الأنبياء، ويبررون كفرهم بأنهم وجدوا آباءهم على أمّة وهم بهم مقتدون، والآية تقول إن آباءكم وأجدادكم ركبوا سفينة نوح ونجوا من الغرق فكانوا مؤمنين، والدليل أنكم موجودون، ولو كانوا كفاراً لغرقوا ولما كنتم أيضاً، فآباؤكم مؤمنون، فلماذا لا تكونون مثلهم وتقتدون بهم؟ فالآية بأسلوب راق تدعو إلى الإيمان بتحفيز وجدان الناس وعقولهم باستعراض قضية معروفة للتلويح بقضية مطلوبة، وهذا غاية في الفن واللطافة، وبمبادئ هم يؤمنون بها ولا يخالفونها.

المفردة الرابعة: ﴿الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾

الفلك من المفردات التي تطلق للجمع أي السفن وللمفرد السفينة، وهنا يرادبها المفرد بقرينة وصفه بالمشحون، والظرفية التي تفيد التخصيص وضمير المفرد في الآية التي تليها: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِن مِّثْلِهِ﴾(١) وقد اختلفوا في المراد بها على أقوال:

القول الأول: أنها سفينة نوح؛ إذ لم يصف القرآن غير سفينة نوح بهذا الوصف أي المشحون(٢)، ويعززه شاهدان:

---

(١) سورة يس: الآية ٤٢.

(٢) التحرير والتنوير: ج٢٣، ص٢٧.

أحدهما: ألف ولام العهد في (الفلك).

وثانيهما: وصفه بالآية، فإن سفينة نوح هي الآية العظمى التي بها أنجى الباري الناس.

القول الثاني: أنها المعنى الجامع المنطبق على كل سفينة، ويشهد له الإطلاق وظهور الفلك في الجمع، وهو ضعيف لتوافر القرائن على إرادة سفينة خاصة.

القول الثالث: أنّها الأرض لأنها، كالفلك تجري في الفضاء، ويعززه السياق مع الآيات الفضائية الأخرى كالشمس والقمر والليل والنهار، وهو بعيد عن الظهور واللغة، فالحق هو القول الأول، ووصفه بالمشحون أي ممتلئ بالأثقال من الناس والأطعمة والدواب وكل ماحمله نوح فيها.

وفي رواية عن أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿أنه مشحون لأن نوحاً اتخذ فيه تسعين بيتاً للبهائم﴾[1] ويطلق الشحن على الماديات والمعنويات؛ لذا يقال للعداوة والبغضاء شحناء؛ لأنها تشحن النفوس بها[2]، وإنما عبر بالشحن دون الامتلاء للإشارة إلى أن نفوس الراكبين مشحونة أيضاً فضلاً عن شحن ذات السفينة، وشحنها بأمور:

الأول: مشحونة بالإيمان والتصديق بنوح الذي أدّى إلى اصطفائهم للنجاة.

الثاني: مشحونة على الكفار الذين عرَّضوا الأرض إلى الغرق كما تقتضيه الطبيعة البشرية في مثله، والمؤمن لايرتضي لغيره الهلكة والفناء.

---

(١) انظر الخصال: ص٥٩٨، ح١؛ البحار: ج١٠، ص٤، ح١.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٤٤٧، (شحن)؛ البيان: ج٨، ص٣٤٩.

الثالث: مشحونة بالأمل والفرحة في النجاة من عذاب الطوفان، وقال بعض أهل اللغة: إن الشحن هو البُعد. يقال عدو مشاحن أي مباعد[١]، ويطلق على العداوة؛ لأنها تباعد القلوب، وبهذا المعنى يكون الوصف باعتبار ابتعاد السفينة عن العذاب وتباعدها عن مصير الكفار، ولذا قال في المجمع بأنها مشحونة خوفاً من نزول العذاب[٢]، ويعود إلى الأول.

ويتلخص: أن الفلك المشحون هو سفينة نوح عليه السلام، وهو الآية التي أظهرها الباري عز وجل لمشركي مكة التي بها أنجى آباءهم وأجدادهم وحفزهم بها إلى الإيمان شكراً لنعمة وجودهم وحياتهم.

---

(١) معجم مقاييس اللغة: ص٥٣٠، (شحن).

(٢) مجمع البحرين: ج٦، ص٢٧١، (شحن).

المبحث الثاني: في لطائف الآية

أشارت الآية إلى لطائف عديدة:

اللطيفة الأولى: كيف صارت السفينة آية؟

أن الباري عز وجل وصف القضية بأنها آية فقال: ﴿**وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ**﴾[1] فالآية أنه بجمعيته الصفاتية حمل الذرية في السفينة، وحتى تكون الآية معجزة لابد أن تخرق القوانين المألوفة السائدة وإلّا لا توصف بالإعجاز، فالآية ليست للبحر لأنه مألوف، وليس للسفينة لأنها مألوفة ويصنعها الناس وإنما الآية هي حمل الذرية في الفلك المشحون ونجاتها من الغرق بعد أن غرق كل ما على الأرض حتى ولد نوح الذي أبى أن يركب معه وآوى إلى جبل حتى يعصمه من الماء. قال له: ﴿**لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ**﴾[2] أي حتى الجبال غرقت في هذا الطوفان العظيم الذي أغرق الأرض وما عليها بينما حملت ذريتهم في فلك مشحون، وهنا تظهر الآية لمخالفتها للمألوف من جهتين:

---

(١) سورة يس: الآية ٤١.

(٢) سورة هود: الآية ٤٣.

الأولى: أن الطوفان العظيم الذي لا تنجو منه الجبال العظيمة من الغرق وهي راسخة على الأرض فكيف تنجو السفينة وهي طافية على ظهره، فإن القواعد العلمية والمعهود من قوانين الطبيعة تقتضي الغرق؛ لأن الطوفان إما يوجب انكفاء السفينة أو يملي السفينة بالماء فيغرقها، أويرطمها بجبل فتتحطم، وكل هذا لم يحصل، وهو خلاف القاعدة، ولا يتحقق ذلك صدفة بل بأمر الله سبحانه.

الثانية: أن السفينة إذا أثقلت وحملت أكثر من طاقتها فإنها تغرق حتى في الأجواء العادية فما بالك في وقت الطوفان؟ وسفينة نوح كانت مشحونة ومثقلة بالأحمال، والقاعدة تقتضي غرقها ولكنها لم تغرق، ولذا وصفها بالآية لأنها معجزة، والأعجاز يتحقق بمخالفة القواعد والقوانين المألوفة.

وهناك جهة ثالثة لوصفها بالآية جمعها السياق الذي تضمن ثلاث آيات هي أعظم مافي الوجود، وهي: الآية البرية وهي الأرض ومايجري عليها من إحياء وإماتة للأشجار والأنفس كما تقدم في الآيات السابقة، والآية الفضائية كالشمس والقمر ونظامهما العجيب، ثم الآية البحرية وهي السفية التي بها حفظت الحياة ودامت، ولولاها لكان كل ما على الأرض مغرقاً.

اللطيفة الثانية: هناك وجه آخر لوصف السفينة وحملها بالآية، وهو التعبير بالحمل ولم يعبر بالخلق، فقال حملنا ولم يقل خلقنا؛ لأن الفلك يصنعها البشر بيده ونوح قد صنع سفينة، ووصفه يعود إلى الله سبحانه بالعلل التوسيطية، إلّا أن الحمل لا يقدر عليه حتى نوح، وهم بوجدانهم

يدركون أن الذي أنقذنا من الغرق ليس نوحاً؛ لأنه مثلهم، ولا سفينته لأنها مثل باقي السفن، ولا الذرية ولا الماء، وإنما الحامل والمنقذ هو الله سبحانه بجميع صفاته الجمالية والجلالية، وهذه نعمة عظيمة تستحق الشكر، وشكرها أن يؤمنوا ويذعنوا ويوحدوا في العقيدة والعمل.

والنكتة اللطيفة أن مخاطبة اللاحقين بحمل ذريتهم في الفلك وهم السابقون يشير إلى وجود جزء حي لبني آدم ينتقل في جميع الأجيال، وهذا دليل على أمرين:

الأول: أن البشر احياء لايموتون في جميع النشآت حتى في الذر أخرج الباري من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم، وهذه كلها دالة على أنهم أحياء في ذلك العالم، فالموت أمر اعتباري لاحقيقي.

الثاني: أن الفناء يكون للجسد والموت له، وأما الروح فباقية، وهو قول أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿إنا خلقنا وإياكم للبقاء لا للفناء﴾[(١)].

اللطيفة الثالثة: أن حملهم في السفينة فيه دلالة عظيمة على القدرة والحكمة الإلهية، وهذا وجه آخر لوصفه بالآية؛ لأن الحمل في السفينة والحركة فيها توظيف لقانونين عظيمين من أهم القوانين المقوِّمة لحياة الناس، هما قانون الماء وقانون الهواء، وكل منهما يكمل الآخر، وبهما تقوم حركة السفن، وبهما تم إنقاذ الخليقة من الفناء، فالماء يحمل على ظهره السفينة، والهواء حرّكها وجعلها تنتقل من مكان إلى مكان، ولولا التكامل

(١) الإرشاد: ج١، ص٢٣٨؛ الأمالي (للطوسي): ص٢١٦، ح٣٧٩.

بينهما لامتنعت الحركة، فلولا الهواء ظلت راكدة، والركود في الطوفان معناه الغرق، وكل إنسان يدرك بوجدانه أن الماء والهواء ليس منه، فإن كانت السفينة من صنع نوح فربما يتوهم البعض ويتصور أن قدرة البشر وعبقريتهم هي التي أنقذتهم من الغرق، إلّا أن السفينة بلاماء ولاهواء أضعف مخلوق، ولا تقدر على شيء، والماء والهواء من صنع الله سبحانه؛ لذا قال: ﴿حَمَلْنَا﴾ الذي يتضمن معنى الرفع والحركة؛ لأن الفعل فعله تبارك وتعالى، وذات القضية تنطبق على صناعة الطائرات والصواريخ وكل الصناعات والأجسام المتحركة، فإن غاية مايفعله الصناع والمهندسون هو تكوين الآلة وتجميع أدواتها، إلّا أن الحركة والانطلاق هو تسخير للقانون الإلهي في الهواء والماء، فالعلم لايصنع القانون بل يوظفه لخدمة الإنسان وغاياته، وهذة الحقيقة لو التفت إليها أهل الفكر والتأمل لقادتهم إلى التوحيد والإذعان للقدرة الإلهية.

اللطيفة الرابعة: تشابه الأرض وسفينة نوح

في هذه الآية والآية السابقة عليها تشبيه بين الأرض والسفينة، فإن الأرض تسبح في الفضاء وعلى ظهرها الخلق أجمع من البشر والحيوان والنبات، فهي مشحونة ومتحركة دائبة بأمن واستقرار وانتظام، ولا خوف فيها ولا قلق، وكذلك سفينة نوح هي في وقتها بمنزلة الأرض التي حملت كل عناصر الحياة على ظهرها ولم تغرق، وواحدة ركبت قانون الفضاء والثانية قانون الماء، فالكل خاضع لقانون واحد ومدبّر واحد، وأيضاً أن

الأرض آية من آيات الله العجيبة على علمه وقدرته وحكمته كذلك السفينة، فإنه لولا أن يصنع نوح السفينة لم يكن البشر يعلم كيف يركب البحر ويستثمر الطاقة الهائلة المودعة فيه، ولوكانوا يريدون الوصول إلى هذا القانون لاحتاجوا إلى تجارب مريرة، لكن الباري عزّ وجل علَّم نوحاً ذلك، وأمره بصناعة السفينة فقال سبحانه: ﴿**فَأَوْحَيْنَا إليه أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا**﴾(١) وهذا الوحي الثاني وكونه بأعيننا يشير إلى استمرار التواصل بين السماء والأرض في صناعة السفينة وتعليم نوح كل تفاصيل الصنع، ولوكان نوح يعرف كيف يصنع لاكتفى بقول ﴿**فَأَوْحَيْنَا إليه أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ**﴾(٢).

لكنه أخبر أن الصناعة كانت تحت عنايته سبحانه وتعليمه ووحيه، وهذا يدلنا على أن الصناعة أصلها من الله سبحانه، وقانونها من الله، وقدرة البشر وعلمه وتحقيقاته تطويرية لا تأسيسيّة، وهذه حقيقة عامة تجري في مختلف العلوم والفنون حتى اللغة.

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ٢٧.

(٢) سورة المؤمنون: الآية ٢٧.

ما هو أصل اللغة؟

وقد اختلف الأصوليون وأهل اللغة في منشأ اللغة وأن مؤسسها البشر أم الوحي، والحق الذي يقتضية التحقيق هو الثاني لا الأول. نعم للبشر التطوير، وهكذا في الصناعة والزراعة والتجارة ومختلف شؤون الحياة مبدؤها الباري عز وجل وتطويرها بيد الإنسان.

لذا قال سبحانه: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ ۞ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[1] أي حتى الكلام والبيان هو من تعليم الله، وهذه المعرفة هي التي تقود الإنسان إلى الإيمان والتوحيد، أي أن يدرك الناس أن المبدأ من الله والمعاد إليه، وأنهم ليسوا من يؤسس مهما بلغوا من العلم، وإنما هم مطورون، وحتى عقولهم التي يستخدمونها في التطوير العلمي والصناعي منشؤها ليست منهم، ولاذكاؤهم ولا الأفكار التي تودع في عقولهم منهم، بل هي إلهامات وتعليمات ربانية تدلهم على مواطن القوة والضعف، وتوصلهم إلى الاستنتاجات الصحيحة.

فالعقل من الله والذكاء والفكر منه، إذاً ماهو دور الإنسان الصانع والمفكر؟

الجواب: دوره هو التوظيف والاستثمار لا التأسيس.

فكل شيء من الله سبحانه، اللغة والعلم والعقل والسفينة منه، والقانون الذي يحملها ويحركها منه، وكل هذه الحقائق آيات تقود الإنسان إلى الإيمان والمعرفه الحقة.

---

(١) سورة الرحمن: الآيتان ٣-٤.

اللطيفة الخامسة: سفينة الحسين عليه السلام أسرع

أن الآية المباركة دلت على أن سفينة نوح هي أساس الحياة المادية والمعنوية للخلق بأصنافهم لا سيما الناس، وبها نجوا، ففضل هذه السفينة عام على جميع الخلق، ولولاها لكانوا فانين كما فني الكفار الذين عاندوا فأغرقوا، وهذا الخطاب موجه لقريش لكي يؤمنوا وينقادوا للحق ولا يكابروا عن هذه الحقيقة، والنبي المصطفى صلى الله عليه وآله أشار إلى سفينة ثانية مثلها في الناس كسفينة نوح دعا الناس إلى الركوب فيها لكي ينجو، والذين يكابرون ويعاندون يغرقون ويفنون في حياتهم المادية وحياتهم المعنوية، وهم أهل بيته الأطهار عليهم السلام.

فقد تضافر في الأخبار بل تواتر وبطرق الفريقين أنه صلى الله عليه وآله، قال: «إن مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح من ركب فيها نجا، ومن تخلّف عنها غرق»[1] والتمثيل بين السفينتين يكشف عن الاشتراك في الخصوصيات والآثار، ويدل على ثلاث حقائق هامة لمن يروم الحقيقة:

الأولى: أن أهل البيت عليهم السلام هم بذواتهم كسفينة نوح كما يفيده التشبيه، فكما أن السفينة صنعت بوحي الله وعينه هم أيضاً صنعوا بعين الله، فهم مصطفون وليسوا كسائر الناس، وكل واحد منهم آية يدل على الله سبحانه.

---

(١) شرح الأخبار: ج٢، ص٤٠٦، ح٧٥٠؛ وانظر العمدة: ص٣٥٩، ح٦٩٥؛ الأمالي (للطوسي): ص٤٥٩، ح١٠٢٦، وفيه: «إنما مثل أهل بيتي في أمتي كمثل سفينة نوح في لجة البحر، من ركب فيها نجا، ومن تخلف عنها غرق»؛ مجمع الزوائد: ج٩، ص١٦٨؛ المعجم الكبير: ج٣، ص٤٥.

الثانية: أنهم سبيل النجاة، وكل سبيل غير سبيلهم مصيره الغرق كما غرق كل من لم يركب في سفينة نوح، فكما أن الباري حمل الذرية في سفينة نوح وأنقذهم كذلك يحمل الذرية لمن أراد الالتفاف حول أهل البيت عليهم السلام والكون معهم.

الثالثة: أن الحياة المادية والمعنوية للوجود كلها قائمة بفضلهم، ولولاهم لكان كل شيء هالك، وهذا يتوافق مع الأدله العقلية والمنطقية المتضافرة على أنهم وسائط الفيض الإلهي، وأن لولاهم لساخت الأرض بأهلها، فهذه الحياة التي يعشها الناس هي بركة وجود محمد وآل محمد عليهم السلام، والكل مدين لهم، ولا نجاة للناس ولا سعادة إلّا بالكون معهم والاتباع لهم، وكل نهج آخر يغايرهم هو خروج عن الموازين ومصيره الفناء.

وفي الأحاديث الشريفة إشارة إلى سفينة خاصة أخرى هي أظهر من السابقتين وأسرع في النجاة هي سفينة الحسين عليه السلام، فقد ورد عنهم عليهم السلام: ﴿كلنا أبواب النجاة وباب الحسين أوسع، وكلنا سفن النجاة وسفينة الحسين أسرع﴾[1] ومكتوب على ساق العرش: ﴿أن الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة﴾[2] وفي التعبير بالأوسع والأسرع دلالات عظيمة أشير إلى اثنتين منها:

(١) من أخلاق الإمام الحسين عليه السلام: ص٣٨.

(٢) مثير الأحزان: ص٤؛ وانظر مدينة المعاجز: ج٤، ص٥٢.

الأولى: أن طريق الحسين عليه السلام ونهجه يشمل جميع الناس، ويتسع للكل، ولا يضيق يوماً بأهله، فكل تائه حائر، وكل مذنب عاص، وكل مخطئ لو التجأ إليه فإنه يجد الوجاهة والقبول وتصحيح المسار، وهذا ماتؤكده وقائع التأريخ والأيام للكثير من الناس.

الثانية: أن الالتزام بسيد الشهداء عليه السلام هو أسرع الطرق لرضوان الله سبحانه وتحصيل الفوز بالجنة بل وأقصرها.

وبهذا يتضح وجه الترابط بين القرآن والعترة، وأن أحدهما يكمل الآخر في المبادئ والغايات.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

وهي عديدة:

التعليم الأول: السعادة في ثلاث سفن يجب ركوبها

وهو يهم الشباب أكثر من غيرهم في كل زمان ومكان، إذ تدعوهم الآية المباركة أن يتعلموا من سفينة نوح وخصائصها، ويبحثوا عن سفينة نجاتهم. فالحياة بحر متلاطم، وفيه الأمواج عاتية ومحتفة بالمغريات والمضلات والفتن والصراعات، والطريق طويل ولا يجدر بالشاب أن يضيع نفسه في الفتن، ويجعل من شخصيته ومستقبله وقوداً أو حصاداً لها، بل عليه أن يتدبر ويفكر في حاضره ومستقبله ليبني لنفسه حياة طيبة وشخصية كبيرة ومكانة في المجتمع، فما أكثر الشباب الذين ضاعوا في طول التأريخ والتهمتهم الفتن، وأضاعوا دينهم ودنياهم وصاروا ضحايا، وكم من الشباب تاهوا وفشلوا في حياتهم لأنهم لم يبحثوا عن سفينة نجاتهم.

الآية المباركة بالحديث المباشر تحدثت عن سفينة نوح التي بها نجا العالم، وبفضلها بقي الخلق ودامت الحياة، وكل الذين فقدوا الطريق وضلوا وكابروا وعاندوا هذه الحقيقة أغرقهم الطوفان وهلكوا ولم يعرف لهم اسم و لارسم ولا أثر، ومنهم ابن نوح نفسه، وهو ولد المنجي وأقرب

الناس إليه تاه وضاع، ولما كابر ولم يبصر طريقه التهمه الطوفان وهلك، فمن يعرفه؟ وأين صار وضعه؟ وما هو مستقبله؟ ولو لا أن يضرب الباري عزّ وجل به مثلاً لشبابنا وأولادنا لما ذكره، فذكره للعبرة والاعتبار.

نعم ذكرت الأخبار أن اسمه كنعان، وقيل اسمه يام[١]، ولا يهمنا الاسم ولكننا لانعرف غير قصة هلاكه وضياعه، ولاحظوا ماجرى بلسان القرآن. يقول تعالى: بعد أن دعا نوح المؤمنين إلى الركوب في السفينة: ﴿**وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلاَ تُكُن مَعَ الْكَافِرِينَ ۞ قَالَ سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَن رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ**﴾[٢].

ونلاحظ كيف يصوِّر لنا الباري سرعة الأخذ حيث لم تتجاوز دقائق أو ثوان يتحدثان ويتحاوران ويحاول نوح أن يقنعه بالإجابة وهو يعاند ويكابر فحال الموج بينهما، وأخذ الولد الغرق وصار هالكاً.

وهنا التعليم والتنبيه والنكته اللطيفة أنّ نوحاً لم يقل ولا تكن من الكافرين بل مع الكافرين، ولعله للإشارة إلى أن ابنه كان في وجدانه مؤمناً ولكنه كان يعاند ويكابر ويتظاهر بالكفر بسبب سوء سريرته أو سوء أصحابه وندمائه؛ لذا كان معهم في المصير، ولولا ذلك لم يدعه نوح

---

(١) مجمع البيان: ج٥، ص٢٤٩؛ روح البيان: ج٤، ص١٣٠؛ نفحات الرحمن : ج٣، ص٣١٨.

(٢) سورة هود: الآيات٤٢-٤٣.

للركوب. إن الفرصة قد لا تمهل الإنسان لتهلكه، فإن العناد والعصيان والمكابرة تفوّت على الإنسان أهم ماعنده وهو حياته. تارة تفوّت عليه حياته الجسدية وهذه عظيمة، وتارة تفوّت عليه حياته الجسدية والروحية فيهلك الإنسان عن كفر وضلالة والعياذ بالله وهذه أعظم، وهذا مايجب أن نتعلمه ويتعلمه كل الشباب أن لاينخدعوا بالضلالات، ولا يضيِّعوا أعمارهم بالتوافه، وأن لايقعوا في فتن الحياة ومغرياتها.

ومن تمام الحدث نجد أن نوحاً وبقلب نبي وأب يشفق ويرحم بولده دعا الله عزّ وجل فقال: ﴿**وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ۞قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ**﴾[(١)] فالميزان عند الله سبحانه العمل الصالح، فالابن الروحي هو الابن ويعد من الأهل، والابن الجسدي إذا لم يكن صالحاً على سيرة أبيه هو ليس من أهله، وهذا ما يعلمنا به القرآن، وهو أن نبحث عن سفينة النجاة لكيلانغرق في الفتن، ولانضيع في الضلالات، ولاتخدعنا الدنيا بمغرياتها، وهذا ما أريد أن ألفت نظر الشباب إليه:

أيها الشاب المؤمن العاقل الفاضل:

الحياة الدنيا طيبة وفيها أشياء جميلة وتفاخر في الأموال والأولاد، وفيها الآمال والطموحات، والكل يتمنى السعادة فيها، وهذا أمر طبيعي للشباب أن يشعروا بهذه المشاعر، وهي سمة إيجابية، والشرع يحب للشباب أن

---

(١) سورة هود: الآيات ٤٥-٤٦.

يعيشوا أفضل حياة وأجمل سعادة، ولا يحب لهم أن يعيشوا ضعفاء فقراء تعساء لا عمل ولا أمل ولا مستقبل لهم، بل يحب الشباب المشحون بالطاقة والحيوية والقوة والجمال والتفاؤل والأمل. هذا يحبه الباري عز وجل في الشباب، ويريدلهم أفضل معيشة وأجمل حياة.

ولكن يجب أن نعرف أنَّ الإنسان مهما حصل من مزايا وعناصر قوة فإنه لابد من سفينة نجاة يلتجئ إليها عند المشاكل والأزمات. بها يقوّم حياته، ويعتدل نهجه، ويقوّم نظامه.

سفينة النجاة ليست في الرياضة، ولا في اللهو واللعب، ولا في الشهادة الجامعية، ولا في التجارة، ولا في المال والمنصب مع أن هذه أمور طبيعية ولابد منها في الحياة، ولكن هي لا تعدو أن تكون وسيلة للحياة. هي أدوات للحياة وليست هي الغاية، ويجب أن نفرق بين الغاية والوسيلة.

الرياضة، والشهادة الجامعية، والتجارة والكسب وسيلة، والسيارة والقصر، والمنصب كلها وسائل لا غايات، وهذه ليست وسيلة نجاة ولاتحقق السعادة والعيش الآمن المطمئن. هذه الأمور حاجات وقتية تشغلك وتعطيك في برهة من الزمن وأنت تحملها وتكون معها وتعيش الألم والحسرة، وتسبب لك المشكلات والأزمات.

كم من الشباب يملكون جمال الشباب وفتوته ولايشعرون بالسعادة. بعضهم يعبر عنهم بالنجوم في الرياضة أو في الفن الذين يكبِّرهم الأعلام ويصنع منهم نجوماً فيتخذهم الشباب مثلاً أعلى لهم هم أنفسهم لو درستم حياتهم الحقيقية واطلعتم على سيرتهم الشخصية لعرفتم أن الكثير منهم لا

يعيش السعادة، ولا يمكن أن يكون مثلاً أعلى. هو في نفسه ممتلئ بالأزمات والمشاكل، ولو قرأتم أحوالهم وأسلوب حياتهم وصفاتهم الحقيقية ستعرفون أنهم غرقى، ويحتاجون إلى من ينقذهم وينجيهم مما هم فيه، فكيف يطلب الآخرون منهم النجاة وفاقد الشيء لا يعطيه.

إنكم اطلعتم على صورة مُحسنة ومزيفة وكاذبة عن هؤلاء، أو نظرتم إلى جانب واحد من جوانبهم فاغتررتم بهم واتخذتموهم أسوة ومثلاً أعلى، وهذا ضياع وخسارة كبيرة لعقولكم وأعماركم. هؤلاء نجوم في الأضواء والإعلام ولكن في بيوتهم وغرف نومهم وحياتهم الخاصة ليسوا كذلك، فسعادتك أيها الشاب ليس مع هؤلاء ولا في شهادتك ولا في قوتك ولا الرياضة و لا منصبك مع أنك تحتاج إليها ولابد منها، ولكن لابد أن تعرف أنها وسيلة للمعيشة، وكم من مسؤول كبير يملك منصباً ضخماً يتمنى أن يعيش حياة مواطن عادي؛ لأنه يشعر أن المواطن الفقير يشعر بالسعادة وهو محروم منها، وكم من ثري غني يتمنى أن تؤخذ منه كل أمواله في مقابل أن يعطى الراحة والسعادة؟ وهذه هي الحقيقة. السعادة ليست بهذه لا بالشهادة ولا بالرياضة ولابالمال، وهذه كلها ليست سفينة نجاتك. إنما السعادة بكمال عقلك وسعة علمك ونورانية قلبك وإنسانية أخلاقك، أنت بهذه إنسان، وبها سعيد، وبها تعيش الحياة الدائمة في الجمال والروعة، وهذه هي سفينة نجاتك.

هذه الثقافة التي يرشدنا اليها القرآن عبر سفينة نوح وصفها بأنها سفينة مشحونة، بماذا كانت مشحونة – وصارت طريقاً لنجاة الخلق وإنقاذهم من

الغرق – هل في كبر حجمها؟ أو دقة وصفها؟ أو نوع خشبها؟ أو منظرها؟ أو سرعتها؟ أم في طولها وعرضها وارتفاعها؟ هذه كلها ليست إلّا مظهراً خارجياً لم تكن السفينة مشحونة بها، بل مشحونة بإيمان أهلها وكمال عقولهم ونورانية قلوبهم وصحوة ضمائرهم. بهذا كانت مشحونة.

وهكذا هي سفن النجاة لا تنجي ولا تنقذ إلّا بالإيمان والعمل الصالح.

وفي آية أخرى يؤكد القرآن لنا هذه الحقيقة فيقول: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾[١] والنكتة اللطيفة أنه يقول جعلنا لا خلقنا؛ لأن المقصود كل ما على الأرض من أصول الحياة والزينة كالتراب والماء والهواء ومايتفرع عليها من أشجار ومزارع وجمال وألوان وحيوانات ومعادن هو زينة للأرض، ولاحظ أنه وصفها بأنها زينة للأرض وليست زينة لهم؛ لأن زينة البشر ليست الأشجار والقصور والملابس وأمثالها، بل زينتهم كمال العقول و القلوب والأخلاق والإيمان كما أشار إليه في سورة الحجرات؛ إذ قال: ﴿**حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإيمان وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾[٢].

واللطيفة الأخرى أن الآية تعلمنا ان الحياة على الأرض فيها زينة هي وسيلة، وفيها غاية هي حسن العمل؛ لذا جعل زينة الأرض ابتلاءً واختباراً للإنسان، فهي وسيلة لما هو أعظم وأكبر، وهو تميّز كل إنسان بحسب عمله الذي يكشف عن كمال عقله وعلو شخصيته.

---

(١) سورة الكهف: الآية٧.

(٢) سورة الحجرات: الآية٧.

وماذا يعني أيكم أحسن عملاً؟ أي أحسن عقلاً فكراً وأخلاقاً؛ لأن الإنسان بهذه يكون إنساناً، وبها يعيش حياته في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة؛ لأن العمل نتاج الفكروالسجايا، والفكر والسجايا الطيبة تنتج عملاً صالحاً، وبالنتيجة سعادة حقيقية، وغيرها ينتج عملاً طالحاً، وبالنتيجة حياة شقية، والنكتة اللطيفة الأخرى أنها قالت أحسن عملاً ولم تقل أكثر عملاً؛ لأن المعيار ليست الكثرة والقلة بل النوعية.

هذه الحقيقة التي يجب أن لا نغفل عنها ونؤمن بها ونعمل عليها وننظم حياتنا بميزانها، وهذه النتيجة التي أشارت إليها الآية المباركة تؤكده الروايات الواردة عن المعصومين عليهم السلام، فعن أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿أفضل الناس عقلاً أحسنهم تقديراً لمعاشه، واشدهم اهتماماً بإصلاح معاده﴾[1] ونلاحظ أنه قال أحسنهم تقديراً لأن جميع الناس يفكرون ويدبرون لمعاشهم وحياتهم ولكن في التقدير هناك حسن وأحسن، والأحسن هو الذي يميز بين الوسائل والغايات وأعطاء الوسيلة ماتستحق والغاية ما تستحق، وبهذا يكون سعيداً، ومقتضى كمال العقل أن يشدد الاهتمام لمعاده؛ لأن به حياته الدائمة الباقية، فإذا أصلح معاده بإصلاح عمله عاش الحياة الأبدية السعيدة.

وربما يتصوَّر البعض أن سعادته بماله ومايملك من وسائل، إلّا أن أمير المؤمنين عليه السلام يبطل هذا المفهوم، ويرى أن المال لا يحقق السعادة لصاحبه إلّا

---

(١) تصنيف غرر الحكم: ص٥٢، ح٣٧٥؛ عيون الحكم والمواعظ: ص١١٤.

إذا أنفقه، ولولاه كان من أسباب شقائه. يقول عليه السلام: ﴿المال يُكرم صاحبه ما بذله، ويهينه مابخل به﴾[(١)] ويؤكد أن الذين يسودون في الدنيا ليسوا البخلاء ولاأصحاب الأموال ولا المناصب، بل الأسخياء[(٢)]، أي الذين يساعدون الآخرين ويرفعون عنهم شقاءهم، فالقيمة ليست للمال بل للسخاء الذي هو صفة أخلاقية عالية، والسيادة الحقيقية عند أمير المؤمنين عليه السلام التي يسود بها المرء تتم بأربع خصال: العفة والأدب والجود والعقل[(٣)]، فليست السيادة بقوة الشباب ولا شهادة التخرج ولا المال ولا المنصب.

ربما يقول البعض فكيف نعيش إذاً؟ يجيب رسول الله صلى الله عليه وآله عن هذا السؤال ويقول: ﴿يا علي! لا ينبغي للعاقل أن يكون ظاعناً إلّا في ثلاث: مرمّة لمعاش، أو تزوّد لمعاد، أو لذّة في غير محرَّم﴾[(٤)] هذا هو النهج الذي ينظم حياة الناس ويوفرلهم السعادة بأن يطلب العيش الكريم بالعمل والكسب والشهادة، ولكن هذا ليس كل الهدف. هذا جزء منه، ثم العبادة والتهذيب أي التزود للمعاد، وهذا وحده أيضاً ليس هو الغاية، بل هو جزء منها؛ لأن الإنسان له حاجات وضرورات لابد له منها، فله أن يستلذ

---

(١) تصنيف غرر الحكم: ص٣٧٨، ح٨٥٤٢؛ مؤسسة أحاديث أهل البيت عليهم السلام: ج١٠، ص١١٨.

(٢) تصنيف غرر الحكم: ص٣٧٩، ح٨٥٥٧.

(٣) البحار: ج١، ص٩٤، ح٢٣، قال أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿أربع خصالٍ يسود بها المرء: العفة والأدب والجود والعقل﴾.

(٤) الفقيه: ج٤، ص٣٥٦، ح٥٧٦٢؛ الوسائل: ج١١، الباب ١ من أبواب آداب السفر إلى الحج، ص٣٤٤، ح١٤٩٧١.

ويستمتع ولكن في غير الحرام؛ لأنه إذا صارت اللذة في الحرام صارت وبالاً، وخرجت عن كونها لذة، فوقت الإنسان يتوزع بين غذاء البدن وغذاء النفس وهي اللذة، وغذاء الروح وهو العبادة. هنا تتحقق السعادة، وبها تجتمع الدنيا والدين، وهذه هي سفينة نجاة الإنسان وسعادته.

ومن كان هكذا فإن الباري عزوجل يقرِّبه ويباهي به الملائكة، فعن النبي المصطفى صلى الله عليه وآله: «إنَّ أحب الخلائق إلى الله عز وجل شاب حدث السن في صورة حسنة جعل شبابه وجماله لله وفي طاعته – أي لم يعص الله وإن كان يتمتع بشبابه وحياته – ذلك الذي يباهي به الرحمن ملائكته. يقول: هذا عبدي حقاً»[1] ووجه المباهاة أن الملائكة تطيع الله ولاشهوة لها، وأما الشاب فهو في قوة شهوته ورغبته لا يصرفها في الحرام والمعصية، وهذا يستحق الحب والتقدير والمباهاة.

ونستنتج مما تقدم هذه النتيجة وهي:

لابد للإنسان من سفينة نجاة يلتجئ إليها في طوفان الحياة، وهذه السفينة لها ثلاثة مظاهر:

الأول: قوة الشخصية وكمالها عقلاً وقلباً وأخلاقاً. هذه أول سفينة تبدأ من نفسه وذاته، فالذي يملك عقلاً نيراً وقلباً نقياً وأخلاقاً عالية لا يبتلى بالأزمات، ويكون موفقاً ناجحاً في حياته.

الثاني: التمسك بالسفينة الإلهية العظمى – سفينة محمد وآل محمد عليهم السلام – ولاسيما سفينة الحسين عليه السلام، فإن التمسك بها يحظى بالوجاهة والسعادة كما مر.

---

(١) مكارم الأخلاق: ج٢، ص٣٧٣؛ كنز العمال: ج١٥، ص٧٨٥، ح ٤٣١٠٣.

الثالث: التمسك بالعلماء الربانيين الذين يسيرون على نهج آل محمد عليهم السلام في علومهم وأقوالهم وأعمالهم، فإنهم سفن النجاة لاسيما في زمان الغيبة، وهذا ما وصى به أمير المؤمنين عليه السلام سائر الناس ولاسيما الشباب قال: ﴿بمعاشرة العلماء مصاحبتهم حياة العقول وشفاء النفوس﴾(١) وأن من يجالسهم يزداد علمه، ويحسن أدبه، وتزكو نفسه، وبهذا يكون في مستوى إنساني رفيع يليق بمكانته كإنسان كرّمه الله وشرّفه على خلقه.

التعليم الثاني: عجز القوى العظمى

إن الحياة والموت والنجاة والهلاك بيد الله سبحانه، وكل شيء يعود إليه، فلا ينبغي للإنسان أن يغتر بقوته أو بعلمه أو بماله وسلطته؛ لأن هذه جميعاً زائلة، فالقوي مهما بالغ في القوة هناك من هو أقوى منه، والعالم لولا الله سبحانه يعطيه قوة العقل والفكر وحفظ العلم ويجنِّبه آفات العلم وهي النسيان والغفلة والجهل المركب فإنه لا شيء، والسلطة والرئاسة والملوكية هذه كلها لا ينبغي أن يغتر بها؛ لأن طوفاناً واحداً يأذن به الله يزيل من على الأرض وكل ما فيها من جبال وأموال وعلوم وجيوش جرارة وحكومات عاتية، ووقائع الأحداث تؤكد هذه الحقيقة مثل طوفان تسونامي وغيره اجتمع العالم برمته لأجل تفاديه أو تقليل الخسائر منه ماستطاعوا، فأين العلوم والصناعات؟ وأين الجيوش الجرارة؟ كلها تصبح هباءً منثوراً، وهذا مايجب أن يتعلمه الناس أن القوة الحقيقية في الوجود هو الله سبحانه،

---

(١) تصنيف غرر الحكم: ص٢٣٠، ح٩٧٩٠، ٩٧٩١.

وأنه الملجأ الوحيد الذي يجب أن ينقطعوا إليه عند الحاجات ليعصمهم من الأخطار، وينجيهم من المهالك.

فالقوى العظمى التي تتبجح على العالم وتعمل سلطتها وجربزتها على الضعفاء تصبح هباء منثوراً أمام سيل أو زلزلة أو عاصفة تزيل المدن، وهذه تدلنا على أن الذي يستحق الشكر والعبادة والطاعة هو الله سبحانه؛ لأنه المنعم الحقيقي، وهو أساس كل شيء، وأما غيره فليس إلّا مستمداً منه أوزائفاً.

التعليم الثالث: ما هي مهام العلم؟

إن الباري عزوجل يصنع الأشياء بالوسائط وواسطة النجاة والإنقاذ التي صارت سر الحياة هما الماء والهواء، بهما جعل الأشياء حية، فإن الأبدان والنفوس حية بالماء، والأرواح حية بالهواء. في الأول يقول تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**﴾(١) وفي الأرواح يقول: ﴿**وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُوحِي**﴾(٢) والنفخ يعود إلى الهواء، وهنا نعرف أن الماء والهواء داخلان في تكوين الأشياء الحية، ولولا هما لم يكن شيء حي، ولو تمكن الإنسان من توظيف الماء التوظيف الصحيح لتمكن أن يصنع المعجزات، وكذلك في الهواء.

نلاحظ أن العلوم البشرية وظفت شيئاً من الماء فصنعت الكهرباء والسفن والكثير من الصناعات العظيمة، وكذلك وظفت الهواء في النقل

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٣٠.

(٢) سورة الحجر: الآية ٢٩.

والطيران وصنعت الكثير من الإنجازات، وهذا يدلنا على حقيقة علمية أن كل أهل العلم باختلاف أصنافهم بعضهم يصرحون بهذه الحقيقة وبعضهم لا يصرحون لكنها تعيش في وجدانهم، إلّا إذا كانوا غافلين أو مكابرين، وهي أن العلوم الحديثة ليست خلاّقة توجد الأشياء وتخلقها، فالعلوم في أصولها وتفريعاتها كلها تعود إلى صنع الله سبحانه وتعالى، وأما جهود البشرية وعلومها وصناعتها فلا تصنع القوانين، ولاتؤسس الحقائق، بل مهمتها في ثلاثة أمور هي:

١. اكتشاف القوانين المودعة في الوجود.

٢. توظيف القوانين للخدمة والانتفاع بها.

٣. تطوير الانتفاع عبر تركيب قانون مع قانون أو قاعدة مع قاعدة، وكل إعجاز العلوم هو هذا؛ لذلك لا يمكن أن نصف البشر بالخالقين، وإنّما هم مكتشفون أو صنّاع أو مستثمرون؛ لأن الخالق الحقيقي هو الله سبحانه، وهذا مايجب أن نعلمه ولا نغفل عنه، وهو أن المؤثر الحقيقي في الوجود هو الله، وبيده أزمة الأمور طراً، فكلما ارتقت البشرية علمياً وصناعياً يجب أن تزداد معرفة وإيماناً، فلو كفرت بأنعم الله تكون قد خرجت عن موازين العلم واستحقت العذاب .

التعليم الرابع: تعلمنا الآية المباركة أن نحترم جهود الآخرين ولا نلغيها ونحتكر الإنجازات؛ لذا ما قال سبحانه في سفينة نوح إنّا خلقناها مع أنها صنعت بأمره وعنايته سبحانه، وذلك لأن لنوح الدور الكبير في إنجاز صناعة السفينة. هذه هي آداب الله وأخلاقه فكيف يجب أن يكون المؤمن؟

وَخَلَقْنَا لَــهُمْ مِن مِّثْلِهِ مَا
يَرْكَبُونَ

يس/ ٤٢

وهي معطوفة على ما قبلها، والمعنى: وآية لهم أنا خلقنا لهم من مثله مايركبون، والضمير في مثله يعود على الفلك المشحون، فمجموع الآيتين يثبت آيتين إلهيتين:

الأولى: حمل الذرية في الفلك بقانوني الماء والهواء.

الثانية: خلق من مثل الفلك المشحون مايركبونه، وينقلهم من مكان إلى آخر بقانون الإرادة التكوينية التي تقول للشيء كن فيكون، وكلتاهما تدلان على القدرة الإلهية سوى أن الأولى دالة على قدرته في البحر، والثانية في البر، وتفصيل البحث في الآية يقع في مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآية

المفردة الأولى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم﴾

الخلق الإيجاد عن تقدير وهو ضربان: تارة يكون بسيطاً ويتحقق بإبداع الشيء من غير أصل ولا اقتداء كما في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ﴾[1] أي أبدعهما، وتارة يكون مركباً ويتحقق بإيجاد شيء من شيء، كالإنسان خلقه من نطفة وهي من طين. قال تعالى: ﴿خَلَقَ الإنسان مِن نُّطْفَةٍ﴾[2] والأول مختص بالله سبحانه؛ إذ لا بديع في الوجود إلّا هو، وأما الثاني فيمكن أن يشاركه فيه البشر، ولكن فعل الإنسان فيه هو التركيب والإيجاد المادي، وأما الحياة فليست بيده، ولذا تتوقف على الإذن الإلهي.

ولذا وصف عيسى بالخالق ولكن علّق إحياءه على إذنه سبحانه إذ قال: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾[3] وفي آية أخرى: ﴿فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ﴾[4] والإبداع في فعل عيسى وإعجازه

---

(١) سورة الأنعام: الآية١.

(٢) سورة النحل: الآية٤.

(٣) سورة المائدة: الآية ١١٠.

(٤) سورة ال عمران:الآية ٤٩.

ليس في تصوير الطين وتشكيله كهيئة الطير؛ لأن هذا مقدور لكل أحد، وإنما في نفخ الروح فيه فصار طيراً، وهذه القدرة الإبداعية لايملكها إلّا الله سبحانه، أي نفخ الأرواح وإعطاء الحياة الحقيقية للأشياء. هذه من مختصات الخالق عزّ وجل.

والعلوم البشرية مهما تطورت وصنعت العجائب إلّا أنها عاجزة عن إعطاء الحياة للأشياء غير الحية. نعم يمكن أن تطور الحي من حياة بسيطة إلى مثلها أو أفضل منها، ولكن لا تقدر أن تجعل الشيء الجامد الفاقد للحياة حياً، بل الحي الذي يوشك أن يموت لو توفرت فيه عوامل الموت يعجز العلم عن إبقائه حياً كالميت سريرياً.

فالخلق التركيبي بمقدور البشر ولكن قدرته محدودة بحدود الجسم الظاهر، وأما الحياة وخلق الأرواح وإبداعها فهو من مختصات الباري عزّ وجل.

ويتحصل: أنّ الخلق قسمان: إبداعي يقع من غير أصل سابق ولا تقليد لشيء يحتذي، وآخر تركيبي، والآية العظمى في الأول منهما وهو ما أشارت إليه الآية: ﴿**خَلَقْنَا لَـهُم**﴾[1] وضمير الجمع يشير إلى العلل التوسيطية، ولا تنافي بين الإبداع وبين استخدام الوسائط كالملائكة التي تتولى تدبير الأشياء وإيجادها.

واللام في ﴿**لَـهُم**﴾[2] للغاية، ومرجع الضمير هم القوم الذين يحاورهم النبيﷺ، والمقصود به جميع العباد؛ لأن ذلك آية للكل في كل زمان

(١) سورة يس: الآية ٤٢.
(٢) سورة يس: الآية ٤٢.

ومكان، وهذا هو دأب القران الكريم في خطاباته؛ لذا اشتهر أنه نزل بلغة إيّاك أعني واسمعي ياجارة.

المفردة الثانية: ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾

من جنسية أو تبعيضية أو بيانية لـ(ما)[1]، وسنأتي إلى حقيقته، والمثل الشبه، والمعنى خلقناهم من مثل الفلك المشحون مايركبون، ونسبة الركوب إليها يدل على أن المثل مما يستطيعون ركوبه، ولا يمتنع عليهم تحصيله، بخلاف سفينة نوح، وفيه قولان:

القول الأول: أن المراد السفن بأنها مثل الفلك حقيقة وتؤدي غرضها، ويشهد له قوله تعالى: **﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾**[2] وهذا يدل على أن الناس قبل سفينة نوح ما كانوا يعرفون السفن ولا يركبونها، وهو ضعيف؛ لأن هذه الآية تتحدث عن الجعل، وساوت بين الفلك والأنعام معاً، فهي لا تنفي ما عداها، بينما آية بحثنا تحدثت عن الخلق.

القول الثاني: مراكب البر كالخيل والجمال والحمير والبغال وهو المروي عن الأئمة عليهم السلام[3]، وقد خلقها الباري عزوجل للبشر لتحقيق ثلاث غايات مادية هي: الركوب والتنقل وحمل الأثقال عليها والأكل منها والاستفادة

---

(١) انظر روح المعاني: ج٢٣، ص٣٨.
(٢) سورة الزخرف: الآية ١٢.
(٣) تفسير القمر: ج٢، ص ١٨٩.

من شعرها ووبرها، وغاية معنوية هي الجمال والمتعة والزينة ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾[1].

وفي آية أخرى قال: ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[2] وفي آية ثالثة قال سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾[3] والجمال صفة تلحظ في الأشياء، وتبعث في النفس سروراً ورضا[4]، فهي جمال وزينة؛ لأنها تضفي على أهلها الوجاهة والاقتدار، وتوصف هذه المركوبات بسفن البر.

وبهذه الآية والآيتين السابقتين جمع الباري آيات الحركة والنقل والانتقال فآية الفضاء الأرض التي تحمل ماعليها وتسبح في الفضاء، وآية البحر هي السفن، وآية البر وهي المركوبات البرية، وكلها آيات متنوعة في الجوهر والمظهر والنظام، ومتفقة في الغاية والأثر، وهذا دليل على وحدة الخالق والمنظم وقدرته وحكمته.

المفردة الثالثة: ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾

فإنّ ما موصولة، والركوب معناه ظاهر، والفعل المضارع يدل على الاستمرار، والموصول والمضارع يدلان على أن الركوب في كل زمان بحسبه، فتشمل كل ما يركب للتنقل وحمل الأثقال والزينة مثل السيارة

---

(١) سورة النحل: الآية ٨.

(٢) سورة غافر: الآية٧٩.

(٣) سورة النحل: الآية٦.

(٤) المعجم الوسيط: ج١، ص١٣٦، (جمل)؛ معجم الفروق اللغوية: ص١٦٥، (٦٤٧)؛ مجمع البحرين: ج٥، ص٣٤٢، (جمل).

والطائرة والقطار وكل وسائل الحركة والنقل، وإنما قال: ﴿**مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ**﴾(١) للإشارة إلى أنَّ ما يخلقه الباري مثل سفينة نوح باستطاعة كل أحد أن يركبه، وهذه رحمة عامة تشمل جميع الخلق، بخلاف الفلك المشحون فإنه اختص بمن كان مع نوح، فرحمتها خاصة، بل وحتى السفن فليست مركوب كل أحد. وعادة الذين يركبون السفن هم القلة بالقياس إلى غيرها من المركوبات.

ويتحصل: أن الآية المباركة في مجملها تشير إلى حقيقتين هامتين:

الأولى: أن الكون كله مترابط بنظام واحد، وكل مافيه آية تدل على قدرة الخالق وحكمته، فإذا قلب الإنسان نظره في الفضاء وجد مايدل عليه سبحانه، وإذا نظر إلى البحر أو إلى البر وجد مايدل عليه، وهذه الحقيقة يدركها كل منصف متدبر، ولذا من أقدم الأشعار عند العرب وأصدقها على مايقوله أهل الأدب قول الشاعر.

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد(٢)

الثانية: أن الخلق والإيجاد والإحياء والإماتة والإبداع بيد الله سبحانه، ومهما تطورت تطور البشر في علومه، فإنه لا يقدر على أكثر من الجمع والتركيب وصنع أجساد الأشياء، وأما روحها وحياتها فهو عاجز عنها، وهنا على العاقل الذي يشك في وجود الخالق أو ينكره ان يسأل نفسه:

---

(١) سورة يس: الآية ٤٢.

(٢) تاج العروس: ج١٩، ص٦٢، (عته)؛ شرح نهج البلاغة: ج٦، ص٤١٢.

من أين هذه الحياة؟ وكيف توجد؟ ومن أوجدها؟ ولا يخلو جوابه من ثلاثة احتمالات:

الأول: أن يقول هي أوجدت نفسها وهذا باطل؛ لأنه دور وخلف، ويستلزم تقدم الشيء على نفسه وهو محال.

الثاني: أن يقول أوجدتها علة طبيعية أخرى وهو باطل؛ لأن العلة الأخرى إن كانت ميتة فكيف أعطت الحياة وفاقد الشيء لا يعطيه؟ وإن كانت حية عاد السؤال من جديد عمن أعطاها الحياة؟

الثالث: أن يقول أوجدها حي مطلق حياته عين ذاته، وكل حياة نابعة منه، وكل صفات الجمال والجلال تعود إليه، وهذه الخصوصية هي خصوصية الباري تعالى، وبه يثبت المطلوب، ويتضح كون الحمل على الماء والخلق لما تركبون آية.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

تتضمن الآية المباركة لطائف ثلاث:

اللطيفة الأولى: لماذا قال ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾؟

قال تعالى: ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾ ولم يقل مثله فما أهمية (من)؟

والجواب: الفرق كبير بين قوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ﴾ وقوله: ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾ فالأول يدل على أن المخلوق هو مثل الفلك المشحون، وينصرف المعنى إلى السفن، ولكن القول به ممتنع؛ لأن السفن الأخرى لم يخلقها الباري لا مباشرة ولا بالواسطة بأمره تعالى وعنايته كما حصل في سفينة نوح، وإنما هي من صنع البشر، ومثله لايصح أن يقال له خلق بل هو صنع وتركيب، فلذا قال: ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾ للإشارة إلى أن مايخلقه الباري عزّ وجل ليست السفن؛ لأنها من صنع البشر، وليس جميع الناس يركبونها، بل وإلى يومنا هذا فإن التنقل في البحار هو الأقل بالقياس إلى غيره من وسائل النقل.

والمقصود بقوله: ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾ أي مثل السفينة في الآثار والأفعال، يركبه جميع الناس، وينتقلون به من مكان إلى مكان، ويأمنون فيه، وهي سفن البر، وبهذا يتضح أن (من) في الآية ليست جنسية ولا بعضية وإنما بيانية.

اللطيفة الثانية: الصناعات الحديثة من الله سبحانه

قال: ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾ ولم يقل (من شبهه) أو نظيره؛ ولعل السبب في ذلك يعود إلى الفرق بين المثل والشبه، فإن الشبه يقال على المثل في الصورة، والمثل يقال على المشابه في الآثار والأفعال.

وسفينة نوح لايشبهها شيء. هي معجزة إلهية عظيمة في تكوينها وخصائصها، فلا يشبهها شيء في الصورة، وإنما يوجد مثلها في الآثار والأفعال، وهي وسائط النقل، وهي الدواب بقرينة الخلق، فإن غيرها لم يخلق وإنما يصنع.

اللطيفة الثالثة: إنّ قوله: ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾[1] قرينة على أن وسائل النقل الحديثة كالسيارة والقطار والطائرة ونحوها مشمولة في الآية بمثلية الصفات والآثار، والقول بأنها كانت مقصودة في الآية ممتنع؛ لاستلزامه مخاطبة القوم بما لا يفهمونه، وكان من التعريف بالأخفى، وهو من المخلات بالتعريف والحجة. **هذا أولاً.**

وثانياً: لفتح الباب أمام المكذبين منهم بتكذيب الآية، لأنهم لم يركبوها، والآية قالت: ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ فهم كما يصنعون السفينة ويركبونها بسهولة، فإن ما خلقه الباري جعلها مثل السفينة حتى في الركوب، وإلّا فلو تمرد الحيوان فإن مائة رجل لايقوون على جملٍ واحد.

---

(١) سورة يس: الآية ٤٢.

إن قلت : ولكن قد تجد الطفل الصغير يقود قطيعاً، وهو لطف ورحمة إلهية، حيث سخر لهم ما يركبون، وهذه النتيجة تعني صحة سلب نسبة الوسائل الحديثة في النقل عن فعل الله سبحانه، والجواب من وجهين:

الأول: ما عرفت من أن الوسائل الحديثة صناعات وليست بخلق، والصناعات تقوم على اكتشاف القوانين الإلهية وتركيبها وتوظيفها وتطويرها، وكل ذلك يحدث بإرادة الله التكوينية وإذنه بذلك؛ إذ لم يمنع حصول كل ذلك، وبهذا الاعتبار تصح نسبتها إليها؛ لأن الإذن في السبب إذن في المسبب.

الثاني: أن الصناعات الحديثة صنع البشر، والبشر هو صنع الباري عزّ وجل وعلومه وعبقريته والقوانين التي يستثمرها كلها منه سبحانه، وبهذا الاعتبار يصح نسبتها إليه تبارك وتعالى. لذات القاعدة.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

وهي عديدة:

التعليم الأول: كيف تعرف الحق من الباطل؟

إن الباري عزّ وجل ألفت الأنظار إلى ما يشابه سفينة نوح، وأشار إلى أن بينهما مماثلة، أي بين سفينة البحر وسفينة البر، وجعل ذلك آية ليعلمنا حقيقة هامة في حياتنا، وهي أن لانعيش عيشة الغافلين، بل علينا التأمل والتدبر بكل مايحدث حوالينا، ويعطينا الضابطة التي بها نعرف الحق من الباطل والخطأ من الصواب في ثلاثة أمور:

الأول: تشخيص صواب الآراء وخطئها.

الثاني: تشخيص صحة الخطط والمواقف وعدمها.

الثالث: تشخيص مايفيد وما لا يفيد من الأعمال والسياسات، والضابطة هي النظر إلى الأشباه والنظائر وتشابه الآثار، فالباري عزّ وجل جعل سفينة نوح أماناً لراكبيها، وبها حفظهم من الهلاك، وقال خلقنا للناس مثلها، ومعنى ذلك أن هذه الوسائل أيضاً أمان لراكبيها؛ لأنها تشاركها في الآثار، وهكذا يعطينا القاعدة أننا إذا نظرنا إلى الأمور التي

حوالينا نقيسها بأمثالها في النجاح والفشل والخطأ والصواب، فنعرف مالدينا من أفكار ومواقف وسياسات هل هي صحيحة أم لا.

وهذا ما قرره الحكماء بقولهم: إن الأشياء تعرف بأمثالها، وإليه يشير قول أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿إن الأمور إذا اشتبهت اعتبر آخرها بأولها﴾[1].

التعليم الثاني: انظروا إلى حياتكم يا شباب

إن الباري عز وجل حيث أشار إلى التشبيه بين سفينة نوح وماخلق من وسائل النقل لم يذكر لهذه الوسائل إلّا فائدة واحدة وهي الركوب، مع أن فوائد الأنعام والدواب أكثر من الركوب، ولعل السبب في ذلك أن الركوب له أثران هامان في حياة الإنسان:

الأول: أنه ينقله من حال إلى حال فيغّير حالته، فيلغي الرتابة والركود والجمود في حياته.

الثاني: أن الركوب فيه علو وارتقاء وسرعة مضي، وبهذين الأثرين يكمن تطور الإنسان فكرياً وعملياً واجتماعياً ليس على الصعيد الفردي بل الاجتماعي والحضاري، فإن كل تطور يحتاج إلى ركوب داخلي يغيِّر النفوس والعقول و الأفكار، وركوب خارجي يشترك فيه جميع الناس. يتعالون فيه

---

(١) نهج البلاغة: ج٤، ص١٦، الرقم ٧٦؛ وانظر تصنيف غرر الحكم: ص٤٧٢، ح١٠٧٧١؛ عيون الحكم والمواعظ: ص١٤١، وفيها: ((إن الأمور إذا تشابهت اعتبر آخرها بأولها)).

على المشاكل والأزمات، ويمتطون الصبر والعلم والعمل ليرتقوا، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1].

والآية تتحدث عن قضيتين عظيمتين فيهما إبداع عظيم هما سفينة نوح وماخلقه الباري للركوب حتى يتعلم الإنسان التغيير والتطوير، وفي الأحاديث الشريفة: «من تساوى يوماه فهو مغبون»[2] لأنه يبذل العمر ويقترب من أجله دون أن يستفيد شيئاً، والأسوأ منه من كان أمسه أفضل من يومه فهو ملعون؛ لأنه مطرود من الرحمة بعدم استحقاقه إياها، وفي الحديث الشريف: «ومن لم يعرف الزيادة في نفسه فهو في نقصان»[3] وهذا تعليم عظيم لجميع الشباب في أن يفكروا في حياتهم، وينظروا في حاضرهم ومستقبلهم، ويعرفوا ماذا يفعلون بحياتهم، فإن كانت حياتهم واحدة بالأمس واليوم معناه فيها خلل، ولوكان اليوم أسوء من الأمس معناه أنها أكثر خللاً، وإذا كان اليوم أفضل من الأمس والمستقبل أفضل من الحاضر فهذا هو المرحوم الذي ينال الفوز والفلاح، ولكن هذا كله لايكون دون ركوب للوسائل والأسباب، فإن الإنسان يطير بهمته وعقله وعمله، ولايمكن أن يتحقق نجاح في الحياة من دون ذلك.

---

(١) سورة الرعد: الآية ١١.

(٢) التحفة السنية: ص١٤٥؛ أعيان الشيعة: ج١، ص٣٠٣.

(٣) البحار: ج٧٥، ص٣٢٧، ح٥؛ درر الأخبار: ص٥٥٢.

التعليم الثالث: احذر من ركوب الموج

نستفيد من سفينة نوح أن الركوب قسمان: ركوب إيجابي ممدوح بل ضروري وواجب وهو الركوب الذي يقود أهله إلى التوفيق والنجاح، وهو صفة المؤمنين، وإليه يشير قول أمير المؤمنين عليه السلام: «ببلوغ الآمال يهون ركوب الأهوال»[1] وركوب سلبي مذموم يفعله الانتهازيون والمصلحيون في مختلف شؤون الحياة، وقد عرف التعبير عنه بركوب الموج، وهؤلاء هم الذين يريدون أن يحصلوا على النتائج الجيدة ويكسبوا المنافع دون تعب ودون تهيئة المقدمات، والمؤمن يأخذ بالأول كما فعل أصحاب نوح عليه السلام دون الثاني، والذي يحظى بالعاقبة الطيبة والنجاح الحقيقي هو الأول، وأما الراكبون السلبيون فهم قد يستفيدون مرة لكنهم يسقطون مرات ويفشلون، ولذا لايتسم بهذه السمة إلّا الكاذبون، والكاذب سرعان ما ينكشف كذبه.

(١) عيون الحكم والمواعظ: ص١٨٩؛ تصنيف غرر الحكم: ص٣١٤، ح ٧٢٩٧.

وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلاَ صَرِيخَ
لَهُمْ وَلاَ هُمْ يُنقَذُونَ

يس/ ٤٣

وهي تتمة للمعنى الوارد في الآيات السابقة، وفيها مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآية

وهي عديدة نستعرضها على التوالي:

المفردة الأولى: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾

الواو عاطفة على قوله: ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾[1] والمحمول على الماء في خطر عظيم لا سيما في الطوفان الذي أهاجه الباري لإهلاك قوم نوح، فإنه لانجاة منه إلّا بالذي صنع الطوفان، وبعينه صنعت السفينة، وبإرادته جرت؛ لأن جميع القوى والقدرات تعجز أمام قدرته وإرادته، وهو الله سبحانه.

فإنه هو الذي أهلك الكافرين المعاندين ونجّى المؤمنين، المؤمنون أيضاً هم في خطر الطوفان لايملكون قدرة على تخليص أنفسهم وإن ركبوا السفينة إلّا أن يشاء الله سبحانه نجاتهم، فالهلاك والنجاة بيده سبحانه، كما أن الإحياء والإماتة بيده.

وبهذا التوجيه يلفت الباري أنظار البشر لكيلا يركنوا إلى مايملكون ويستقوون به من وسائل وأدوات، فإن السفينة هي أداة الركوب على البحر ولكنها هي مجرد أداة، ولو داهمها الموج العظيم أغرقها أو كسرها فحطمها.

---

(١) سورة يس: الآية ٤١.

ولو صنع البشر الطائرة وحلَّق بها في الأجواء العالية وقطع المسافات الطويلة لا ينبغي أن يثق بوسيلته، فإن عطلاً بسيطاً في الطائرة يمكن أن يسقطها، وربما طائر بسيط يعترض الطائرة ويسبب لها خللاً، وربما يصاب الطيار بشيء يوقعه في خطأ عظيم يسقطها، والذي بيده النجاة حقيقة هو الله سبحانه إن شاء أن يهلكهم أهلكهم وهم في ذروة علومهم وتطورهم وتقنيتهم، كما أن الطوفان والزلازل والبراكين في هذه الأزمنة لا تقوى عليها كل قدرات الدول وأسلحتها ووسائلها العلمية والتقنية فخطأ يثق الإنسان بقدراته؛ لأن كل شيء بيد الله سبحانه، وما على الإنسان إلّا توفير المقدمات ويعد العدة، وأما الأثر الحقيقي للنجاة والسلامة فهو بيد الله.

لذا قال سبحانه: ﴿**وَإِن نَّشَأْ**﴾ بواو العطف وإن الشرطية وفعل المشيئة فاعله ضمير الجمع المقدر هو نحن أي وإن نشأ نغرقهم وهم في السفن أغرقناهم، ولا تمنعنا منهم سفينة ولاشيء آخر، فنحن الذين حملناهم، ونحن الذين نغرقهم إن شئنا، ونحن الذين ننجيهم، صيغة المضارع في نغرقهم دليل على أن المقصود ليس الماضين فقط، بل جميع الناس في كل زمان ومكان.

ويتحصل منه أمور:

الأول: أن العاقل الفطن ينظر إلى الأسباب والعلل ولا يكتفي بالنظر إلى المسببات.

الثاني: أن العلل الطبيعية ليست أسباباً، بل هي معدات، وأن العلة الحقيقية في الأشياء هو الله سبحانه، فالسفينة ليست هي علة النجاة، وليست علة الحركة والسباحة، بل الله سبحانه، وكذلك في حركة

الأرض وخيراتها والحيوانات المركوبة وغيرها كلها معدات، والفاعل الحقيقي الذي بيده أزّمة الأمور طراً هو الله وهذا تأكيد قول بعض أهل المعقول في أن سلسلة العلل لابد وأن تنتهي إلى علة حقيقية حياتها وقدرتها من ذاتها وان كل ماسواه هو علة معدة. كما يؤكد قولهم بأن لا مؤثر في الوجود إلّا الله سبحانه.

الثالث: أن العلوم الحديثة والصناعات والتقنيات ليست إلّا عللاً معدة لا عللاً حقيقية، فليست الطائرة علة النجاة، ولا الطبيب علة الشفاء، ولا أجهزته، فلو لم يشأ الله الشفاء والنجاة يخيّب كل الوسائل والأدوات، وهذا ما يشير إليه قول الشاعر:

إن الطبيب له في الطب معرفة ... مادام في أجل الإنسان تأخير
حتى إذا ما مضت أيام مدته ... حار الطبيب وخانته العقاقير[1]

والأجل والأمد بيد الله. إذا جاء أجل الإنسان لا يستأخر ساعة ولا يستقدم ولو كان في أرقى المستشفيات، ولو أراد الله سبحانه أن تغرق أعظم ما تملكه الدول من سفن تغرق ولا تنجو، وحتى الحكومات والدول كذلك، فلو شاء الله أن يسقط ملكاً أو رئيساً أسقطه ولو ملك جيوش الدنيا، وهنا ينبغي ان يتعلم الإنسان ويدرك معنى التوكل والاستعانة بالله وحده، ويلجأ إليه في كل حاجة.

---

(١) عوالي اللآلئ: ج١، ص٢٨٨، الهامش؛ فيض القدير: ج٢، ص٣٢٥، وفيه:
إن الطبيب لذو عقل ومعرفة ... ما دام في أجل الإنسان تأخير
حتى إذا ما انقضت أيام مدته ... حار الطبيب وخانته العقاقير

المفردة الثانية: ﴿فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ﴾

الصريخ فعيل بمعنى فاعل وهو المغيث، ويطلق عليه صريخ لأنه يُستنجَد بالصراخ إليه، وهو يجيب أولاً بالصراخ لهم لكي يطمئن المستنجدِ به بأنه يلبيه ويأتي لنجاته، والجملة بلسان نفي الجنس، فتدل على انعدام الصريخ الذي يستغيثون به حتى ينجيهم، فيكون مثلهم مثل من يصرخ في صحراء لا يسمعه فيها أحد.

والنكته اللطيفة أنه قال: ﴿لَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ ولم يقل: (لا صراخ لهم) لأن الصراخ وحده لا يتضمن الاستغاثة، بخلاف الصريخ، كما أن الصريخ يشمل استغاثتهم وسعي الغير لإنقاذهم، وهذا يقال له صريخ وليس بصراخ، وورد بهذا اللسان لإشعار الناس بالوحشة والوحدانية التي تصيبهم إذا وقعوا في مثل هذه الحالات؛ إذ لايجدون أحداً يقدر على نجاتهم، وحتى لو وجدوا فإنه يعجز عن نجاتهم، وهناك تنقطع عقولهم وتتوجه فطرهم إلى المنقذ الحقيقي وهو الله سبحانه، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[1] لأن في هذا الحال تعيا كل قدراتهم ووسائلهم فلا يملكون إلّا الدعاء والالتجاء إلى الله سبحانه.

وفي آية أخرى يحذِّر الباري الناس من أن يأمنوا أويركنوا إلى الطبيعة وأسبابها، أو العلوم وقدراتها، وأن الركون إليها كمن يركن إلى الجبل الذي ركن إليه ابن نوح وتوهم أنه ينقذه لكنه صار سبب عذابه وهلاكه. يقول

---

(١) سورة لقمان: الآية ٣٢.

تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً ۝ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً﴾(١).

والآية بلسان الاستفهام الاستنكاري، والمعنى لاتؤمنوا لكل هذه المعدات التي في نظركم تكون أسباباً لنجاتكم في سفر البر أو الجو أو البحر، فإن اهل البر يركنون إلى استقرار الأرض وانبساطها، وإلى قوة وسائطهم فيطمئنون في سفرهم بالنجاة، وكذا المسافرون في الجو وفي البحر، ولكن الحقيقة تقول: إنّ كلها ليست مورد اطمئنان؛ لأن الأرض قد تنخسف بأهلها وتبلعهم، وبها يقذفون - وهم في الجو - بحاصب يسقطهم، أي يمطرهم بالحجارة، وفي البحر قد يواجهون ريحاً تقصفهم فتغرقهم، فمن يستطيع أن ينجيهم إذا داهمتهم هذه الطوارئ مهما بلغت علومهم وقوتهم غير الله سبحانه.

إن من نعم الله سبحانه أن جعل الأسباب ومهّدها وجعلها متوزانة ومستقرة للاستثمار، ولولاه لتعذرت الحياة الآمنة المطمئنة، وهذا ما تؤكده الوقائع، فإن الكثير من الناس حينما يمرضون يراجعون الأطباء وينفقون الأموال الكثيرة لكن الطب والأطباء يعجزون عن علاجهم؛ لأن الذي بيدهم هو إعداد الدواء وتشخيص المرض وتهيئة مقدمات الشفاء، وأما أصل الشفاء فليس بأيديهم، بل بيد الله، فلذا يموت المرضى في أرقى

---

(١) سورة الإسراء: الايتان ٦٨-٦٩.

المستشفيات، ويشفى بعض المرضى في البيوت ولم يراجعوا طبيباً، ولذا تحث الآيات والروايات الشريفة في هذه الحالات على أمرين:

الأول: سلوك سبيل الأسباب من مراجعة الطبيب واستعمال الدواء.

الثاني: الدعاء والتوسل بالله سبحانه وبأوليائه لأجل الشفاء؛ لأن الله سبحانه هو العلّة الحقيقية، أما تلك فليست إلّا مقدمات، ولو سأل سائل لماذا لا تحدث الحوادث المهلكة دائماً؟ ولماذا تحدث أحياناً؟

والجواب: أن ذلك كله نعمة إلهية عظيمة على الناس أن جعل البشر والحياة ساكنة مطمئنة لا ينالهم ضرر ولاخطر، ولا يهددهم شيء، ونظَّم الكون بقوانين متوازنة لايحدث فيها خلل ولا اضطراب، وهذه بحد ذاتها من أعظم النعم، وفي أحيان يأذن بوقوع بعض الكوارث لتنبيه الناس من غفلتهم وإلفاتهم إلى وجوب الانقطاع إليه سبحانه، ولا يركنون إلى أنفسهم وعلومهم وتقنياتهم، ففي لحظة تتوقف كل العلوم والتقنيات، وهذا نوع من اللطف الإلهي لهداية الناس، وهو رحمة عظيمة أخرى، ولذا ورد أن الدعاء سلاح الأنبياء والمؤمنين(١)، وورد أنه يرد القضاء وإن أبرم إبراماً(٢)، وأنه يدرّ الرزق، وينجي من الأعداء(٣)، وعن الإمام زين العابدين عليه السلام أنه

(١) الدعوات: ص١٨، ح٥؛ الكافي: ج٢، ص٤٦٨، ح٥؛ وانظر مكارم الأخلاق: ص٢٦٨، فيما جاء في فضل الدعاء.

(٢) انظر مكارم الأخلاق: ص٢٦٨- ٢٦٩؛ الوسائل: ج٧، الباب ٧ من أبواب الدعاء، ص٣٧، ح٨٦٤٨.

(٣) مكارم الأخلاق: ص٢٦٨.

يدفع البلاء النازل والذي لم ينزل[١]، أي يرفع ويدفع، وعن الإمام الصادق عليه السلام: أن الدعاء شفاء من كل داء[٢]. نعم يجب توفر شرائط الإجابة أو عدم إيجاد موانعها، ولهذا كلام لسنا في محله.

المفردة الثالثة: ﴿وَلاَ هُمْ يُنقَذُونَ﴾

أي لو أغرقناهم لا يوجد من ينجيهم ويخلصهم منه غيرنا، ومن العطف يفهم أن الصريخ غير المنقذ، فالصريخ ربما يبكي ويتألم على وقوع الشيء دون أن يستطيع فعل شيء، كالشخص الذي لا يجيد السباحة ويرى غريقاً فإنه يصرخ ويعول تأسفاً ويعجز عن أي بادرة، وأما المنقذ يحاول أن ينقذه ويتبع الأسباب ولكنه يعجز عن الإنقاذ.

وقدم المسند إليه على المسند لإفادة العجز الكامل عن الإنقاذ دفعاً الذي عبرت عنه بالصريخ، ورفعاً الذي عبرت عنه بالإنقاذ

وهذا ماينبغي أن يلتفت إليه العباد. إن المقدَّرات الإلهية لوحلت لا يملكون لأنفسهم في قبالها نفعاً ولا ضراً، فلا يقدرون على دفعها قبل وقوعها ولا رفعها بعد وقوعها، وقال: ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ ولم يقل (ولا ينقذون) للإشارة إلى أنهم لا يجدون من ينقذهم من البشر باختياره، ولايجدون ما ينقذهم بالصدف ولو بالعلل الطبيعية غير الاختيارية، وهنا يعلِّمنا الباري حقيقة التوكل عليه، ولا نتكل على غرور العلم والقدرة والمال والعشيرة مع أنها معدات لا علل، وهذا جهل مركب يقع به البعض.

---

(١) الفصول المهمة: ج٣، ص٣٢٧، ح٣٠٤٣؛ الكافي: ج٢، ص٤٦٩، ح٥.
(٢) مكارم الأخلاق: ص٢٧١.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: أن الآية المباركة بدلالة العبارة كشفت عن عجز البشر وقواهم وعلومهم وصيغة الجمع في قوله: ﴿**لا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ**﴾[1] تفيد أن أهل الأرض لو اجتمعوا واتحدوا وجمعوا علماءهم ووسائلهم وأدواتهم لأجل إنقاذ من أراد الله سبحانه إهلاكه لكانوا عاجزين، وبدلالة الإشارة كشفت عن أن الإحياء والإماتة بيده سبحانه، فلو شاء أن يمنع من الغرق منع، ولو شاء أن يغرق أغرق.

اللطيفة الثانية: ما جرى على الآباء يجري على الأبناء

إن الآية المباركة تتحدث عن سفينة نوح وإنقاذ المؤمنين بها، فهي إخبارية عمّا مضى ولكن المخاطب هم قوم النبي صلى الله عليه وآله، وضمير المخاطب في قوله: ﴿**نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ**﴾ يفيد أنهم الناجون، وأنه سبحانه لو أراد أن يغرقهم أغرقهم، وجعلها منّة عليهم، وذلك للإشارة إلى أمرين:

---

(١) سورة يس: الآية ٤٣.

الأول: أن المخاطبين في الآية ومن وقعت عليهم الواقعة هم أنفسهم سوى أنها وقعت على آبائهم مباشرة ووقعت عليهم بالواسطة؛ لأنهم كانوا في أصلاب آبائهم، وهذا شاهد على أن ذرية بني آدم تتصل في الأصلاب منذ أول الخليقة إلى نهايتها؛ لذا مايجري على الآباء يجري على الأبناء وتصح النسبة.

الثاني: لأجل تعليم الناس في المستقبل بأن ما مضى على الآباء ممكن أن يجري على الذراري في المستقبل؛ لأن القانون واحد، والحاكم واحد، والغاية واحدة، فما حكم سفينة نوح يحكم السفن والطائرات والسيارات في هذا الزمان، والكوارث التي واجهت السابقين وأهلكت من أهلكت ونجا منها من نجا هي موجودة في هذه الأزمنة وفي جميع الأمكنة، والغاية هي تعليم الناس وهدايتهم إلى الحق تعالى ليعبدوا إلهاً واحداً مخلصين له الدين، وألا يثقوا بما عندهم ويعبدوا شهواتهم وقدراتهم.

اللطيفة الثالثة: علاج الأمراض الروحية

إن فعل الشرط ﴿وَإِن نَّشَأْ﴾(١) يدل على أن الحياة والإماتة بيده سبحانه، سواء الحياة الظاهرية التي تحققت في السفينة، أم الحياة الباطنية، فإن حياة القلوب والأرواح والضمائر ونجاتها من الهلكة هي أيضاً بيده. في الآيات السابقة هدى الناس إلى حقيقة نجاة البشر في الفلك المشحون وهي سابحة في الموج العارم، ونجاة البشر في الأرض وهي سابحة في الفضاء،

---

(١) سورة يس: الآية ٤٣.

ومن كان المنجي في هذه الحركة الدائبة المضطربة وقدر على توفير الأمن والاستقرار في النفوس وأوجد التوازن في الأشياء لكيلا تضطرب وتغرق فهو قادر على حمل الأرواح في الأجساد، وينجيها من بحر الدنيا، وبهذا يهدي المضطربة نفوسهم والذين يشعرون بالقلق الدائم والوسوسة وأمثالها من اضطرابات نفسية تموج في دواخلهم أن يلجؤوا إلى الله سبحانه، ويطلبوا منه الدواء بالدعاء، فإن الأطباء يعجزون عن معالجة هذه الأمراض وما لديهم سوى المهدئات وهي لا تعالج.

المبحث الثالث في تعاليم الآية

نستفيد من الآية المباركة أربعة تعاليم هامة:

التعليم الأول: كيف تنجو من الفتن؟

إن الناس يمرون في حياتهم الدنيا بأمواج متنوعة ومختلفة بعضها تصنعها السياسة، وبعضها يصنعها المجتمع بجهل أو سوء عادة، وبعضها سوء تصرف البعض، وبعضها فتن فكرية وفرق ضالة تغرق الشباب بضلالتها، وتقودهم إلى هلاكهم، وبعضها حروب ودماء، وبعضها أزمات اقتصادية تغرقهم في الفقر والحاجة، وبعضها فتن اجتماعية ونزاعات تغرقهم في الخلافات، وربما تصل إلى حد التحارب.

لا ينجو الناس في الدنيا من فتن، وكل فتنة تغرق أهلها، فعلى الإنسان أن يفكر ويلتجئ إلى المنجي من هذه الفتنة، ولايمكن أن يعتمد على علمه؛ لأن العلم أحياناً يكون فتنة ومورد افتتان، ولا يمكن أن يلتجئ إلى أسرته وعشيرته؛ لأنهما أحياناً يوقعانه في الفتنة، ولا يمكن أن يلتجئ إلى ماله؛ لأنه هو الآخر سبب لافتتانه، والملجأ الوحيد الذي ينجيه من الغرق هو الله سبحانه، فهو الذي ينجيه ببدنه من بحار الموت والغرق المادي، وهو الذي ينجيه من الموت والغرق المعنوي، والالتجاء إليه يكون:

أولاً: بتقوية الإيمان إن كان ضعيفاً، وتصحيح العقيدة إن كانت ناقصة أو مغلوطة، فبعض الناس مؤمن صالح لكن عقيدته ناقصة تحتاج إلى تصحيح أو تقوية.

ثانياً: الطاعه لله سبحانه وترك طاعة الهوى والشيطان، فإن عبّاد الهوى والشيطان يغرقون في بحورها. الشيطان له سلطان عليهم. أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليس له سلطان عليهم.

ثالثاً: الدعاء المتواصل في النجاة من الفتن.

رابعاً: الوعي والفهم لكي يدرك الإنسان ماهي الفتن؟ وماهي أسبابها ومظاهرها؟ فإن العاقل العارف لايغرق في بحر الفتن، وهذا ماتشير إليه الروايات بوصف المؤمن بأنه كيِّس فطن، فالذي يسلك الأسباب ويلجأ إلى الدعاء يفلح في خطواته، ويصل إلى مبتغياته.

التعليم الثاني: على الإنسان أن يفكر في الازمات والمشاكل التي يواجهها ويصنفها إلى قسمين:

مشاكل وأزمات قابلة للحل فعليه أن يلجأ إلى أسباب الحل، ويستعين بالله سبحانه بدعائه لحلها، فإنه ينجو منها، ومشاكل وأزمات غير قابلة للحل، وليس حلها بيده فيعالجها بأمرين: الصبر والدعاء. فالصابرون في البأساء والشدات هم المنتصرون على المشاكل، والملتجئون إلى الله سبحانه إما يستجيب الباري لهم دعاءهم ويرد عنهم القضاء وقد أبرم إبراماً كما ورد في الأخبار[1]، أو يهوِّن عليهم وطأة الصعوبات ويجعلها سهلة ميسورة.

---

(١) الكافي: ج٢، ص٤٦٩، ح١؛ الدعائم: ج٢، ص١٣٦، ح٤٧٧.

التعليم الثالث: السيادة عند الله سبحانه لا الغرب والشرق

على للحكومات والدول والمجتمعات المؤمنة بالله واليوم الآخر أن تلجأ إلى الله سبحانه لكسب سيادتها وكرامتها وقوتها، ولا تثق بالغرب أو الشرق وتلجأ إليهم لإنقاذها من ورطاتها، فإن المشاكل والأزمات في بلاد المسلمين والفتن الكثيرة التي تغرق بها البلدان منشؤها ثلاثة عوامل:

الأول: تخلي المسلمين عن شريعتهم وربما عن عقيدتهم واتخاذهم شرائع البشر منهجاً لهم في الحكم والإدارة.

الثاني: الظلم والاستبداد الحاكم في بلادهم.

الثالث: الركون إلى الغرب والشرق والتبعية لهم في كل شيء، وهؤلاء هم أنفسهم غارقون في بحار متلاطمة من الأزمات وغير قادرين على توفير السعادة لأهلهم وخلقوا الفتن ليعتاشوا عليها فكيف يوفرونها لغيرهم؟ بل إن أكثر مشاكل المسلمين مستوردة من الغرب والشرق، والذي يخطط ويعمل بأساليب مغلفة ومقنَّعة لأجل ضرب المسلمين ببعضهم ونهب خيراتهم وثرواتهم كيف يكون عامل نجاة يخلصهم من الغرق؟

لا نجاة للمجتمع المسلم من الغرق والتخلص من الأزمات إلّا بالانقلاب على الذات أولاً وبالرجوع إلى شريعة الله التي تهديه للتي هي أقوم، وتصلح فكره وقلبه وسلوكه، والتخلص من الاستبداد و قمع الطاقات بأساليب مزيفة وعناوين كاذبة، واللجوء إلى الله سبحانه في الاستمداد والقوة، فهو الوحيد القادر على إنقاذهم ونجاتهم من الغرق.

التعليم الرابع: تعلِّمنا الآية أن القضية الشرطية تبنى إثباتاً على ثبوت النتيجة، ونفياً على نفيها، فقالت: ﴿إِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾(١) وحيث إنهم لم يغرقوا فمعناه أنه سبحانه لم يشأ ذلك، ولو شاء لكانوا معدومين.

(١) سورة يس: الآية ٤٣.

إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعاً

إِلَى حِينٍ

يس/ ٤٤

وهي تتمة للمعنى في الآية السابقة، ووردت بصيغة الاستثناء بعد النفي؛ فقد نفى في الآية السابقة أن يكون لهم صريخ أو منقذ، فتدل على أن الجميع غرقى وهلكى إلّا جماعة منهم أنقذهم ربهم لسببين: هما الرحمة والتمتع إلى حين، ومعرفة معنى ذلك وأسراره يقع في مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآية

وهي أربعة:

المفردة الأولى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً﴾

إلَّا أداة استثناء يراد بها التأكيد هنا، والرحمة الميل والعطف والرقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وهي من الله سبحانه إنعام وإفضال، ومن الآدميين رقة وتعطف مصحوب بالخير والنعمة لتجرده سبحانه عن الحوادث والانفعالات النفسية.

والرحمة سبب واصل بين الله وبين عباده بها خلقهم، وأرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وبها هداهم، وبها رزقهم وعافاهم، وقد وردت في القرآن في أكثر من عشرين معنى كلها تتضمن جمال الله سبحانه وجلاله في الخلق والإيجاد[1].

ففي عموم قدرته واستيلائه على عرش الوجود قال سبحانه: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[2] ووصف الرحمن مختص به سبحانه، ولأن الأشياء

(١) بصائر ذوي التمييز: ج٣، ص٥٥.

(٢) سورة طه: الآية٥.

توجد بالرحمة. قال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[١] أي كل الحقائق والموجودات حادثة وحاصلة بالرحمة، ومغمورة بالرحمة الإلهية، فسلطان الوجود وموجده وربه رحمن، وأشرف أنبيائه وأكمل خلقه والشخص الأول في عالم الإمكان هو النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وصفه سبحانه بالرحمة، ولخّص غاية بعثته بذلك فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[٢] وأعظم آية على الخلق أنزلها تبارك وتعإلى من عنده لتعليم الخلق وهدايتهم وشفاء قلوبهم ونفوسهم هي القرآن وقد وصفه بالرحمة، فقال سبحانه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣].

والنكتة اللطيفة هنا أنه خصص الشفاء والرحمة بالمؤمنين للإشارة إلى أن الذي ينال الشفاء والرحمة هو من آمن بالقرآن، ورجع إليه بقصد الاستشفاء والتعلم، وأما الذين يهجرون القرآن أو يرجعون إليه وهم به شاكون أو غير مؤمنين فلا يزدادون إلّا بعداً وخسارة، ولذا قال بعد ذلك: ﴿وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً﴾[٤] ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾[٥].

ورحمة الله قريب من المحسنين في جمع الشؤون والحاجات، فقال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٦] والمراد من المحسن أعم مما يكون حسن

---

(١) سورة الأعراف: الآية١٥٦.

(٢) سورة الأنبياء: الآية١٠٧.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٨٢.

(٤) سورة الإسراء: الآية ٨٢.

(٥) سورة فاطر: الآية ٣٩.

(٦) سورة الأعراف: الآية ٥٦.

النية أو حسن العمل، فإن الإحسان تلازمه الرحمة، ولذا يكون النجاح حليف المحسنين إذا دعوا استجيب لهم، وإذا فعلوا توفقوا، وإذا تعرضوا للأذى والضر نجوا.

ونلاحظ أن الرحمة هي أصل الوجود ومحيطة بكل شؤونه وأبعاده، وإليها تعود الخيرات والبركات الإلهية؛ لأنه قال سبحانه: ﴿**كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ**﴾[1] والكتابة الإيجاب على ذاته العليّة المباركة، وتعديها بعلى يفيد تأكيد الإيجاب، وهو من الوعد الذي لا يتخلف؛ فالرحمة تلازم وجود المخلوقات وجوداً وبقاءً وفي جميع الحالات والأحوال؛ لذا وسعت كل شيء.

وفي هذه الآية المباركة يؤكد هذه الرحمة؛ إذ علل سبب إنقاذ الناس من الهلكة سواء كانوا سابحين في الفضاء عبر الأرض أو في الماء عبر الفلك المشحون أو في الصحراء عبر ما يركبون، فإنهم لايقذفون أو يغرقون أو تسيخ بهم الأرض بسبب الرحمة الإلهية المحيطة بهم.

المفردة الثانية: ﴿مِّنَّا﴾

قال تعالى: ﴿**إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا**﴾[2] ولم يقل إلّا رحمة ومتاعاً للإشارة إلى أمرين:

الأول: أن رحمة الإنقاذ منه سبحانه لا من غيره، فلا ينبغي أن يغفل الإنسان أو يكابر ويتصور بعد النجاة بأن عقله الذي نجّاه أو قدرته أو الصدف. كلا فإن النجاة والإنقاذ به سبحانه .

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٥٤.

(٢) سورة يس: الآية ٤٤.

الثاني: للإشارة إلى أن رحمة واحدة من رحمات الله سبحانه أنقذهم بها وليس بمطلق الرحمة كما تفيدها تاء الوحدة والتنكير في رحمة، فإن الرحمات الإلهية كثيرة، ولو أطلق الرحمة لوجب أن يكون البشر خالدين في الحياة، ورزقهم في أعلى الدرجات، وعافيتهم وسلامتهم، ولعاش حياة الجنة لا أذى فيها ولا ضر ولا عناء ولا فقر ولا مرض؛ لأن الرحمة الإلهية المطلقة هكذا تقتضي، وحينئذ تبطل سنَّة الاختبار والامتحان في الدنيا، وأما الرحمة الواحدة منه فتفيد رحمة خاصة بها يتحقق الغرض، وهو الإنقاذ، وهنا تتجلى عظمة التعبير القرآني ودقته.

المفردة الثالثة: ﴿وَمَتَاعًا﴾

وهو الانتفاع في مدة من الوقت للحاجة، وربما يقترن بالالتزام(١)، ويحاكي منطوق الآية قوله تعالى في آية أخرى: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**﴾(٢) تنبيهاً أن لكل إنسان في الدنيا مدة يستقر بها على الأرض ويتمتع فيها ويرحل عنها(٣)، ومنه سمِّي كل ما ينتفع به ويرغب في اقتنائه كالطعام وأثاث البيت والسلطة والمال بالمتاع(٤)، وبهذا يتضح وجه العطف على الرحمة في قوله تعالى: ﴿**إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا**﴾(٥) وهو من باب

---

(١) معجم مقاييس اللغة: ص٩٣٧، (متع)؛ مجمع البحرين: ج٤، ص٣٩٠، (متع).
(٢) سورة البقرة: الآية ٣٦.
(٣) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٧٥٧، (متع).
(٤) المعجم الوسيط: ج٢، ص٨٥٢، (متع).
(٥) سورة يس: الآية ٤٤.

عطف الخاص على العام باعتبار أن الرحمة تتضمن المتاع المعنوي والمادي، وأما المتاع فهو يختص بالمنافع واللذات المادية، وخصَّصه بالذكر لأن طبيعة البشر تميل إلى اللذات المادية؛ لأنهم يدركونها أكثر، وأما اللذات المعنوية ففي الغالب يدركها الخواص، وهومن عطف المباين على المباين.

والرحمة صفة الخالق، ومقتضيات جماله وجلاله أن يرحم وينقذ، والمتاع صفة المخلوق، ومقتضيات حاجته ونقصه أنه يحتاج إلى متاع ينتفع به، وسيأتي في اللطائف والتعاليم مزيد توضيح له.

المفردة الرابعة: ﴿إِلَى حِينٍ﴾

أي وقت بلوغ الشيء وحصوله[(١)]، وهو مبهم يتخصص بالمضاف إليه، كقول القائل: (أطعمك حين تصل) وربما تطول مدته أو تقصر، ولذا عرَّفه بعض أهل اللغة بأنه وقت من الدهر مبهم طال أو قصر[(٢)]، وفيه ورد قوله تعالى: **﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإنسان حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَذْكُوراً﴾**[(٣)] وقيل المراد بالإنسان آدم عليه السلام وقبله لم يكن مذكوراً، وقيل هنا عام يراد به كل إنسان قبل الولادة لم يكن شيئاً مذكوراً، ولا مانع من الجمع، والإطلاق يحتمل ذلك، والمراد في الآية المباركة **﴿وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾** أي إلى أن تفنى آجالهم[(٤)].

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢٦٧، (حين).

(٢) مجمع البحرين: ج٦، ص٢٤٠، (حين)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٢١٢،(حان).

(٣) سورة الإنسان: الآية ١.

(٤) مجمع البحرين: ج٦، ص٢٤٠، (حين).

والمقصود هو الذين أنقذهم الباري عزّ وجل، فإنه أنقذهم ومتعهم في الدنيا حتى تنقضي آجالهم، وفيه إشارة إلى أن رزق الإنسان مكفول في حياته الدنيوية إلى زمان موته، أو عموم الخلق الذين أبقاهم الباري عزّ وجل بعد نوح، فإنه يبقيهم في آجالهم إلى حين الوقت المعلوم وهو القيامة، وكلاهما تام وصحيح، والإطلاق يتحمله.

والفائدة من ذكر ﴿إِلَى حِينٍ﴾ مع أنه من الواضحات لأن الخلق لا اقتضاء له للبقاء في نفسه، وإنما لابد لهم من موت وفناء فهو لبيان انتهاء مدّة الأجل؛ لأنه لو أطلق القول فقال: (إلّا رحمة ومتاعاً) ولم يذكر إلى حين لفهم منه البقاء الدائم في الحياة الدنيا، والخلق وإن كان في نفسه لا يملك اقتضاء البقاء في نفسه إلّا أنه بإرادة الله يمكن أن يكون من الخالدين، فذكر الباري عزّ وجل بأننا نبقيهم ولكن لا نخلدهم بل نبقيهم يتمتعون إلى حين وأجل، ثم يرحلون من الدنيا هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فسيبقيهم خالدين.

ويتحصل من مجموع المفردات: أن الباري عزّ وجل أنقذ الخلق من الغرق والموت لغايتين هما الرحمة بهم وإمتاعهم إلى أجل، ولوسأل سائل لماذا؟

فالجواب لوجود غاية وحكمة نستعرضها في اللطائف والتعاليم.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

تضمنت الآية المباركة ثلاث لطائف دلت عليها بدلالة الإشارة:

اللطيفة الأولى: العقوبة بين الرحمة والرأفة

إن الآية خصصت الرحمة بالذكر وجعلتها السبب الأهم للإنقاذ ولم تذكر مايقاربها في المعنى كالرأفة والنعمة مع أن الإنقاذ من الهلكة هو نعمة عظيمة وفيه رأفة أيضاً، والسبب أن الرحمة أخص من النعمة لأنّها تعني الإنعام على المحتاج عن عطف ومحبة، بينما النعمة قد لا تقترن بذلك لذا تقال النعمة على ما لا شعور له ولا عطف، فيقال نعمة الصحة ونعمة الإيمان ولايقال له رحمة، وربما يعطي الإنسان مالاً أوطعاماً لشخص إكراماً وتعظيماً له وليس عن رحمة[1].

والآية بهذا التعبير تشير إلى العباد بأمرين:

أحدهما: أنّهم محبوبون لله سبحانه ولذا أنقذهم ليجذبهم إلى حبه، ولوتمت علاقة المحبة بين طرفين حصل القرب والخلوص والطاعة.

---

(١) انظر معجم الفروق اللغوية: ص٢٥٣، (٩٩٢).

ثانيهما: أنهم يستحقون هذا الحب لأنهم مؤمنون، ولو كانوا كافرين لا يستحقون الرحمة، ولذا أهلكهم، وبهذا إرشاد أيضاً في أن الله سبحانه يحب عباده لصفاتهم الطيبة، ويبغضهم لصفاتهم السيئة، وأما من حيث الخلق والإيجاد فكلهم مخلوقون وعباد له وهم سواء، إلّا أن إيمانهم وتقواهم تقربهم وتجعلهم في فيض الرحمة الإلهية.

وأما الرأفة فهي أشد من الرحمة وأعم؛ لأن الرأفة عبارة عن إيصال النعم إلى العبد صافية عن الألم، ولذا تشمل اللذات ودفع الآلام، وفي تطبيق بعض العقوبات الشرعية كعقوبة الزنا أمر الباري أن لا تأخذ المنفذون بهم العقاب رأفة ولا رحمة، فقال سبحانه: ﴿**وَلاَ تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ**﴾[1] لأن الرأفة تستدعي دفع الآلام، وهذا لايتناسب مع العقاب، وجعل المخاطب ضمير الجمع لكي يكون الأمر حالة اجتماعية عامة، فإن المجتمع فيه من يرأف قلبه ويعطف وربما يلين ولا يؤاخذ الجاني بجنايته، وهذا من أسباب نشر الفساد والرذيلة في العقاب والقضاء.

وفي بعض الأخبار من أمن العقاب أساء الأدب، وليس هذا فقط بل من استسهل العقاب أساء الأدب، فيجب أن يكون العقاب مناسباً للجناية لا أقل منها حتى يستسهلها المجرمون ولا أكثر من استحقاقها فيكون ظلماً.

لذا جعل الباري عزّ وجل معادلة في عقوبة الزنا وهي عدم الأخذ بالرأفة، أي عدم المعاقبة أو المعاقبة بلا ألم، وهي إما أن تحكم الرذيلة وتهتك

---

(١) سورة النور: الآية٢.

الأعراض ولا يبقى نظافة أسرية واجتماعية بذريعة السهولة والليونة وغير ذلك من شعارات ينخدع بها البعض، أو يكون دين الله هو الحاكم، ولو حكم دين الله في المجتمع معناه أن كل إنسان يصل إلى حقه، وأن العدالة هي التي تحكم، والظلم والجور ينمحي، ولايبقى لقوي سلطة على ضعيف، لذا قال: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ﴾[1].

وبهذا يتضح السر في قوله: ﴿رَحْمَةً﴾ وليس (رأفة) لأن الرأفة أشد من الرحمة، وقيل الرحمة أكثر من الرأفة، والرأفة أقوى منها في الكيفية، لأنها عبارة عن إيصال النعم صافية عن الألم، والرحمة إيصال النعم مطلقاً. وقد يكون مع الكراهة والألم للمصلحة كقطع العضو المجذوم[2] وإجراء العملية الجراحية لمريض رحمة به، وهناك نوع من الموت في بعض الدول يعبرون عنه بالموت الرحيم مع أنه مصحوب بالألم، وحيث إن الآية المباركة تتحدث عن عالم الدنيا وهو لايفارق الآلام والمشاكل فلايناسب التعبير فيه بالرأفة؛ لأن لازمه خلو العيش من الألم وهو مايخالف الواقع، ولا يحقق غرض الدنيا.

---

(١) سورة النور: الآية٢.

(٢) انظر معجم الفروق اللغوية: ص ٢٤٦، (٩٧١).

اللطيفة الثانية: العيش والحياة

في قوله تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا﴾[١] عبرت الآية بالمتاع دون غيره من المفردات المقاربة كالمعيشة بأن تقول (إلّا رحمة ومعيشة إلى حين) أو النفع أو اللذة وغيرها من المفردات التي قد تناسب الرحمة، والجواب: لأن المتاع معناه الانتفاع للحاجة إليه، وربما يقترن بالالتذاذ وهو أنسب بغرض الدنيا وفلسفة وجودها، فإن وجود الإنسان في الدنيا ناشئ من حاجة إليها وهي ارتقاؤه وتكامله، وهذه أهم حاجة، والارتقاء يستدعي وجود منافع ولذات وآلام، وأما اللذات فقط فهي للحياة الأخرى، والمجموع يقال له متاع ولا يقال له معيشة لسببين:

الأول: لأن العيش يطلق على مطلق الحياة وليس بالضرورة تلازم النفع والانتفاع، وكم من أمرئ عاش وكانت حياته هدراً لم يستثمرها ولم يتعلم بها.

وثانياً: لأن العيش يختص بالحياة الحيوانية التي فيها لذات مادية وليست هي الحياة الحقيقية؛ لذا الحياة يشترك فيها الباري والملك والعقل والروح[٢]، فالباري حي ولكن لايصح إطلاق العيش عليه؛ لأن العيش يختص بالحياة المادية الحيوانية، كما لايقال للعقل والروح عائشان بل حيّان، ونلاحظ دقة التعبير في الآية إذ قرنت المتاع بالرحمة لبيان أن النعم الواصلة إلى الناس في الدنيا فيها لذات وآلام، وكلتاهما حاجة يتقوَّم بها وجود البشر وكماله كما سنوضحة في التعاليم.

---

(١) سورة يس: الآية ٤٤.

(٢) انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٩٦، (عيش).

اللطيفة الثالثة: لماذا أبهم الأجل؟

الحين في قوله: ﴿إِلَى حِينٍ﴾[١] بيان الوقت ولكنه مبهم، فربما يطول وربما يقصر، ولماذا لم يذكر الباري عزّ وجل مدة معلومة؟

والجواب: لأن هذا البقاء إمهال منه سبحانه للبشر لأجل اختبارهم فيه، ولو علم الإنسان المدة أخل بغرض الامتحان وركن إلى التسويف ولا يصلح نفسه، وهذا أمر مشهور معروف، فالإبهام يجعل الإنسان دائماً بين الخوف والرجاء. الخوف من معاجلة الموت له ولم يعمل شيئاً لآخرته، والرجاء في البقاء، وبهذين العنصرين دائماً يعيش الإنسان في عمل وصلاح وإصلاح، ولو عيّن له المدة لأخذه التسويف وقصر عن حياة الآخرة، وهذا أحد أسرار إخفاء بعض الحقائق في القرآن.

---

(١) سورة يس: الآية ٤٤.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

تضمنت الآية جملة من التعاليم الفلسفية والاجتماعية والتربوية نستعرضها على التوالي:

التعليم الأول: بالرحمة قامت الأشياء فكن رحيماً

قوله تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾[1] استثناء من قاعدة عامة وهي أن العصيان والكفر يؤديان بأهلهما إلى الهلاك، وحيث إن الحياة البشرية لا تنفك عنهما فإن الكل يستحق الهلاك لكن الله سبحانه لم يهلك الكل، بل أنقذ جماعة منهم لسببين:

الأول: الرحمة.

والثاني: المتاع إلى حين، أي الإبقاء في عالم الدنيا إلى وقت ربما يقصر أو يطول، والهلاك قسمان: هلاك الذات وهلاك الفعل، والمراد بالأول أن الذات في نفسها هالكة أي معدومة لاوجود لها من نفسها، وهذا مايعبّر عنه أهل الحكمة بالعدم قبل الوجود، فإن كل مخلوق هو ممكن الوجود أي لاوجود له من نفسه وإنما وجوده من الله سبحانه، ولولا الله سبحانه غارق

---

(١) سورة يس: الآية ٤٤.

في العدم، وليس بشيء، فهو سبحانه ينقذه من هذا الغرق بالوجود فيوجده ويعطيه الحياة والعلم والقدرة، ويسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة.

والمراد بالثاني الهلاك الذي يعرض الموجود بسبب فعله فيفنيه بعد وجوده؛ لأنه سبحانه بعد أن أوجده وأنعم عليه بمختلف النعم استحق من العبد الشكر، ويتحقق بالطاعة والعبادة، فإذا كابر وعاند وجحد ووقع في الظلم الذي هو الجامع المشترك بين الكفر والعصيان استحق الحرمان من هذه النعم والإغراق في الفناء والهلاك، لكن الباري عزّ وجل أنقذ العباد من الهلاكين ولم يهلكهم، لماذا؟

الجواب: لأنه رحيم، ومعنى رحيم أنه يحب عباده وينعم عليهم بنعمه وإفضاله، ومن رحمته أنه يمتعهم ويدعهم ينتفعون في حياتهم إلى حين، وبهذا تجيب الآية المباركة عن سؤالين قديمين حديثين عن سر الخلق والوجود.

لماذا خلق الإنسان؟

السؤال الأول: لماذا خلق الباري الإنسان؟

والسؤال الثاني: لماذا أوجد الباري الحياة الدنيا؟ ومادام أنه خلق الإنسان للرحمة فلماذا لا يوجده في عالم الآخرة وينعمه فيها ولاحاجة إلى عالم الدنيا.

ويعلل الباري عزوجل خلق الإنسان بالرحمة، فإن الرحيم ذاتيه الرحمة، وهي تليق بمقامه وربوبيته، فبالرحمة يوجد الأشياء، ويؤكد هذه الحقيقة

قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۞ إِلَّا مَن رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ﴾(١) أي لو شاء أن يجمعهم تكوينياً في مجتمع واحد وحياة واحدة وعقيدة ومنهج واحد فهو قادر على ذلك؛ لأنه قادر على كل شيء لكنه لم يشأ ذلك؛ لأن طبيعة البشر الاختلاف والتنوع، وبهذا الاختلاف تتحقق غاية وجودهم في الدنيا، ولولاه لبطلت الحاجة إلى عالم الدنيا.

والآية أشارت إلى أن الاختلاف دائم مستمر بينهم ﴿وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾(٢) أي في طبائعهم ومناهجهم ومصالحهم.

ولو قال قائل لماذا لم يوحدهم ويمنعهم من الاختلاف؟

الجواب: أن ذلك ممتنع؛ لأن المراد إن كان التوحيد التكويني كان ذلك جبراً وهو يبطل غرض الإيجاد والخلق، وإن كان المراد يوحدهم تشريعاً فقد أمرهم الباري عزّ وجل بذلك وترك الاختيار إليهم، لكنهم لا يزالو مختلفين بسبب اختلاف الغايات والمصالح وتفاوت المستويات إلّا فئة منهم يتوحدون اتباعاً منهم لشريعة الله سبحانه وأوليائه، وهم المؤمنون المسلمون، وقد أشار إليهم قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَحِمَ رَبُّكَ﴾(٣) ثم يقول: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾(٤) واللام للغاية.

---

(١) سورة هود: الآيتان ١١٨ – ١١٩.

(٢) سورة هود: الآية ١١٨.

(٣) سورة هود: الآية ١١٩.

(٤) سورة هود: الآية ١١٩.

ومعنى الآية أنه سبحانه خلقهم لغايتين هما: الرحمة والاختلاف، وهو الابتلاء والاختبار، والغاية الأولى تجيب عن السؤال الأول وهو أنه خلقهم لرحمته بهم، وهذا فضل عظيم منه، ولا يقال لماذا رحمهم؛ لأن الرحمة خير وهي كمال، والكمال يستحق الوجود. هذا لو قلنا إن مرجع الضمير واسم الإشارة إلى أقرب المراجع، وإلّا أمكن القول بأن الاستثناء بالرحمة تختص بأناس هم مظهر رحمته وجماله وجلاله، فإنهم واحد لا يختلفون في شيء، نورهم وحقيقتهم واحدة، هم محمد وآل محمد عليهم السلام، فتكون الآية في مقام بيان الغاية من جعلهم في الدنيا هو الاختلاف ما يفيده قوله: ﴿**لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً**﴾[1] أي في الدنيا، وبهذه الغاية نجيب عن السؤال الثاني، أي أنه سبحانه أوجد عالم الدنيا وأنزل الإنسان فيها لأجل الابتلاء والاختبار؛ لأجل ماذا؟ لأجل أن يرتقي الإنسان ويتعلم ويرفع من مستواه العقلي والنفسي ليليق بعالم الآخرة، وحيث إن هذا الارتقاء متعذر الوجود لولا أن يمر الناس باختبار وامتحان يتميز فيه الصالح من الطالح، ويحظى الصالح بجزاء عمله والطالح بجزاء عمله، فيكون التفاوت في الحياة الأخرى عادلاً. كان لابد من متاع إلى حين أي فرصة للتمتع والانتفاع إلى حين.

إن قلت: إلى حين يتصور أن يكون إلى حين الأجل، وهو واضح المعنى، ولكن لو قيل إن المراد إلى حين القيامة فإن الإنسان الميت كيف يتمتع إلى حين القيامة؟

---

(١) سورة هود: الآية ١١٨.

فالجواب: يتمتع بطريقين.

أحدهما: أن يخلِّد أعمالاً صالحة تدر عليه بالمنافع والبركات إلى يوم القيامة كالصدقات الجارية من قبيل العلم الذي يتركه ينتفع به الناس، أو المدارس والمساجد، أو يترك الذرية الطيبة على مر الأجيال فإنها تنفعه، وإلى هذا تشير الروايات التي نصت على أن ابن آدم إذا مات انقطع عمله إلّا من ثلاث هي: الصدقة الجارية، والعلم الذي ينتفع منه، والولد الصالح الذي يدعوله[1].

وثانيهما: أن ينتفع بأعمال أولاده وأحفاده ومن كان سبباً في وجودهم الجسدي، أو من كان سبباً في وجود هم الروحي كالتلاميذ والناس الذين يربيهم ويعلمهم، فإن التمتع أطول من عمر الإنسان الزمني إذا خلق الإنسان مايدر عليه بالنفع.

ومن ذلك نعرف أن الباري عزوجل أنقذ الإنسان من هلكة العدم؛ لأنه يحبه، وبرحمته به أوجده، وبهذه الرحمة ينقذه من هلكة الغرق فأبقاه وأحياه؛ لأنه رحيم، ورحمته صفة ذاته المباركة، وأعطاه فرصته لأجل أن يمتعه في عالم الدنيا لكي ينتفع ويرتقي ويكتمل فيليق بحياة الآخرة بالاختبار، ومنه نعرف أن الاختلاف أيضاً رحمة. أوضح ذلك بمثالين:

المثال الأول: حياتنا اليومية فإنها تتقوم بالاختلاف في القابليات والمستويات والحاجات والوظائف، فلو خلقنا الباري عزوجل جميعاً

---

(١) عوالي اللآلئ: ج١، ص٩٧، ح١٠؛ منية المريد: ص١٠٣.

عباقرة نابغين في كل مناحي الحياة، فخلقنا جميعاً علماء أو شعراء أو حكماء وهو في قدرة الله أن يجعلنا كذلك لكنه لم يجعلنا لأنه خلاف الحكمة، وخلاف الرحمة؛ إذ كيف ستقوم الحياة لوكان جميع الناس أطباء فمن يزرع؟ ومن يخبز؟ ومن يصنع؟ ومن يعلم؟ ومن يربي؟ إذاً لابد من الاختلاف وهو من الرحمة الإلهية؛ إذ جعل تبارك وتعإلى مواهب البشر وقدراتهم ومستوياتهم مختلفة ليرتبطوا مع بعضهم ارتباط تعاون وتكامل وضرورات لا ارتباط تفضل واستعلاء، وعن هذا يقول تعالى: ﴿**أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً**﴾[1] وهذا الرفع والتسخير لأجل التكامل لا التفاضل.

وهنا يعلِّمنا الباري إلغاء الطبقية والفوقية والاستعلاء في العلاقات الاجتماعية، فإن التصنيف الاجتماعي بتقسيم المجتمع إلى الغني والفقير والمريض والصاحي والعالم والجاهل ليس فيه أفضلية لأحد على أحد من هذه الجهة.

فإن الواقع والأدلة العقلية والنقلية تشهد بان كل إنسان يتمتع بأمرين:

١- أن له نوعاً من النبوغ والذكاء في مجاله الخاص، فالفلاح مبدع في مجاله، كما أن الطبيب مبدع في طبه؛ لذا لا يستطع الطبيب أن يقوم بدور الفلاح، ولو قام به فشل وبالعكس، وهذه القضية جلية أكثر في البيوت،

---

(١) سورة الزخرف: الآية٣٢.

فلو قام الرجل بدور المرأة فشل وأفشل وبالعكس، فكل فرد من أفراد المجتمع يتمتع بنبوغ خاص في مجاله المناسب.

٢- أن كل فرد من أفراد المجتمع من جهة عمله ووظيفته له فضل على غيره، فالخباز له فضل على الطبيب والعامل والمهندس والرئيس والوزير والمدير؛ لأنه لولاه لما أكلوا ولاشبعوا، والطبيب له فضل على الخباز وغيره لأنه لولاه لما شفوا، وهكذا كل فرد من أفراد المجتمع من موقعه الاجتماعي له فضل على غيره، وبمجموعة الأفراد وفضلهم ونبوغهم تقوم الحياة الاجتماعية وتستمر وتتكامل، ولولا ذلك لانهدمت، وقد ترى صاحب القصر الفخم يرجو عامل البناء لأجل ترميم بيته، ويترجاه لأجل أن يعطيه من وقته وجهده لقضاء حاجته، ويترجى صاحب الورشة لتصليح سيارته وهكذا.

فالحياة الاجتماعية يقومها التكامل والتعاون لا التفاضل والامتيازات؛ لذا جعل الباري عز وجل معيار التفاضل بالمعنويات وهي التقوى؛ لأن التقوى تعود إلى البشر أنفسهم، ولا علاقة لها بقسمة المعيشة، فلا ينبغي أن يكون للإنسان نظرة استعلائية على الآخرين، فإذا نظر إلى من هو دونه اغتر وشعر بالتفوق؛ لأن هذا الذي هو دونه أفضل منه وأكثر نبوغاً من جهة أخرى، فلابد وأن يقصر نظره على مدى تقواه وحسن طاعته وأخلاقه وأما المعايير المادية فليست معياراً.

الإبتلاءات رحمة

المثال الثاني: أن الابتلاءات والأمراض والآلام هي الأخرى رحمة؛ لأن بين الآلام ومضاداتها علاقة تكامل وتعريف، فإننا بالألم نعرف حلاوة اللذة، وبالمرض نعرف حلاوة الصحة، وبالتعب نعرف حلاوة الراحة، وبالفقدان نعرف حلاوة الاجتماع، بل ولولا الألم لم يشعر المريض بمرضه، ولم يذهب إلى الطبيب ليعالجة ويشفيه، فهو في نفس الوقت الذي يؤذي الإنسان إلّا أنه يتضمن الرحمة به.

وحتى في الأذواق والأمزجة فإن الاختلاف رحمة، وهو في محصلته تكامل وارتقاء، ومثال ذلك اختلاف الجالسين على المائدة فيما يحبون من الطعام، فربما نجد أن أحدهم يفضل صدر الدجاجة والآخر يفضل فخذها وآخر ظهرها، ولو اتفقوا جميعاً على مزاج واحد وكلهم أحبوا الصدر دون غيره لحصل التعاند والتضاد في الصدر، وهدر باقي الدجاجة بلا فائدة، ولكن بالاختلاف يحصل التكامل والارتقاء وهو عين الرحمة، ولذا قال سبحانه: ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۞ إِلَّا مَن رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ**﴾[1] فإن الاستثناء هنا يدل على تخصيص جماعة يتفقون على نهج واحد وهما صنفان: المعصومون فهم نور واحد، والتابعون لهم الذين يختلفون في الأذواق والأمزجة ولايختلفون في المنهج والأعمال، فكلمتهم سواء لاتنازع بينهم ولا تضاد؛ لأنهم ينعمون بالرحمة

(١) سورة هود: الآيتان ١١٨-١١٩.

الإلهية التي تجمعهم وتوحدهم، بخلاف أهل الدنيا فإنهم يختلفون في أشياء كثيرة وربما لا يتفقون على شيء.

والنكتة اللطيفة أنه قال: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي لهذه الغاية أي غاية الاختلاف، ومعلوم أن هذا الاختلاف نوعان إيجابي أي التكامل وسلبي أي التنازع والإحتراب، والمقصود هو الأول لا الثاني بل الثاني، منهما محرم مبغوض ويقود أهله إلى النار.

ومن ذلك يتضح أن قوله سبحانه: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا﴾[1] يعلم الناس أن أصل وجودهم تم بالرحمة الإلهية فتستحق الشكر، وأن اختلافهم في الدنيا هو بالرحمة أيضاً؛ لأنهم لا يكتملون ولا يرتقون إلّا بعالم الدنيا الذي فيه يختبرون ويتعلمون ويتهذبون حتى يليقوا بعالم الآخرة العالم الذي لا ألم فيه ولاظلم، بل وحتى بقاؤهم في الدنيا إلى حين هو الآخر رحمة؛ لأنهم لو بقوا مدة طويلة ملّو الحياة، وأتعبتهم مشاكلها، ولو طالت أعمارهم لتعذرت المعيشة داخل البيت الواحد. لو تصورت أن في البيت تعيش الأجداد والآباء والأبناء والأحفاد لامتلأت الأرض بالعجزة والمسنين والمرضى والمعوقين والمشلولين نساءً ورجالاً وكباراً وصغاراً. ترى هل يمكن أن تعاش هكذا حياة؟ كلا، فالموت رحمة، والمرض رحمة، والفقدان رحمة، وكل مايحصل في عالم الدنيا من الحوادث هي متاع إلى حين، ولولا الحين لتعذرت المعيشة ومل البشر الحياة، وانتقض الغرض من وجوده على

---

(١) سورة يس: الآية ٤٤.

الأرض، وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[١] أي كل شيء سواء كان عند الإنسان خيراً أو كان شراً. كل مايصيب الإنسان من الحوادث التي تأتيه من الله سبحانه لا من عمله وفعله فإنها رحمة به تنفعه ولاتضره، وتنقذه من الهلكة ولاتغرقه.

الغايات الطولية للخلق

وهنا ربما يخطر في بعض الأذهان سؤال، وهو أن في القرآن آية أخرى ذكرت غاية الخلق ولخصتها بالعبادة؛ إذ قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٢] والإثبات بعد النفي يفيد الحصر وهي غير الرحمة والاختبار؟

والجواب من وجهين:

الوجه الأول: أن بين الآيات تسلسلاً طولياً في الغايات، وهذه الآية نصت على أن غاية الخلق العبادة، وأما الآية السابقة فنصت على أن غاية الجعل الاختلاف والرحمة، والآية التي نبحث فيها نصت على أن غاية الإنقاذ الرحمة والمتاع، ولا تنافي بينها؛ لأن غاية الخلق تشمل جميع العوالم قبل الدنيا وبعدها، وأما الجعل فيتعلق بالدنيا، أي في الدنيا جعلهم مختلفين؛ لأن الدنيا دار الاختبار، كما أنه أنقذهم من الهلاك في الدنيا لأجل إمتاعهم

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٥٦.

(٢) سورة الذاريات: الآية٥٦.

حتى يكتملوا، وأما العالم الكوني فدار العبادة، وبهذا يتضح أن الغايات ثلاث طولياً:

الأولى: العبادة، وهي أم الغايات التي لأجلها خلق الباري الإنس والجن وأبقاهما وفي جميع العوالم.

الثانية: الاختلاف، وهي أم الغايات التي لأجلها جعل الإنسان على الأرض في عالم الدنيا.

والثالثة: البقاء حياً متمتعاً في دنياه لأجل أن يرتقي ويكتمل، والجامع المشترك الذي يسري في جميع الغايات هو الرحمة الإلهية، ولولاها لم يكن خلق ولا اختبار ولا إمتاع، ولو اختلفت الحيثيات ارتفع التعارض.

الوجه الثاني: أن العبادة يراد بها المعنى العام الشامل لكل تصرف يبديه الإنسان في طاعة الله كالعبادات الخاصة، أو يكون مواكباً لغاياته وسننه، وهذه الغاية لاتنفك عن الصبر في الابتلاء، والقناعة بالرزق، والتعاون على الخير بين الناس، وإسداء النصح للمسلمين، وإبداء الكلمة الطيبة، والرحمة بالكبير، والعطف على الصغير، والأكل والشرب والعمل وكل مايفعله الإنسان في حياته هو عبادة لله إذا سخره لغاياته، وجعله في سبيله سبحانه، والعبادة بهذا المعنى نوع من المتاع ينتفع بها الإنسان ويرتقي ويتطور، وهي الأخرى مصداق عظيم من مصاديق الرحمة.

فالعبادة رحمة إلهية؛ لأن بها يكتمل العباد ويرتقون ويتشبهون بخالقهم فيليقون بنعمه، وإنما عبّر بها العبادة لتعليم الجن والإنس أن يقصدوا الخير والمحبة والطاعة في أعمالهم فلا يغتروا ولايتعالوا بقواهم وطاقاتهم.

ويتلخص من مجموع ما تقدم: أن العالم له سببان: سبب فاعلي هو الذي أوجده وهو إرادة الله سبحانه، وسبب غائي هو الرحمة الإلهية، أي لأنه رحيم أوجده وبالرحمة خلقه، ووجوده في عالم الدنيا واختلاف الأنواع والأذواق والآراء يعود إلى الرحمة، كما أن توقيت وجود الناس في الدنيا هدفه الرحمة؛ لذا قال: ﴿**إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعاً إِلى حِينٍ**﴾[(١)].

ومن هذا نستفيد تعاليم كثيرة:

الأول: نعرف فلسفة وجودنا في عالم الوجود ثم في عالم الدنيا

الثاني: نعرف فلسفة الابتلاء والاختبار الذي نمرّ به في حياتنا اليومية لنكون صابرين شاكرين.

الثالث: نعرف أن الرحمة هي أساس وجودنا، فلابد وأن نتعامل مع بعضنا بالرحمة، ولذا تضافرت النصوص (ارحم ترحم)[(٢)] (وببذل الرحمة تستنزل الرحمة)[(٣)] فإن الذي وجد بالرحمة ويتقلب بالرحمة الإلهية في كل حين لاينبغي أن يكون قاسياً جامداً جاحداً في أخلاقه وأفكاره، بل لابد وأن يكون عطوفاً رحيماً يتعامل بالرحمة مع جميع الخلق ويتراحم معهم.

وبهذا تكون حياته مطابقة لسنَّة الباري عزّ وجل، ويكون سعيداً فالحاً في حياته الدنيا والآخرة.

---

(١) سورة يس: الآية ٤٤.

(٢) الأمالي (للصدوق): ص٢٧٨، ٣٠٨؛ روضة الواعظين: ص٣٧٠؛ مستدرك الوسائل: ج٩، الباب ١٠٧ من أبواب أحكام العشرة، ص٥٥، ح١٠١٨٥.

(٣) عيون الحكم والمواعظ: ص١٨٩.

التعليم الثاني: النظريات الباطلة في فهم القرآن

تقدم الكلام في التعليم الأول الذي به أجابت الآية عن سؤالين هامين قديمين وجديدين:

ماهو هدف الخلق؟ وماهو هدف خلق الإنسان في الأرض؟ وهذا ماتضافرت به الروايات، وقبل تفصيل ذلك يجب تقديم مقدمتين:

المقدمة الأولى: أن العقل والنقل متضافران على وجوب تطابق القرآن والسنة وعدم الاختلاف بينهما، فكل مضامين القرآن الكريم وردت في السنة الشريفة بنحو التفصيل، ومتى مالوحظ تعارض بين القرآن والسنة بأن خالفت السنة القرآن دلّ ذلك على أنها ليست بسنة، بل هو تقوّل على النبيصلى الله عليه وآله وأهل بيته، وقول منسوب إليهم، وقد نبه النبيصلى الله عليه وآله في حديث اتفق المسلمون على تواتره لفظاً، -ومن النادر ان نجد حديثاً متواتراً لفظاً يتفق عليه المسلمون، وأغلب ما تواتر إما متواتر بطريق طائفة غير متواتر عند أخرى، أو هو متواتر عند الكل ولكن تواتره معنوي، إلّا أن هذا الحديث اتفق الكل على تواتره لفظاً- وهو قولهصلى الله عليه وآله: ﴿قد كثرت عليَّ الكذابة وستكثر بعدي، فمن كذب عليَّ متعمداً فليتبوّأ معقده من النار﴾[1] فإن هذا الحديث قطعي الصدور عن النبيصلى الله عليه وآله، ومحكم الدلالة، ودال على أمور ثلاثة:

---

(١) الاحتجاج: ج٢، ص٢٤٦؛ وانظر الصراط المستقيم: ج٣، ص١٥٦؛ البحار: ج٥٠، ص٨٠، ح٦.

الأول: أن الكذب على النبي واختلاق الأقوال ونسبتها إليه كان رائجاً في زمانهﷺ وهو حي لم يرحل بعد، وصيغة المبالغة في كذّابة يدل على كثرة الكذابين، وهذا لايتحقق إلّا إذا كان هناك جماعة متحزبة متفقة على هذا الدور، وذلك لا يكون إلّا لتحقيق غايات هي إبطال الدين وتضليل الناس عنه، والثانية لأجل التظاهر بالعلم والفضيلة لأجل كسب الشهرة وتحصيل الرئاسة.

الثاني: أن هذا الكذب استمر بعد رحيلهﷺ وبصورة أشد؛ لذا قال ﴿وستكثر﴾ وهو إخبار عن المستقبل، ومعنى ذلك أن في كل زمان سيكون هناك من يكذب على النبي ويقول الأقاويل وينسبها إليه لتحقيق ذات الغايات.

الثالث: أن مصير الكذب على رسول اللهﷺ هو حتمية الوقوع في النار، وقوله: ﴿فمن كذب﴾ يمكن أن تقرأ بالتشديد فتدل على كثرة الكذب، وربما تقرأ بالتخفيف فتدل على أن الكذبة الواحدة كافية لتبوء صاحبها النار، والظاهر الثاني وهو ماتقتضيه مناسبة الحكم والموضوع، وعلى فرض الشك فإن الكذبة الواحدة تكون كثيرة إذا سرت في الأجيال وصارت سنة فتناسب التشديد، وهنا يجب أن يلتفت أهل الفضل والمعرفة إلى ضرورة الجمع بين القرآن والسنة لدى الاستماع إلى الأقاويل والآراء، ولا يثقوا بكل ما يقال، فإن الكذابة كانوا ولازالوا يكذبون على رسول اللهﷺ، ولذا لا يجوز أخذ العلم والحكمة إلّا من العلماء الربانيين الذين تفقهوا في علوم آل محمدعليهم السلام، وعُرفوا بذلك.

وبهذا تتضح ضابطة أخرى لأهل التحقيق والدراية أن معرفة صحة صدور الخبر يمكن أن تدرك من موافقتها لمضمون القرآن، كما أن عدم صحتها يدرك من مخالفتها له.

المقدمة الثانية: أن علاقة السنة مع القرآن هي علاقة الشرح والتبيين بلغة العبارة وهو التفسير، أو بلغة الإشارة ونحوها وهو التأويل، فلا يمكن أن يُفهم القرآن في معانيه إلّا بالرجوع إلى السنة، ولذا تواتر في الأخبار أن القرآن تشرحه السنة وتفصل مجملاته وليس العكس، وهو ما يقضي به العقل؛ لأن شرح القرآن للسنة يستلزم لغوية السنة، ولغوية السنة محال؛ لاستلزامه تكذيب القرآن لنفسه.

وبيان ذلك: أن القرآن نص في آيات عديدة على أن السنة وحي لا يداخله هوى ولا شيطان ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**﴾(١) فالسنة وحي كما أن القرآن وحي، فهما من مصدر واحد متفقان في الحقيقة مختلفان بالمظهر والأسلوب.

وقال تعالى: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**﴾(٢) وعليه فلو ورد القرآن والسنة وجب أن تؤخذ السنة شارحة للقرآن؛ لأنها متأخرة عنه رتبة وزماناً لا أقل في التطبيق وليس العكس، ولايمكن أن يؤخذ بالسنة في المعنى المطابق لإجمال القرآن دون الأخذ بتفصيلها وشرحها له؛ لأنه لغو وإسقاط للقرآن.

---

(١) سورة النجم: الآيتان ٣- ٤.

(٢) سورة الحشر: الآية ٧.

فلابد وأن تكون السنة هي الشارحة والمبيّنة للقرآن، وهذا ماتواتر مضمونه في الآيات والروايات، ودل عليه البرهان العقلي.

وبهذا تبطل أربع نظريات هي:

دعوى الاكتفاء بالقرآن والاستغناء عن السنة كما قال بعضهم حسبنا كتاب الله[١] ودعوى الاكتفاء بفهم القرآن وتفسيره بالقرآن التي قد تفهم من طريقة بعض المفسرين، ودعوى التفسير الموضوعي للقرآن؛ لاقتصار هذه الطريقة على مجموع الآيات دون الرجوع إلى الروايات، ودعوى الاكتفاء بالسنّة وحدها وإلغاء حجية القرآن التي ذهب إليها البعض.

والشاهد على بطلان كل ذلك حديث الثقلين المتواتر بطرق الفريقين الذي نص على أن الأمة تهتدي لو تمسكت بالقرآن والعترة[٢]، وعلى بعض روايات العامة السنة واهتداؤها يكون مستمراً إلى يوم القيامة، وبمقتضى مفهوم الشرط أن الاكتفاء بأحدهما دون الآخر يساوق الضلالة، ويعزز ذلك الروايات الكثيرة.

ففي الكافي بسندة عن أبي الحسن الأول عليه السلام في حديث قال فيه: «إن الله يقول في كتابه: ﴿**وَلَوْ أَنَّ قُرآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ**

---

(١) الأمالي (للمفيد): ص٣٦، ح٣؛ مناقب آل أبي طالب: ج١، ص٢٠٢.

(٢) انظر الإمامة والتبصرة: ص١٣٥، ح١٥٠؛ كمال الدين: ص٢٤٠، ح٦٢؛ البحار: ج٢٣، ص١٣٦، ح٧٧؛ كنز العمال: ج١، ص١٨٥، ح٩٤٣؛ تفسير الثعلبي: ج٣، ص١٦٣.

أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾[١] وقد ورثنا نحن هذا القرآن الذي فيه ماتسير به الجبال وتقطع به البلدان، وتحيا به الموتى، ونحن نعرف الماء تحت الهواء، وأن في كتاب الله لآيات مايراد بها أمر إلّا أن يأذن الله به مع ما قد يأذن الله مما كتبه الماضون جعله الله لنا في أم الكتاب إن الله يقول: ﴿**وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾[٢] ثم قال: ﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا**﴾[٣] فنحن الذين اصطفانا الله عزّ وجل وأورثنا هذا الذي فيه تبيان كل شيء»[٤].

العلوم التي لا يعرفها إلّا الإمام عليه السلام

ونلاحظ أن القرآن يتضمن علوماً وأسراراً كونية عظيمة لايعرفها علماء الفيزياء والكيمياء وغيرهم، وهي أربعة:

الأول: علم تسيير الجبال، وتسيير الجبال نقلها من مكان إلى مكان، ولو نلاحظ كم تبذل من جهود لأجل حفر الجبال أو شقها لتكوين الطرق والأنفاق، أو استخراج المعادن منها، مع أن للجبال قانوناً يمكن تسييرها بواسطته، وهذا القانون مودع في القرآن ولكن لايعرفه أحد إلّا الإمام عليه السلام.

الثاني: تقطيع أراضي البلدان، وهذا يشمل نوعين من التقطيع:

---

(١) سورة الرعد: الآية٣١.

(٢) سورة النمل: الآية٧٥.

(٣) سورة فاطر: الآية٣٢.

(٤) الكافي: ج١، ص٢٢٦، ح٧.

أحدهما: التقطيع الجغرافي بأن يقطع الأرض إلى سهلية وجبلية وبرية وبحرية ويجعلها في المكان المناسب، فيمكن تبديل الأرض الصحراوية إلى خصبة سهلية بنقل الصحراوية إلى مناطق الأمطار والسهلية إلى مناطق أخرى وهكذا.

ثانيهما: التقطيع في حركة السير والسفر باختراق المسافات الطويلة ببعض الآيات من القرآن، وهذا علم عظيم أودعه الباري في الآيات لا يعرفه الناس، وهو مخزون عند الإمام عليه السلام.

الثالث: تكليم الموتى، إما بإحيائهم فيتكلمون، أو يكلمهم وهم أموات، وهذا سر أعظم وأعجب مدخر في القرآن لايعرفه إلّا الإمام.

الرابع: علوم الغيب وأسرار الوجود.

هذه كلها في القرآن لأنه مظهر علم الله وغيبه، ولكن القرآن يصرح بأن هذا لايعرفه إلّا المصطفون من عباد الله وهم آل محمد عليهم السلام.

وبهذه الحقائق والأسرار كيف يمكن لأحد أن يدعي أنه يفهم القرآن أو يفسره دون الاستعانة بالروايات.

وفي رواية أخرى عن جابر قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: ﴿ما أدعى أحد من الناس أنه جمع القرآن كله كما أنزل إلّا كذاب، وما جمعه وحفظه كما أنزله الله تعالى إلّا علي بن أبي طالب والأئمة من بعده عليهم السلام ﴾[(١)] وقوله: ﴿جمع القرآن كله﴾ يشمل جمع سوره وآياته ومعانيه وأسراره.

---

(١) ـ الكافي: ج١، ص٢٢٨، ح١.

وفي رواية ثالثة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ﴿قال أبي: ما ضرب رجل القرآن بعضه ببعض إلّا كفر﴾[١].

وعن الصدوق في معنى الحديث قال هو أن يجيب الرجل في تفسير آية بتفسير آية أخرى[٢]، وهو يشمل تفسير القرآن بالقرآن والتفسير الموضوعي دون الاستعانة بالروايات.

والكفر يحتمل أربعة معان:

الأول: كفر العقيدة، وهو الذي يُنزل القرآن عن مستواه العالي، ويتصور أنه قادر على فهمه ودركه، وهو تكذيب لله سبحانه والرسول والأئمة عليهم السلام.

الثاني: كفر العمل؛ لأن تفسير القرآن بهذا النحو يكون من التفسير بالرأي، وهو عمل بالظن يتضمن التقول على الله، وكلاهما محرمان.

الثالث: كفر النتيجة، أي الوقوع في الخطأ وعدم إصابة الواقع، فإن الكفر هو الستر.

الرابع: هو كفران النعمة وجحودها؛ لأن النبي والعترة من أعظم النعم الإلهية التي يجب الرجوع إليهم، وتحصيل العلم منهم نعمة أخرى، وفهم القرآن بواسطتهم نعمة ثالثة، فمن أعرض عنهم واكتفى في تفسير القرآن بالقرآن أو برأيه يكون جحد كل هذه النعم.

والخلاصة: أن الروايات الورادة في هذا المعنى كثيرة جداً تفوق حد التواتر.

---

(١) ـ الكافي: ج٢، ص٦٣٢، ح١٧؛ ص٦٣٣، ح٢٥؛ ثواب الأعمال: ص٢٨٠.

(٢) ـ معاني الأخبار: ص١٩٠، ح١.

إذا اتضح ذلك نقول: تؤكد الروايات ما أشارت إليه الآية من جعل الرحمة والابتلاء غايتي الخلق والحياة في الدنيا، وهذا المضمون تؤكده الروايات.

فعن الامام الصادق عليه السلام: «إن الله تبارك وتعالى لم يخلق خلقه عبثاً، ولم يتركهم سدىً، بل خلقهم لإظهار قدرته، وليكلفهم طاعته فيستوجبوا بذلك رضوانه، وما خلقهم ليجلب منهم منفعة، ولا ليدفع بهم مضرة، بل خلقهم لينفعهم ويوصلهم إلى نعيم الأبد»(١) وهذا ما أشارت إليه الآية بالرحمة والمتاع.

وفي رواية أخرى في معنى قوله تعالى: ﴿**وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۞ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ**﴾(٢) قال: «خلقهم ليفعلوا ما يستوجبون به رحمته فيرحمهم»(٣) ويستوجبون رحمته بالطاعة، فالغايات التكوينية متسلسلة في الإيجاد.

التعليم الثالث: أن الحياة الدنيا لاتنفك عن البلاء والابتلاء، ولا يخلو بشر من ذلك إلّا أن الابتلاء للمؤمن رحمة ولغير المؤمن نقمة، فلا ينبغي أن يجزع المؤمن أو ييأس.

وهذا ما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام: «إن البلاء للظالم أدب، وللمؤمن امتحان، وللأنبياء درجة وللأولياء كرامة»(٤) وبهذا يتضح أن كل الناس

---

(١) علل الشرائع: ج١، ص٩، ح٢؛ البحار: ج٥، ص٣١٣، ح٢.
(٢) سورة هود: الآيتان: ١١٨-١١٩.
(٣) علل الشرائع: ج١، ص١٣، ح١٠؛ البحار: ج٥، ص٣١٤، ح٥.
(٤) مستدرك الوسائل: ج٢، الباب ٦٥ من أبواب الدفن، ص٤٣٨، ح٢٤٠٠؛ البحار: ج٦٤، ص٢٣٥، ح٥٤.

حتى أولياء الله يبتلون في الدنيا ولكن الفرق في الآثار والنتائج، فبلاء الظالم عقوبة وتأديب، وبلاء المؤمن امتحان لتعلو درجاته ويرتقي في مقاماته.

ويعززه قول الصادق عليه السلام: «إنّه ليكون للعبد منزلة عند الله فما ينالها إلّا بإحدى خصلتين: إما بذهاب ماله، أو ببلية في جسده»[١] ويمكن أن يتخذ العبد البلاء عبادة يثاب عليها ويؤجر، ويكفى أذاه إذا قال: (لاحول ولاقوة إلّا بالله العلي العظيم) كما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام[٢].

التعليم الرابع: لا بلاء مستمر ولا نعيم مستمر

إن الابتلاء والمتاع كلاهما إلى حين، فلا يوجد بلاء مستمر ولا نعيم مستمر. كل شيء له حد يزول بعده وينقضي، فلا ينبغي للإنسان أن يثق بدوام النعمة، ولا ييأس بطول البلاء، بل هو متقلب بينهما، ولا يوجد إنسان في هذه الدنيا نعيمه دائم، ولا بلاؤه دائم، وهو في الحالتين مبتلى، فينبغي أن يكون في الضيق صابراً، وفي الفرج شاكراً، وهذا وعد تكويني وتشريعي من الله سبحانه لعباده، وهو لا يخلف وعده. قال سبحانه ﴿**وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ**﴾[٣] وعلى هذا الأساس يجب أن يعرف الإنسان ثلاث حقائق لا بد منها:

---

(١) الكافي: ج٢، ص٢٥٧، ح٢٣؛ الوسائل: ج٣، الباب ٧٧ من أبواب الدفن، ص٢٦٢، ح٣٥٨٧.

(٢) تحف العقول: ص١٧٤؛ مستدرك الوسائل: ج٥، الباب ٢٠ من أبواب الذكر، ص٣١٣، ح٥٩٥٨؛ البحار: ج٧٤، ص٢٧٠، ح١.

(٣) سورة يس: الآية ٤٤.

الأولى: أن رزقه مكفول ومتاعه مضمون إلى حين أجله، وكل انسان لا يرحل من الدنيا الإوينال آخر رزقه، فلا داعي للحرص، ولا لليأس، ولا للطمع، ولا للحسد، وهذا ما يشير إليه أمير المؤمنينعليه السلام: ﴿لكل ذي رمق قوت﴾[١] ﴿وإن الخلق عيال الله ضمن أرزاقهم، وقدّر أقواتهم﴾[٢].

وفي الحديث النبوي الشريف: ﴿إلا وأنَّ الروح الأمين نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحمل أحدكم استبطاء شيء من الرزق أن يطلبه بغير حله، فإنه لا يدرك ماعند الله إلّا بطاعته﴾[٣].

الثانية: أن اللذات والآلام في الدنيا لها مهلة وأجل، فلا ينبغي أن ييأس الإنسان على ما فاته، ولا يفرح بما آتاه، بل عليه الصبر، وهذه صفة عباد الله، وأن عباد الله صابرون، وإلى هذا تشير بعض الأخبار: ﴿أنكم لا تدركون ما تحبون إلّا بصبركم على ما تكرهون﴾[٤].

الثالثة: أن تقلبات الأحوال على بني آدم هدفها تربيته وتهذيبه وتكميله لعالم أرقى وأعظم ينبغي ان يناله بكفاءة ولياقة؛ لأن الآخرة درجات، والدرجات بالعمل والصبر على الطاعات واجتناب المعاصي.

---

(١) تحف العقول: ص٩٨؛ البحار: ج٧٤، ص٢٨٧.

(٢) انظر نهج البلاغة: ج١، ص١٦٠، الخطبة ٩١، وفيها: ﴿هو المنان بفوائد النعم، وعوائد المزيد والقسم، عياله الخلق وضمن أرزاقهم، وقدر أقواتهم﴾.

(٣) الكافي: ج٢، ص٧٤، ح٢.

(٤) مستدرك الوسائل: ج٢، الباب ٦٤ من أبواب الدفن، ص٤٢٥، ح٢٣٦٠؛ مسكن الفؤاد : ص٤٨.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ
أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ
لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ

يس/ ٤٥

تشابه أهل مكة وقوم نوح

الآية المباركة معطوفة على سابقاتها، فبعد أن استعرض حال قوم نوح وبيان الناجين والمغرقين وبيان سبب هلاك المغرقين ونجاة الناجين أخذ في الاستنتاج، وأشار إلى حقيقة تخص أهل مكة وقوم النبي صلى الله عليه وآله الذي يحاورهم ببيان قصة نوح لهم، وبيان عاقبة أمرهم، والاستنتاج يتضمن حقيقتين:

الأولى: الإشارة إلى وجود جهة مشابهة بين قوم نوح وقوم النبي المصطفى صلى الله عليه وآله، فإن هؤلاء انقسموا على قسمين قسم هالك وقسم ناج وكذلك قومه.

الثانية: بيان علّة الهلاك، وهي العنادوالمكابرة وتعاليهم على صوت العقل والحكمة بسبب العصيان والأفكار الجاهلية.

ولأن الناس يهمهم شيئان دفع الآلام وجذب المنافع أشارت إلى الهلاك أولاً في الآية السابقة ﴿**وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يُنقَذُونَ**﴾[1] فهكذا كان قوم نوح وكذلك قوم النبي صلى الله عليه وآله.

وفي هذه الآية يدعوهم إلى الحذر والتقوى لعلهم يرحمون فينالهم النفع والفائدة، والرحمة في هذه الآية مقابل الرحمة والمتاع الذي أشارت إليه الآية السابقة.

---

(١) سورة يس: الآية ٤٣.

والنكتة اللطيفة فيها أن في هذه الآية استخدم أسلوب القول والتبليغ بينما في الآيات السابقة استخدم الآيات والمعجزات التكوينيّة، وكلتاهما آية. أما المعاجز فواضح، وأما القول فلأنه يتضمن الإخبار عن الماضي الذي لم يعشه المشركون ولم يدركه أحد منهم، وفيه إخبار عن المستقبل وهو لا يصدر إلّا من عليم خبير فيستحق التصديق والاتباع لفطرية اتباع الجاهل للعالم.

وتفصيل البحث في ذلك كله يقع في مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآية

وعمدتها أربع:

المفردة الأولى: ﴿إِذَا﴾

وهي شرطية، وإنما عبرت الآية بإذا، لأن إذا تفيد التحقيق وحتمية الوقوع كما تدل على الملازمة بين القول والفعل وعدم انفكاكهما لذا يقال: (إذا دخل الوقت وجبت الصلاة) و: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ﴾[1] أي فوراً؛ لأن النفخ سبب الحشر كما هو سبب الإماتة، وهو يمثل الإرادة الإلهية التكوينية فلا ينفك عنها المراد، بخلاف الثانية فإنها تفيد الترديد والشك والانفكاك بين القول والفعل، لذا قال سبحانه: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾[2] ولم يقل إذا جاءكم لأنه يريد بيان القاعدة لدى مجيء الفاسق سواء جاء بالفعل أو سيجيء في المستقبل، كما يدل على أن التبيين ليس مشروطاً بوقت مجيئه، بل يمكن أن يكون بعد حين، وغالباً يستغرق وقتاً ثم يرتب عليه الأثر، ومثله يقال في قوله تعالى:

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ١٠١.

(٢) سورة الحجرات: الآية ٦.

﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً﴾(١) أي فرض العودة، وربما عادوا وربما لا.

وحيث إن القوم معاندون مكابرون ولم ينتفعوا بكل الآيات الكونية التي ذكرها لهم من إحياء الأرض وإنبات الزرع وجريان الماء وحركة الشمس والقمر وغير ذلك من آيات كثيرة يعيشونها بوجدانهم ولم يتأثروا بها فلا يتأثروا بالكلام والنصيحة؛ لأن العناد صار ملكة لهم ومن سجاياهم، ومن كان كذلك يستحيل أن يهتدي ويسترشد. قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ و(لم يقل إن) لأن إذا تفيد سرعة الرد بالرفض وحتمية الإعراض وعدم الاستجابة.

وفي ذلك تعليم مهم ينبه الناس على أن العناد مفتاح الأزمات والمشاكل وسر الحظوظ السيئة والفشل في الحياة والعلاقات الاجتماعية؛ لأنه يطفئ شعلة العقل، ويعمي القلب عن معرفة الصواب.

المفردة الثانية: جواب الشرط

فإن الآية المباركة لم تذكره لظهوره وقد اتفق المفسرون على أن جوابه هو قوله تعالى: ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾(٢) في الآية التي تليها، والمعنى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٣)

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٨.

(٢) سورة يس: الآية ٤٦.

(٣) سورة يس: الآية ٤٥.

أعرضوا عن ذلك ولم ينفقوا[1] ولم يستجيبوا، والسبب هو عنادهم ولجاجتهم التي اطفأت عقولهم وقلوبهم، وهو بديهي؛ لأن من لا يتعلم من الآيات الحسية والمعاجز والكرامات كيف يتعلم ويسترشد بالقول؟!. والحكمة في عدم ذكر الجواب هو أنه معروف من طبائعهم وسجاياهم، ومعرفة السبب معرفة للمسبب، أو معروف من أمثالهم وأشباههم كقوم نوح، فإن الطبع يغلب الأدب، والأشياء تعرف بالأمثال؛ لذا ينبغي على الإنسان أن يربي نفسه وهو صغير لكيلا تتجذر صفاته السيئة في نفسه وتصبح ملكات وسجايا وتقوده إلى الهلاك.

المفردة الثالثة: ﴿مَا﴾

فإن الآية أمرت باتقاء ما بين أيديهم وما خلفهم، ولم تأمرهم بتقوى الله، وهذا يستدعي معرفة ما هو الذي بين أيديهم وما خلفهم ولماذا أمرتهم أن يتبعوه؟ وقد اختلفوا في جوابه على أقوال عديدة:

الأول: مابين أيديكم العقوبات الدنيوية كالغرق الذي مرّ ذكره، وما خلفكم العقوبات الأخروية، وما موصولة أو مصدرية، والأول أظهر، والأمر بالتقوى منها لأنها سبب النجاة، ولم يرد الأمر بالتقوى إلّا في موردين:

أحدهما: عند ذكر الله سبحانه فيأتي الأمر بتقواه.

---

(١) مجمع البيان: ج٨، ص٢٧٨؛ تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٦٣؛ مقتنيات الدرر: ج٩، ص٨٧؛ تفسير الميزان: ج٢٣، ص٩٣؛ تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٤، ص٤٥١.

ثانيهما: عند ذكر الآخرة وعقوباتها وبينهما ملازمة[١].

الثاني: عكس الأول؛ إذ حمل ﴿**مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ**﴾[٢] على العقوبات الأخروية لأنها أمام الإنسان، وما خلفكم على عذاب الدنيا، وهذا القول يتوافق مع القول بتجسيم الأعمال، وأن جزاءها يحصل من حين حدوثها، وأن العباد سيرون أعمالهم سبقتهم إلى الآخرة كما يشهد له قوله تعالى: ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ**﴾[٣].

الثالث: أن ما بين أيديكم الذنوب التي ارتكبها الإنسان سابقاً، والاتقاء منها يتم بالتوبة منها، وجبران كل ضرر أنزله بالغير أو تعلق بحقوق الناس، وماخلفكم أي الذنوب التي سيرتكبها لاحقاً، وهو يتضمن الدعوة إلى الحذر والاحتياط لكيلايقع في الذنوب.

الرابع: أن ﴿**مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ**﴾ الذنوب الظاهرة التي يرتكبها العبد في العلن و: ﴿**مَا خَلْفَكُمْ**﴾ الذنوب الباطنة والخفية التي يرتكبها العبد في السر، أو هي ذنوب جانحية غير ظاهرة على الجوارح مثل: الحقد والحسد وسوء الظن والشرك والنفاق ونحوها.

الخامس: أن ﴿**مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ**﴾ عذاب الآخرة، وهو ناظر إلى المحرمات والواجبات التكليفية، واتقاءها الحذر من الوقوع فيها لكيلا

---

(١) تفسير الأمثل: ج١٤، ص١٤٧.
(٢) سورة يس: الآية ٤٥.
(٣) سورة الزلزلة: الآيتان ٧-٨.

يصاب بعقابها[١] و: ﴿مَا خَلْفَكُمْ﴾[٢] الآثار الوضعية المترتبة على الذنوب، فإن الإنسان يعاقب في مستقبل عمره بالعيش الضنك، كما قد يبتلى أولاده بما صنع، وهذا ماخلف الإنسان لأنه يخلف الدنيا وراءه[٣]، وهناك أقوال أخرى عديدة تنتهي إلى ماذكر أولا تبتني على أساس صحيح[٤].

والحق أن المعنى هو ماورد عن الصادق عليه السلام في رواية الحلبي قال: ﴿اتقوا مابين أيديكم من الذنوب وماخلفكم من العقوبة﴾[٥] وهو ما يقضي به العقل ويساعده الظهور للملازمة بين الذنب والعقوبة، ولايعقل أن يحمل ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ على عقوبات الآخرة؛ لأنه يستلزم حدوث المعلول قبل العلة، كما لايعقل أن يراد به العقوبات الدنيوية؛ إذ لا عقاب إلّا بذنب، فحمل المعنى على السبب دون المسبب خلاف موازين المنطق، فيبطل التفسيران الأول والثاني، وأما الثالث والرابع والخامس فهي خلاف إطلاق الآية، وحمل المطلق على بعض معانيه دون دليل مخالف للقاعدة.

وربما نجمع بين الأقوال بالقول إن قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾[٦] أي ماتفعلونه من الأعمال الموجبة لعقوبتكم، وتؤدي إلى

---

(١) تفسير الأمثل: :ج١٤، ص١٤٧.
(٢) سورة يس: الآية ٤٥.
(٣) تقريب القرآن إلى الاذهان: ج٤، ص٤٥١.
(٤) انظر تفسير الرازي: ج٩، ص٧٧؛ روح المعاني: ج٢٣، ص٤٠؛ تفسير الأمثل: ج١٤، ص١٤٧-١٤٨.
(٥) مجمع البيان: ج٨، ص٦٦٧؛ تفسير نور الثقلين: ج٦، ص١٧٧.
(٦) سورة يس: الآية ٤٥.

هلاككم كالغرق ونحوه في الدنيا بواسطة التحذر منها، وبها يتم الاتقاء عن العقوبات المصيرية، فإن كل ذنب له نوعان من العقاب: عقاب عاجل يكون أثراً وضعياً أو جزائياً للعمل كالغرق وقلة الرزق وحبس المطر وزيادة الأمراض ونحو ذلك، وعقاب في المصير مبني على ظهور آثار الأشياء، فالعمل السلبي له أثر سلبي يظهر بعده، وكذا العمل الإيجابي، وعلى هذا جبلت الدنيا.

المفردة الرابعة: ﴿اتَّقُوا﴾

أمر بالتقوى، وهل التقوى المأموربها المراد بها التوبة بعد وقوع الذنب أم المراد الحيطة والحذر قبل وقوعه؟

والجواب: أن الظهور مع الثاني لا الأول، وهو مايتوافق مع غرض الآية، فإن الآية تحث العباد على التقوى لاجل تحصيل الرحمة فقالت: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[1] فإن من يستحق الرحمة هو العبد الصالح الذي لا يرتكب ما يستحق العقوبة، ولو كان المراد بالمعنى الأول لكان الأنسب الأمر بالاستغفار، والغاية هي المغفرة، ولقال استغفروا ما بين أيديكم وما خلفكم (لعلكم تغفرون).

ولو دار الأمر بين حمل المعنى على منطوقه الظاهر أو القرائن اللبية الاحتمالية فإن القاعدة تقتضي حمل الظاهر على ظهوره، وأما الاحتمال فلا يخل بالظهور ما لم يكن أقوى ظهوراً كما قرر في علم أصول الفقه.

---

(١) سورة يس: الآية ٤٥.

والحق أن الآية أمرت بالاتقاء وليس بالتقوى، وهو مأخوذ من الوقاية، وهي تشمل الرفع والدفع. يقال اتقى الشيء أي تجنبه حذراً من ضرره، والتقوى يقال لها كذلك؛ لأنّ بها يتجنب عقاب الله[١]، ولهذا أثر سنعرفه.

والسؤال: لماذا أطلق الأمر بالاتقاء وعلقه على ما الموصولة، فقال: ﴿**اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ**﴾[٢] ولم يقل واتقوا الله مع أن المعهود في التعبير الثاني؟

الجواب: لأن الآية تخاطب المشركين، والمشرك لا يؤمن بالله سبحانه فلا يؤمر باتقائه سبحانه؛ لأن الاتقاء فرع المعرفة، فأمرهم بذلك لغو، وما كانوا يعرفونه هو هلاك الأمم بأعمالهم، وقد سمعوا عن قضية قوم نوح ومن قبلهم وكيف أغرقوا وهلكوا، فلذا أطلق الأمر لأجل تحذيرهم من الوقوع في مهالك الأعمال والمعاصي، وهذا شأن الكفار والمعاندين الذين لا يهمهم الإيمان وكمال الدرجات، وإنما يهمهم الخوف ودفع الأضرار عن أنفسهم .

وتوضيح ذلك: أن القرآن حينما يدعو الناس إلى الهداية والعبرة يصنفهم على صنفين: هم أصحاب القلوب وأصحاب العقول، وأصحاب القلوب يملكون قلوباً صافية خاشعة متواضعة تذعن للإيمان، وملاكها الحب والبغض، ولذا يستجيبون لنداء الحق، ويتعظون بآياته وعبره، فإذا رأوا آية أذعنوا واستجابوا لها.

---

(١) مجمع البحرين: ج١، ص٤٤٩، (وقى)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص١٠٥٢، (وقى).

(٢) سورة يس: الآية ٤٥.

وفي الحديث أن هذه القلوب أوعية وخيرها أوعاها[١]، وفي الحديث العلوي الشريف: ﴿قلوب العباد الطاهرة مواضع نظر الله سبحانه، فمن طهر قلبه نظر إليه﴾[٢].

ولذا كان السيد المسيح عليه السلام يحث الناس إلى تنزيه قلوبهم: ﴿لا يغني عن الجسد أن يكون ظاهره صحيحاً وباطنه فاسداً، كذلك لا تغني أجسادكم التي قد أعجبتكم وقد فسدت قلوبكم، وما يغني عنكم أن تنقوا جلودكم وقلوبكم دنسة﴾[٣].

ومقابلهم أصحاب العقول وخصوصيتهم أنهم ينطلقون عن المصالح والمفاسد والأضرار والمنافع، والذي لا يملك قلباً يهديه إلى الرشد فإنه ينبغي أن يملك عقلاً يقوده إلى مصلحته، ويدفع عنه مضرته، ولذا نجد أن عقلاء العالم يسعون لمصالحهم، ويتحذرون من الوقوع في مضارهم، وحيث إن الآية المباركة تخاطب المشركين وكانوا لايملكون قلوباً مؤمنة مذعنة للإيمان ويملكون عقولاً تقودهم إلى ما ينفعهم واجتناب مايضرهم دعتهم إلى الحذر والاتقاء مما بين أيديهم وماخلفهم، وهذا تحذير من الضرر، وحفّزتهم للاتقاء بالتلويح بالنفع فقالت: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٤].

---

(١) شرح الأخبار: ج٢، ص٣٦٩، ح٧٣٢؛ مستدرك سفينة البحار: ج١٠، ص٣٩٣.

(٢) عيون الحكم والمواعظ: ص٣٧٢.

(٣) تحف العقول: ص٣٩٣؛ البحار: ج١، ص١٤٦.

(٤) سورة يس: الآية ٤٥.

فالاتقاء من الضرر والرحمة تحفيز للنفع، وهذه هي القاعدة التي تعمل بها العقول وأهلها، فإن غير المؤمن وإن كان كافراً مشركاً ضالاً يحب نفسه، ويريد مصلحته، ولا يرضى لنفسه المضرة.

وبهذا يتضح السر في مخاطبتهم بالاتقاء لمافيه عذابهم وهلاكهم، وهو يشمل هلاك الدنيا وهلاك الآخرة. إن قال قائل: إن هلاك الدنيا أدركوه بوجدانهم، وعلموه من قصص الغابرين ومما يلاحظونه في حياتهم، ولكنهم لايؤمنون بالآخرة فكيف يحذرهم من عذابها؟

والجواب: لأن العقل السليم يدعو صاحبه إلى تجنب الضرر المحتمل أيضاً، وهم وإن كانوا غير مؤمنين إلّا أنهم ما كانوا يؤمنون بصدق النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه وأنه صادق أمين، والصادق إذا أخبر بالخبر فإن الناس إما يصدقونه ويرتبون عليه الأثر وهم المؤمنون، والمعاندون وإن لم يؤمنوا له لكنهم يحتملون صدقه وحصول الأثر الذي يترتب عليه، واحتمال الصدق ملازم لاحتمال الضرر، والعقل يدعوهم إلى اجتنابه، ولذا قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إنما العقل التحذر من الإثم، والنظر في العواقب، والأخذ بالحزم﴾[1] أي الاحتياط من الأضرار، والتحذر من سوء العواقب، والأخذ بالقرار والعمل في مواطن الحاجة.

---

(١) عيون الحكم والمواعظ: ص١٧٨.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: لماذا أبهم القائل؟

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾[1] ورد بصيغة المبني للمجهول ولم يرد بصيغة المبني للمعلوم بأن يقول (وإذا قلنا لهم) أو (قال لهم نبيّهم) وذلك يتضمن فائدتين:

الفائدة الأولى: لكي يستمر القول جارياً في جميع الأزمنة والأمكنة ولا يتحدد بقائل، فإنه لوحدد القائل بالرسول مثلاً لكان المقصودون بالكلام المخاطبين بالمباشرة، ويشمل غيرهم بالواسطة، ولكن الذي يخدم غرض الآية هو شمول الخطاب لجميع الناس وفي جميع الأزمنة، فيشمل الرسول ومن يقوم مقامه كالإمام، ومن يقوم مقام الإمام كالعالم الرباني، بل ويشمل نداء العقل وحكمه، فإن كل ناصح ومرشد للناس يحذرهم من الذنوب ويدعوهم إلى العمل الصالح داخل في مقصود الآية، وهذا يتحقق بصيغة المجهول.

---

(١) سورة يس: الآية ٤٥.

والسر في ذلك أن صيغة المجهول تعطي العناية للقول والخطاب دون القائل، بخلاف المبني للمعلوم فإن العناية تكون للقائل أكثر من القول، وحيث إن النداء عام يشمل جميع الناس ورد بهذه الصيغة.

الفائدة الثانية: لأجل بيان المقصود بالكناية لا بالتصريح لذا قال: ﴿**لهم**﴾ ومرجع الضمير يحتمل أن يكون القوم الذين خاطبهم نوح عليه السلام، ويحتمل أن يكون قوم النبي صلى الله عليه وآله من المشركين وأمثالهم، وهذا النحو من الخطاب يقع مع المعاندين، وقوم النبي كان العناد واللجاجة طبعهم كما أشرنا إليه، فإن من سجايا المعاندين أن الخطاب إذا وجّه إليهم مباشرة ازدادوا عناداً وكبرياء، وأخذتهم العزة بالإثم، بخلاف الخطاب الكنائي فإنه يحفظ لهم كرامتهم في ظنهم، فربما يستجيبون ويذعنون للحق، وقد كشف الباري عن هذه الحقيقة بقولة: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ**﴾(١).

وقد وردت في الأخنس بن شريف وكان منافقاً لدوداً يتظاهر بمحبة الإسلام والرسول، وإذا خلا أظهر العداء لجاجة منه، وإذا نصح وأمر بالتقوى أخذته حمية الجاهلية وأنفته على الإثم والذنب(٢)، وهذا شأن المعاندين حتى في الأمور الاجتماعية، فإن العناد من آثاره أنه يطفئ شعلة العقل، ويميت القلب، ويمنع صاحبه من قبول الحق؛ لأنه ناشئ من العجب والغرور، ومثله ينبغي أن يخاطب بالكناية لا بالتصريح؛ لأن التصريح يخدش أنفته فيزيده بعداً وعناداً، وهنا يظهر اللطف والرحمة والحكمة الإلهية

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٠٦.

(٢) انظر روح البيان: ج١، ص٣٢٧؛ نفحات الرحمن: ج١، ص٤٣٣.

في تمويه الضمير في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ فجعل القائل مجهولاً والمخاطب كذلك لكي ينفذ الخطاب فيهم ولعله يهديهم إلى الصواب.

وهنا يتضح السبب أيضاً في أن الآية ما أمرت بتقوى الله بل أمرت بالاتقاء والحذر؛ لأن المشرك والمنافق الذي لا يؤمن بالله لايستجيب لندائه، فلو أمرتهم بتقواه لكان أدعى لعصيانهم وعنادهم، لكنها أمرت بالاتقاء؛ لأن هذا مايتوافق مع فطرهم وعقولهم التي تدعوهم إلى دفع الآلام وتحصيل المنافع.

اللطيفة الثانية: سر توجيه الخطاب للحاضر

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فيه نكتتان:

الأولى: تبدل الخطاب من الغائب إلى الحاضر، ففي أوله قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا﴾(١) ولكن لما أراد بيان النتيجة قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٢) وسر توجيه الخطاب إلى الغائب أولاً عرفت سببه، وأما توجيهه إلى الحاضر في النتيجة ففيه سر، وهو أن الناس يحبون الدنيا ومنافعها، وتحصيل المنافع يعد من التكريم والاحترام والمكافأة، وفي الغالب الإنسان يحب نفسه، ويحب النفع لها، فلو كان النفع لغيره لا يهتم له كثيراً، ولكن إذا كان النفع لنفسه فإن له غاية الأثر، ولذا لابد أن يكون الوعد بالنفع والرحمة موجهاً لهم، فالحكمة العالية أقتضت ان يكون الأمر بالتقوى موجهاً للغائب لكيلا

---

(١) سورة يس: الآية ٤٥.

(٢) سورة يس: الآية ٤٥.

يخدش كبرياءهم، والوعد بالمصلحة والنفع والرحمة يوجه للحاضر، وبهذا يسد عليهم باب الاعتذار والمعاندة لينقادوا إلى الإيمان بواسطة تأليفهم والنفوذ إليهم من نافذة ما يحبون ويريدون.

الثانية: أنّه بيّن مصالحهم بصيغة (لعل) التي تفيد التردد والترجي، والسبب في ذلك أنه يريد أن يشوقهم إلى الإيمان، ولا يريد أن يبعدهم، فلو قال: (فإنكم ترحمون) كان وعداً، والله سبحانه لايخلف وعده، فلابد وأن يكون ترجياً، وفي ذلك حكمة بالغة أخرى، وهي أن الترجي يستدعي إيكال أمر الإيمان إليهم، ويوكل اختيار الطريق لإرادتهم، فلا يجبرهم على الإيمان ولا على عدمه، وإنما هو يبيّن لهم نفع الإيمان وضرر عدمه، ويترك القرار إليهم، وهذا يتحقق بالترجي، فالذي يتحرر من العصبية ويؤمن تناله الرحمة، ويتجنب الضرر، والذي يتقيد بها يحرم منها.

اللطيفة الثالثة: جهتان للرحمة الإلهية

قوله: ﴿تُرْحَمُونَ﴾ ورد بصيغة المبني للمجهول للإشارة إلى أنهم لا يستحقون الرحمة من حيث قابلياتهم وأعمالهم، ولكن الرحمة قد تنالهم من إحدى جهتين:

الأولى: اللطف الإلهي، فيكون تفضلاً منه سبحانه عليهم، وشأن العاقل أن يقابل الإحسان بالإحسان لا بالإساءة، فيدعوه ذلك إلى الاستجابة للإيمان وترك العناد والكفر؛ واللطف الإلهي عام لوشملهم فإنه لايتوقف عند حدود هدايتهم فقط، بل يمحو سيئاتهم وذنوبهم، فينجيهم من عذاب الآخرة أيضاً.

الثانية: جعل الهداية بحكم التجارة معهم؛ لأن أصحاب الدنيا غالباً ما ينطلقون عن منطلق النتائج والفوائد، بخلاف أهل الدين فإن منطلقهم في أعمالهم هو الوظيفة والمسوؤلية، فالتلويح بالرحمة هو بيان للجزاء الذي سينالهم في نهاية المطاف ويقودهم إلى الإيمان، ولو كانت الآية تكتفي ببيان الأمر بالاتقاء من الأضرار دون الوعد بالرحمة والنفع لعل بعضهم كان يقلب المعادلة، ويسوِّل له الشيطان، فيرى أنه واقع بين خسارتين: خسارة الدنيا والدخول في الدين كما يتوهمه ضعفاء الإيمان والملاحدة وأمثالهم، فهم يتصورن أن الدين يقيدهم ويحرمهم من الكثير من اللذات والمنافع.

أو الوقوع بالأضرار والمهالك التي تحذرهم الآية منها، وحيث إن الأولى محسوسة لديهم وقريبة منهم والثانية غيبية لايدركها ويؤمن بها إلّا أصحاب القلوب والعقول الكاملة فإنهم يرجحون الأولى، ويضحون بالثانية، فيكون المصير هو البقاء على الكفر والشرك، وهو ينقض غرض الآية، ولذا كان التلويح بالنفع والرحمة واجباً عقلياً يقتضيه الحال، ويتحقق به الغرض والدعوة والنصح لكي تكون الكفة الثانية هي الأرجح على الأقل عند أهل الدنيا؛ إذ يكون دخولهم في الدين والإيمان خسارة بحسب زعمهم، ولكن في مقابلها تحصل منفعتان: منفعة تجنب الأضرار والمهالك، ومنفعة تحصيل الرحمة ومنافعها، فيكون أدعى للإيمان والتخلي عن الكفر والشرك.

وتظهر من هذه اللطائف الثلاث قواعد هامة في أسلوب الحوار والمجادلة وتربية المعاندين وإصلاحهم فضلاً عن قواعد كلامية أخرى في اللطف والرحمة الإلهية.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

وهي عديدة:

التعليم الأول: ترابط العلم والرزق والتقوى

إن الآية المباركة أمرت الناس بالتقوى والحذر من الأعمال للإشارة إلى أن للأعمال والمعتقدات آثاراً في الخير والشر، والعاقل هو الذي يفكر في نتائج عمله وأفكاره، والتقوى هي مفتاح الخير في حياة الإنسان، وتفتح له باب النجاح من طريقين:

الأول: طريق الآثار المترتبة على الأعمال، فإن الأعمال وآثارها كالعلة والمعلول. من يزرع الخير يحصد خيراً، ومن يزرع الشر يحصد شراً فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿لا يجتنى من الشوك العنب، كذلك لا تنال الفجار منازل الأبرار﴾[(١)]، فالحصاد يكون من جنس البذر، والآثار تكون من جنس الأعمال.

وقيل: من يجتني من العنب، ومن الحنظل التين[(٢)].

(١) الدر المنثور: ج٥، ص٣٠٨؛ ميزان الإعتدال: ج٤، ص١٧٧، ح٨٧٤٦؛ لسان الميزان: ج٦، ص٨٥، الرقم ٣٠٦.

(٢) تاريخ مدينة دمشق: ج٤٧، ص٤٦١.

والثاني: طريق التوفيق واللطف الإلهي، فإنه سبحانه يكافئ الإحسان بالإحسان، وللمتقين يفتح أبواب الرزق وأبواب العلم؛ إذ قال في الأول: ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَهُ مَخْرَجاً ۞وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ**﴾[١] وفي الثاني قال سبحانه: ﴿**وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ**﴾[٢] وكلا الآيتين من الوعد الإلهي الذي لا يختلف ولا يتخلف، فالذي يتقي ويتحذر من سوء الأعمال ينجو من سوء العواقب، وإذا نوى الاتقاء لله سبحانه نال الرزق الوفير والعلم الغزير، وهذا ما قام عليه البرهان العقلي أيضاً كما قرر في الحكمة، وله مدرسة قائمة على هذا النهج من التفكير تقول بأن العلم مستودع في النفوس، ويظهر كلما صفت النفس وزكت وتطهرت من الآثام والذنوب. يعبَّر عنها بمدرسة الإشراق، وبغض النظر عن تمامية مباني هذه المدرسة وضعفها إلّا أن ارتباط العلم والرزق بالتقوى مما أقره القرآن كما في الآيتين الشريفتين والروايات؛ إذ ورد في الأخبار «ليس العلم بكثرة التعلم وإنما هو نور يقذفه الله في قلب من يريد»[٣].

والمراد به العلوم الإلهية، والحديث لايريد أن ينفي التعليم والتعلم وإنما ناظر إلى ترسيخ التقوى؛ لأن العلوم الاكتسابية تتعلق بشدة النباهة وقوة الفطنة والذكاء وشدة الحافظة وغيرها من الملاكات النفسية، وهذه تشتد وتقوى في النفوس المتقية التي تجتنب الذنوب والمعاصي.

---

(١) سورة الطلاق: الآيتان ٢-٣.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٨٢.

(٣) التحفة السنية: ص٧؛ وانظر منية المريد: ص١٤٩؛ شجرة طوبى: ج١، ص٣٨.

فالعاقل هو الذي يفكر في عواقب أمره ونتائج أعماله لكي يكون في سعادة دائمة بعيداً عن الآفات والمهالك، وإلى هذا يشير قول أمير المؤمنين عليه السلام: «إذا قدمت الفكر في جميع أفعالك حسنت عواقبك في كل أمر»[1].

التعليم الثاني: لأهل المعرفة وطالبي الحق والمقامات الإلهية، فإن الآية تحذر الناس من بين أيديهم وهي الدنيا وشهواتها، وماخلفهم وهو الشوق إلى الآخرة لأجل لذاتها، ويفهمها الماديون الذين وصفتهم الروايات بالتجار الذين يعبدون الله سبحانه طمعاً في جنته، فإن الذين يحذرون اللذات والشهوات المادية ينالون ما هو أعظم منهما وهي اللذات المعنوية التي تتلخص بالرحمة الإلهية ﴿**لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ وقوله: ﴿**لَعَلَّكُمْ**﴾ للإشارة إلى أنهم يتركون لذات الدنيا ولذات الآخرة رجاء للرحمة، وطلباً لها، فإنهم سينالونها، وأجلى مظاهرها هو مشاهدة جمال الخالق وجلاله في كل شيء والانقطاع إليه، فتبلغ أعلى درجات الوصال والكمال بقربه.

التعليم الثالث: للفقهاء والأصوليين

فإن الآية المباركة تؤكد عدة قواعد تبنى عليها جملة من النظريات الأصولية والفتاوى الفقهية:

الأولى: أن الظن ينبغي الأخذ به إذا كان عقلائياً؛ لقوله تعالى للمشركين ﴿**اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾[2]

---

(١) تصنيف غرر الحكم: ص٥٨، ح ٥٩٧؛ وانظر عيون الحكم والمواعظ: ص١٣٦.

(٢) سورة يس: الآية ٤٥.

و(لعل) تفيد رجاء الرحمة والظن بوقوعها، وبما أنهم ماكانوا مؤمنين فلم يتيقنوا بصدق القول إلّا أنهم يذعنون لصدق المخبر، فلو أخبرهم بأمر يتعلق بالغيب ووعدهم بأنهم لو اتقوا تنالهم الرحمة فإنهم لا يتيقنون بالنتيجة وإنما يظنون، والآية حثتهم على الأخذ بالظن، ومعلوم أن الظن بوقوع الخبر لو كان المخبر ثقة صادقاً من الظنون العقلائية التي يرتّب عليها العقلاء الآثار، ولذا بنوا على حجية خبر الثقة، وهذه نتيجة هامة في الفقه والأصول.

الثانية: قاعدة وجوب دفع الضرر المحتمل وعدم الاقتحام في الشبهات التي يحتمل فيها المفسدة، فإن الآية تخاطب المشركين بلزوم التحذر والحيطة من عواقب الأعمال والأفكار وأضرارها، والعاقل هو الذي يتجنب الضرر ويدفع عن نفسه الوقوع به، وهذه القاعدة عقلية بنى عليها الأصوليون والفقهاء الاحتياط في الشبهات الحكمية، وأقرتها الآية المباركة.

الثالثة: قاعدة دفع المفسدة أولى من جذب المنفعة التي قرروها وطبقوها في موارد عديدة. منها في باب التزاحم بين الوجوب والحرمة، وإثبات أصالة الحظر في الأشياء، وإجراء الاحتياط في الشبهات التحريمية، والتخيير لدى الدوران بين المحذورين ونحوها، فإن جماعة تمسكوا بالقاعدة وقدموا جانب التحريم دائماً على الوجوب لهذا الملاك على تفصيل واسع في الأصول، والآية المباركة أكدت هذه القاعدة؛ إذ حذرت المشركين أولاً وأمرتهم بالاتقاء مما بين أيديهم وما خلفهم، ثم حفزتهم وشوقتهم إلى الرحمة، والأولى تحذير من المفسدة، والثانية جذب المنفعة، وحيث إن

الحكيم لايقدم ولايؤخر إلّا لعلة وقد قدم التحذير دل على أن للمفسدة جهة رجحان على المنفعة كما أن الآية تحل النزاع الأصولي في أن القاعدة المذكورة هل هي عقلية أم عقلائية، وتقوي الجانب الثاني؛ لأنه لا يفرق بين المفسدة والمنفعة، ويجدهما متساويتين لو تعادلتا كما وكيفاً، وكما يستحسن دفع الآلام يستحسن جذب المنافع، بل قد يقال إن دفع الآلام والأضرار هو لذة، فلا توجد جهة أرجحية للعقل، إلّا أن العقلاء يراعون جهات الترجيح، والآية تؤكد أن الحذر من المهالك أكثر جذباً للناس من تشويقهم للمنافع، وهذا مايؤكده القرآن من التلويح بالنار وبالجنة. نعم ماينبغي أن يقال في هذه القاعدة هو أنها تثبت الأولوية ولاتثبت الوجوب على تفصيل نوكله لمحله.

الرابعة: قاعدة الأهم والمهم بين المصالح والأضرار، واتضحت مما تقدم.

التعليم الرابع: للمحاورين والمبلغين

فإن الآية المباركة تعلمهم أن ينطلقوا في محاوراتهم من العقول والملاكات العقلية؛ لا من الانفعالات النفسانية والعصبيات؛ لذا لم تتخذ الآية شدة الأسلوب وقساوة العبارات، بل خاطبتهم بعقولهم لتجذبهم إلى الإيمان من حيث ما يعقلون ويؤمنون، وهذا هو ما تقتضيه الحكمة؛ لأن غاية الحوار التفاهم والإقناع، وكلاهما يقومان على موازين العقل والفهم لا الانفعالات والعصبيات.

وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ
رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ

يس/ ٤٦

الآية المباركة معطوفة على ما قبلها، وقد مرَّت الإشارة إلى جملة من الآيات الإلهية العظيمة المتسلسلة في الآفاق والأنفس ابتداء من الآية ٣٣ إلى ٤٦ تضمَّنت آية إحياء الأرض الميتة بالنبات والعشب وتفجير العيون، وآية الليل والنهار وانسلاخ أحدهما من الآخر، وآيتي الشمس والقمر وانتظامهما في الحركة والمسار، وآية حمل الذرية في الفُلْك المشحون ونجاتهم من الغرق وإبقائهم في الأرض أحياء يُرزَقون ويُرحَمون، وكل هذه الآيات أظهرها الباري عزَّ وجلّ لهم تكويناً، وأرشدهم إليها تعليماً لأجل هدايتهم وإصلاحهم، ثم عقبها تحذيرهم من مخالفة ذلك؛ لأنها توجِب هلاكهم في الدنيا والآخرة، ومع ذلك لم ينفع بهم بسبب عنادهم ومكابرتهم فقال: ﴿**وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ**﴾ فالآية المباركة تتمّة لمضامين الآيات السابقة عليها، وهي جملة خبرية تكشف عن واقع حال أهل الكفر والعناد واللجاجة، وفي عين الحال هي في مقام الذَّم ممّا تدل على حُرمة اللجاجة والعناد واستحقاقهم العقوبة عليها، والبحث فيها يقع في مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآية

وهي عديدة:

المفردة الأولى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم﴾

(الواو) عاطفة، و(ما) نافية بمعنى ليس ولا النافيتين، و ﴿تَأْتِيهِم﴾ يفيد أنَّ الآية وحجيتها وصلتهم وعلموا بها، وأرشدتهم وما استرشدوا، ولذا لم يقل (جاءتهم).

والفرق بين أتى وجاء أنَّ المجيء يتحقق بوصول الشيء، كما يقال: (جاء فلان) أي وصل، بينما الإتيان لا يتحقق إلّا إذا جاء بشيء معه يهم الغير وبسهولة، كما يقال (أتى فلان) أي جاء بسهولة ومعه شيء يهم الغير، وفي الأول قال تعالى: ﴿وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۞وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾[1] لأن الحضور لذواتهم، فالملك يحضر بنفسه وأما الباري فحضوره بحضور خليفته وهو النبي والإمام عليهما السلام وفي الثانية قال تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ﴾[2] أي عذابه الموعود به يوم القيامة، ولم يقل جاء الأمر؛ لأن وصول الأمر وحده ليس هو الغاية وإنما ما يحمله الأمر من

(١) سورة الفجر: الآيتان ٢٢ -٢٣.

(٢) سورة النحل: الآية ١.

مضمون[١]، وكأنَّ الفرق أنَّ (جاء) تطلق على وصول الذات، و (الإتيان) يطلق على غاية المجيء، وصيغة المضارع تدل على الاستمرار مع الأزمان والأجيال، ولازالت الآيات الإلهية تُعْرَض على الخلق إلى يومنا هذا، ولكن المعاندين والذين قَسَتْ قلوبهم وتحجَّرَتْ عقولهم بالمادة والماديات عنها مُعرِضون، هذا وهناك فروق أخرى نوكلها لمحلها[٢].

والمُحصَّل منها: أنَّ جاءَ وأتى يطلَق أحدهما مكان الآخر، ولكن لامتناع الترادف يُطلَق كلٌ منهما باعتبار معنى.

المفردة الثانية: ﴿من آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾

(من) الأولى لتأكيد النفي والاستغراق لدخولها على النكرة ولقرينة الجمع في آيات، و (من) الثانية للتبعيض.

والاستغراق يفيد حصول الآيات لديهم آية آية على نحو الاستقلال، وكل واحدة منها كافية لهدايتهم وصلاح أمرهم لكنهم يُعْرِضُون عنها، وهذا كاشف عن شدة عنادهم وعمى قلوبهم وعقولهم في ذلك، وأمثالهم يستحقون الهلاك كقوم نوح[٣].

و (الآية) العلامة الظاهرة الدالة على الله سبحانه كما تفيده الإضافة إلى الرب تعالى، وهي قسمان: قسم يتضمَّن التعليم والتهذيب مثل آيات القرآن

---

(١) انظر معجم الفروق اللغوية: ص١٥٢، (٥٩٤).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢١٢، (جاء)؛ ص٦٠، (أتى).

(٣) انظر مجمع البيان: ج٨، ص٢٧٨.

الكريم، ومثل علائم القدرة والحكمة الإلهية؛ إذ قال سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[(١)] وقسم يتضمَّن العجائب والمعجزات كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾[(٢)] ولم يقل آيتين؛ لأنهما يعودان إلى آية واحدة وهي الولادة من غير أب، وفي الغالب الآية تتضمن الاثنين معاً[(٣)].

والآيات التي أَتَتْهُم تضمَّنت كل ذلك، فبعضها آفاقية، وبعضها أنفسية، وبعضها معاجز كسفينة نوح، وبعضها ترغيب وترهيب ومحاكات للعقل والفطرة وحب الإنسان للذات، وتحذِّره من الآلام، و كل ذلك لم يُجدِ معهم، وفي ذلك دلالة على سعة رحمة الله وصبره وحلمه على عباده وعلى شدة عمى بعض الناس وانحجابهم عن الرحمة.

المفردة الثالثة: ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾

(إلّا) أداة استثناء تفيد التأكيد؛ لأنه استثناء من النفي، فيدل على أن مجيء الآيات وإعراضهم عنها كانت من سجاياهم، وكأنهم جُبِلوا على العناد والمكابرة، وصيغة الماضي تفيد حتمية الوقوع، ومرجع الضمير في (عنها) يعود إلى الآيات ليدل على أنَّ إعراضهم عن نفس الآية، ويتحقق أولاً بالفكر بأن لا يبصروا فيها ولا يتدبروا دلالاتها ولا ينظروا إلى عواقب إنكارها.

---

(١) سورة فصلت: الآية ٥٣.

(٢) سورة المؤمنون: الآية ٥٠.

(٣) انظر مجمع البحرين: ج١، ص٤٠، (أيا).

وبالعمل ثانياً بأن يديروا ظهورهم عنها ولا يتبعوها مهما كانت ظاهرة الدلالة، ويتبعوا عصبياتهم وشهواتهم؛ لذا قال: ﴿**إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ**﴾[١] و (مُعرِضون) اسم فاعل مأخوذ من الإعراض، وهو مصدر ماضيه (أعرَض) أي أظهرَ عرضه ونحى جانباً عن الشيء يُكنّى به من يدير ظهرهُ لشيء لا يريده، وهو خلاف الطول وإذا تعدَّى باللام أو إلى دل على الإظهار والإجابة، ومنه قولهم عرضت البضاعة للبيع، وعرض إليه عارض أي طارئ يمنعه، وبالتعدية بـ (عن) تفيد التولي وإبداء العرض، وتطلق في الأجسام، وتستعمل في الأفكار والعقول والقلوب أيضاً لوحدة الأثر، كما في قوله: ﴿**وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾[٢] أي لا تهتَّم لقولهم وعملهم، وقوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي**﴾[٣] أي أدارَ وجهه ولم يذكر الله تبارك وتعالى، وتوجّه إلى الشيطان؛ لأن الإنسان إنْ لم يذكر الله سبحانه ذكرَ الشيطان لا محالة؛ لأنهما ضِّدان لا ثالث لهما.

والعرض بفتح الراء ما لا ثبات له، ومنه استعار المتكلمون العرض أي ما لا ثبات له إلّا بالجوهر كاللون والطعم، ولهذا سمَّيت متع الدنيا بالعرض في قوله تعالى: ﴿**تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ**﴾[٤]

---

(١) سورة يس: الآية ٤٦.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٩٩.

(٣) سورة طه: الآية ١٢٤.

(٤) سورة الأنفال: الآية ٦٧.

لأن الدنيا ومتاعها لا ثباتَ لهما ولا استقرار[١]، والآية المباركة نصَّت على أنَّ أهل مكة وقوم النبيﷺ كانت طبيعتهم الإعراض، والسر في ذلك يعود لسببين:

السبب الأول: طبائعهم وسجاياهم المجبولة على ذلك، فإنها تجعل صاحبها عبثياً يخالف بدون غرض وغاية سوى العناد، ويتجلى العناد فيهم في صفتين:

الأولى: الاستهزاء بالرسل والآيات كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿**يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون**﴾[٢].

الثانية: الإعراض عن الآيات والحجج والمعجزات، فالآيتان تؤكدان صفتين في المعاندين تعبران عن النهج العام لهم وهما الاستهزاء بالرُسُل والإعراض عن الآيات، والاستهزاء أسوأ من الإعراض؛ لأنه يتضمَّن الإعراض القولي والعملي وهتك حرمة الرسل والانتقاص منهم، وهذا سلاح العاجزين عن مقارعة الحجة بالحجة، فيلجؤون إلى التضعيف بالقول والعمل حينما يعجزون عن التضعيف في الفِكر.

والسبب الثاني: الخوف على المصالح، فكانوا يتوهمون أنهم إذا استجابوا للرسل وآمنوا أخضعوا سيادتهم وسلطتهم للرسل، وصارت دنياهم في خدمتهم، والقوم -أي قوم النبيﷺ- كانوا أهل سيادة وسلطة ومال فاقوا

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٣٤٢، (عرض)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٥٩٤، (عرض).

(٢) سورة يس: الآية ٣٠.

بهن سائر العرب، وكانوا يتوهمون أنهم إذا استجابوا للنبي سادهم وصار هو الحاكم وهم المحكومون، وهذا ينمُّ عن ضعف في الفكر، فتوهموا أنَّ الرُسُل أناس عاديون يطلبون السلطة والزعامة على الناس، وأنهم يطلبون الدنيا والمال، ولم يلتفتوا إلى القيمة المعنوية للأنبياء، وأنهم رجال إلهيون بيدهم جميع خيرات الدنيا وسلطاتها، وأنَّ التراب يصبح ذهباً تحت أقدامهم لكنهم يسخرون كل ذلك لخدمة الناس وهدايتهم إلى الحق، ويضحون بأنفسهم لأجل ذلك وإنَّ الدنيا عندهم لا تسوى جناح بعوضة.

وهذا الخلط الذي يحصل عند الناس بين رجال الله ورجال الدنيا ضيَّعَ الكثير منهم، وجعلهم لا يميّزون الصواب من الخطأ، وهذه مشكلة في كل العصور موجودة، فإنَّ الظلمة والطواغيت يتصورون أنَّ الحق والعدل وإعطاء الناس حقوقهم يزيل سُلْطانهم فيتوغلون أكثر في الظلم، وهذا هو الوهم الذي دعاهم إلى محاربة الحجج الإلهية، فأهل الدنيا لأجل حبهم للدنيا يُعاندون الحق ويحاربونه طلباً لمصالحهم، ويقع في هذا عادةً الرؤساء وأصحاب الزعامات، لكنهم يجدون مَن يتبعهم ويشد أزرهم على ذلك طمعاً في دنياهم، وخوفاً من بطشهم، ولذا عانى الرجال الإلهيون من هاتين الفئتين أشد المعاناة.

فإنَّ الظلمة ضِعاف من جميع النواحي إلّا أنَّ الذي يقوّيهم ويجعل لهم كياناً قائماً هو اتِّباع الناس لهم وسكوتهم عليهم، ولولا ذلك لما استطاعوا أن يقوموا أو يحكموا، ومادام الناس لا يلتفتون إلى هذه الحقيقة ولا يقفون بوجه الظُلم ويمنعونه لا تنصلح أحوالهم يوماً.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: العلم والهداية من الله

الآية المباركة وصفت ما يأتي القوم بالآية وأضافتها إلى ربهم فقالت: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾[1] و لهذه الإضافة فائدتان:

الأولى: بيان أنَّ الآية مبدؤها الرب سبحانه، وغايتها الرب كذلك، فهي لطف محصّل ولطفان مقرّبان لإيصالهم إلى الهداية، وفي ذلك دلالة على أنَّ التعليم والهداية مبدؤهما من الله سبحانه؛ إذ يوصل حججه إلى خلقه، وما على الخلق إلّا النظر فيها لكي يؤمنوا، فهم من أنفسهم قاصرون عن بلوغ الهداية، ولو أتتهم الآيات من ربهم ولم ينظروا فيها كذلك لا يهتدون، فالهداية تتقوَّم بعاملين: الفاعل والقابل، والأول من الله وهو المبدأ، والثاني من العبد.

الثانية: أنَّ الباري عزّ وجلّ يتولّى عباده مادياً ومعنوياً، فلا يتولّى أمر خلقهم وإحيائهم ورزقهم وإطعامهم وإكسائهم، بل يتولّى تربيتهم

---

(١) سورة يس: الآية ٤٦.

وتعليمهم وهدايتهم، ولهذا أضاف الآيتين إلى اسم الرب تبارك وتعالى دون غيره من الأسماء مثل (الله) و (الرحمن) وغيرهما للإشارة إلى أنَّ مجيء الآيات غايتها تربيتهم وتكميل عقولهم ونفوسهم وإيصالهم إلى المطلوب[١].

اللطيفة الثانية: أنَّ الآية المباركة وصفت القوم بأنهم معرضون ولم تصفهم بالإنكار مع أنَّ الإنكار والإعراض واحد؛ لأن الإعراض أشد دلالة على الجحود والعناد من الإنكار، فإنَّ الإنكار ضد العرفان، ومرجعهُ إلى العقل والقلب واللسان، فالإنكار العقلي يتحقق بالجهل، والقلبي يتحقق بالنفرة، واللساني بإظهار الرفض والرَّد[٢].

وهذا كله يتحقق بعد الاستماع والنظر في الآيات، لكن الآية أشارت إلى ما هو أقوى من ذلك، وهو الإنكار بالموقف والعمل أيضاً؛ لأن هؤلاء كانوا يديرون ظهورهم للآيات ولم يستعدوا لاستماعها أو النظر فيها، وهذا دأب المعاندين المكابرين يقفلون عقولهم وقلوبهم، ويرفضون الحق قبل استماعه ومعرفته، ولذا يكون عقابهم أشد، ومصيرهم أسوأ.

---

(١) انظر مجمع البحرين: ج٢، ص٦٤، (ربب).
(٢) انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٢٤، (نكر).

اللطيفة الثالثة: النبي والأئمة أعظم آيات الله

قوله تعالى: ﴿**وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ**﴾(١) صرَّح في أنَّ إعراضهم كان عن ذات الآية وليس عن باعثها ومرسلها، وكأنه يستبطن الإشارة إلى أنهم كانوا معاندين للنبي فلا يريدون أنْ يستمعوا له، والكثير منهم كانوا مشركين يؤمنون بالله ويشركون به إلّا أنَّ خصومتهم مع النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه، وهو شأن المعاندين؛ لأن الذين كانوا يتوهمون أنه يضرهم ويهدد مصالحهم هو النبي، وأنهم لو آمنوا به لسلطوه على أنفسهم ومصالحهم؛ لذا ما كانوا يريدون الاستماع له فضلاً عن الاستجابة له، وهذه المنهجية كانت ولازالت قائمة.

فإنَّ الإعراض بدلالتي العبارة والإشارة يشمل ثلاث فرق هم: الكفار والمشركون والمسلمون من ضعاف الإيمان أو ناقصي الإيمان الذين تأتيهم الآيات ولا يتدبرون فيها ويُعْرِضون عنها.

أما الكفار والمشركون فخاطبهم الباري عزَّ وجلّ بالآيات الآفاقية والأنفسية التي أقامها لأجل جذبهم إلى الإيمان، والآيات السابقة تعرضت إلى ذلك بلسان العبارة.

وأما المسلمون فخاطبهم الباري عزَّ وجلّ بلسان الإشارة إلى الآيات الرسالية، وهي النبي والأئمة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فإنهم أعظم آيات الله سبحانه وأكبرها وأقواها دلالة على علم الخالق وقدرته وحكمته، وقد جاء إلى

---

(١) سورة يس: الآية ٤٦.

الناس آية آية في كل زمان إمام معصوم عليه السلام يقوم مقام النبي صلى الله عليه وآله يهدي ويعلِّم ويرشد إلّا أنَّ بعض المسلمين يعرضون عنه فلا يستمعون له، ولا يستجيبون لقوله تعصباً منهم أو عداءً أو إتِّباعاً لكبرائهم، وهي ذات الأسباب التي اتَّخذها الجاهليون في إنكار دعوى النبي صلى الله عليه وآله والإعراض عنه. يشهد لهذه الحقيقة شاهدان:

الشاهد الأول: القرينة الداخلية، وهي الجمع والإضافة في قوله تعالى: ﴿**مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ**﴾(١) فإنَّ الجمع يشمل كل علامة دالة على الله سبحانه، والإضافة إلى الرب تبارك وتعالى تدل على أنَّ الآية من الله وإليه سبحانه، وهي تنطبق في المعاجز والكرامات، وتنطبق في الرسول، والإمام أقوى وأظهر؛ لأن المعجزة والكرامة فعل الله سبحانه، وفيها دلالة على قدرته عزَّ وجلّ، إلّا أنَّ شخصية النبي والإمام مظاهر لقدرته، ومخازن علمه، ووعاء إرادته، ومجلى جماله وجلاله، وقد اصطنعهم الباري عزَّ وجلّ ورباهم ليكونوا خلفاءه في أرضه وحججه على عباده. كل إمام هو آية وحجة على الخلق في زمانه والأزمنة التي تليه، إلّا أنَّ بعض الناس يعرضون عنهم ويتخذون لأنفسهم قادة وزعماء غيرهم يتبعونهم في دينهم ودنياهم.

الشاهد الثاني: القرينة الخارجية، وهي الروايات الكثيرة الدالة على أنَّ آيات الله العظيمة هم محمد وآل محمد عليهم السلام، ففي تفسير القمّي في تفسير قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَياةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا**

---

(١) سورة يس: الآية ٤٦.

وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾[1] قال: ﴿الآيات أمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام، والدليل على ذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام: ما لله آية أكبر منّي﴾[2].

وفي رواية الكُليني بسنده عن أبي جعفر عليه السلام: ﴿كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: ما لله عزَّ وجلّ آية هي أكبر منّي، ولا لله من نبأ أعظم منّي﴾[3] وقد تواتر هذا المَعنى في الأخبار الشريفة[4]، فإذا لُوحظ في الأمة مَن هو على غير ذلك نعرف أنَّ هناك إعراضاً عن ذلك وعدم استجابة، وهذا ما يشهد له العقل أيضاً، فإنَّ الآية الإلهية بذاتها دالة على حقانيتها وصدقها؛ لأنها بذاتها معجزة، وظهور الإعجاز في شخصية النبي والإمام أعظم من ظهوره في انفلاق البحر أو تسبيح الشجر أو حنين النخل ونحو ذلك من آيات أظهرها الباري عزَّ وجلّ للناس، فإنَّ كمال العقل والقدرة والأخلاق والعلم والعدل وظهور صفات الجمال والجلال الإلهي أعظم من ظهوره في الجمادات، وينبغي أنْ يكون خضوع الناس لها وإيمانهم بها أعظم لكنهم أعرضوا.

---

(١) سورة يونس: الآية ٧.

(٢) تفسير القمي: ج١، ص٣٠٩.

(٣) الكافي: ج١، ص٢٠٧، ح٣؛ تفسير البرهان: ج٤، ص١٠، ح٢.

(٤) انظر تفسير القمي: ج٢، ص١٢٨؛ مجمع البيان: ج٨، ص٣٣؛ مستدرك سفينة البحار: ج١، ص٢٥٨-٢٦٠، (أبى)؛ تفسير القمي: ج١، ص٢٠٦؛ تفسير البرهان: ج٣، ص٢٩، ح٥، ح٦.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

وهي عديدة:

التعليم الأول: الملاكات العقلية لوجوب المعرفة

أشارت الآية المباركة إلى حقيقتين متعلقتين بالإيمان والكفر والقصور والتقصير فيهما:

الأولى: أنَّ الباري عزَّ وجلّ أرسل الآيات للعباد التي تهديهم إلى الإيمان بالحق في المبدأ والمعاد، وهذا ما يقتضيه اللطف الإلهي والرحمة الربانية بالعباد.

الثانية: أنَّ العباد يجب أنْ ينظروا بما يصلهم من الآيات والفحص فيها وعدم الإعراض عنها.

وكِلا الحقيقتين مما يقضي بهما العقل:

أما الأولى: فلأنَّ البشر في نفسه قاصر عن الوصول إلى معرفة الباري والاعتقاد الكامل به سبحانه، فلابد وأنْ يهديه الباري لذلك، وهذا ما تقتضيه الرحمة والحكمة دفعاً لنقض الغرض من الخلق، فإنه سبحانه خلق الخلق ليعرفوه، وإذا عرفوه عبدوه، وإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة غيره، وبذلك يقترب المخلوق من الخالق، ويتشبه بصفاته، ويصل إلى الكمال والسعادة الدائمة.

وأما الثانية فلأنَّ العقل يحكم بوجوب النظر في الآيات الواصلة إليه وقبح الإعراض عنها بملاكات ثلاثة:

الأول: ملاك وجوب شكر المنعم، فإنَّ الإنسان بوجدانه يدرك أنَّ وجوده وحياته وكل ما لديه ليس من نفسه، وإنما أُعطيت إليه من غيره، وهي نعم عظيمة تستحق الشُكْر، وهو لا يتحقق إلّا بمعرفة المنعم الذي يستحق الشكر، وهذا يستدعي أنْ ينظر فيما يصله من آيات لمعرفته.

الثاني: ملاك وجوب دفع الضرر المحتمل، فلو قابل الإنسان النِعَم والآيات بالإهمال والإعراض يحتمل زوال النِعَم عنه وحرمانه منها، وهو ضرر عظيم يستحسن العقل دفعه، كما ويحتمل أنَّ بالإعراض يُبتلى بالمؤاخذات والعقوبات المترتبة عليه، وهو الآخر ضرر عظيم يحكم العقل بوجوب دفعه.

الثالث: ملاك حُبّ الكمال والتكامل، وهذا ميل فطري مودع في كل إنسان على أساسِ يتعلَّم الإنسان العلوم، ويهذِّب نفسه بالفضائل، ويحسِّن صورته باجتناب الرذائل والقبائح، ويُفضِّل العقلاء العلماء على الجُّهال، والأتقياء على الفُجّار، والمحسنين على غيرهم، فإنَّ الفضائل كمالات يطلبها كل عاقل، والرذائل نواقص يتبرَّأ منها أصحاب العقول السليمة.

وانطلاقاً من هذه الملاكات الثلاثة يحكم العقل على جميع الناس بوجوب النظر في الآيات الواصلة إليهم، وهذه الضابطة لا يختلف فيها العقلاء، فلو وصلتهم الآيات حكمت العقول بوجوب الإستماع لها والنظر فيها ومعرفة صدقها من كذبها، فإن كانت صادقة وجب الإيمان بها للملاكات الثلاثة المذكورة، ولو كانت كاذبة وجب ردُّها وعدم الاستماع إليها.

إنْ قلت: إنَّ الاستدلال المذكور باطل؛ لأن الناس الذين تصلهم الآيات على قسمين: مؤمنون وكافرون، والمؤمنون لا فائدة من نظرهم في الآيات؛ لأنهم مؤمنون بها، والكافرون لا معنى لأمرهم بالنظر فيما لا يؤمنون به، فالنظر في الحالتين لغوي.

والجواب: أنَّ النظر في الآيات ينفع المؤمنين من ثلاث جهات:

الأولى: أنه يؤصِّل الإيمان في قلوبهم وينقلهم من الظَّن إلى العلم واليقين، وهذه رتبة من الكمال الروحي يحكم بوجوبها العقل.

الثانية: يقوِّي الإيمان، ويزيد الإنسان معرفة بربه وبلطفه ورحمته، فإنَّ المعرفة بالله لا نهاية لها، وكلما ازداد المؤمن معرفة طلب المزيد؛ لذا يجب النظر في الآيات الإلهية والتدبر والاعتبار بها، وهذا شأن المحبّين الذين يحبّون أن يروا آثار المحبوب وكل ما يرمز له ويشير إليه، وعلى هذا تحمل الروايات الواردة عن المعصومين عليهم السلام أنهم ينظرون إلى آثار رحمة الله وآيات قدرته، وأنهم يزدادون في علومهم ومعارفهم.

فإنَّ نظرتهم في آياته ناشئة من الحُبّ والانقطاع ومشاهدة آثار حبيبهم في الأشياء وزيادتهم في المعرفة به تبارك وتعالى، فلا ينبغي أن تحمل هذه الروايات على الزيادة في عالم الخلق؛ لأنهم يعلمون بما كان وما يكون وما هو كائن من عالم الإمكان إلّا أنَّ الزيادة تكون في معرفتهم بربهم تبارك وتعالى، فإنَّ هذه المعرفة لا حدَّ لها ولا نهاية كما تضافرت به الأخبار الشريفة، ومن طرق الزيادة في معرفته عزَّ وجلّ النظر في آياته.

الثالثة: زيادة المؤمن قوة في الدفاع عن معتقده والذَّب عن الشبهات والإشكالات التي تثار حول الإيمان والعقيدة.

فإنَّ أهل الإيمان يواجهون جملة من الشبهات والشكوك التي يثيرها المخالفون للدين، أو ضعاف الإيمان حول الدين وقيمه وفلسفته، وربما توجد تيارات وجماعات توظِّف نفسها لهذه المهمة، وكانت منذ زمان الأنبياء وفي كل عصر وجيل موجودة هذه الشبهات والإثارات، والأمر الذي يوجب على أهل الإيمان تقوية عقيدتهم ودعمها بالأدلة والبراهين العلمية التي بها يكافحون الشبهات ويزيلونها.

ففي مواطِن الشبهات لا يمكن الاكتفاء بالإيمان التعبُّدي والتديُّن التسليمي وإنْ كان هذا الإيمان صفة عظيمة من صفات الكمال الروحي، وإنما لابد من الإيمان البرهاني والتدين العقلاني الذي يُعطي لقضايا الدين ما يثبتها بالمنطق والبرهان الصحيح لتثبيت الإيمان والدفاع عنه؛ لذا يدعو القرآن الكريم في محاوراته مع المشركين والكفار إلى إقامة البرهان فيقول: ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1] فبعد أنْ أقام الدليل على وحدانية الخالق وألوهيته دعا المشركين القائلين بتعدد الآلهة إلى إقامة البرهان على ذلك وهذا فن راقٍ في المحاورة يقوم على أساس الإثبات أولاً ثم إبطال حجة الخصم.

فإنَّ الآيات الدالة على وجوده سبحانه ووحدانيته كثيرة، والبراهين العلمية عليها فوق حد الإحصاء ابتداء من برهان النظم وبرهان الحدوث

---

(١) سورة النمل: الآية ٦٤.

إلى برهان وحدة الرسل وبرهان وحدة الشريعة إلى غيرها، وهذا أمر يشهد له الوجدان، فعلى مدَّعي وجود التعدد في الآلهة الإثبات، فإذا لم يقم دليلاً على ذلك فإنَّ العقل يُذعِن للأول وينفي الثاني، وحيث إنَّ المشركين يعجزهم البرهان يكشف عن كذب مدَّعاهم؛ لذا قال: ﴿**إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾[1] ونلاحظ أنَّ النظر في الآيات الإلهية تنفع المؤمنين نفعاً عظيماً في أصل الإيمان وتقويته والدفاع عنه فتبطل اللغوية.

وأما الكافرون فإنَّ العقل يحكم عليهم بوجوب النظر في الآيات الواصلة وإنْ لم يؤمنوا بها أولاً؛ لأنه يحتمل صدقها، وأنها توصل إلى المطلوب، وأنهم لو أعرضوا عنها وقعوا في كفران النعمة، والوقوع في الضرر والتردي في النواقص والرذائل، وكلها مما يقضي العقل بوجوب اجتنابها، وهذه ثمرة مهمة تلزم الناس النظر في الآيات الواصلة إليهم وإنْ لم يؤمنوا بها من قبل؛ لأنها مقدمة للحسن والقبح، وهي فائدة عظيمة تنفي اللغوية.

ويتحصل مما تقدَّم ثلاث نتائج:

النتيجة الأولى: أنَّ وصول الآيات الإلهية إلى العباد يوجب عليهم النظر والتدبر فيها جميعاً - المؤمنون والكافرون - لأنها مقدمة للواجب.

النتيجة الثانية: أنَّ الآيات الإلهية الواصلة لا تختص بالآيات الكونية، بل تشمل القرآن والنبي والإمام عليهم السلام، فلذا لا يختصُّ وجوب النظر بالكفار، بل يشمل المسلمين والمؤمنين كل من الجهة التي يتعيَّن عليهم النظر فيها.

---

(١) سورة النمل: الآية ٦٤.

وعلى هذا الأساس يجب على كل كافر ومشرك النظر في آيات وحدانية الخالق وحكمته لأجل الوصول إلى الإيمان به وبتوحيده، كما يجب على كل إنسان أنْ ينظر في شخصيّة النبيﷺ والتدبر في آيات العظمة والكمالات الربانية فيه لأجل الوصول إلى الإيمان به، فلا يجوز للمسيحي واليهودي وغيرهم من أتباع الديانات الاكتفاء بما لديهم من إيمان دون النظر في آية النبي، ويجب أيضاً على كل مسلم النظر في الأئمة الذين نصَّبهم النبيﷺ خلفاء من بعده، وجعلهم سادة وقادة للناس، وقال: إنهم عدل القرآن ولن يفترقا حتى يردا الحوض[1] كما يجب التدبر في آيات عظمتهم ومظاهر جمالهم وجلالهم لأجل معرفتهم والإيمان بهم.

فالذي يؤمن بالعقل والحكم العقلي فإنَّ عقله يحكم عليه بوجوب النظر في الآيات الإلهية، فلو لم ينظر إليها كان معرِضاً، والذي يؤمن بالله والرسل يجب أن ينظر إلى آية النبيّ المصطفى كخاتم الأنبياء لأجل الإيمان به، فلو لم ينظر كان معرِضاً، والذي يؤمن بالإسلام والنبي يجب أن ينظر في آية وصيِّه ونائبه، فلو لم ينظر كان معرضاً، وحينئذٍ شمله الذَّم ونالته العقوبة.

النتيجة الثالثة: أنَّ الآيات الإلهية إذا وصلت إلى الناس ولم يؤمنوا ينتفي عنوان القاصر والمقصِّر فيهم؛ لأن من وصلته الآية ولم ينظر فيها ولم يتعلَّم كان مقصِّراً، والمقصِّر حكمه حكم العامد في المصير والأثر، وأما القاصر فهو الذي لم تصله الآية الإلهية، وهذا التعليم يدلنا على أنَّ الكثير من العالَم

---

(١) النص والاجتهاد: ص٢٥.

اليوم - خصوصاً بعد توفُّر وسائل التواصل وانتشار الأفكار والعلوم والمعارف - يكونوا مقصّرين لو لم ينظروا ويعرفوا الحق من الباطل، والإيمان الحق من غيره، ويصدق عليهم عنوان الإعراض.

وهنا لعلَّ سؤالاً يخطر في الأذهان مفاده أنَّ القوم ما داموا معرضين لماذا يرسل الباري الآيات ويظهرها لهم ويُذكِّرهُم بها؟

والجواب: لأسباب عديدة:

الأول: لأجل إتمام الحجة عليهم لو أهلكهم أو عذَّبهم أو سلب عنهم الخيرات والبركات، فإنه سبحانه إذا فعل ذلك بهم بعد تذكيرهم وتعليمهم وإعراضهم استحقوا كل ذلك، وانقطعت حجتهم.

الثاني: التنبيه من الغفلة، فإنَّ العباد قد تعميهم غفلة القلوب وتنسيهم أو تسهيهم أو تسلب التفاتهم إلى الحق، ومثلهم يستحقون الإلفات، وهذا من الرحمة واللطف الإلهي.

الثالث: لأجل تحبيبهم إليه سبحانه، فإنَّ الكفر والشرك والنفاق يتضمَّن أمرين هما: كراهة الإيمان ومحاربته، والأول منشؤه الجهل، والثاني الخوف على المصالح كما ذكرنا، ومثلهم لا يهتدون إلّا بإزالة الكراهة وانتزاع المخاوف، وذلك يتم بتذكيرهم بنعم الله وآلائه حتى يحبوه سبحانه؛ لأن الإنسان مجبول على حبّ الإحسان والمحسنين، والحب هو طريق المعرفة والطاعة؛ لذا ورد في الأحاديث الشريفة ما يؤكد هذه الحقيقة، وإنَّ دعوة الناس إلى الإيمان يجب أن تتضمَّن التحبيب أولاً ثم التخويف من التفويت.

ففي رواية جابر عن أبي جعفرعليه السلام قال: ﴿أوحى الله تعالى إلى موسىعليه السلام: أحببني وحبِّبني إلى خلقي. قال موسى: يا رب إنك لَتعلَم أنه ليس أحد أحبّ إليَّ منك، فكيف لي بقلوب العباد؟ فأوحى الله إليه: فذكِّرهم نعمتي وآلائي فإنهم لا يذكرون منّي إلّا خيراً﴾[(١)] والآلاء: النِعَم التي تتلو غيرها، فهي كثيرة مأخوذة من ولي الشيء يليه أي نعمة بعد نعمة، ولذا وردت هنا بصيغة الجمع بين النعمة واحدة وليس بالضرورة تتوالى، فهي أعم من الآلاء[(٢)]، وهناك فروق أخرى تُذكَر في محلها.

وعن النبيّ المصطفىصلى الله عليه وآله قال: ﴿قال الله عزَّ وجلّ لداودعليه السلام: أحببني وحبِّبني إلى خلقي. قال: يا رب! نعم أنا أحبك فكيف أحببك إلى خلقك؟ قال: أذكر أياديَّ عندهم، فإنك إذا ذكرتَ ذلك لهم أحبوني﴾[(٣)].

والأيادي النِعَم. سميت بذلك لأنها تصل عن طريق اليد عادةً، ويصحّ نسبتها إليه سبحانه؛ لانه جعل أيدي الناس بعضهم لبعض من مصادر الرزق والعطاء الإلهي؛ لأنه يدبِّر الأمور بالأسباب، وفي ذلك تعليم عظيم للهداة والمرشدين والمبلغين والتربويين يرسم لهم منهج التربية والتعليم، كما هو تعليم لمن أراد الحقيقة أنْ يقوي إيمانه، ويعالج الشكوك والأوهام الشيطانية في نفسه، وأن يتفكر في نعم الخالق وخيراته، وأن يفكِّر في آيات الخالق لا في ذاته لكي يصل إلى المعرفة، وهكذا المخالف لو أراد أن يعرف

---

(١) البحار: ج٦٧، ص٢٢، ح١٨.

(٢) معجم الفروق اللغوية: ص٦، (٥).

(٣) البحار: ج٦٧، ص٢٢، ح١٩.

فضل إمامه ومقامه وإيمانه به عليه أن ينظر في فضائله وجماله وجلاله لكي يحبه فيؤمن به.

التعليم الثاني: الإعراض عن آيات القرآن

هناك مصاديق أخرى للإعراض عن الآيات الإلهية، وهو الإعراض عن آيات الكتاب، وقد تضمَّنَ القرآن أصنافاً عديدة:

منها: الآيات التي تعلِّم الناس التوحيد وتهذيب الأخلاق والسلوك.

ومنها: الآيات التي تحكي قصص الأنبياء والأُمَم السابقة لأجل العبرة والاتعاظ.

ومنها: الآيات التي تكشف عن العلوم والمعارف.

ومنها: الآيات التي تتضمَّن بيان الأحكام والأنظمة والقوانين الإلهية لإدارة المجتمع الإنساني اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً مثل آيات الشورى ووحدة الأمّة والأخوّة بين المسلمين، وآيات الحرية. إلى غير ذلك من آيات أنزلها الباري عزَّ وجلّ لتكون النهج القويم الذي يهدي الناس إلى أفضل النظم وأعدلها، وهذه الآيات تتلى بين الناس آناء الليل وأطراف النهار، فكما أنَّ الآية الكونية للإمام موجودة بين الناس فإنَّ الآية القرآنية موجودة بينهم وتمُرُّ عليهم كل لحظة وآن، فماذا يقضي العقل في مقابلها؟ يقضي بوجوب الاستماع إليها والتدبر فيها والتعلم منها، وهذا الحكم العقلي وإنْ كان لا يختصّ بالمؤمنين بل يشمل غيرهم إلّا أنَّ المؤمنين معنيّون به قبل غيرهم، ولكن بماذا قوبل القرآن وآياته؟ قوبل بالإعراض من جوانب

عديدة، الإعراض عن القراءة. الكثير من المسلمين الذين يؤمنون بالقرآن ويقدِّسونه لا يقرؤونه، ولا يعرفون قراءته، حتى السوَر والآيات الداخلة في صلاتهم لا يجيدون قراءتها، ولو أردتَ مثالاً واقعياً لهذا انظر إلى المحافل التي تُعقَد لتلاوة القرآن كم يحضرها من الناس؟ وانظر إلى المحافل الأخرى التي تُقام للرياضة أو للفن أو اللهو واللعب كم يحضرها؟

والإعراض عن فهم معانيه ومضامينه، فإنَّ الكثير من أهل القرآن الذين يؤمنون به و يقرؤونه لا يفهمون معانيه ومضامينه.

والإعراض عن تطبيقه والعمل به سواءً على الصعيد الشخصي أو الصعيد الاجتماعي العام، ألم يقل القرآن الخمر والقمار والغناء والرِبا حرام؟ والحجاب على النساء والخمس والصيام واجب؟ كيف تجد حال المسلمين اليوم؟ وكم من المسلمين يلتزم بتعاليم القرآن ويطبقها على صعيده الشخصي؟ وألم يقل القرآن: ﴿**إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ**﴾[١] ويقول: ﴿**إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ**﴾[٢] ويقول: ﴿**وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ الله فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**﴾[٣] و﴿**هم الظَّالِمُونَ**﴾[٤] و﴿**هم الْفَاسِقُونَ**﴾[٥] أين حكم الله وأحكامه في إدارة المجتمع والدولة؟ وأين أحكام الله في الاقتصاد والسياسة وسائر جوانب

(١) سورة الأنعام: الآية ٥٧.

(٢) سورة يوسف: الآية ٤٠.

(٣) سورة المائدة: الآية ٤٥.

(٤) سورة المائدة: الآية ٤٧.

(٥) سورة المائدة: الآية ٤٤.

الحياة العامة للمسلمين؟ فحينما يأخذ المسلمون أحكامهم من غير القرآن وهم يؤمنون به ألم يكن إعراضاً عنه؟ ولذا سيشكو الرسول قومه يوم القيامة ويقول: ﴿ربِّ إنَّ قومي اتَّخَذوا هذا القرآن مهجوراً﴾[١].

إنْ قال قائل: لو أرادَ المسلمون أنْ يأخذوا بأحكام الله في السياسة والاقتصاد فإنَّ ذلك يحتاج إلى اطِّلاع وتكييف الأحكام والقوانين ضمن الضرورات والحاجات اليومية للناس وهذا غير موجود؟

فالجواب: موجود ويمكن مراجعة الفقهاء الربانيين لتخريج ما يحتاجه المجتمع والدولة من ذلك، كما هو الحال لدى الرجوع إلى القوانين الوضعية، حيث أخذوا منها ما وجدوه مناسباً، وكيَّفوا ما لم يجدوه عبر الخبراء، وشتّان بين قوانين الله سبحانه وقوانين البشر، ولهذا البحث كلام مُفصَّل ذكرناه في كتابنا فقه العلوّ والارتقاء يمكن مراجعته[٢].

ويتحصل من هذا التعليم: أنَّ الإعراض عن آيات الله لا يختصّ بالإعراض عن الآيات الكونية خصوصاً النبيّ والإمام، وإنما عن آيات الله القرآنية أيضاً، وهو نهج لا يختصّ بأهل الجاهلية، بل حتى في عصورنا هذه، فهناك إعراض متعمَّد عن ذلك؛ لذا لا تهنأ للمسلمين الحياة، ولا ترقد لهم عيون راحة وأمل بالفرج؛ لأنهم أعرضوا عن الله، ومن أعرض عنه فإنَّ له معيشةً ضنكا، ولا منجى من هذه الآفات والحروب والابتلاءات إلّا بالعودة إلى نهج الله سبحانه والأخذ بأحكامه والاستماع إلى آياته والتعلُّم منها.

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٣٠.

(٢) انظر كتاب فقه العلو والارتقاء: ص٩١.

التعليم الثالث: ثلاث وسائط إلهية للتربية

إنَّ الباري عزَّ وجلّ يتولى تربية عباده في كل شؤونهم، وهناك ثلاث وسائط إلهية للتربية:

الأولى: الواسطة الكونية، فقد جعل الباري عزَّ وجلّ الكون وحوادثه مرآة لصفات جماله وجلاله، وكل الحقائق والوقائع من سماء وأرض وبحار وأنهار وأشجار وإنسان وحيوان ونبات وما يحدث من زلازل وسيول وشمس وقمر إلى غير ذلك من الحوادث المألوفة وغير المألوفة كاشفة عن صفاته سبحانه وأفعاله، والعاقل إذا تدبَّر بها وتأمَّل في مضامينها وغاياتها وآثارها أوصلته إلى الإيمان والمعرفة، وبهذا يتربى على الإيمان بالحق.

الثانية: الواسطة البشرية، وهي النبي والإمام عليهما السلام ومن بعدهما العلماء الربانيّون، فإنّهم يتولون تعليم الناس وتربيتهم وهدايتهم إلى مصالحهم ﴿**وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ**﴾[(١)].

الثالثة: الواسطة القرآنية، فإنَّ القرآن يهدي للتي هي أقوم، ويربي الناس على المعارف ومعالي الأخلاق والعدالة في الحكم.

وكل واحدة من هذه الوسائط الثلاث هي آية من آيات الله سبحانه يجعلها للبشر لأجل أن يربيهم ويعلمهم، فإذا أعرضوا عنها كانوا هم الخاسرين والمستحقين للعذاب، ولذا قال سبحانه: ﴿**وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ**﴾[(٢)] فإنَّ الشمس والقمر من آيات الله، والنبي والإمام والعالِم

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٩.

(٢) سورة يس: الآية ٤٦.

الرباني الذي ينتهج نهج النبي والإمام هو آية من آيات الله، كما أنَّ القرآن كذلك، فإذا استجاب لها الناس وآمنوا واتَّبعوا نالوا سعادة الدنيا والآخرة، وإلّا استحقوا العذاب والهلاك.

والواسطة الأهم من هذه الثلاث هي الثانية؛ لأنها جامعة لغيرها ومحقِّقة لغايتها، بل لا يمكن أنْ تكون تلك آية لولا النبي والإمام والعالِم الرباني؛ لذا جعلت الولاية للنبي والأئمة وأتباعهم مفتاح الأعمال وميزانها، واتِّباع العالم الرباني الذي يأخذ عنهم عليهم السلام في زمان الغَيْبَة الحجة على الناس يجب عليهم اتِّباعهُ، ويحرم عليهم مخالفته والرَّد عليه، ولذا تواتر في الأخبار لزوم ذكرهم والتذاكر بأمرهم ونشر علومهم بين الناس.

ففي أمالي الطوسي عن معتب مولى أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول لداود بن سرحان: «يا داود أَبْلِغ مواليَّ عنّي السلام، وإنّي أقول: رَحِمَ الله عبداً اجتمعَ مع آخر فتذاكرا أمرنا، فإنَّ ثالثهما مَلَكٌ يستغفر لهما، وما اجتمعَ اثنان على ذكرِنا إلّا باهى الله تعالى بهما الملائكة، فإذا اجتمعتم فاشتغلوا بالذِكْر، فإنَّ في اجتماعكم ومذاكرتكم إحياءنا، وخير الناس بعدنا مَن ذاكرَ بأمرِنا ودعا إلى ذِكْرِنا»[1].

وقوله: «**إحياءنا**» قد يُحْمَل على مجاز التقدير أي إحياء أمرنا وذكرنا، وقد يحمل على الحقيقة أي إحياءً لهم؛ لأنه يفرحهم ويدخل السرور عليهم ويحييهم في القلوب والنفوس، ونلاحظ أنَّ الإمام عليه السلام لم يجعل

(١) الأمالي (للطوسي): ج١، ص٢٢٨.

ميزان الأفضلية على الناس العبادة ولا المال وإنفاقه، بل المذاكرة بأمرهم والدعاء لذكرهم، والحديث يدل على رتبة الخطيب والمبلِّغ والمحدِّث عنهم والشاعر والذاكر وكل مَن يساهم في ذكرهم.

وفي الحديث النبوي الشريف في بيان نفثات الشيطان في صدور بني آدم قال: ﴿فإنه –أي الشيطان– يري أحدكم أنَّ شيئاً بعد القرآن أشفى له من ذِكْرِنا -أهل البيت- ومن الصلاة علينا، فإنَّ اللهَ عزَّ وجلّ جعل ذكرنا -أهل البيت- شفاءً للصدور، وجعل الصلوات علينا ماحية للأوزار والذنوب، ومطهِّرة من العيوب ومُضاعِفة للحسنات﴾(١).

وفي هذا الحديث رد على مزاعم البعض بالاستغناء بالقرآن والصلاة والصيام، أو التماس البعض شفاء الصدور والقلوب بطرق الصوفية أو العرفان العملي، أو التماس الأوراد والأذكار من غير الطرق التي عيّنها أهل البيت عليهم السلام، فإنَّ خير الأوراد والأذكار الذي فيه الخير كله مادياً ومعنوياً هو ذكرهم والصلاة عليهم عليهم السلام، وهذا ما يقوم عليه البرهان، ولا يسعنا المجال لبيانه.

فطهارة القلوب ونقاؤها وزوال ظلمات النفوس وبياض الصدور من الضغائن والأحقاد التي هي من أهم ما يوجب ارتفاع العبد ونيل الدرجات بذلك لا بغيره.

---

(١) تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص٥٨٥، ح٣٤٨؛ وانظر مستدرك الوسائل: ج١٢، باب ٢٣ من أبواب فعل المعروف، ص٣٩٢، ح١٤٣٨٥.

وعن أم سَلَمَة أنها قالت: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: ﴿ما اجتمعَ قوم يذكرون فضل عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام إلّا هَبَطَتْ عليهم ملائكة السماء حتى تحف بهم، فإذا تفرَّقوا عَرَجَتْ الملائكة إلى السماء، فيقول لهم الملائكة: إنّا نَشم من رائحتكم ما لا نَشمُّهُ من الملائكة، فلم نَرَ رائحة أطيب منها، فيقولون: كنّا عند قوم يذكرون محمداً وأهل بيته عليهم السلام فعلَق علينا من ريحهم فتعطّرنا، فيقولون: اهبطوا بنا إليهم، فيقولون: تفَّرقوا ومضى كلُّ واحدٍ منهم إلى منزله، فيقولون: اهبطوا بنا حتى نتعطَّر بذلك المكان﴾[1].

وفي الحديث دلالات هامة، ومنها أنَّ للمكان الذي يذكر فيه النبيّ والعترة عليهم السلام آثاراً وخيرات تتبرَّك به حتى الملائكة مسجداً كان أو حسينية أو قاعة درس أو بحث أو أي بقعة من المكان يذكرون فيه.

وأما ما ورد في أثر العلماء الربانيين في هداية الناس في زمن الغيبة وأنهم آية لله سبحانه يجب اتِّباعها والاقتداء بها فهي كثيرة:

منها: ما رواه الطبرسي في الاحتجاج عن مولانا محمد بن علي الجواد عليه السلام: ﴿مَن تكفَّلَ بأيتام آل محمد المنقطعين عن إمامهم المتحيرين في جهلهم الأُسارى في أيدي شياطينهم وفي أيدي النواصب من أعدائنا فاستنقذهم منهم وأخرجهم من حيرتهم وقهر الشياطين بِردّ وساوسهم وقهر الناصبين بحجج ربهم ودلائل أئمتهم ليحفظوا عهد الله على العابد

(١) مستدرك الوسائل: ج١٢، الباب ٢٣ من أبواب فعل المعروف، ص٣٩٢، ح١٤٣٨٧.

بأفضل الموانع بأكثر من فضل السماء على الأرض والعرش والكرسي والحجب على السماء – الظاهر أنه قسم من الملائكة – وفضلهم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على أخفى كوكب في السماء»(١) وقد وضع الحديث ملاك الفضل للعالِم الرباني، وهو هداية الناس بواسطة القرآن والسُنَّة المأخوذة عن النبي والعترة عليهم السلام.

وفي رواية ثانية عن الإمام الهادي عليه السلام في توصيته للشيعة: «لولا مَن يبقى بعد غيبة قائمكم عليه السلام من العلماء الداعين إليه، والدالين عليه، والذابين عن دينه بحجج الله والمنقذين لضعفاء عباد الله من شِباك إبليس ومردته، ومن فِخاخ النواصب لَما بقي أحد إلّا ارتدَّ عن دين الله عزَّ وجلّ، ولكنهم الذين يمسكون أزمة قلوب ضعفاء الشيعة كما يمسك صاحب السفينة سكانها. أولئك هم الأفضلون عند الله عزَّ وجلّ»(٢).

ونلاحظ أنَّ الإمام عليه السلام جعل ميزان الفضل والأفضلية عند الله سبحانه غير ما عند الناس، فميزان الفضل عند الناس العلم والمال والجاه والمنصب ولكن عند الله سبحانه هو هداية الخلق إلى دين الله وإصلاح أمرهم، وفي ذلك حث أكيد للعلماء وأهل الفضل بالتصدي للتعليم والتبليغ والهداية والإصلاح لينالوا هذا الفضل العظيم.

---

(١) الاحتجاج: ج١، ص٩؛ وانظر تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص٣٤٤.

(٢) الاحتجاج: ج١، ص٩-١٠؛ تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص٣٤٤- ٣٤٥، ح٢٢٥.

التعليم الرابع: للفقهاء والأصوليين

فإنَّ الآية المباركة تؤكد على ثلاث قواعد أصولية وفقهية هامة:

الأولى: أنَّ الشارع الحكيم هو المعني بإيصال الحجج الإلهية إلى العباد؛ لأن آياته تأتيهم، والمعيار في حجية الحجة هو الوصول والعلم بها لا مجرد الصدور، ولذا أنزل الكتاب وأرسل النبي ونصَّبَ الإمام لبيان ذلك، وأرجعَ الناس إلى العلماء في زمان الغيبة لتتم شرائط الحجة عليهم، ومضمون الآية يؤكد قول الأصوليين بأنَّ البراءة الشرعية تجري في صورة عدم الوصول، فلو صدرَ البيان ولم يصل جَرَت البراءة لا الاحتياط، وإنما يجري الاحتياط في صورة الوصول التفصيلي أو الإجمالي وهو ما قرره الأصوليون في مجرى الاحتياط.

الثانية: أنَّ استحقاق العقوبة يكون بعد تمام البيان، وهذا يؤكد البراءة العقلية القاضية بقبح العقاب بلا بيان.

الثالثة: أنَّ الفحص عن الحجة والنظر فيها واجب في الأصول والفروع؛ لأن الآية ذمَّت المُعرضين الذين لا يستمعون ولا يتدبرون فيما يأتيهم من آيات إلهية.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ
اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا
أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ
أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ

يس/ ٤٧

لماذا لم يُطعموا الجياع؟

الآية المباركة معطوفة على ما قبلها من الآيات، وقد تضمَّنت حواراً في موضوع ثان لا يتعلق بالعقيدة وإثبات التوحيد والطاعة كما مر في الآيات السابقة، وإنما يتعلق بموضوع إنساني اجتماعي يشترك فيه الناس من حيث الإنسانية بلا فرق بين المؤمنين والكفار، وهذه انعطافة لطيفة في الحوار القرآني يبهر العقول والأفكار، فالحوار الأول دارَ عن مسألة العقيدة والإيمان ودلائل التوحيد عليها، وكشفت الآيات عن مدى عقلانية القرآن في محاورته وسلوكه طريق البرهان والاستدلال المنطقي لإيصال أهل العقول إلى الحق، وكشفت أيضاً عن مدى عناد الكفار والمشركين وتجردهم عن الموازين العقلية في أفكارهم ومواقفهم؛ إذ اتَّبعوا العناد واللجاجة، وأعرضوا عن الآيات، ولمّا لم ينفع معهم ذلك عطف القرآن الحوار معهم إلى موضوع آخر يتعلق بالبعد الإنساني والعاطفي، ودعاهم إلى المساهمة الإنسانية في إطعام الفقراء والجياع ليشاركوا الدين والمؤمنين الغاية والمسار وإنْ لم يشاركوهما في المعتقد، وبه كشفت عن مدى إنسانية الدين والمتدينين ومدى قساوة المعاندين الجاحدين، فإنَّ المؤمن يذعن عقله وقلبه للإيمان، ويستجيب للنداء الإنساني في ضميره، وأما المعاند فيكابر على الإيمان ويكابر على ضميره الإنساني ويتمَّرد عليه، ولو سأل سائل ما هو سر هذا الانعطاف الحواري العميق والانتقال من موضوع عقلي اعتقادي إلى موضوع إنساني عملي؟

والجواب: لتحقيق أربع غايات:

الأولى: الكشف عن واقع الإيمان والمؤمن وواقع الجاحد المعاند، وتظهر التفاوت بين الفئتين في العقول والقلوب والأعمال، فإنَّ المؤمن الحقيقي هو الذي يستجيب بعقله وقلبه وعمله، فإذا لاحظ الإنسان أنَّ عقله يؤمن وقلبه منشغل بغير الإيمان أو قلبه منشغل بالإيمان ولكن عمله يخالف الإيمان فعليه أنْ يكمل إيمانه؛ لأنه سليم الفكر والنوايا، بخلاف المعاند، وأجلى ما يظهر ذلك هو التعاطف مع القضايا الإنسانية لاسيما الجوع والعطش.

الثانية: تشير إلى الشاهد العملي للرحمة الإلهية بالعباد، فإنه سبحانه في قوله: ﴿**إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ**﴾[١] أشار إلى أن فلسفة إنقاذ المعاندين من الهلاك يعود إلى الرحمة الإلهية والتمتع في الدنيا إتماماً لغرض الإيمان، ووعدهم بأنه سبحانه يرحمهم لو اتقوا من المهالك في قوله: ﴿**لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾[٢] ومما يتحقق به الاتقاء الرحمة بعباد الله وإطعام جائعهم وإكساء عريانهم، فلو فعلوا استحقوا الرحمة الإلهية؛ لأن بالرحمة تستنزل الرحمة.

فالأمر في هذه الآية بالإنفاق على الجياع والمحتاجين يتضمن شاهداً عملياً لهذه الحقيقة، وسبب ذلك أنَّ رحمته بعباده حتى نعمة الوجود والحياة تكون بالوسائط والأسباب؛ لأنه يجري الأمور بالأسباب، فلذا أمر العباد أنْ ينفقوا ويرحموا بعضهم، ورحمتهم ببعضهم وإنفاقهم هو مظهر من مظاهر رحمته.

---

(١) سورة يس: الآية ٤٤.

(٢) سورة يس: الآية ٤٥.

الثالثة: بيان أنَّ الإيمان فيه جنبتان اعتقادية وعملية، والمؤمن لا يختبر في إيمانه لمجرد اعتقاده، بل هناك اختبار مكمل له وهو إنسانيته؛ لأن الإيمان فيه جنبتان إلهية وإنسانية، وما لم تجتمعا معاً لا يكون الإيمان كاملاً، فالإنسان لا يكون إلهياً وفي عين الحال يحمل قلباً قاسياً ويمارس الضرب والقتل والوحشية، فإنَّ الشخص الإلهي يتَّبع سبيل الباري في التعامل مع خلقه، وقد كتبَ الباري على نفسه الرحمة، وأبقى العباد أحياء على الأرض للرحمة والتمتيع، فلا يمكن أن يكون المؤمن ومَن يحمل الرسالة الإلهية إلى الناس وحشياً قاتلاً سفّاكاً للدماء، أو ظالماً مستأسداً على الضعفاء والفقراء، وفي الأخبار: ﴿المؤمن من ائتمنه الناس على أموالهم وأنفسهم﴾[1] و: ﴿المؤمن من أمن المسلمون من يده ولسانه﴾[2] ﴿والمسلم مَن سلم المسلمون من يده ولسانه﴾[3] ومتى ما كانت الإنسانية موجودة كان الدين موجوداً، والفرق أنَّ الإلهي من الناس يعمل بإلهيته وإنسانيته معاً، فرحمته أعظم، ومقامه أرقى، وأما غير الإلهي فيعمل بإنسانيته مادامت مشاعره الإنسانية موجودة، فإذا ارتفعت صار قاسياً ووحشاً كاسراً.

والشاهد على هذا ما نراه في العالم اليوم، فإنه ينادي بالإنسانية وحقوق الإنسان وتحكم فيه مؤسسات ومنظمات إنسانية عالمية ورغم

---

(١) البحار: ج٧٠، ص٣٩٩، بيان.

(٢) شرح أصول الكافي: ج١، ص٢٤٩؛ الوسائل: ج١٢، الباب ١٥٢ منأبواب أحكام العشرة، ص٢٧٨، ح١٦٣٠٠؛ البحار: ج٧٤، ص٥٣.

(٣) معاني الأخبار: ص٢٣٩، ح١؛ وانظر الفقيه: ج٤، ص٣٦٢؛ البحار: ج٧٤، ص٥٣.

ذلك تقع فيه حروب طاحنة يقتل القوي فيها الضعيف، ويستغلّ الفقير، والمليارات من البشر يعانون من الجوع والفقر والمرض والخوف والجهل، إلى غير ذلك من مآسي العالم المعاصر، وهذا من الغرائب أن نجد أنَّ العالم يدَّعي الارتقاء الإنساني وسيادة القوانين الحقوقية والمنظمات والمحاكم ورغم ذلك تتعرَّض الإنسانية إلى أفظع أنواع الظلم والعدوان، لماذا؟ لأن المنظمات الإنسانية مجردة عن المنطلقات الإلهية، وما ينطلق عن الجانب الإنساني حدوثاً وبقاءً يدور مدارها، وفي الغالب الأبعاد الإنسانية المجردة خاضعة لنوعين من المبادئ:

الأول: مبدأ العطف والشعور والانفعالات النفسية.

الثاني: مبدأ المصلحة، وكلاهما مبادئ متغيرة غير ثابتة، فلذا نجد أنَّ القوي يتجاوز القيم الإنسانية، ويسحق الضعيف، ويسفك دمه، ويشن حروباً قاسية يبيد بها الطفولة والأنوثة والشيخوخة، ويهلك الحرث والنسل لأجل مصالح سياسية أو نقمة وغضب التعصب وإرضاء للشهوات النفسية.

فالإنسانية الحقيقية لا تكتمل إلّا إذا التصقت بالقيم الإلهية، فإنَّ المبادئ والقيم الإلهية ثابتة لا تتغير ولا تفرق بين إنسان وإنسان ومجتمع وآخر، ولا تضحي بالإنسانية لأجل المصالح السياسية، وهذا ما ترشدنا إليه الآية وتعلمنا أنَّ الإيمان الحق يقوم بالجنبتين الإلهية والإنسانية معاً، لو قلنا بالانفكاك بينهما، فالجنبة الإلهية وحدها ناقصة، والجنبة الإنسانية ناقصة، فإذا تجرد الإيمان عن الإنسانية صار طغياناً وكفراً ونهجاً دموياً،

وكذا لو تجردت الإنسانية عن الإلهية، ومصائب العالم ومآسيه اليوم شاهد على هذه الحقيقة.

الرابعة: تمييز العقول السليمة من غيرها، فإنَّ العاقل هو من ينطلق ويحتكم إلى عقله في أفكاره وأعماله، والعقل السليم يدعو صاحبه إلى الفضائل والتخلي عن الرذائل، ومن أهم الفضائل التي يدعو لها العقل السليم اثنتان:

الأولى: المعرفة بالله وطاعته شكراً لأنعامه.

الثانية: التعامل الإنساني مع الناس والتعاطف مع آلامهم وأفراحهم، وهؤلاء المعاندون الذين دعاهم النبي إلى الإيمان كانوا يدَّعون أنهم سادة العباد، وأنهم أعقل الناس، وأنهم الأكرم، وهم خدمة البيت والمطعمون لزواره؛ لذا ردوا الرسل واستهزؤوا بهم ونسبوهم إلى الجنون والسفاهة وغيرها من أوصاف تنتقص من العقول، ومن هذا المنطلق حاورهم القرآن وأتاهم من الحيثية التي يدَّعون أنهم الأفضل فيها، وهي حيثية العقل والكرم، فأمرهم بالإنفاق وإطعام الفقراء والجياع؛ لأن الإنسان كلما ارتقى عقلاً ارتقى إنسانية، وأبرز علائم ذلك هو الإنفاق والإطعام للمحتاجين، ولكنهم رفضوا وتعللوا بالحجج والأعاذير، وبهذا يكون قد أفرغهم من محتواهم العقلي الذي كانوا يزعمونه، كما أفرغهم من محتواهم القلبي لأنهم أعرضوا عن الإيمان بالرغم من تمامية الحجة والبرهان على الإيمان، وأعرضوا عن الإنفاق فأفرغهم من شعورهم الإنساني عنه، وبهذا كشف

عن مستواهم المتردي جداً والقاسي الذي لا يستحق أن يرحم ويكرم، وليس له من مصير إلّا الهلاك.

وهذا النموذج من الناس موجودون في كل زمان ومكان، ومما يزيد الأمر وضوحاً أنَّ العرب معروفون بالجود والكرم، وهما أبرز صفاتهم، وكانوا ينفقون ويجودون على القريب والبعيد، ومآثرهم في ذلك مما يبهر العقول، إلّا أنهم شحّوا على الفقراء والمحتاجين لما استجابوا، وعندما يجود الإنسان على الجميع ويحرم البعض يدل على أنَّ القضية صارت دواعيها سياسية وحرباً اقتصادية، كما دل على أنَّ المحروم من الإنفاق هو مَن يخالفه الرأي والمعتقد وليس إلّا مَن استجاب للرسول والإيمان، وهذه نكتة هامة فيها أبعاد عديدة تتضح فيما يأتي.

وبهذا ربما يمكن أن نصف الآية بأنها مرآة كاشفة عن حقيقة الإيمان والمؤمن بمعناه العام، وحقيقة الكفر والكافر بمعناه العام، وتمييز نهج الطرفين وخصوصياتهما، وفي عين الحال تثبت حقانية الدين ورجحانه على المبادئ الأخرى، وتفصيل البحث في ذلك يقع في مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآية

وهي عديدة:

المفردة الأولى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾

الواو للعطف وبها يحاكي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ و﴿إذا﴾ ظرفية تتضمَّن معنى الشرط، وصيغة المبني للمجهول في ﴿قيل﴾ تشمل كل ناصح ومرشد كالنبي والإمام والعالم الرباني والآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، والضمير في ﴿لهم﴾ يعود إلى الكفار والمشركين.

والأمر بالإنفاق ظاهر في الوجوب الشرعي؛ لأنه إخبار عن الله سبحانه، بل والعقلي؛ لحكم العقل بحسن الإنفاق وقبح البخل، فإذا كان المنفق عليه محتاجاً في الضروريات كالطعام والشراب واللباس يتأكد الوجوب، ويحرم الامتناع، وبهذا يندفع إشكال لغوية الوجوب الشرعي بحجة أنَّ الكافر لا يؤمن فكيف يؤمر؛ لأن الحاكم بالوجوب ليس الشرع وحده، بل العقل، ومع وجود الحكم العقلي يحمل الأمر المولوي على الإرشاد كما قرره الأصوليون.

وقال: ﴿أنفقوا﴾ ولم يقل: (أعطوا) أو: (جودوا) أو: (أكرموا) لأن الإنفاق إخراج المال من الملك والإعطاء أعم؛ لأنه لا يتوقف على إخراج المال من المُلْك، لذا تعطي الثوب للخياط ليخيطه، أو تعطي المال لولدك ليدخره لك ولا يقال له إنفاق[١].

والإنفاق يلازم الحاجة والجود والكرم، والحاجة فيما إذا أخرجه عن ملكه لسد حاجة كالنفقة على الزوجة والأولاد، أو يكون في مورد العطاء الواجب، ولذا يسمى الإنفاق على الأبوين والأولاد والزوجة نفقات ولا تسمى عطايا أو هبات ونحوها. أما الجود فهو البذل مع السؤال، والكرم العطاء دون سؤال، وبعضهم قال: الجود إفادة من ينبغي لا لغرض بل للعطاء نفسه، والكرم إيثار الغير بالخير أي العطاء مع الحاجة إليه، والحق هو الأول؛ لقول الإمام زين العابدين عليه السلام في الصحيفة: ﴿وأنت الجواد الكريم﴾[٢] ترقّياً في الصفات العليّة من الأدنى إلى الأعلى، أو من الحاجة الذاتية الناشئة من الفقر الذاتي إلى الحاجة العرضية الناشئة من ضرورات الحياة، وما أمرَ به القوم هو الإنفاق وهو أشقّ عليهم؛ لذا امتحنوا واختبروا به.

و ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾ (من) بعضية، و (ما) موصولة، و (الرزق) لا يصح نسبته إلّا إلى الله سبحانه هو الرازق الوحيد، بخلاف باقي الصفات الأخرى كالجود والكرم والعطاء والإنفاق فإنها مشتركة بين الخالق والمخلوق، إلّا أنَّ الرزق مختصّ به؛ لأن الرزق يقال لمعنيين:

---

(١) معجم الفروق اللغوية: ص٨٢، (٣٢٥).

(٢) الصحيفة السجادية: ص١٥١.

الأول: النفع الذي يأتي من عالَم الغيب، ولذا قال سبحانه: ﴿**كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ**﴾(١) وبهذا الاعتبار يطلق الرزق على المال والجاه والعلم.

الثاني: العطاء الجاري على الإدرار، ولهذا يقال أرزاق الجند لأنها دارَّة، ولا يكون العطاء رزقاً إلّا إذا كان من حلال، وإذا حصل من الحرام فليس برزق، ولذا لا يقال لمال السرقة. والغصب والرشوة إنه رزق(٢).

والآية المباركة شملت الاثنين معاً؛ لأنها وبدليل الإضافة إلى لفظ الجلالة تدل على المعنى الأول، وبدليل الإضافة إلى ضمير الجمع للمخاطبين تدل على الثاني، فتدل على أنَّ القوم وإن كانوا كفاراً معاندين إلّا أنَّ الباري عزَّ وجلّ كان يدر عليهم أرزاقهم، وقد عرفوا بالغنى والثروة والسيادة على الناس، ومن وجوه رزقهم وجودهم في مكة التي كانت عاصمة الزيارة والتجارة والمال، وهذا شاهد آخر على رحمته بالعباد، وإنه يبقيهم ليرحمهم.

والتاجر والكاسب نفعه يأتيه من عالَم الغيب؛ لأنه لا يعرف متى يأتيه الربح ولا مقداره ولا وقته ولا مكانه، ولا هو يختار مَن يتعامل معه، وإنما كله يأتيه بتقدير الله سبحانه وباستمرار وإدرار، وبالإضافة إلى لفظ الجلالة

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٣٧.

(٢) معجم الفروق اللغوية: ص٢٥٤، (١٠٠٠)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٣٥١، (رزق).

ينبههم الباري بأنَّ أمرهم بالإنفاق لم يكن من التصرف في أملاكهم ولا في شؤونهم، وإنّما من مال هو أعطاهم إيّاه، فالمال ماله جعله أمانة عندهم، وأباح التصرُّف فيه، فأمرهم بإنفاقه لكنهم أثبتوا أنهم أبخل الناس؛ لأن البخيل هو مَن يبخل بمال نفسه، والأبخل منه مَن يبخل بمال غيره.

والروايات الشريفة تؤكد ما ذكرناه من خصوصيتي الرزق: فَعن النبي صلى الله عليه وآله: «أبى الله أنْ يرزق عبده إلّا من حيث لا يعلم، فإنَّ العبد إذا لم يعلم وجه رزقه كثُرَ دعاؤه»(١) وهذا شاهد آخر على الرحمة الإلهية بعباده.

وعن الصادق عليه السلام: «مَن اهتم لرزقهِ كتب عليه خطيئة إنَّ دانيال كان في زمن ملك جبار عاتٍ أخذه فطرحه في جب وطرحَ معه السباع فلم تدن منه ولم تجرحه، فأوحى الله إلى نبيّ من أنبيائه: إن أئت دانيال بطعام. قال: يا رب! وأين دانيال؟ قال: تخرج من القرية فيستقبلك ضبع، فإتبعه فإنه يدلك عليه، فأتتْ به الضبع إلى ذلك الجب فإذا فيه دانيال، فأدلى إليه الطعام، فقال دانيال: الحمد لله الذي لا ينسى مَن ذَكَرَه، والحمد لله الذي لا يَخيب مَن دعاه، الحمد لله الذي مَن توكَّل عليه كفاه، الحمد لله الذي مَن وثِقَ به لم يَكِلْهُ إلى غيره، الحمد لله الذي يجزي بالإحسان إحساناً وبالصبر نجاة، ثم قال الصادق عليه السلام: «إنَّ الله أبى إلّا أن يجعل أرزاق المتقين من حيث لا يحتسبون، وأن لا تقبل لأوليائه شهادة في دولة الظالمين»(٢).

---

(١) البحار: ج١٠٠، ص٣٠، ح٥٥.
(٢) الأمالي (للطوسي): ص٣٠٠، ح٥٩٣؛ البحار: ج١٠٠، ص٢٨، ح٤٥.

ولا يخفى أنّ (كتب) بصيغة المبني للمعلوم يعود إلى أنَّ الرزق يكتب له ذلك، أي يفرض له رزقه، وهو غير ممدوح، وربما يُقرأ على المبني للمجهول، وسببه أنَّ الاهتمام أما المبالغة في طلبهِ أو من الهم والحزن لأجله، وكلاهما من سوء الظَّن بالله وهو خطيئة.

وفي الحديث دلائل عظيمة وعميقة أشير إليها على عجل.

منها: أنَّ الرزق مكفول لعباده وأنه يأتي من يد الغيب فلا ينبغي للمؤمن أنْ يهتمّ لرزقهِ، بل عليه أنْ يسلك أسباب الرزق ويؤدي ما عليه من عمل ويدعو الله أنْ يرزقه فيأتيهِ رزقه قطعاً، فلا معنى للتكالب على الرزق أو القلق بشأنه.

ومنها: أنَّ أنبياء الله وأولياءه لا تؤذيهم السباع والكواسر؛ لأنها هي الأخرى مؤمنة وعارفة.

ومنها: أنَّ الرزق والطعام لا يكون إلّا بالأسباب.

ومنها: أنَّ الضبع الذي هو آكل لحوم البشر يصبح دليلاً له لإنقاذه، والسبع كذلك. هذا إذا كان البشر مؤمناً بالله سبحانه.

ومنها: أبواب المعرفة التي فتحها دانيال بشكره للنعمة الإلهية، فإنَّ في كل جملة منها معرفة وهداية وأدباً يعلمنا طريق الدعاء والمسألة اللائقة بمقام الباري سبحانه، لاسيّما قوله إنه يجزي بالإحسان إحساناً، وبالصبر نجاةً، والإحسان يشمل كل عمل خير، فإنه يكافأ بالخير، والصبر في كل قضية فيها النجاة أي المخلص والفرج، فعلى طالبي الرزق أن يساهموا في

رحمة الناس والإنفاق عليهم ومعاملتهم بالحسنى حتى يزداد رِزقهم وتكثر خيراتهم، ولو تعسَّرت عليهم بالصبر فإنَّ في ذلك النجاة.

ومنها: قول الصادق عليه السلام: حيث خصص الأرزاق بما لا يحتسب بالمتقين؛ للإشارة إلى أنه رزق إلهي خاص، ومعنى ذلك أنه حلال طيّب عظيم البركة، فمَن لا يتقي يرزق ولكن لا بركة في رزقه، فما بالك بمن يكتسب المال من الحرام؟

وقوله: «لا يقبل شهادة لأوليائه في دولة الظالمين» يحتمل عدة معان:

منها: لا يقبل شهادتهم، أي لا يأذن بأن يتولوا المناصب والمقامات في دولة الظالمين؛ لحرمة الركون إلى الظُلم والمعاونة عليه، وللتفصيل مجال آخر، ومن الروايات ما ورد عن الأصبغ بن نباتة قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «قال الله تبارك وتعالى لموسى عليه السلام: يا موسى! احفظ وصيتي لك بأربعة أشياء: أولهنَّ ما دمت لا ترى ذنوبَك تُغْفَر فلا تشتغل بعيوب غيرك، والثانية ما دمت لا ترى كنوزي قد نفدت فلا تغتم بسبب رِزقك، والثالثة ما دمت لا ترى زوال ملكي فلا ترج أحداً غيري، والرابعة ما دمت لا ترى الشيطان مَيتاً فلا تأمن مَكْرَه»[1].

---

(١) الخصال: ص٢١٧، ح٤١؛ التوحيد: ص٣٧٢، ح١٤.

المفردة الثانية: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاء اللّه أَطْعَمَهُ﴾

(الهمزة) للاستفهام الاستنكاري، ويفهم من قولهم أمران:

الأول: أنَّ المؤمنين دعوا الكفار إلى الإنفاق إما من باب تحفيز الحس الإنساني أو العقلاني فيهم كما ذكرنا، أو من باب إظهار كذبهم وعنادهم، وإنَّ كل ما يتظاهرون به من سمّو وعلو وفهم وعقلانية في مواجهة الأنبياء هو مجرد ادعاءات غير صادقة، فإنَّ الذي يرد آيات الله ويكذِّب الأنبياء ويتهمهم ويجعل نفسه أفهم وأعلم وإنه إنساني الدواعي والغايات يثبت ذلك في العمل، وأجلى ما يختبر به في ذلك هو إنفاق المال على الفقراء.

الثاني: أنَّ الرزق الذي دعوهم لإنفاقه كان الطعام(١)، وهو من الحاجات الضرورية للفقراء والمحتاجين التي تتوقف عليها الحياة، فإنَّ البخيل ربما يجد لنفسه مبرراً إذا منع الإنفاق في الحاجات الكمالية، ولكن لا عذر له إذا منع ذلك في الحاجات الضرورية التي تتقوم بها حياة الناس، ورغم ذلك رفضوا الإطعام، وبرروا هذا الموقف غير الإنساني بأنَّ الفقراء عيال الله ولو شاء أطعمهم، ولذا وصفهم الباري بالكفر، ولأنه عنوان عام يشمل كل أنواع الكفار.

وتوضيح ذلك: أن الكفر على ثلاثة أصناف: هي الكفر العقيدي الشامل لكفر الجحود، وكفر الشرك، والكفر العملي ويشمل المسلم

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٢٠، (طعم).

العاصي، والكفر بالنعمة الشامل للكفر بنعمة الولاية، ويشمل المؤمن الذي لا يدفع زكاة ماله ولا يعين غيره من الفقراء والمحتاجين؛ لأن الإنفاق على الفقراء من الشكر العملي للنعمة.

والمؤمنون جماعة واحدة وهم الموحدون في المعتقد، والمتقون في العمل، والشاكرون للنعم بالإنفاق.

ومنطوق الآية المباركة يشمل الثاني والثالث من أصنافهم؛ لأنهم قالوا: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاء الله أَطْعَمَهُ﴾[1] وهو صريح في أنهم كانوا يؤمنون بالله وبقدرته العامة وعلمه المطلق بالعباد وإنه الرازق لهم فتعللوا به، والاستفهام الاستنكاري شاهد على ذلك، والاستنكار يعود لسببين:

الأول: إظهار عدم استحقاق الفقراء إلى الإطعام لأنهم لو كانوا يستحقون ذلك لأطعمهم الله؛ لأنه لا يحرم نعمته عن المستحقين، فكيف يطلب منهم الإنفاق على من لا يستحق؟ ونلاحظ أنه جواب يتضمَّن اتهاماً للعباد بعدم استحقاق الرحمة، واتهاماً للباري في أنه يحرم نعمته عن عباده، فهو كفر مبطن يتضمَّن الشيطنة والنفاق، وهذه هي سمات أهل القوة والنفوذ، ولم تصدر من أُناس عاديين.

الثاني: إظهار أنَّ الباري يقر بقولهم، ولذا عبَّروا عن ذلك بصيغة المضارع، فإنه يعلم بأحوالهم والمفروض أن يطعمهم في الحال والمستقبل فلماذا تطلبون منا الإنفاق عليهم؟ هذا كله بناءً على أنَّ قولهم على سبيل

---

(١) سورة يس: الآية ٤٧.

الحقيقة، وربما يكون على سبيل التهكم والاستهزاء بالمؤمنين؛ لأنهم كانوا يحاجونهم ويتحدثون لهم عن صفات الخالق عزَّ وجلّ وعن عموم علمه بعباده وقدرته ورزقه لهم، ومَن كان يعتقد بهذا فحريّ أنْ لا يطلب من غيره إطعام عباده لاسيّما وأنهم عباده وخلقه لا عباد غيره، فالذي يؤمن بأنَّ الرزق من الله سبحانه فكيف يطلب الرزق من غيره؟

المفردة الثالثة: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

(إنْ) نافية بمعنى ما، و (إلّا) للاستثناء، والمعنى ما أنتم إلّا في ضلال، والغاية هو حصرهم بالضلال، ونسبة الضلال للضمير المخاطَب (أنتم) يفيد أنهم أرادوا بيان إغراقهم بالضلال وليس في موقف واحد، بل أفكارهم وأعمالهم معاً، وصيغة الجمع تفيد أنهم صنَّفوهم كجماعة تمتاز بنهج خاص في أفكارهم وأعمالهم، وهم خالفوهم ووصفوهم بالضلال، فصار وكأنَّ المجتمع قسمان: ضالون ومهتدون، وبعقلية الاستعلاء والمكابرة وضع الكفار أنفسهم في صف المهتدين وغيرهم في الضالين، ووصفهم بالضلال للإشارة إلى ضعف العقول وخطأ التفكير لديهم، ووصف الضلال بالمبين -وهو صيغة اسم الفاعل- يفيد معنيين:

أحدهما: أنَّ ضلالهم بائن في نفسه لا يحتاج إلى شارح ومبيِّن؛ لما عرفت من الاستفهام الاستنكاري.

وثانيهما: لأن دأب الناس قائم على أنَّ الرزق له أسبابه الخاصة كالعمل والتجارة ونحوهما، وأنَّ الرزق لا يأتي بالصدقة أو بالعطايا. على هذا يقوم

سوق الناس وتقوم معاملاتهم، فإذا جاءهم مَن يدعوهم إلى الإنفاق للمال على ميزان آخر هو ميزان الاحتياج والشعور الإنساني النبيل كان مستغرباً لديهم، ومخالفاً للقاعدة المعهودة؛ لذا يكون بالنسبة لهم واضح البطلان فوصفوه بالمبين؛ لأن كل ما يخالف القاعدة المعروفة يكون بائن الفساد.

أو لعل السبب هو أنَّ دعوتهم إلى الإنفاق مخالفة لإرادة الله سبحانه، فإنَّ الرزق من الله ولو شاء أن يطعم الفقير والمحتاج أطعمه، فكيف يطعمه من هو نفسه محتاج إلى الله في طعامه ونفقاته؟ فإنَّ الأمر بالإنفاق لمن لا يريد الله إطعامه يكون نوعاً من طلب المحال، فيكون بائناً؛ لأنهم تصوروا إرادة الله في عدم الإطعام ليست تشريعية، بل تكوينية، فهو سبحانه منع رزقهم، ولو شاء أنْ يرزقهم رزقهم، والمراد لا يتخلف عن الإرادة التكوينية، فكيف يطعم المخلوق مَن منعَ الخالق إطعامه تكويناً[١]؟ أو لوجود الأولوية العقلية صار مبيناً؛ لأن الله سبحانه أولى بإطعام خلقه؛ لأنهم عياله، فلما لم يشأ إطعامهم كان غيره أولى بذلك[٢].

ولا يخفى ما في قولهم من المغالطة؛ لأن مشيئة الله بإطعام الفقراء تشريعية لاختبار العباد، فلذا لم يطعمهم؛ لأنه أراد إطعامهم عن طريق الخلق أنفسهم؛ لأن الأمور يجريها بالأسباب، وليست إرادته تكوينية حتى يقال بالامتناع، وسيأتي له مزيد بيان.

(١) انظر تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٤، ص٤٥٢.
(٢) بيان السعادة: ج٣، ص٢٨٩.

أو يكون قولهم على سبيل النفاق السياسي أو الاجتماعي الذي غالباً ما يمارسه أصحاب السياسات الفاسدة، والشاهد عليه قولهم: ﴿لَّوْ يَشَاء اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾[1] وهذا يحاكي ثقافة الموحدين؛ لأنهم يؤمنون أنَّ كل شيء بيد الله ومنه إطعام الجائعين، وبقولهم هذا يلوّحون إلى إنَّ إطعامهم للفقراء يتضمَّن نوعاً من الشرك في العقيدة؛ لأننا لو أطعمناهم كنّا شركاء لله في فعله، والشرك من مراتب الضلال؛ لذا وصفوهم به، وبهذا القول ينزهون أنفسهم ويجعلونها عاقلة مدركة للأصلح، وهو شأن الطغاة والمتكبرين القائم على إعلاء شأن أنفسهم واتهام غيرهم بالنقص، أو إيقاعهم في الشك والشبهة.

يبقى هنا سؤالان:

السؤال الأول: ما المراد بالإنفاق؟ ومن أي مال يكون؟

والسؤال الثاني: قوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾[2] قول مَن؟

وقد اختلَفَ المفسرون فيهما.

أما الأول: فالأكثر قالوا بأنه مطلق الرزق، وإنفاقه يكون من جهة الوجوب الإنساني العقلي[3].

---

(١) سورة يس: الآية ٤٧.

(٢) سورة يس: الآية ٤٧.

(٣) تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٦٣؛ تفسير الرازي: ج٩، ص٧٨؛ روح المعاني: ج٢٣، ص٤١٠؛ التحرير والتنوير: ص٣٢؛ تفسير الميزان: ج٢٣، ص٩٣-٩٤؛ تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٤، ص٤٥٢

وفي مجمع البيان ذهب إلى أنَّ الإنفاق يكون من الحقوق الواجبة، وقد أُمِروا بإخراجها من أموالهم؛ لأنها ليست لهم وإنّما لله سبحانه، فالإنفاق يكون واجباً من جهة الشرع[١]، والقول بأنَّ الكافر غير مؤمن فكيف يؤمَر بذلك؟

جوابه: أنَّ الكفار مكلفون بالأصول والفروع على ما ثبت بالدليل، أو أنَّ الوجوب العقلي لا يضر به عدم الإيمان فيؤمَر وأن علم بعصيانه لإتمام الحجة.

والحق إمكان الجمع بين القولين، وظهور المنطوق شاهد على القول الأول، ويمكن تعميمه للقول الثاني لوحدة الملاك، أو للاشتراك في الغاية، وهو إحساس الأغنياء بأحوال الفقراء، ودفعهم للمشاركة معهم في الحياة، وهذه واحدة من الغايات التي لأجلها أوجب الشرع الخمس والزكاة في أموال الأغنياء لإنفاقها على الفقراء.

نعم لو حملنا الكفر في الآية على العملي دون الاعتقادي شمل الجميع. أما العاصي فواضح، وأما الكفر الاعتقادي فلحكومة العقل بوجوب إطعام الجائع.

وأما الثاني: ففيه ثلاثة أقوال:

القول الأول: إنّهم الكافرون في مكة لمّا قيل لهم أنفقوا، ووجهه أنَّ حواشي الكفار والفقراء من أقربائهم ومواليهم في الجاهلية الذين كانوا

(١) مجمع البيان: ج٨، ص٢٧٨؛ انظر مقتنيات الدرر: ج٩، ص٨٧.

يطعمونهم ويتفاخرون بذلك ويتخذونه وسيلة للنفوذ ولماّ آمنوا قطعوا عنهم أرزاقهم، ولماّ حثَّهم النبي والمؤمنون على الإنفاق تعللوا على سبيل التهكم بأنهم حيث تركونا واتخذوا إلهاً آخر ودخلوا الإسلام وجب أن يكون رزقهم عليه لا علينا، وهو نوع من الضغط الاقتصادي لأجل محاربة النبي والإسلام.

القول الثاني: إنّهم الزنادقة المنكرون لله سبحانه، وكانوا بمكة، وكانوا يسمعون المؤمنين يعلقون التدبير والتأثير عل مشيئة الله سبحانه، فيقولون لو شاء الله تعالى لأغنى فلاناً، ولو شاء لأعزّه أو شافاه أو سلَّمه وهكذا، فأخرجوا جوابهم في عدم الإنفاق بأن التدبير كله بمشيئة الله، فليطعم الفقراء إذاً ولا معنى لأمرنا بالإنفاق عليهم، وهو تبرير منهم يتضمَّن الاستهزاء والتهكم، وهذا نسب إلى ابن عباس

القول الثالث: إنّهم اليهود، وكانوا أصحاب أموال فأمروا بالإنفاق فتعللوا بذلك[1]، ولعل إقرارهم بأن الإطعام يعود إليه سبحانه شاهد له، وظاهر الآية هو الأول للإطلاق، وهو يشمل جميع الفئات المذكورة ومَن يشابههم في الصفات والأفعال في جميع الأزمنة، والتعليل الذي ذكروه لتبرير بخلهم وإمساكهم وعدم تعاطفهم الإنساني لازال هو الذريعة التي يتمسك بها أمثالهم في هذه الأزمنة، مع أنَّ كل عاقل يدرك بأنَّ الله سبحانه

---

(١) مجمع البيان: ج٨، ص٢٧٩؛ تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٦٣؛ روح المعاني: ج٢٣، ص٤١.

يجري الأمور بالأسباب، ويدبرها بالوسائط، ومن أسباب إطعام الفقراء حث الأغنياء الذين رزقهم بالمال أن يشاركوا إخوانهم في الإنسانية وينفقوا عليهم، فهو سبحانه الرازق، لكنه يرزق الغني بالوسائط، ويرزق الفقير بواسطة الغني.

وقد فضحهم القرآن من جهتين: جهة أنّهم كانوا قبائل وأسراً فينصر بعضهم بعضاً ويواسيه، و جهة أنهم كانوا يدّعون خدمة البيت والسيادة على الناس بإكرام الضيوف وإطعام الزوار، لكنهم حيث أمروا بالإنفاق امتنعوا مع أنَّ الفقراء كانوا من إحدى الفئتين: إما من أرحامهم أو أقاربهم وخدمهم، أو من زوار البيت، ولكن لأنهم أرادوا الضغط على المؤمنين امتنعوا، وهذا نهج معهود وقائم في معاملة أهل الباطل مع المخالفين لهم. يحاربونهم في أرزاقهم أولاً، فإن لم ينفع يحاربوهم اجتماعياً بعزلهم وتشويه صورتهم، وإن لم ينفع قتلوهم وشردوهم.

ويتحصَّل من مجموع الآية المباركة: أنها تدل على بخل الكفار وتحاشدهم على محاربة المؤمنين وخروجهم عن النهج الإنساني كما خرجوا عن النهج الإيماني. كل ذلك لدواع ودوافع سياسية ومصالح دنيوية.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: أنَّ الكفار ما أجابوا على قول المؤمنين لما قالوا لهم: ﴿**اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾[1] ولكن لمّا أمروهم بالإنفاق أجابوا مستكبرين بقولهم: ﴿**أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاء اللهُ أَطْعَمَهُ**﴾[2] وفي ذلك دلالة على أمرين:

الأول: أنهم في وجدانهم كانوا يعلمون قبح كفرهم والأعمال الناجمة منه، وأنه يقودهم إلى العذاب وهو أمر يصب في مصلحتهم، والعقل والفطرة يوجبان عليهم الاستماع للتحذير والاتقاء من الأضرار؛ لذا لم يملكوا لأنفسهم حجة أو عذراً للجواب فاعتصموا بالصمت.

الثاني: أنَّ الأمر بالإنفاق يعود بالإضرار بهم كما يتوهمون، ويعود بالنفع إلى الغير، ولأنهم يحبون المال وأنانيون يحبون مصالحهم تعللوا وذكروا تبريراً لإعراضهم وبخلهم عن الإنفاق بالرغم من أنَّ العقل السليم

---

(١) سورة يس: الآية ٤٥.

(٢) سورة يس: الآية ٤٧.

والشعور الإنساني يدعوهم إلى إطعام الجياع، وحيث إنَّ مخالفة العقل صعبة وجدوا لهم عذراً فنفوا عنهم الاستحقاق، ونفوا عن الباري إرادة الإطعام.

اللطيفة الثانية: لماذا أمر الكفار بالإنفاق؟

أنَّ الآية أمرت الكفار بالإنفاق ووصفته بأنه من رزق الله، فربما يرد سؤال مفاده: لماذا لا يرزقهم الباري مباشرةً ويأمر الكفار بالإنفاق عليهم؟ وفيه جوابان:

الجواب الأول: يتعلَّق بالفقراء أنفسهم من وجوه:

أحدها: لأن بذلك يمتحن الباري صبرهم ويمحِّص ارتباطهم بالأغنياء، وإنه يكون ارتباط تسليم وانقياد لأجل تحصيل المال، أو ارتباط عمل وكفاءة، فإنَّ الكثير من الفقراء يصبحون ضحايا لآمال الأغنياء وسياساتهم، ويتبعونهم في الحلال والحرام والصحيح والغلط لأجل كسب رضاهم وأموالهم، وبعضهم باعوا دنياهم لهؤلاء، وبعضهم باعوا دينهم ودنياهم لأجل المال، وهؤلاء الأخسرون أعمالاً.

وثانيها: لأجل أن ينقطعوا إلى ربهم ويتوسلوا إليه كما أشار إليه الحديث النبوي المتقدم.

وثالثها: لأجل تحفيز طاقات الفقراء وعقولهم وتحريكهم نحو العمل وتطوير حياتهم والإبداع فيها، فإنَّ الإنسان لا يتطوَّر إلّا بالصعوبات والمكاره، وقديماً قالوا الحاجة أُمّ الاختراع.

والجواب الثاني: يتعلق بالأغنياء من وجوه:

أحدها: الاختبار والامتحان.

ثانيها: تمحيص جواهرهم الدينية والإنسانية، وهو ما يقتضيه العدل الإلهي، فإنَّ الكمالات الإنسانية لا تظهر إلّا بأوقات الامتحان، والصفات الفاضلة لا تظهر إلّا كذلك، وكذلك الصفات الرذيلة، فالعفو والإيثار والسخاء والمحبة والوفاء والألفة والتعاون والتواسي مع الناس لا تظهر إلّا في مواردها، ومنها الإنفاق على الفقراء والمحتاجين، ولو لم يكن اختبار ولا امتحان لادّعى كل الناس الفضائل والتجرد عن الرذائل، إلّا أنَّ في الامتحان تتميز معادن الناس، فلا طريق لظهور كمالات الأغنياء في العطاء والفقراء في الصبر إلّا بذلك.

ثالثها: تربية المجتمع على التكافل والتكامل والتعاون، فإنَّ بالإنفاق والتعاطف الإنساني ينتفي الغل والحقد والحسد بين الناس، وبهذا يقوم الأمن والنظم والارتقاء الاجتماعي والإنساني.

لهذه الوجوه لم يرزق الباري العباد مباشرة، ويأمر أقرانهم وإخوانهم في الإنسانية او أرحامهم بالإنفاق، ويجعل رزق بعضهم متوقفاً على بعض.

اللطيفة الثالثة: الرزق التكويني والتشريعي

أنَّ قول الكفار ﴿**أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاء الله أَطْعَمَهُ**﴾[1] ربما يتضمَّن المغالطة وتضليل البسطاء؛ لأن الرزق الإلهي له حالتان:

الأولى: الرزق التكويني، وهو لا يتخلف عن المراد على ما تقتضيه القاعدة في الإرادة التكوينية، فإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

والثانية: الرزق التشريعي، والمراد أنَّ الباري عزَّ وجلّ يريد إيصال رزقه إلى العباد ولكن لا بالإرادة التكوينية، وإنّما بالإرادة التشريعية، بأنْ يأمر عباده الأغنياء مثلاً بإيصال الرزق إلى الفقراء، فيعلِّق رزقه على إرادة العباد أنفسهم، وهذا رزق إلهي ولكن عبر الأوامر والتشريعات، كما قال سبحانه: للنبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ ولإمام المسلمين ومن ينوب عنه: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا**﴾[2] أي يجب على الإمام العادل أنْ يأخذ من أموال الأغنياء صدقة، وهي حق شرعي من زكاة أو خمس ونحو ذلك، وإذا وجب الأخذ وجب الدفع بالملازمة، والتعليل يدل على أنَّ الغاية من ذلك هو تطهيرهم من حب المال والأنانية، وتنمية قلوبهم وعلاقاتهم الاجتماعية وأموالهم.

وفي آية أخرى يبين موارد صرف الصدقات ويجعلها للفقراء والمساكين وأمثالهم، والرزق التشريعي هو من الله سبحانه؛ لأنه سببه، ولكن واسطته

---

(١) سورة يس: الآية ٤٧.

(٢) سورة التوبة: الآية ١٠٣.

العباد أنفسهم، وقول الكفار: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاء اللهُ أَطْعَمَهُ﴾[١] استدلوا بعدم إطعام الله للفقراء على أنهم لا يستحقون مع أنَّه مغالطة؛ لأن مشيئة الله في إطعامهم ليست تكوينية بل تشريعية عبر أمرهم بالإنفاق، وهو نوع من التضليل وقلب الحقائق، وهذا يدل على أنَّ هؤلاء لم يكونوا متمولين فقط، بل هم ساسة وذوو عقول تجيد خداع البسطاء، وجوابه ظاهر؛ لأن الباري عزَّ وجلّ هو الرازق ولكن بالواسطة.

وينفضح بطلان دعواهم في غير الإنفاق من الأفعال كتحصيل العلم والولد والعمل ونحوها، فإنها حسب منطقهم لا يصح للجاهل أنْ يتعلَّم، ولا للرجل والمرأة أنْ يطلبا الولد، ولا للعامل أنْ يطلب العمل؛ لأنه لو شاء الله أعطاهم، مع أنَّ العاقل يدرك بأنَّ تحصيل هذه لا تكون إلّا بالوسائط والأسباب، فلابد وأنْ يتعلَّم الجاهل، ويتزوج الرجل والمرأة ويطلبا الولد، ويجتهد العامل لتحصيل العمل، وهكذا الرزق.

---

(١) سورة يس: الآية ٤٧.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

وهي عديدة:

التعليم الأول: علائم الإيمان والكفر

إنَّ للإيمان والكفر علائم عديدة، والآية المباركة أشارت إلى علامتين هامتين:

الأولى: التسليم والإذعان لآيات الله سبحانه.

والثانية: الشفقة والإحسان إلى خلقه، وأجلى مصاديقه الإنفاق عليهم وإطعامهم، فالمؤمن يتصف بهما والكافر يعرض عنهما، ولا تخلو أقسام الكفر من الاتِّصاف بهما، فالكافر العقيدي يعرض عن الأولى، والكافر في العمل يعرض عن الثانية، ولا يكون الإنسان مؤمناً بالإيمان الكامل إلّا بالاتّصاف بهما معاً.

وباعتبار أنَّ الإنسانية جزء من الدين - كما ذكرنا - فإنَّ إنسانية الكافر تقرِّبه من الإيمان، كما أنَّ لا إنسانية المتدين تبعده من الإيمان، فإنَّ الآية المباركة أمرَتْ مشركي مكة وأمثالهم بالإنفاق على الفقراء بعد أن أعرضوا عن الإذعان لآيات الله، وبهذا تكون قد عرَّضتهم إلى امتحان واختبار في مصداقية إنسانيتهم التي يدّعونها، وتقربهم إلى الإيمان والطاعة.

وهذه القضية لا تختص بالكفار، بل حتى المتدينون يختبرون في ذلك، وبه تظهر مصداقية إيمانهم، ولذا نلاحظ أنَّ القرآن يقرن الإيمان بإتيان الصلاة وإيتاء الزكاة للخروج من الكفر، فقد فتح الله الباري للكفار المحاربين للإسلام والمسلمين باباً للتوبة والرجوع والكفّ عن المحاربة، بل والدخول في الإيمان، فيقول سبحانه: ﴿**فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾(١) فالتوبة من الكفر والحرب وإقامة الصلاة وإتيان الزكاة تلحق الكافر بالمسلم لقيمة الأخوّة في الدين، وبمقتضى مفهوم الشرط يستفاد الانتفاء عند الانتفاء.

بل في رواية معروف بن خربوذ عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إنَّ الله تبارك وتعالى قرن الزكاة بالصلاة فقال: ﴿**أَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ**﴾ فمن أقام الصلاة ولم يؤت الزكاة فكأنه لم يقم الصلاة»(٢) ومن لم يقم الصلاة حكمه ظاهر.

وعن أبي الحسن الرضا عليه السلام: «فمَن صلّى ولم يُزكِّ لم تُقبَل منه صلاته»(٣) والمراد بالزكاة ليست زكاة الغلّات فقط، بل زكاة المال، وربما عموم الإنفاق الشامل للخمس والصدقات المستحبة – في الجملة – كما قرره الفقهاء في محله.

---

(١) سورة التوبة: الآية ١١.

(٢) الفقيه: ج٢، ص١٠، ح١٥٨٤؛ الكافي: ج٣، ص٥٠٦، ح٢٣؛ الوسائل: ج٩، الباب ٣ من أبواب ما تجب فيه الزكاة، ص٢٢، ح١١٤٢١.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص٢٣٤، ح١٣؛ الخصال: ص١٥٦، ح١٩٦.

وهذا هو محل اختبار الناس حتى من يؤمن بالله واليوم الآخر ويصلي ويحج ويصوم، إلّا أنَّ الاختبار الأشد والأصعب على الناس عادةً المال وإنفاقه في سبيل الله، سواءً كان واجباً أو مستحباً.

وبهذا وردت الأخبار، وروى الصدوق في الفقيه بسنده عن أبي جعفر عليه السلام قال: «بينما رسول الله صلى الله عليه وآله في المسجد إذ قال: قُم يا فُلان، قُم يا فلان، قم يا فلان، حتى أخرج خمسة نفر فقال: أخرجوا من مسجدنا لا تُصلّوا فيه وأنتم لا تُزَّكون»(١) ورواه الكليني والطوسي بأسانيد مختلفة(٢)، وإخراجهم من المسجد يعود إلى وجوه:

أحدها: أنَّ الزكاة الواجبة كانت متعلقة في أموالهم ولا يعطونها عامدين، وهذا عمل ينبغي مكافحته من قِبَل الإمام والقائد؛ لأنه يُشجِّع الناس على المعصية.

ثانيها: أنهم كانوا ينفون وجوب الزكاة ويدَّعون عدم وجودها أو عدم وجوبها، والمنكر لما هو ثابت بالدين يخرجه من الإيمان، فهم كانوا منافقين يحضرون الصلاة ولا يزكّون، ولذا أخرجهم النبي من المسجد وقال لا تصلُّوا فيه، وبإضافة المسجد إليه صلوات الله عليه أو إلى المسلمين يشعرهم

---

(١) الفقيه: ج٢، ص١٢، ح١٥٩٢.

(٢) انظر الكافي: ج٣، ص٥٠٣، ح٢؛ التهذيب: ج٤، ص١١١- ١١٢، ح٣٢٧؛ وانظر المقنعة: ص٢٦٨؛ الوسائل: ج٩، الباب ٣ من أبواب ما تجب فيه الزكاة، ص٢٤، ح١١٤٢٦.

بعدم إيمانهم، بل في رواية أبي بصير عن الصادقعليه السلام قال: «مَن منعَ قيراطاً من الزكاة فليَمُتْ إنْ شاء يهودياً أو نصرانياً»(١) وفي رواية أخرى أنه ليس بمؤمن ولا مسلم(٢).

ثالثها: أنهم كانوا لا يتعاطفون مع المسلمين ولا يواسونهم في الأموال، ولا يمكن أنْ يكون المسلم مسلماً ولا يعطف على المسلمين، ولا يطعم جائعهم، أو يكسو عريانهم.

وروى الصدوق بإسناده عن الصادقعليه السلام أنه قال: «إنما وُضِعَت الزكاة اختباراً للأغنياء، ومعونة للفقراء، ولو أنَّ الناس أدّوا زكاة أموالهم ما بقيَ مسلم فقيراً محتاجاً، ولاستغني بما فرض الله عزّ وجل له، وإنَّ الناس ما افتقروا ولا احتاجوا ولا جاعوا ولا عروا إلّا بذنوب الأغنياء، وحقيق على الله عزّ وجل أن يمنع رحمته من منع حق الله في ماله، وأقسم بالذي خلق الخلق وبسطَ الرزق إنه ما ضاع مال في بر ولا بحر إلّا بترك الزكاة، وما صيد صيد في بر ولا بحر إلّا بتركه التسبيح في ذلك اليوم، وإنَّ أحبّ الناس إلى الله تعالى أسخاهم كفّاً، وأسخى الناس مَن أدّى زكاة مالِهِ ولم يَبْخَل على المؤمنين بما افترَضَ الله عزّ وجل لهم في مالِهِ»(٣).

---

(١) الكافي: ج٣، ص٥٠٥، ح١٤؛ المحاسن: ج١، ص٨٧، ح٢٨.

(٢) الكافي: ص٥٠٣، ح٣؛ التهذيب: ج٤، ص١١١، ح٣٢٥؛ المحاسن: ج١، ص٨٨، ح٢٩.

(٣) الفقيه: ج٢، ص٧-٨، ح١٥٧٩؛ الوسائل: ج٩، الباب ١ من أبواب ما تجب فيه الزكاة، ص١٢، ح١١٣٩٢.

والمعنى الوارد في الرواية متواتر، ودلالته على أثر منع الزكاة في قلَّة الخير والبركة وضياع المال ظاهرة، وهو ما يقضي به البرهان الاستحقاقي؛ لأن للأفعال ردود أفعال مشابهة أو مُسانخة، فالإعطاء الذي فيه نقص من مال المُعطي يقابل بالزيادة والنماء أو التفضلي؛ لأن الرزق من الله سبحانه فما يعطيه العبد في سبيله يقابله بالزيادة؛ لأنه سبحانه يجزي بالإحسان إحساناً.

وتضافرت الآيات والروايات على أنَّ المال الذي يجب أنْ ينفقه الأغنياء والميسورون ثلاثة واجبة وواحد بالاستحباب. أمّا الواجب فهو الزكاة والخمس ومقدار من النفقة يفرضها على نفسه وبحسب استطاعته ينفقها على الفقراء، ولها آثار عظيمة.

منها: ما رواه الكليني بسنده عن القاسم بن عبد الرحمن الأنصاري قال: سمعتُ أبا جعفرعليه السلام يقول: «إنَّ رجلاً جاء إلى أبي – عليّ بن الحسين عليهما السلام – فقال له: أخبرني عن قول الله عزَّ وجلّ: ﴿**وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ**﴾(1) ما هذا الحق المعلوم؟ فقال له عليّ بن الحسين عليهما السلام: الحق المعلوم الشيء يخرجه من ماله ليس من الزكاة ولا من الصدقة المفروضتين – ويشمل كل ما وجب بالذات كالخمس والزكاة، أو بالعرض كالنذر وشبهه – قال: فإذا لم يكن من الزكاة ولا من الصدقة فما هو؟ فقال: هو الشيء يخرجه الرجل من ماله إنْ شاء أكثر وإنْ شاء أقل على قدر ما يملك، فقال له الرجل: فما يصنع به؟ فقال: يَصِل به رحماً، ويقري به

(1) سورة المعارج: الآيتان ٢٤-٢٥.

ضعيفاً، ويحمل به كَلّاً، أو يَصِل به أخاً له في الله، أو لنائبة تنوبه، فقال الرجل: الله يعلم حيث يجعل رسالاته»[١].

وفي رواية أبي بصير عن الصادقعليه السلام: «أترون أنما في المال الزكاة وحدها؟ ما فرض الله في المال من غير الزكاة أكثر تعطى منه القرابة والمعترض لك ممَّن يسألك»[٢] إلى غير ذلك من الروايات الكثيرة[٣].

ولو سأل سائل لماذا يبخل بعض الأغنياء عن الإنفاق وإعطاء الزكاة والصدقات الواجبة؟

والجواب لسببين كما يستفاد من النصوص:

الأول: شح الأنفس وتوهم أنَّ الإنفاق ينقص المال ولا يزيده.

والثاني: الشيطان فإنه يوسوس لهم، ويوحي لهم بأن الإنفاق ينتهي بهم إلى الفقر لا الغنى. يقول تعالى: ﴿**الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً**﴾[٤] وقد جعل القضية معادلة أحد طرفيها وَعْد الشيطان لبني آدم وتثبيط عزائمهم عن الطاعة وعمل الخير، ففي الأموال يمنعهم بحجة أنَّ الإنفاق يلازم الفقر، ويأمرهم بالفحشاء وهو ما عَظُمَ قُبحه من الأفعال والأقوال[٥].

---

(١) الكافي: ج٣، ص٥٠٠، ح١١؛ وانظر الوسائل: ج٩، الباب ٧ من أبواب ما تجب فيه الزكاة، ص٤٩، ح١١٤٩١.

(٢) الكافي: ج٣، ص٥٥١، ح٢؛ وانظر التهذيب: ج٤، ص٥٥، ح١٤٦.

(٣) انظر الوسائل: ج٩، الباب ٧ من أبواب ما تجب فيه الزكاة، ص٤٥-٥٣.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٦٨.

(٥) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٢٦، (فحش).

وهذا الاقتران بين الفحشاء والوعد بالفقر يُشْعِر بصرف الأموال في العصيان أو إظهار التبرير في إنفاقها بالحق إما بإنكار الوجوب أو نفي الاستحقاق ونحو ذلك من مبررات ذكرها الكفار للمؤمنين في الآية محور البحث.

والطرف الآخر وعد الله سبحانه لعباده بالمغفرة والفضل، أي العفو والستر عن العيوب التي تظهر بالفحش، وزيادة المال والبركة فيه، وهو المروي في تفسير القمّي(١).

وهذا النحو من التفكير والجواب تجده عند مَن يمتنع عن الإنفاق والعطاء، وبعضهم يصرِّح به بأنّي إذا زكّيت مالي وتصدَّقت قل مالي وافتقرت، وبعضهم أجرأ منه ليبرِّر لنفسه ذلك المنع بعدم وجود الدليل عليه، وبعضهم يتّهم من يجب عليه مراجعته في الحقوق، وبعضهم يقول بعدم وجود فقراء إلى غير ذلك من مبررات، ولكن كل ذلك يعود إلى بخل النفس وشحها ووعود الشيطان بالفقر، لكن الله سبحانه يقول: ﴿**وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ**﴾(٢) وإخلافه ليس بالمساوي ولا بالأقل؛ لأنه قبيح، وإنما بالأكثر والأفضل؛ لذا قال: ﴿**وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ**﴾(٣).

وقوله: ﴿**مِّن شَيْءٍ**﴾ يفيد عموم الإنفاق قليلاً كان -ولو أقل القليل- أو كثيراً، وسواء مالاً كان أو غيره؛ لأن الغاية مواساة الناس ومشاركتهم

---

(١) نفسير القمي: ج١، ص٩٢؛ وانظر مواهب الرحمن: ج٤، ص٤٨٥.

(٢) سورة سبأ: الآية ٣٩.

(٣) سورة سبأ: الآية ٣٩.

والاستجابة لنداء الله سبحانه والضمير والوجدان الإنساني، والتعويض يشمل نفي الفقر وكثرة المال وزيادة العمر ودفع ميتة السوء، وإنَّ الصدقة تُظلِّل صاحبها يوم القيامة، وهي من أبرز علائم الإيمان كما ذكرنا[١].

التعليم الثاني: الزعماء يقلبون الحقائق

إنَّ من علائم المعاندين والكاذبين -لاسيّما مَن بيدهم السُلْطة والنفوذ- هو قلب الحقائق، وهؤلاء الكفار الذين لم يكونوا عاديين بل كانوا يتمتعون بقوة المال والعقل والنفوذ كما أشرنا إليه قلبوا الحقائق لأجل التهرّب من الوظيفة، وجوابهم كشف عن أنهم يتصفون بثلاثة أوصاف:

الأول: أنّهم كانوا يبخلون عن الإنفاق ولا يريدونه.

الثاني: أنّهم عصاة ومعرضون عن الأمر الإلهي.

الثالث: أنّهم على ضلال وانحراف.

هذا كان واقعهم، ولكنهم علّلوا بخلهم بأنَّ الله لا يريد؛ لأنه لو كان يريد لأطعمهم وبه صوروا أنفسهم بصورة المؤمنين بالله لا المعرضين المعاندين، واتَّهموا المؤمنين بأنهم في ضلال، وهذه مشكلة البشر مع أصحاب السُلْطة والقوة والمصالح السياسية، واليوم هي مشكلة العصر مع الحكام والدول الظالمة. إنَّ الظالم الطاغي يعتدي ويظلم ويقتل بأسماء وعناوين مغرية كاذبة، ولو نلحظ الحروب التي تُقام في العالَم بألوانها وأشكالها المختلفة نجد كلها تحت عناوين ظاهرها صحيح وواقعها قبيح.

---

(١) انظر الوسائل: ج٩، الباب ١ من أبواب الصدقة، ص٣٦٧-٣٧٢.

القرآن الكريم ضرب مثلاً لهذا في فرعون إذ أرادَ أنْ يقتل موسى عليه السلام، ولكن حيث إنَّ غرضه لا يتحقق إلّا بقلب الحقائق فادّعى ثلاثة مُدَّعيات كاذبة. قال: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾[1].

فأولاً: اتَّهَمَ موسى عليه السلام بالكذب وإنَّ ربه لا ينصره، ومعنى ذلك أنَّ دعواه للنبوة كاذبة.

وثانياً: أظهرَ تخوّفه على الناس، وأنَّ موسى عليه السلام يبدِّل دينهم، وهذه دعوى تحريضية عليه.

وثالثاً: اتَّهمهُ بأنه لو غلب وانتصر في دعواه فإنه يُظهِر في الأرض الفساد.

فاتهمه بثلاث تهَم كل واحدة منها تكفي لتجويز قتله في نظرهم؛ لأن الأولى دينية تدخله في عنوان المضلِّلين الذين يدَّعون حق النبوّة كذباً، ومثلهم يقتلون، والثانية شعبية تحريضية؛ لأن الناس يقتلون مَن يهدِّد دينهم بالزوال، والثالثة قضائية، فإنَّ الذي يظهر الفساد في الأرض ويسبب الفوضى واختلال النظام يعاقبه القضاء بالقتل، فكيف لو اجتمعت الثلاث كلها؟

ونلاحظ أنَّ هذه الادِّعاءات كلها التي نسبها إلى موسى عليه السلام هي في الواقع أوصاف فرعون وبصورة أشد؛ لأنه ادّعى أنه ربّهم الأعلى وأنَّ ليس لأهل مصر إله غيره، فإذا كان موسى عليه السلام قد ادَّعى النبوّة كما يزعم فإنه

---

(١) سورة غافر: الآية ٢٦.

ادّعى الربوبية، ولكن غالباً هؤلاء يستغلون جهل الناس وبساطتهم ويضلِّلونهم، وفرعون هذا الذي بدَّل دين الناس الذي هو دين الفطرة أو دين أنبياء الله ودعاهم إلى نفسه وسياسته، وهو الذي أظهر الفساد في الأرض وأهلك الحرث والنسل، وكان يقتل الرجال والأولاد ويبقي النساء للخدمة، وقضاياه معروفة، لكن هذه القبائح كلها ينسبها إلى موسى عليه السلام لكي يخرج هو بصورة النزيه النظيف العادل الذي يحب الناس والحريص على مصالحهم.

وفي آية أخرى يقول لهم: ﴿**وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ**﴾[١] هذا الاستخفاف بالعقول وقلب الحقائق على الناس أسلوب متبع، وفي العصر الحاضر أكثر السياسات في العالم تقوم على هذا النهج، وهو ذاته الذي اتبعه كفار قريش في امتناعهم عن الإنفاق، وهو شاهد على أمور:

الأول: أنَّ التأريخ يتكرر في مبادئه ومنطلقاته وغاياته والصور تتبدَّل.

والثاني: أنَّ نهج الظُلم والكفر والجحود واحد، كما أنَّ نهج الإيمان والصدق - وهو نهج الأنبياء - واحد، والأول هو نهج الشيطان، والثاني هو نهج الرحمن.

والثالث: أنَّ كل ذلك يحدث بسبب جهل الناس وانعدام وعيهم أو استسلامهم وخضوعهم لهؤلاء بالرغبة والرهبة، فلو صحت العقول واستنارت لا يستطيع الظالم ولا الحاكم ولا الدول القوية أن تمرِّر

---

(١) سورة غافر: الآية ٢٩

مشاريعها على الضعفاء بأسماء وعناوين برّاقة، وبذلك نتعلَّم أنَّ قلب الحقائق سياسة مشتركة يتّبعها أصحاب القدرة والنفوذ، ولا علاج لها إلّا بالوعي والمعرفة، ومن أهم أسباب الوعي والمعرفة قراءة التأريخ ودراسة أحداثه دراسة موضوعية، ومن أهم أسباب رفع مستوى الوعي الاجتماعي هو إدخال مادة التأريخ الصحيح في مناهج التعليم والدراسة، فإنَّ قادة المجتمع هم أبناء المدارس والمتعلمون، فلو تعلموا الحقائق انعكس ذلك على المجتمع بشكل عام.

التعليم الثالث: خصائص رزق الله سبحانه

أنَّ كل رزق يأتي للإنسان هو من الله سبحانه بلا فرق بين التاجر والكاسب والعامل والموظف. ما من أحد إلّا ويأتيه رزقه من ربه، وأما العمل والكسب والتعب والجهد فهي مقدمات لابد أنْ يقوم بها الناس لأجل الرزق؛ لأن سنَّة الله سبحانه في الوجود قائمة على أنه يرزق بالوسائط والأسباب وليس بالمباشرة، وقد تكفَّل لعباده بأرزاقهم بما فيهم الكفار والمشركون والظالمون، وهذا يوجِب عليهم شكران هذه النعمة بتحصيل الرزق الحلال وإنفاقه في الحلال ومساعدة الفقير والمحتاج، إلّا أنَّ البعض بسبب سوء ظنِّه بربه أو ضعف اعتقاده يهتم كثيراً لرزقه، فإنْ صعب عليه الحلال ذهبَ إلى الحرام ويبخل في إنفاقه، وهذا أحد أسباب سوء الطالع وزوال البركة وزيادة الفقر فيهم، فإنَّ الرزق الحلال والإنفاق للمال ينمّيه ويزيده، والبخل به ينقصه، ومن خصائص رزق الله سبحانه للعباد ثلاث:

الأولى: أنه يكون على قدر الحكمة والمصلحة.

الثانية: أنه يكون متفاوتاً، فيوجد غنى ويوجد فقر ويوجد متوسط، فليس الرزق مبسوطاً للجميع ولا ممنوعاً عن الجميع، بل يصل متفاوتاً، وهذا له حكمه؛ لأن البشر إذا بسط لهم الرزق جميعاً طغوا، وبغوا ولو افتقروا جميعاً كفروا وجحدوا، فلابد من تفاوت حتى تكتمل العلاقات الاجتماعية.

الثالثة: أنَّ هناك تفضيلاً في الرزق بين الناس، فبعضهم غني وبعضهم لا، ولكن هذا التفضيل بعضه قهري حكمته الاختبار للعباد، وبعضه اختياري يعود إلى عمل الإنسان وجهده وكدِّه وتعبه، فإنَّ بعض الناس يعملون لزيادة رزقهم، ولأن الدنيا تجري بقانون الأسباب والمسببات فإنَّ الرزق يكون خاضعاً لها، وهناك طريقان لزيادة الرزق:

الطريق المادي: وهو العمل والكدُّ والتعب.

والطريق المعنوي: وهو الدعاء والصدقات وأعمال البرِّ والخير.

ومعلوم أنَّ التفاضل في الرزق لا يتعلَّق بأصل الرزق وهو الذي به تتقوَّم الحياة؛ لأن هذا مكفول للجميع بمقتضى الاستحقاق، فإنَّ الخلق عيال الله سبحانه، ولابد أنْ يعولهم، وإنما الزيادة في الرزق وهو الذي تتقوَّم به كمال الحياة ورفاهها، وهذا يكون بمقتضى العدل والفضل لا الاستحقاق، وزيادة الرزق بالطريق الأول هو مقتضى العدل، والطريق الثاني هو مقتضى الفضل.

وإلى ذلك تشير النصوص الشريفة: ففي الخصلة الأولى والثانية للرزق يقول تعالى: ﴿**وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ**

مَّا يَشَاء إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾[(١)] وهي صريحة في ضمان الرزق وتفاوته، وسرّ التفاوت الذي تقدَّمَ بيانه.

وفي الخصلة الثالثة يقول تعالى: ﴿**وَاللّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْرِّزْقِ**﴾[(٢)] وهذا التفضيل يعود إلى العاملين القهري والاختياري بطريقيه، وفي ذلك تضافرت الأخبار الشريفة.

ففي الحديث النبوي: ﴿الرزق يطلب العبد أشد طلباً من أجله﴾[(٣)] وقال صلى الله عليه وآله لأبي ذر: ﴿يا أبا ذر! لو أنَّ ابن آدم فرَّ من رزقه كما يَفرّ من الموت لأدرَكَهُ رزقهُ كما يدرِكه الموت﴾[(٤)] وهذا هو الرزق الاستحقاقي.

وأمّا الرزق العدلي والتفضلي فيحتاج إلى طلب وعمل، وإليه يشير قول رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿إنَّ الرزق لينزل من السماء إلى الأرض على عدد قطر المطر إلى كل نفس بما قدّرَ لها، ولكن لله فضول فاسألوا الله من فضله﴾[(٥)] أي العمل والدعاء والطلب لزيادة الرزق وليس لأصله.

---

(١) سورة الشورى: الآية ٢٧.

(٢) سورة النحل: الآية ٧١.

(٣) جامع أحاديث الشيعة: ج١٧، ص١٧؛ وانظر البحار: ج١٠٠، ص٣٣، ح٦٢؛ جامع الأخبار: ص١٠٨.

(٤) جامع الأخبار: ص١٠٨؛ البحار: ج٧٤، ص٨٧، ح٣؛ وانظر مكارم الأخلاق: ص٤٦٩.

(٥) الوسائل: ج٧، الباب ٤٨ من أبواب الدعاء، ص١٢١، ح٨٩٠٤؛ البحار: ج٥، ص١٤٥، ح١.

وفي البحار أنَّ سليمانعَلَيْهِالسَّلَامُ كان جالساً على شاطئ بحر فبصر بنملة تحمل حبّة قمح تذهب بها نحو البحر، فجعل سليمان ينظر إليها حتى بلغت الماء، فإذا بضفدعة قد أخرجتْ رأسها من الماء وفتحت فاها فدخلت النملة فاها وغاصت الضفدعة في البحر ساعة طويلة وسليمان يتفكَّر في ذلك متعجباً، ثم إنها خرجت من الماء وفتحت فاها فخرجت النملة من فيها ولم تكن معها الحبَّة، فدعاها سليمان وسألها عن حالها وشأنها وأين كانت؟ فقالت: يا نبيَّ الله في قعر هذا البحر الذي تراه صخرة مجوَّفة، وفي جوفها دودة عمياء وقد خلقها الله تعالى هنالك فلا تقدر أنْ تخرج منها لطلب معاشها، وقد وكلني الله برزقها، فأنا أحمل رزقها، وسخَّر الله هذه الضفدعة لتحملني فلا يضرني الماء في فيها، وتضع فاها على ثقب الصخرة وأدخلها ثم إذا أوصلت رزقها إليها خرجت من ثقب الصخرة إلى فيها، فتخرجني من البحر. قال سليمان: وهل سمعتِ لها من تسبيحة؟ قالت: نعم. تقول: يامن لا تنساني في جوف هذه الصخرة تحت هذه اللُّجّة برزقك لا تنس عبادك المؤمنين برحمتك»[١].

وفي الحديث تعاليم كثيرة وعظيمة لبني البشر لو يتأملون، ولا ينبغي أن يفهم من ذلك أنَّ الرزق يأتي للجالسين والمتقاعسين، وإنما يأتي للعاملين.

ففي رواية عمر بن يزيد قال: قلت لأبي عبد اللهعَلَيْهِالسَّلَامُ رجل قال: لأقعدنَّ في بيتي ولأُصلّينَّ ولأصومنَّ ولأعبدنَّ ربي فأمّا رزقي فسيأتيني،

---

(١) البحار: ج١٠٠، ص٣٦ -٣٧، ح٧٦؛ الدعوات: ص١١٥-١١٦، ح٢٦٤.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: «هذا أحد الثلاثة الذين لا يُستجاب لهم»[(١)] فلأجل تحصيل الرزق لابد من سلوك طريق العمل.

وأما الطريق المعنوي فقد تضافرت فيه الأخبار، ففي رواية سعيد بن علاقة قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «ألا أُنبئكم بعد ذلك بما يزيد في الرزق؟» قالوا: بلى يا أمير المؤمنين، فقال: «الجمع بين الصلاتين يزيد في الرزق، والتعقيب بعد الغداة وبعد العصر يزيد في الرزق، وصلة الرحم تزيد في الرزق، وكسح الفنا – ساحة الدار – يزيد في الرزق، ومواساة الأخ في الله عزَّ وجلّ يزيد في الرزق والبكور في طلب الرزق يزيد في الرزق، والاستغفار يزيد في الرزق، واستعمال الأمانة يزيد في الرزق، وقول الحق يزيد في الرزق، وإجابة المؤذِّن يزيد في الرزق، وترك الكلام في الخلاء يزيد في الرزق، وتَرْك الحرص يزيد في الرزق، وشُكْر المُنعم يزيد في الرزق، واجتناب اليمين الكاذبة يزيد في الرزق، والوضوء قبل الطعام يزيد في الرزق –ولو بمستوى غسل اليدين– وأكل ما يسقط من الخوان يزيد في الرزق، ومن سبَّح الله كل يوم ثلاثين مرة دفع الله عزَّ وجلّ عنه سبعين نوعاً من البلاء أيسرها الفقر»[(٢)].

ومعلوم أنَّ فقرات الحديث بعضها ناظرة إلى الأسباب الطبيعية لزيادة الرزق، وبعضها إلى الأسباب الغيبية، كما أنَّ بعضها يزيد في الرزق بمعنى الوفرة، وبعضها بنحو دفع الضرر والفقر، ولو عَمِلَ الناس بهذه التعاليم لا يبقى فقير وجائع في المجتمع، وأسباب زيادة الرزق كثيرة نوكلها إلى محلها.

---

(١) الوسائل: ج١٧، الباب ٥ من أبواب مقدمات التجارات، ص٢٥، ح٢.

(٢) الخصال: ص٥٠٤ –٥٠٥، ح٢.

التعليم الرابع: تبرير الأخطاء مرض وتكبّر

إنَّ من الأمراض التي يصاب بها بعض الناس هو التبرير لأخطائهم وتزيين نواقصهم، والتبرير يتم بنحوين:

الأول: يحاول أن يجد لنفسه عذراً مقبولاً لخطئه لكيلا يعتذر ولا يقر على نفسه بالخطأ، وإنّما يصوّره بصورة الاضطرار والضرورة التي تبيح المحظور.

الثاني: يحاول أن يلقي باللائمة على الغير لينزِّه نفسه منها، وهذا النهج في الوقت الذي يكشف عن نوع من الغرور والعجب وتعصيم النفس من الخطأ يكشف عن نوع جهل وعناد ومكابرة على الحقيقة، والتبرير لا يعالج الخطأ، بل يقابله بخطأ آخر هو ذات التبرير وتعصيم النفس، وبخطأ ثالث إذا ألقى باللائمة على الغير، وهو من أكثر أسباب الضلال والتأخر في الحياة. أضرب لذلك مثالين:

المثال الأول: في الأسرة إذا أخطأ الأب في تربية أولاده لأنه يتعامل معهم بالعنف والقسوة أو يتركهم منذ الصغر يتلقون تعاليمهم وثقافتهم وسلوكهم من الشارع أو وسائل التواصل، ولمّا يكبرون يفقد السيطرة عليهم، ويفلتون من يده. قد تجد بعض الآباء واقعيين يقرون بخطئهم ويحاولون تدارك الأمر ومعالجته، وهؤلاء يصلون إلى نتيجة في الغالب، وقد تجد بعض الآباء مكابرين يبررون تقصيرهم بأنهم كانوا مشغولين ويجهدون للقمة العيش، أو أنهم أوكلوا التربية إلى الأُم فهي التي قصرت، أو أنَّ الأولاد هم غير صالحين إلى غير ذلك من التبريرات، وهذا التبرير لا يحقق إنجازاً، ولا يعالج الموقف سوى أنَّ الأب يتملَّص من المسؤولية ويلقي باللائمة على الغير، والنتيجة هي الخسارة والضياع.

المثال الثاني: من الحياة العامة. قد تجد في المدينة شوارع غير نظيفة ومظاهر لا تليق بالإنسان وبحياته وحينما تسأل ما هو السبب؟ فقد تجد جواباً في بعض البلدان الواقعية وتعرف الجهة المعنية والمسؤولة فتحاسب على فعلها وتعالج الموقف، ولكن في بعض البلدان يضيع الجواب بالاتهامات المختلفة لتعدد المسؤوليات والدوائر، وكل واحدة تلقي باللائمة على أختها، والمحصلة النهائية أنَّ المدينة تبقى بلا شوارع نظيفة، ولا مناطق مزروعة، ولا أحياء تليق بأهلها، وهذا أمر عام يبدأ من أصغر إنسان إلى أكبر المؤسسات والدوائر. التبرير للأخطاء والتملّص منها هو من أكبر عوامل التأخر والتعاسة في البيوت وفي البلاد، والكثير من المشاكل الاجتماعية والأسرية ناشئة منه، ولذا تضافرت الأخبار بوجوب قول الحق والإذعان له ولو على نفسك، وإنَّ الإقرار بالخطأ فضيلة، فعن أبي عبد الله عليه السلام: ﴿ أقرب الخلق إلى الله عزَّ وجلّ يوم القيامة ... رجل قال بالحق فيما له وعليه﴾[(١)] وعن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: ﴿إنَّ لله سبحانه جنة لا يدخلها إلّا ثلاثة: أحدهم مَن حَكَمَ في نفسه بالحق﴾[(٢)].

فإنَّ من أشد عيوب المرء أنْ تخفى عليه عيوبه[(٣)]، ومن كمال الإنسان ووفور فضله استشعاره بنفسه النقصان[(٤)].

---

(١) الكافي: ج٢، ص١٤٥، ح٥؛ البحار: ج٧٢، ص٣٣، ح٢٦.
(٢) الكافي: ج٢، ص١٤٨، ح١٩؛ البحار: ج٧٢، ص٤١، ح٤١.
(٣) عيون الحكم والمواعظ: ص٤٧٢؛ تصنيف غرر الحكم: ص٢٣٥، ح٤٧١٠.
(٤) عيون الحكم والمواعظ: ص٤٧١.

التعليم الخامس: كيف ينجح الحوار؟

إنَّ الذي يحمل الغاية المهمة ينبغي أن يعتمد المناورة وتغيير الأساليب لأجل الوصول إلى الأسلوب الأمثل الذي يوصله لما يريد، ولذا تبدل موضوع الحوار في الآية المباركة من الحوار العقدي بإرسال الآيات والتحذير من مخالفتها الذي لم ينفع معهم إلى موضوع إنساني لا يختلف عليه اثنان؛ لأن الغاية من الحوار هو انتشال هؤلاء الكفار عقلياً وإنسانياً، فإذا تعذَّر ذلك من طريق الحوار الأول يمكن الوصول به عبر الطريق الثاني.

وأيضاً يعلمنا أنَّ الحوار الناجح يقوم على العناصر المشتركة بين الطرفين المتحاورين، وحيث إنَّ البعد الإنساني متفق عليه والعقل مختلف فيه رفعت اليد عن المختلف لأجل التفاهم معهم في المتفق عليه، وهذا التعليم يقوم على قانون الأولويات وتزاحم الأهم والمهم في الملاكات والمصالح.

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ

يس/ ٤٨

والبحث فيها يقع في مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآية

المفردة الأولى: (الواو)

وهي عاطفة تعطف الآية المباركة على ما قبلها، وتضيف عليها معنى جديداً؛ لأنهم في الآية السابقة وصفوا المؤمنين بالضلال المبين، وفي هذه الآية يصفونهم بالكذب ليعززوا صفة الضلال فيهم.

المفردة الثانية: ﴿الْوَعْدُ﴾

ضرب الأجل لحصول الشيء، وهو مصدر بمعنى اسم المفعول والمقصود في الآية يوم القيامة الذي يحصل فيه الحساب والجزاء، والسؤال عن زمان تحقق الوعد الإلهي بالعذاب، والغاية منه هو الهروب من موضوع الحوار حول الإنفاق على الفقراء إلى موضوع آخر مغاير يهدف إلى إبطال الموضوع بإبطال غايته، وهو السؤال عن الوعد بالعذاب أو بالهلكة التي تصيب الكفار بسبب إعراضهم عن الله وآياته وإعراضهم عن إنسانيتهم، وبذلك كشفوا عن شدة عنادهم، وأبانوا جوهر كفرهم، وأنه لا يختص بالإعراض عن المبدأ، بل حتى المعاد؛ لذا عطفوا الكلام منه إليه، واستهزؤوا بالآيتين، وقد جعلوا الحوار بصيغة سؤال لسببين:

الأول: تضعيف المؤمنين نفسياً وإشعارهم باليأس منهم، أو إيقاع التشكيك في معتقداتهم، وهذا أحد سبل الغلبة والانتصار في الاحتجاجات.

الثاني: تحويل الدفاع إلى هجوم في الحوار، وهو أحد أساليب المغالطة بأنْ يشغل المحاور خصمه بالجواب عن أسئلته، وهذا يلجأ إليه المحاور الفاقد للدليل والحجة المثبتة لقوله، ففي الآية السابقة كان المؤمنون في موقع الهجوم؛ إذ أمروهم بالإنفاق، وفضحوهم عقلياً وإنسانياً، وفي هذه الآية هم قلبوا الحوار وسألوا المؤمنين ليشغلوهم بالإجابة عن شكوكهم وأوهامهم ويستهزئوا بهم ليهزموهم، وهذا شاهد آخر على أنَّ الحوار لم يكن جارياً بين المؤمنين والعوام من المشركين والكفار، بل مع رموزهم، وربما حكماؤهم؛ لأن هذا الالتفات لا يعرفه إلّا مَن تمرَّس بالحوار وغاصَ أغواره.

المفردة الثالثة: ﴿إِن كُنتُمْ﴾

إن شرطية والضمير يعود إلى الأنبياء وأتباعهم الذين كانوا قد وعدوا الكفار بسوء العاقبة، وقد وردت بصيغة الشرط لبيان عنادهم وتكذيبهم، فالشرط مسوق لتحقق الموضوع.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: سؤال الملاحدة والكفار واحد

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ جاء معطوفاً على قول سابق أي: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاء الله أَطْعَمَهُ﴾[1] ولكن الملحوظ أنَّ ذاك القول وردَ بصيغة الماضي، وأما هذا فقد وردَ بصيغة المضارع، والفرق هو بيان الاستمرار في القول وعدم انحصاره في زمان أو مكان؛ لأنه لسان حال كل كافر ومشرك ومشكك في المبدأ والمعاد، وهذا ما يؤكده الواقع، فإنَّ في جميع الأزمنة يشترك الكفار والملاحدة بسؤال وهو متى يكون هذا الوعد الذي يحشر فيه الناس إلى الله ويحاسبهم على أعمالهم؟ ولأنّهم لا يحسّونه بالحواس الخمسة ينكرونه، ويتصورون بأن الإيمان منحصر بالمحسوس مع أنَّ الإيمان أوسع من المحسوس، والعالَم فيه أنواع من الموجودات بعضها نحسها بالحواس، وبعضها ندركها بالعقول؛ لأن وجودها فوق الحس، فإنَّ العقل نفسه

---

(١) سورة يس: الآية ٤٧.

حقيقة غير محسوسة بالحواس الخمس لكننا نعرف وجوده بآثاره، و (الواو) عاطفة تفيد الحال أيضاً، أي هي في الوقت الذي تبيّن اتصال الكلام بين الآيتين تكشف عن حال القائلين وأنهم يقولون هذا القول بسبب شكوكهم وعدم إيمانهم واستهزائهم.

اللطيفة الثانية: لماذا الوعد دون الوعيد؟

(متى) في قوله تعالى: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾[1] يسأل بها عن الزمان، والمراد به زمان وقوع الوعد، وأرادوا به تحديد الوقت له، و (هذا) إشارة للقريب. إما لأنّ المؤمنين كانوا دائماً يحدّثونهم عن ذلك ويخبرونهم عن وقائعه فيكون المعنى حاضراً في الأذهان والألسنة فيكون قريباً. هذا لو كان سؤالهم عنه حقيقياً، أو لأنهم سألوا عنه استهزاءً وتكذيباً منهم؛ لأن المؤمنين كانوا قد حذَّروهم وحثّوهم على الاتِّقاء مما بين أيديهم وما خلفهم، ووعدوهم بالهلكة لو لم يستجيبوا، وحيث إنّ المتبادر من الوعد عادةً الهلكة التي يدركها الموعود استعجلوها فسألوا عن وقوعه، وهذا من الأساليب المعهودة في المحاورات.

والوعد لم يرد في منطوق الآيات السابقة وإنما ورد مضمونه، وفيه قولان: قول بأنه الوعد بالعذاب والهلكة في الدنيا؛ لأنه في سياق الحديث عن هلاك قوم نوح بالغرق والتحذير من الوقوع بمثله، والاتقاء لا معنى له لولا التحذير من العاقبة السيئة، وقول بأنه وعد القيامة والعذاب الذي

---

(١) سورة يس: الآية ٤٨.

يصيب الكفار فيه، ولم يحدد نوع الوعد؛ لأنه كان معروفاً لديهم، وقد تواتر النقل عنه بين المؤمنين والأديان السماوية السابقة.

فإنَّ المعاد من جملة القضايا المشتركة التي تتحدَّث عنها جميع الرسالات والمؤمنين بها، فالمعروفية تغني عن الذكر، ولا تنافي بين المعنيين، والإطلاق يتحملهما، وإنّما عبرّوا بالوعد دون الوعيد مع أنَّ المؤمنين كانوا حذروهم من الهلاك وهو من الوعيد لأسباب ثلاثة:

السبب الأول: لأنّ الوعد يستعمل في الخير والشر بخلاف الوعيد فإنه خاص بالشر، وبما أنّ الوعد الإلهي لا يختصّ بالكفار بل يشمل المؤمنين فإنّ المؤمن ينال الخير جزاءً لعمله، كما أنّ الكافر ينال الشر جزاءً لعمله عبَّر بالوعد.

السبب الثاني: لأنه التزام خاص من قِبل المؤمنين بأنّ من يكفر ينال جزاءه السيّء ويسمى وعداً باعتبار الخصوصية.

السبب الثالث: لأن القول هو قول الكفار، وهم لا يفرّقون بين الوعد والوعيد، فإنّ التفريق حاصل في الدين، ويتعلَّق بشؤون الخالق تبارك وتعالى في ضمن موازين علم الكلام، وهذه الموازين لا يدركها هؤلاء.

وعلى كل تقدير فإنّ قوله: ﴿**مَتَى هَذَا الْوَعْدُ**﴾ يدل على أمرين:

الأول: أنهم ما كانوا يملكون دليلاً على نفي المعاد وتكذيب قول المؤمنين؛ إذ لو كان لهم دليل لأظهروه؛ لذا اكتفوا بالسؤال عن زمان وقوعه لكنهم حيث يفقدون الدليل ولا يريدون الإذعان للحقيقة يستهزئون ويتساءلون ويشككون، وهذا النهج متداول لديهم في جميع الأزمنة؛ إذ تجد أنّ الملاحدة والشكاكين لديهم جملة أسئلة مكررة أينما حانت فرصة للقاء

بالمؤمنين يثيرونها وكل ما يعطَوْن من أجوبة مهما كانت منطقية وعلمية ومبنية على ثوابت عقلية ومنطقية هم يشككون ويتساءلون، وليس غاية بعضهم الوصول إلى الحقيقة بل تكريس الشك، وحينما تسألهم عن الدليل على النفي يعييهم الجواب، فهم لا دليل لهم على عدم الإيمان، ويشككون في دليل الإيمان، ولا يخفى أنّ هذا نوع من الأمراض النفسية التي يصاب بها بعض الناس فيقعون في الشبهات مع أنهم لو تأملوا في حوادث الوجود وآياته لوصلوا إلى الحقيقة بأسرع السبل وأسهلها لكنهم يعرضون.

الثاني: سعيهم لإبطال دعوى المؤمنين لهم بالاتقاء والإنفاق، فإنّ الحذر من المخاطر والإنفاق على الفقراء مبنيّان على مبدأين ديني وإنساني، وكلاهما مبنيّان على وجود وعد إلهي فيه جزاء وعقاب وثواب، فلو انتفى هذا الوعد انتفى ما يبنى عليه، فلو كذبوه ونفوا حقيقته أبطلوا الأمرين معاً، وهذا يدل على أنهم كانوا يجيدون الحوار، ويعرفون أساليب المكر والتخلُّص من الضغوطات.

اللطيفة الثالثة: في قوله: ﴿**إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾[1] (إنْ) شرطية، وهي مسوقة لبيان تحقق الموضوع، نظير قولهم: (إن حصلتَ على الدار فاسكنها) فإنه لا يراد به إثبات المفهوم والانتفاء عند الانتفاء لأنه لا معنى له، وإنما الغاية هو بيان أنّ السكنى تتحقق بتحصيل الدار أولاً؛ إذ لا معنى للقول بأنّك إن لم تحصل على بيت فلا تسكنه؛ لأنه من السالبة بانتفاء الموضوع، وفي الآية الشرط هكذا.

---

(١) سورة يس: الآية ٤٨.

والمراد أنّ الصادق إذا أخبر بشيء ينبغي أن يعرف وقته وزمانه، وهم طلبوا تعيينه بلسان الشرط لبيان التهكم والاستهزاء بهم، فهو صورته شرط وواقعه ليس بشرط، والغاية منه إحراج المؤمنين والتعريض بهم؛ لأنهم يعلمون أنّ الوعد الإلهي لا يعلمه إلّا الله، وقد جعل الباري عزّ وجلّ لكل شيء أجلاً، والكون يجري بنظام الحكمة، وكل شيء يقع بأوانه وزمانه الذي قرَّره الباري بحسب ما تقتضيه الحكمة، لا على طلب الكفار والمشركين.

فإذا لم يتحقق الوعد في المدة التي يسألها المشركون أمسكوا بذريعة التهريج والتهكُّم بهم واتّهامهم بالكذب، وتعليق الإذعان لصدق المؤمنين على تعيين زمان الوعد الإلهي يحقق للكفار ثلاث فوائد:

الأولى: أنه هروب من إحراج المؤمنين لهم بالحوار وقلب المعادلة من الدفاع إلى الهجوم.

الثانية: أنه يتضمَّن مغالطة ثانية على المغالطة الأولى حينما امتنعوا عن الإنفاق بحجة عدم استحقاق الكفار، وعدم إرادة الباري لذلك.

فإنّ عدم تحقق الوعد في المدة التي يطلبها الكفار لا يعني عدم وقوعه؛ إذ لا ملازمة بين عدم تحقق الوعد في المدة المعينة وعدم وقوعه مطلقاً، وهذه المعادلة قد لا يدركها بسطاء الناس فتنطلي عليهم.

الثالثة: قلب الحقائق وتزييفها بتوصيف المؤمنين بالكذب وعدم الصدق مع أنّ الكاذب الحقيقي والمكابر على الحقيقة هم أنفسهم، وهذا شاهد آخر على أنّ القوم ما كانوا عاديين ولكن سيبادرهم الباري عزّ وجلّ بجزاء ما كانوا يتوقعونه، ويأخذهم من حيث لا يشعرون، وهذا يبيّنه في الآيات التالية.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

وهي عديدة:

التعليم الأول: الوفاء بالوعد واجب عقلي

إنّ الوفاء بالوعد من الواجبات العقلية؛ لذا طالب الكفار بالوفاء به، وقد أقرّ الباري عزّ وجلّ قولهم في ذلك وأمضاه فلذا أجابهم بالوفاء في الآيات التي تليها، والظاهر أنّ الوجوب مما يستقل بحكمه العقل فيلازمه حكم الشرع بناءً على الملازمة بين ما يحكم به العقل ويحكم به الشرع كما يقوله المشهور، أو هو عين حكم الشرع كما نقوله وقررناه في الأصول[1]؛ لأن الشرع جعل العقل حجة في المستقلات فلا حاجة إلى جعل شرعي ملازم لحكم العقل، وبهذا يظهر أنّ قول بعض الفقهاء وأهل اللغة بأنّ الوفاء بالوعد واجب أخلاقي ومستحب شرعي قابل للتأمل[2]، وتعززه النصوص الشريفة.

---

(١) المهذب في أصول الفقه: ص٣٤٢-٣٤٤.

(٢) انظر معجم الفروق اللغوية: ص٣٧٩، (١٥٢٥).

منها: قوله تعالى: ﴿**وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً**﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿**وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ**﴾[٢].

فإنّ الأولى وردت بصيغة الأمر بالوفاء بالعهد، وأكدته بتأكيد السؤال عنه، والثانية وردت بصيغة جملة خبرية تفيد تأكيد الوجوب، و(العهد) الاحتفاظ بالشيء، وإليه ترجع سائر المعاني كالأمر والوصية والأمانة والوعد والعقد وغيرها[٣]، ويشمل كل ما التزمه الإنسان من الأعمال ونحوها مع الله ومع غيره، لذا قالوا بشموله للنذور والأيمان[٤]، كما يشمل الوعود، والعهد والوعد كالفقير والمسكين إذا اجتمعا افترقا، ويكون الالتزام في العهد بين طرفين والوعد من طرف واحد، وهو ما يعبِّر عنه الفقهاء بالشرط الابتدائي، ولكن إذا افترقا اجتمعا، فالعهد يفيد الالتزام المؤكد.

والمأمور به في الآية إما العهد بمعناه المصدري فيدل على وجوب الوفاء بالالتزام الذي التزمه الإنسان على نفسه، أو هو مصدر بمعنى اسم المفعول أي الموثق الذي التزم به الإنسان، وعلى كلا التقديرين يشمل الوفاء، وصيغة الأمر وجملته تدلان على الوجوب[٥]، وهو ما تضافر في الأخبار.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٣٤.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٧٧.

(٣) انظر معجم مقاييس اللغة: ج٤، ص١٦٧، (عهد)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٩١، (عهد).

(٤) مجمع البحرين: ج٣، ص١١٤، (عهد).

(٥) انظر مواهب الرحمن: ج٢، ص٢٩٣.

ففي الخصال عن عنبسة بن مصعب قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ﴿ثلاثة لم يجعل الله لأحد من الناس فيهنَّ رخصة ومنها: الوفاء بالعهد للبرِّ والفاجر﴾[1].

وفي رواية هشام بن سالم قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ﴿عِدَة المؤمن أخاه نذر لا كفّارة له، فمن أخلف فبخلف الله بدأ، ولمقته تعرّض، وذلك قوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۞ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ**﴾[2] ﴾[3] وجعل الخلف بمنزلة النذر الذي لا كفارة له يتضمَّن الإشارة إلى أهميته، وتأكد وجوب الوفاء به، لأن مخالفة النذر فيها علاج وهو الكفارة، وأما الوعد فلا علاج له إلّا الوفاء، ومقت الله سبحانه سخطه وغضبه عزّ وجلّ والتعرّض له من أشد المحرمات، واستدلال الإمام عليه السلام بالآية شاهد على أنّ الخلف من شعب النفاق.

وفي رواية يزيد الصائغ قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: رجل على هذا الأمر إن حدَّثَ كذب، وإن وعدَ أخلف، وإن ائتُمِنَ خان ما منزلته؟ قال: ﴿هي أدنى المنازل من الكفر وليس بكافر﴾[4] ونفى الكفر عنه لأنه موال كما

---

(١) الخصال: ص١٢٨، ح١٢٩؛ تفسير كنز الدقائق: ج٧، ص٤٠٧؛ تفسير نور الثقلين: ج٣، ص١٥١، ح١٤١.

(٢) سورة الصف: الآيتان ٢-٣.

(٣) الكافي: ج٢، ص٢٦٢، ح١؛ الوسائل: ج١٢، الباب ١٠٩ من أبواب أحكام العشرة، ص١٦٥، ح١٥٩٦٦.

(٤) الكافي: ج٢، ص٢٩٠، ح٥؛ الوسائل: ج١٥، الباب ٤٩ من أبواب جهاد النفس وما يناسبه، ص٣٤٠، ح٢٠٦٨٩؛ البحار: ج٦٩، ص١٠٦، ح٥.

يفيده قوله: على هذا الأمر أي الولاية، وهي أساس الإيمان والتوحيد، ويحمل أدنى المنازل من الكفر على الكفر العملي وهو العصيان.

وبمقتضى مفهوم الوصف يستفاد المعنى المقابل وتؤكده رواية عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ثلاث مَن كُنَّ فيه كان منافقاً وإن صام وصلّى وزعم أنه مسلم: مَن إذا ائتُمِنَ خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا وعدَ أخلف»[1] إلى غير ذلك من الروايات وهي كثيرة جداً، ويستفاد منها حرمة خلف الوعد في الجملة. نعم هناك موارد مستثناة يجوز فيها الخلف تحمل عليها الروايات الظاهرة في الجواز، وتفصيلها في الفقه.

التعليم الثاني: أنّ المطالبة بالوفاء بالوعد حق يثبت للموعود له في ذمّة الواعد. والحق رتبة من مراتب السلطنة؛ لذا يجد العقلاء الحق للموعود له بالمطالبة بالوفاء بالوعد الذي التزم به، ويقبحون خلف ذلك، ويذمون المخالف.

فصاحب الحق له سلطنة على حقه، فيندرج في الحقوق المشمولة بقانون السلطنة؛ لأن الوعد هو التزام، ويعبرَّ عنه بالشرط الابتدائي، وفي وجوب الوفاء به عندهم خلاف، والحق هو الوجوب على ما قررناه، ولأصحاب الحقوق سلطنة على حقوقهم كما لهم سلطنة على أموالهم وأنفسهم[2]، وعلى

---

(١) الكافي: ج٢، ص٢٩٠، ح٨؛ الوسائل: ج١٥، الباب ٤٩ من أبواب جهاد النفس وما يناسبه، ص٢٤٠، ح٢٠٦٨٧.

(٢) عوالي اللآلئ: ج٣، ص٢٠٨، ح٤٩؛ البحار: ج٢، ص٢٧٢، ح٧؛ المكاسب: ج٦؛ جامع المدارك: ج٣، ص١٨٧.

هذا الأساس يصح التعاقد على هذا الحق بأن يتنازل الموعود له عن حقه في الوفاء في مقابل مال أو عوض ونحو ذلك، أو يستبدله بحق آخر كما هو الحال في سائر الحقوق إلّا ما خرج بالدليل.

التعليم الثالث: أنّ مصداقية الإنسان تظهر بمطابقة أقواله لأفعاله، فإنّ القول دون عمل مرتبة من مراتب النفاق، والعمل دون قول إن كان العمل شراً بأن يقول الخير ويعمل الشر فهو نفاق، وإن كان خيراً وقوله كان شراً فهو كذب، والكل قبيح ومحرَّم، وإليه يشير قوله: ﴿**لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ**﴾(١) والصدق لا يتحقق إلّا بمطابقة القول والعمل، والمؤمن يقول الحق ويعمل به.

التعليم الرابع: حجية خبر الواحد

تفيد الآية أنّ خبر الصادق يجب أن يؤخذ به ويرتب عليه الأثر، وهذا الوجوب ثابت بمقتضى العقل البديهي والسيرة العقلائية، ولذا طالبَ الكفار المؤمنين الوفاء بالوعد إن كانوا صادقين، ومعنى ذلك أنّ تصديق الصادق مفروغ منه، والصادق ليس مَن عُلم بصدقه بل مَن لم يُعلم بكذبه لوجوه ثلاثة:

الأول: الأصل العقلائي القائم على تصديق كل مخبر لم يُعلم بكذبه وفقدانه لمؤهلات التصديق كالمجنون والصبي.

---

(١) سورة الصف: الآية ٢.

الثاني: أصالة الصحة في قول الإنسان المؤهل وفعله ما لم يعلم كذبه، وهو أصل شرعي أو عقلي على ما قرر في محله.

الثالث: حكم العقل فإنّه لولا تصديق مَن لم يُعلم بكذبه امتنع تصديق أكثر الإخبارات؛ لاستلزامه التسلسل والدور، بل ولاختلّ نظام العباد حتى في تبادل العلوم والفنون، والشاهد عليه قيام السيرة على عدم مطالبة المخبرين بشهادة صدقهم حتى يصدقوا، بل يكفي في ذلك عدم وجود الأمارة على الكذب، وبهذا تثبت ثمرة أصولية مهمة في باب حجية أخبار الآحاد، وثمرة فقهية مهمة في باب تصديق أقوال المخبرين في الموضوعات، سواء الموضوعات الخفية أو العرضية، كقول الطبيب وذي اليد والمقرِّ والمرأة فيما يتعلَّق بشؤونها ونحو ذلك .

التعليم الخامس: أنّ الاستهزاء بخبر الصادق فضلاً عن تكذيبه قبيح ومحرَّم ويستحق فاعله العقوبة.

التعليم السادس: ان التجري حرام

تفيد الآية المباركة أنّ التجرؤ على الله سبحانه مذموم وفيه العقوبة، فقد تجرأ الكفار بتكذيب المؤمنين بقولهم: ﴿**إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾[1] وهو بالملازمة تجرؤ على الله سبحانه ورسوله؛ لأن المؤمنين يخبرون عنهما[2]، فقول جمع من الأصوليين بقباحة الفاعل دون الفعل من التجرؤ وإنه ليس بحرام فيه نظر، كما أنّ التجرؤ يقع بالواسطة ولا تشترط فيه المباشرة.

---

(١) سورة يس: الآية ٤٨.

(٢) انظر التبيان: ج٨، ص٣٥٢.

مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً
تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ

يس/ ٤٩

زمان الوعد وعلائمه

وقد جاءت جواباً عن سؤالهم متى هذا الوعد، ولأن سؤالهم كان لاستعجال الجواب جاءهم الجواب بدون مقدمات، فقال ما ينظرون إلّا صيحة واحدة، ونلاحظ هنا أنّ سؤال الكفار كان عن الوعد وزمانه إلّا أنّ الجواب لم يأتِ عن ذلك، بل عن بيان علائمه، وفي ذلك حكمة عظيمة ولطف كبير من وجوه عديدة:

الوجه الأول: لأن تحديد زمان الوعد ممتنع وقوعاً.

أولاً: لجهل المؤمنين به.

وثانياً: لاستلزامه إبطال سنَّة الاختبار للعباد، ولو علم الناس بزمان الوعد لأغوتهم نفوسهم، وأغراهم الشيطان بالتمادي بالعصيان والتسويف بالتوبة، ومثل ذلك يقال في إبهام زمان الموت، فإنه لو عَلِمَ الإنسان متى يموت ربما تمادى في العصيان، وهو في ضرره، فإبهام الوقت لطف إلهي بالعباد.

الوجه الثاني: لأن العلائم هي دلائل الوعد، والوعد ظرف زمان وهو غير متشخص، وتشخيصه يكون في وقائعه وأحداثه، وهي القاعدة العامة في الزمان، فإنّ الساعة واليوم والشهر والسنة بما هي وقائع إنما تحسب بالحوادث والوقائع التي تحدث فيها. أما الزمان بما هو فهو أمر اعتباري لا تقرر له في الخارج، وإنما يحدث بعلاماته، مثلاً اليوم يحسب من طلوع الفجر إلى الطلوع الثاني، والنهار يحسب من طلوع الشمس إلى غروبها، والشهر من طلوع الهلال إلى طلوعه الثاني وهكذا.

فلولا هذه الحوادث الدالة على الزمان لم يعرف الزمان كما هو الحال في سائر الأمور الاعتبارية على ما قرّره أهل المعقول، ولذا عرّف بعضهم التأريخ بأنه سجل الحوادث(١) مع أنّ التأريخ كله يقع في الزمان، إلّا أنّ الزمان لم ينظر فيه وإنما وقائعه وأحداثه، وهكذا وعد الآخرة فإنه باعتباره الزماني ليس هو المنظور، بل الوقائع التي تدل عليه.

إن قلت: لكنكم ذكرتم في معنى قوله: ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾(٢) إنّ الليل والنهار أمران وجوديان مخلوقان وليسا بأمرين اعتباريين.

قلت: الليل والنهار وأمثالهما لهما لحاظان:

الأول: بما هما وقائع وحوادث متعددة فلا شك أنها موجودة ومخلوقة، وإليه تشير الأدلة.

والثاني: الزمان الذي يحدث فيه الليل والنهار فهو أمر اعتباري ناشئ مما يقع فيهما.

الوجه الثالث: أنّ حوادث الوعد هي المقصودة أولاً، وسؤالهم عن الوعد ليس لأجله بل لأجل ما يقع فيه من أحداث ووقائع، ولذا جاء الجواب اختصاراً للحوار، فذكر علائم الوعد، وأعرضَ عن وقته لامتناع بيان الوقت، ولأهمية علائمه. هذا هو الجوّ العام للآية المباركة، وتفصيل البحث فيها يقع في مباحث:

---

(١) انظر الإمام جعفر الصادق عليه السلام: ص٦٠.

(٢) سورة يس: الآية ٤٠.

المبحث الأول: في مفردات الآية

المفردة الأولى: ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾

(ما) نافية بمعنى (لا) و (ينظرون) فيها قولان:

القول الأول: الانتظار، وعليه أكثر المفسرين أو جُلُّهم، والمعنى ما ينتظرون كفار مكة إلّا أن تأتيهم صيحة تأخذهم، وكأنّهم لا همّ لهم ينتظرونه إلّا وقوع الصيحة[1]، وبذلك قال بعض أهل اللغة[2].

ويتضمَّن الترقب لوقوع الحدث[3]، وهو ما يقتضيه الحال؛ لأن مَن يطلب الوعد ينتظر وقوعه.

---

(١) التبيان: ج٨، ص٣٥٢؛ تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٦٣؛ مجمع البيان: ج٨، ص٢٧٩؛ تفسير الميزان: ج٢٣، ص٩٨؛ تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٤، ص٤٥٢؛ نفحات الرحمن: ج٥، ص٢٧١؛ تفسير الأمثل: ج١٤، ص١٥١؛ تفسير الرازي: ج٩، ص٨١؛ روح المعاني: ج٢٣، ص٤٢؛ روح البيان: ج٧، ص٤٠٧.

(٢) انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨١٣، (نظر)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص٤٩٨، (نظر).

(٣) انظر المعجم الوسيط: ج٢، ص٩٣٢، (نظر).

القول الثاني: هو رؤية الشيء ومعاينته، وهو الأصل في معناه لغةً وعرفاً[(١)]، وهو مأخوذ من النظر، ويفترق عن الانتظار في أمرين:

أحدهما: أنّ الانتظار ترقُّب وقوع الشيء، فهو سابق على الوقوع، بخلاف النظر فإنه يلازم وقوع الشيء؛ لأن الرؤية لا تقع إلّا على الموجود.

ثانيهما: أنّ الانتظار يقع مع الشك واليقين كالإنسان الذي ينتظر مجيء شخص مع يقينه به وتارةً يشك، بخلاف النظر فإنه لا يكون إلّا مع اليقين[(٢)]، وهذا هو أصح القولين وتدل عليه وجوه:

الوجه الأول: نص الآية، فإنها قالت: ﴿**مَا يَنظُرُونَ**﴾ وليس (ما ينتظرون) والأصل حمل الألفاظ على ما وردت، كما أنّ الأصل حملها على معانيها الحقيقية، والنظر في اللغة والعرف هو إدراك الشيء عبر حاسة البصر، ويستعمل في الإدراك عبر البصيرة أيضاً إما من باب التوسع في معنى النظر ليشمل كل رؤية عبر الباصرة أو القلب، وإما من باب التجوز للاشتراك في الأثر؛ لأن غاية النظر إدراك الشيء وهو يحصل تارةً بالحاسة وتارةً بالعقل، فحمل النظر في الآية على الانتظار يفتقر إلى دليل.

الوجه الثاني: أنّ المتبادر من النظر هو الرؤية البصرية لا الانتظار، وقد ورد اللفظان في الآيات بمعناهما الحقيقي، فلماذا هنا يحمل النظر على الانتظار، بل لو صح حمل النظر على الانتظار هنا لصح حمل الانتظار على

---

(١) انظر معجم مقاييس اللغة: ص٩٩٧، (نظر).

(٢) معجم الفروق اللغوية: ص٧٦، (٣٠٦).

النظر في الآيات الأخرى؛ لأن حكم الأمثال واحد، وهو باطل. قال تعالى: ﴿فَانْتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾[١] أي انتظروا عذاب الله النازل وأنا معكم أنتظر، وقال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾[٢] فإنّ الانتظار في الآيتين لا يستقيم إلّا بمعنى الترقب لا الرؤية البصرية.

نعم الإنظار يأتي بمعنى الإمهال والتأخير، وقد ورد في الآيات بهذا اللفظ، والمعنى كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۞ قَالَ إِنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ﴾[٣] فالنظر والانتظار والإنظار ترجع إلى مادة واحدة إلّا أنّ لكل هيئة معناها، ولا يصح حمل هيئة كل منها على الأخرى إلّا مع القرينة وإنْ رجع الجميع إلى معنى جامع واحد هو الإدراك.

الوجه الثالث: أنّ الأنسب بمعنى الآية وغايتها هو الرؤية والمعاينة البصرية لسببين:

الأول: لأن الصيحة يقينية الحدوث وليست مترقبة، فإما تقع وإما لا.

الثاني: لأن الغاية هو إفحام الكفار الشاكين في يوم المعاد والمستهزئين به بإظهار علائم الوعد وآياته ليكون دليلاً حسياً دامغاً ومبطلاً لدعاواهم، ومصححاً لدعوات الأنبياء والمؤمنين، وهذه الغاية لا تتحقق إلّا بالوقوع لا بترقب الوقوع.

---

(١) سورة يونس: الآية ٢٠.

(٢) سورة يونس: الآية ١٠٢.

(٣) سورة الأعراف: الآيتان ١٤-١٥.

والخلاصة: أنّ ظهور الآية والقاعدة في استعمال الألفاظ وشواهد الآيات وغاياتها كلها تقوي القول الثاني، وأما قول الأكثر فلا يستند إلى وجه وجيه، وربما يمكن الجمع بينهما؛ لأن غاية الانتظار هو النظر، فيكون أحدهما ناظراً إلى الفعل والثاني إلى الغاية.

إن قلت: الصيحة لا ترى بالمعاينة وإنما تسمع وهذا يعزز قول الأكثر.

فالجواب: أنها ترى باعتبار ملازماتها، كما يقال ترى يوم السبت أو أول الشهر، أو يوم العيد، وشاهدوا أيام الله باعتبار ما يحدث فيها.

المفردة الثانية: ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾

(إلّا) للاستثناء، وهو بعد النفي يفيد الحصر، والمعنى أنه يجعل القوم وكأنهم في صحراء خالية لا ينظرون إلّا إلى شيء واحد وهو الصيحة، والكل مشرئبّة أعناقهم وأبصارهم إلى الحدث، لشدة الهول والفزع الذي يصيبهم منها بحيث ينشغلون عن كل شيء، ولا يلتفتون إلّا إليها، و(الصيحة) رفع الصوت[١]، ويراد به رفعه بأقصى الطاقة لا مجرد رفعه[٢]، وفي الشرع أطلقت الصيحة على معنيين:

الأول: الصيحة التي تسبق ظهور مولانا حجة الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف كما تواتر في الأخبار، وهي صيحة الظهور، وبها يعلن انتهاء أمر الغيبة ودخول العالَم في

---

(١) معجم مقاييس اللغة: ج٣، ص٣٢٤، (صيح)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٤٩٦، (صاح).

(٢) مجمع البحرين: ج٢، ص٣٩٠، (صيح).

عصر ظهور الحجة الإلهية وسيادة العدل وانتهاء عصر الظلم، وربما تكون هي المقصودة؛ لأن عصر الظهور برزخ بين الدنيا والآخرة، هو في الدنيا ولكن أحكامه وقواعده ملكوتية ترتبط بالآخرة.

الثاني: صيحة النشور، وتحدث بنفخة الصور التي بها يعلن انتهاء أمد الدنيا، ويستعد العالَم للحشر والنشر، والنفخة غير الصيحة إلّا أنها سمَّيت كذلك لملازمة النفخ للصوت المرتفع الصادر من الصور. قال تعالى: ﴿**يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ**﴾(١) وإطلاقها يشمل الصيحتين، والخروج شاهد عليه، والأول خروج مولانا القائم عليه السلام، والثاني خروجهم من قبورهم وقال تعالى: ﴿**إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً**﴾(٢).

فالصيحة من الحقائق الشرعية؛ لأن الصوت عام في كل شيء؛ لذا نقول صوت الباب وصوت الهواء وصوت الآلة، وكذا صوت الإنسان، وأما الصياح فلا يكون إلّا عن حس وإرادة، ويختصّ بالحيوان(٣)، ولكن أريد في الشرع المعنى الخاص للصيحة، وهو الصوت الذي له معنى ويصدر من ملك عبر الصور أو عبر خلقها في السماء للدلالة على آيات الله، فهو معنى خاص كشفَ عنه الشرع، وبهذا الاعتبار سمّيت الصاعقة في القرآن بالصيحة كما في قوله تعالى: ﴿**فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ**﴾(٤) لأنها تأتي بالعذاب، وتتضمَّن الدلالة على وجوب العِظة والاعتبار.

---

(١) سورة ق: الآية ٤٢.

(٢) سورة يس: الآية ٢٩.

(٣) معجم الفروق اللغوية: ص٣٢٤، (١٢٩٥).

(٤) سورة الحجر: الآية ٧٣.

والصيحات التي تقع للبشارة أو الإنذار كثيرة وقد تضافرت فيها الأخبار، والذي يهمنا هنا واتفق عليه المفسرون أنّ المراد بالصيحة النفخة التي بها تنقضي الحياة الدنيوية، وهي صيحة واحدة تأخذهم فجأة.

وقوله: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾[١] إشارة إلى أنّ القيامة تأتيهم بغتةً، وفي الحديث: «تقوم الساعة والرجلان قد نشرا ثوبهما يتبايعانه فما يطويانه حتى تقوم، والرجل يرفع أكلته إلى فيه فما تصل إلى فيه حتى تقوم، والرجل يليط حوضه ليسقي ماشيته فما يسقيها حتى تقوم»[٢].

وإطلاقها يشمل الصيحتين: الصيحة المقترنة بالظهور المبارك لحجة الزمان صلوات الله عليه، وصيحة الموت والحشر للاشتراك في الأثر، فإنّ في صيحة الظهور يفزع كل أهل الأرض ويتهيأ إما لنصرته أو لمحاربته عليه السلام، وتنكير الصيحة لبيان عظمتها وشدة هولها وسرعة وقوعها، ووصفها بالواحدة يزيد من هولها وعظمتها، ويدل على أنها مرة واحدة تقع وتأخذهم جميعاً أينما كانوا، ولا حاجة معها إلى صيحة أخرى أو سبب آخر، وفي ذلك دلالة على مزيد وهنهم ووهن أمرهم، وهو نوع استهزاء وسخرية منهم جزاء بما كانوا يتكبرون ويستهزئون.

---

(١) سورة يس: الآية ٤٩.

(٢) مجمع البيان: ج٨، ص٢٧٩؛ روح المعاني: ج٢٣، ص٤٣.

المفردة الثالثة: ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾

(الأخذ) يراد به الاستيلاء والسيطرة، و (الواو) حالية، ومرجع الضمير لهؤلاء المشككين الكافرين، و (الخصومة) الجدال والمنازعة[١]، وإنما حملنا الضمير عليهم لثلاثة أسباب:

الأول: للسياق الظاهر في وحدة الخطاب وأنّهم المعنيون به.

الثاني: وقوع المخاصمة بينهم بأنّها صفة أهل الدنيا لا أهل الدين والإيمان، فإنّ المؤمن لا يخاصم بل يواسي أخاه.

الثالث: أنّ المؤمنين يستبشرون بالصيحة، ويكونون في نجاة، فلا تأخذهم الصيحة، بل تنقلهم إلى عالَم آخر أرقى وأفضل من الدنيا؛ لأن الدنيا كانت سجنهم والآخرة جنتهم، بخلاف الكفار فإنّ الدنيا جنتهم والآخرة سجنهم.

وقد قرؤوا (يخصمون) بقراءات عديدة ذكرها المفسرون، ولكن حيث إنّ المبنى عندنا باطل لعدم صحة تعدد القراءات وما هي إلّا اجتهادات المقرئين[٢] ولم ينزل القرآن بها وإنما نزل على قراءة واحدة وهي المتداولة بين المسلمين الواردة عن أمير المؤمنين عليه السلام فلا داعي لاستعراضها.

---

(١) معجم مقاييس اللغة: ص٣٠٠، (خصم)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢٨٤، (خصم).

(٢) انظر تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٦٤؛ روح المعاني: ج٢٣، ص٤٣؛ التحرير والتنوير: ص٣٤.

و﴿يَخِصِّمُونَ﴾ بكسر الخاء وتشديد الصاد وكسرها معناها يتخاصمون في متاجرهم ومعاملاتهم، وهم مشغولون بدنياهم غافلون عن أمر آخرتهم فيفاجؤون فيها، وهو معنى العذاب البغتة الذي ينزل بهم، وما يأتي بغتة يزيد من الهول والفزع، وقد شبهه البعض بالصيحة التي تحدث حين يغير العسكر على الحي لأخذ أنعامه وسبي نسائه، وقد اختلفوا في وجه الخصومة على أقوال:

القول الأول: ذهب إلى أنّ خصومتهم في المعاملة.

والقول الثاني: إلى أنها في وقوع القيامة والعذاب، وأنها تقع أو لا تقع[١]، وهناك قول ثالث لا أساس له[٢]، والإطلاق يتحمل الأثنين فلا مانع منهما لعدم التنافي، وقرينة الحال تؤيدهما، والوجه في ورود ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ بدون تاء للإشارة إلى أمرين:

الأول: أنّ بعض الناس في تعامله وبسبب حرصه على مصالحه يوجب خصومة الآخرين المنافسين له أو الحاسدين له فيوقعهم في الخصومة، وكذلك لدى المجادلة في أمر العذاب، ولم يرفع الياء كما هو المعهود في المضارع (يَخِصِّمُونَ) للإشارة إلى أنَّ إحداث الخصومة في الغير ليست بالضرورة تكون مقصودة، بل تحدث باعتبار الملازمات الطبيعية، وهذا يستفاد من فتح الياء، وأما ضمّها فيفيد القصد والاختيار، والتشديد يفيد

---

(١) تفسير الأمثل: ج١٤، ص١٥١؛ تفسير الرازي: ج٩، ص٨١.

(٢) التحرير والتنوير: ج٢٢، ص٢٤٣.

كثرة وقوع ذلك وشدته، وهو أمر طبيعي يلازم الحياة الإنسانية إذ تحدث منافسات وتحاسدات ومقاطعات بسبب تزاحم المصالح وتدافع الناس مع بعضهم البعض.

الثاني: لأن ﴿يَخِصِّمُونَ﴾[1] تفيد وقوع الخصومة من الطرفين على نحو التبادل، كما تفيدها صيغة التفاعل، والمقصود في الآية ليس ذلك، بل قد تكون الخصومة حاصلة من طرف واحد بسبب القصد أو غيره كما عرفت.

فيتحصّل: أنّ المدلول العام للآية يفيد سرعة جواب الكفار المشككين بالوعد الإلهي، وأنه يفاجئهم بحيث ينزل بهم بغتة، ويأخذهم أخذة واحدة.

---

(١) سورة يس: الآية ٤٩.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

اللطيفة الأولى: لماذا تأخذهم صيحة لا صرخة؟

الآية المباركة نسبت أخذ الكفار إلى الصيحة، وظاهرها أنها سبب أخذهم وهلاكهم، والأخذ هو حيازة الشيء وتحصيله[١] والسيطرة عليه، وهو في كل شيء بحسبه؛ لذا تارة يتم بواسطة الجارحة كالتناول باليد وهو معروف، وتارة بالجانحة، ومنه قوله تعالى: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾[٢] أي بقوة القلب والعزم، وقوله تعالى: ﴿أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ﴾[٣] أي اتَّبعوني، وتارة بالفعل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم﴾[٤] أي يعاقبهم، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾[٥] أي حازتهم بالعذاب والهلاك وبهذا نجمع بين المعنى وموارد الاستعمال، ومن إضافة الأخذ إلى ضمير الجمع وصيغة المضارع يستفاد أمران:

---

(١) معجم مقاييس اللغة: ص٤٧، (أخذ)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٧، (أخذ)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص١٧٧، (أخذ).

(٢) سورة مريم: الآية ١٢.

(٣) سورة المائدة: الآية ١١٦.

(٤) سورة النحل: الآية٦١.

(٥) سورة المؤمنون: الآية ٤١.

الأول: أنها تجمعهم جميعاً وتنالهم دفعة واحدة بلا تفاوت ولا تدريج.

الثاني: أنها في الحاضر والمستقبل تفعل بهم هكذا.

إن قلت: كيف يتصور ذلك؟

فالجواب يتصور بأحد نحوين:

الأول: أنها حينما تحصل تأخذهم، فالأخذ وقت حصولها يفيد الحضور، ولأنها صُوِّرَتْ لهم وكأنها حاضرة وردت بصيغة المضارع الدال على الحال.

الثاني: أنها في كل زمان حاضرة؛ لأن في كل زمان هناك مَن يكفر ويشرك ويشك، وحالة الشك والجحود ملازمة لأهلها، وحين موتهم لا يموتون كما يموت المؤمن، وإنما في صورة مهولة يفاجؤون فيها كما تواتر في الأخبار[١].

والآية عبرت بالصيحة لا الصرخة مع أنّ الصرخة الصوت المرتفع أيضاً لسببين:

الأول: لأن الغاية هنا بيان ما يهلك القوم ويفاجئهم فلا يملكون فرصة لنداء أو قول أو عمل، فهي تأتيهم بغتة من حيث لا يحتسبون، بخلاف الصرخة فإنها الصوت المقترن بالاستغاثة وطلب النجاة[٢]، وهم لا يجدون فرصة للاستغاثة.

---

(١) انظر الأمالي (للمفيد): ص٢٦٣؛ تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص٢١٤، ح٩٨؛ البحار: ج٦، ص١٧٥، ح١.

(٢) مجمع البحرين: ج٢، ص٤٣٧، (صرخ).

والثاني: لأن الغرض بيان إهلاكهم ومعاقبتهم فلا يعطيهم فرصة الاستغاثة، وهذا من مقتضيات حكمة الباري ورحمته؛ لأنهم لو وجدوا فرصة للصرخة والاستغاثة لعلَّه سبحانه استجاب لهم وأنقذهم؛ لأن رحمته وسعت كل شيء، ولكنه ليس من مصلحتهم؛ لأن العقاب لهم ضروري لأجل تطهيرهم من نواقص الكفر.

اللطيفة الثانية: بين الأخذ والإهلاك

أنّ الآية المباركة عبَّرت عن معاقبة القوم وإهلاكهم بالأخذ دون الإهلاك، والوجه فيه قد يعود لسببين:

الأول: لأن الهلاك الموت، والغاية المعاقبة لا الإفناء، بل نقلهم من عالَم إلى عالَم آخر ليذوقوا وبال أمرهم، فالأخذ هلاك بالعذاب لا بالموت، ولا تتحقق غاية العذاب إلّا بإبقائهم أحياء فلو هلكوا لا يتحقق غرض العذاب، ومن غايات العذاب تعليم المذنبين وتطهيرهم وإثبات العدل الإلهي فيهم، كما أنّ المؤمن يلتذ بنتائج أعماله وغيرها من دواعي العذاب الإلهي وأغراضه، وهذه تتحقق بالأخذ لا بالإهلاك.

الثاني: أنّ جواب سؤالهم عن زمان الوعد لا يتحقق بالهلاك، بل بالصيحة، فإذا نظروها وعاينوا أهوالها صدَّقوا بصدق وعد الله وأنبيائه والمؤمنين من عباده.

اللطيفة الثالثة: لماذا يختصمون؟

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾[١] ربما يشير إلى انشغالهم بثلاثة أنواع من الخصومات:

الأول: يخاصمون في أمر المعاد فيجادلون المؤمنين فيه، وهو جدال وخصومة في العقيدة، وقد دل عليه المنطوق.

الثاني: يخاصمون أنفسهم في أمر المبدأ الذي مرت آياته أو المعاد؛ لأن فطرهم وعقولهم يدعيانهم إلى الإيمان والتسليم من باب شكر المنعم، أو دفع الضرر، أو تجلي الحق لهم في آياته، لكنهم بعنادهم وتسلُّط شياطينهم عليهم يبقون في الكفر والتشكيك به، فتتخاصم عقولهم ونفوسهم المطبوعة بالعناد وشياطينهم. فالعقول تدعوهم إلى الإيمان، والنفوس والشياطين تدعوهم إلى الكفر، وهذا يشهد له واقع الحال، وهو خصام نفسي وجداني.

الثالث: يخاصمون بعضهم البعض في أمور الدنيا ومصالحها كما هو دأب أهل الدنيا، فإنّ حُبّ الدنيا منشأ النزاعات والخصومات بخلاف الآخرة، ولذا نجد أنّ أصحاب الدنيا لا ينفكون عن الاختلاف والصراع بألوانه وأصنافه، ويستمر نزاعهم حتى في الآخرة وهم في النار؛ لذا قال سبحانه: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾[٢] وتخاصمهم في أمور:

---

(١) سورة يس: الآية ٤٩.

(٢) سورة ص: الآية ٦٤.

منها: يتخاصمون مع زعمائهم الذين أضلوهم وفتنوهم وحرفوهم عن نهج محمد وآل محمد عليهم السلام.

ومنها: يتخاصمون مع بعضهم؛ لأنهم كانوا يعدون المؤمنين الموالين من أشرار الخلق، وينصبون لهم العداء، فعندما يردون النار يتوقعون وجودهم فلا يجدونهم، ويُخبَرون أنهم في الجنة يتنعمون، فيتخاصمون بينهم، وفي ذلك يقولون: ﴿**مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ**﴾[١] وهناك لما تظهر الحقائق ويتبيّن زيفهم يندمون ويتخاصمون، وإليه يشير قول الصادقعليه السلام: «والله إنكم في الجنة تُحْبَرون، وفي النار تطلِبون»[٢] والروايات كثيرة بهذا المعنى[٣].

وأما أهل الآخرة كالأنبياء والأولياء والعلماء الربانيين ومَن يتبعهم دائماً في وئام ومحبة ووحدة هدف وطريق.

---

(١) سورة ص: الآية ٦٢.

(٢) تفسير القمي: ص ٣٦١، ح٤٩١؛ الكافي: ج٨، ص٣٦، ح٦.

(٣) انظر تفسير البرهان: ج٢٣، ص٥١١-ص٥١٣، ح٣ - ح٧.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

تشير الآية المباركة إلى الكثير من التعاليم نستعرض بعضها على التوالي:

التعليم الأول: الصيحات الإلهية

إنّ الصيحة نهاية العالم الدنيوي، والخطاب وإن كان مع الكفار إلّا أنها لا تختصّ بهم؛ لأن الحدث الكوني الكبير يعمّ أثره الجميع، والأدلة الكثيرة من الآيات والروايات تفيد أنّ الباري عزّ وجلّ يعلن عن نهاية عمر الدنيا ودخول العالم في الآخرة والحساب بصيحة، كما دلّت على وجود صيحات عديدة أوّلها تبدأ مع ظهور حجة الزمان صلوات الله عليه وعجّل فرجه، وقد تواتر هذا المعنى في روايات الفريقين.

فعن الصادقعليه السلام: في معنى قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ**﴾[1] قال: «صيحة القائم عليه السلام من السماء»[2].

(1) سورة ق: الآية ٤٢.

(2) تفسير القمي: ج٢، ص٣٢٧؛ تفسير الصافي: ج٦، ص٥٤٣؛ تفسير نور الثقلين: ج٥، ص١١٩، ح٥٩.

وفي رواية أخرى أنّ الناس إذا سمعوا الصوت أصبحوا وكأنَّ على رؤوسهم الطير[١]، وفي رواية محمد بن مسلم قال: «ينادي منادٍ من السماء باسم القائم عليه السلام، فيُسمع ما بين المشرق إلى المغرب، فلا يبقى راقد إلّا قام، ولا قائم إلّا قعد، ولا قاعد إلّا قام على رجليه من ذلك الصوت، وهو صوت جبرئيل الروح الأمين»[٢] ولعلّ قوله تعالى: ﴿**مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ**﴾[٣] ناظرة إلى هذا.

والقول بأنّ ظاهر الآية يفيد أنّ الصيحة أخروية فجوابه أنّ صيحة الخروج المبارك أول مرحلة في دخول عالَم الآخرة ومقدمات المعاد؛ لأن الحُكْم يكون إلهياً، ويَسود العدل الأرض ومَن عليها، وهو الوعد الإلهي الذي فيه يظهر صدق الأنبياء والمؤمنين، وتبطل دعاوى الكفار والمشركين، وقد بشَّرَ به جميع الأنبياء، وكانت الأمم تعرف به، وقد سمعته كما هي سامعة به اليوم، وتنتظر حصوله.

فوقت الظهور برزخ بين الدنيا والآخرة، والمستفاد من الأخبار وجود أكثر من صيحة ونداء تكون مع الظهور المبارك، ولكل واحدة غاية وأثر نوكله لمحله، فعلى المؤمن أن يصدِّق بهذه الحقيقة؛ لأن المخبر الصادق جاء بها، وأنّ يعقد قلبه عليها وينتظر حصولها، ويعمل على أن يكون من الناجين فيها، فإنّ ذلك من سِمات الإيمان.

---

(١) الغيبة (للنعماني): ص٢٧١، ح٢٣؛ البحار: ج٥٢، ص٢٩٣، ح٤١.
(٢) الغيبة (للطوسي): ص٤٥٤، ح٤٦٢؛ البحار: ج٥٢، ص٢٩٠، ح٣٢.
(٣) سورة يس: الآية ٤٩.

التعليم الثاني: الهلاك مصير الخصومات

إنّ نزاع أهل الدنيا وصراعهم مستمرّ إلى الموت كأفراد، وإلى انتهاء أمد الدنيا كجماعات وأمم، وهم مشغولون بالخصومات حتى تحصل الصيحة وتأخذهم جميعاً، فيجب أن يتعلَّم المؤمن أمرين:

الأول: أن يعرف إنّ الكثير من الخصومات والاختلافات التي تقع من الشيطان وحُبّ الدنيا فينبغي أن يتجنبها ولا يخوض فيها، خصوصاً لو حصلت بين المؤمنين.

الثاني: أن يعرف أنّ مصير أهل الدنيا والمتكالبين عليها هو الهلاك، ويأتيهم بغتة، ويقضي على آمالهم وكبريائهم، فلا ينبغي أن يسايرهم في نهجهم، ولا يجعلهم أسوته وقدوته، فليس من وراء الدنيا وأهلها إلّا العناء والشقاء، وهذا ما تضافر في الأخبار الشريفة.

ففي رواية عبد الله بن أبي يعفور عن الصادقعليه السلام قال: «مَن أصبح وأمسى والدنيا أكبر همِّه جعل الله تعالى الفقر بين عينيه، وشتَّتَ أمره، ولم يَنَل من الدنيا إلّا ما قسمَ الله له، ومَن أصبحَ وأمسى والآخرة أكبر همِّه جعلَ الله الغِنى في قلبه، وجمع له أمره»[1].

وفي روايته الأخرى عنهعليه السلام: «مَن تعلَّق قلبه بالدنيا تعلَّق قلبه بثلاث خصال: همّ لا يفنى، وأمل لا يُدرَك، ورجاء لا يُنال»[2]

(١) الكافي: ج٢، ص٣١٩، ح١٥؛ وانظر ثواب الأعمال: ص١٦٨.
(٢) الكافي: ج٢، ص٣٢٠، ح١٧؛ وانظر الخصال: ص٨٨، ح٢٢؛ البحار: ج٧٠، ص٢٤، ح١٦.

والفرق بين الأمل والرجاء من وجوه عمدتها ثلاثة:

الأول: أنّ الأمل - هو المطلوب - بعيد المنال، والرجاء قريب.

الثاني: أنّ الأمل يتعلَّق بالأمر الموجود والمعدوم. أما الرجاء فيختصّ بالموجود، ولذا لا يستعمل الأمل فيما يتعلَّق بعطاء الله ولقائه ورحمته؛ لأنها حقائق موجودة كما قال تعالى: ﴿**فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لاَ يَرْجُونَ**﴾[١] وليس تأملون؛ لأن عطاء الله موجود ودائم، وأما الكافر فلأنه لا يعتقد بذلك لذا لا يرجوه، ويعده من المعدوم، وكذا قوله تعالى: ﴿**أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ**﴾[٢] لأنها وسعت كل شيء بالفعل فهي موجودة.

الثالث: أنّ الأمل يتعلق بالممكن والمستحيل، بخلاف الرجاء فإنه يختصّ بالممكن[٣]، وذكروا فروقاً أخرى بينهما لعل بعضها يعود إلى ما ذكرنا[٤]، وبعضه غير تام[٥].

وفي الكافي الشريف قال أبو عبد الله عليه السلام: «مرَّ عيسى بن مريم عليه السلام على قرية قد مات أهلها وطيرها ودوابها فقال: أما إنهم لم يموتوا إلّا

---

(١) سورة النساء: الآية ١٠٤.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢١٨.

(٣) معجم الفروق اللغوية: ص٧٤، (٢٩١)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٢٧، ص٣٣٣، (الأمل).

(٤) انظر معجم الفروق اللغوية: ص٧٤، (٢٩١)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٣٤٦، (رجا).

(٥) معجم مقاييس اللغة: ص٤٢٤، (رضي)، (أمل)؛ مجمع البحرين: ج١، ص١٧٦، (رجا)، ج٥، ص٣١٠، (أمل).

بسخطة، ولو ماتوا متفرقين لتدافنوا، فقال الحواريون: يا روح الله وكلمته! ادعُ الله أن يحييهم لنا فيخبرونا ما كانت أعمالهم فنتجنبها، فدعا عيسى عليه السلام ربه، فنودي من الجو: أن نادِهم فقام عيسى عليه السلام بالليل على شرف من الأرض فقال: يا أهل هذه القرية! فأجابه منهم مجيب، لبيك يا روح الله وكلمته، فقال: ويحكم ما كانت أعمالكم؟ قال: عبادة الطاغوت، وحُبّ الدنيا مع خوف قليل وأمل بعيد وغفلة في لهو ولعب، فقال: كيف كان حبكم للدنيا؟ قال: كحب الصبي لأمه، إذا أقبلت علينا فرحنا وسُرِرنا، وإذا أدبرت عنّا بكينا وحزنا. قال: كيف كانت عبادتكم للطاغوت؟ قال: الطاعة لأهل المعاصي. قال: كيف كان عاقبة أمركم؟ قال بتنا ليلةً في عافية، وأصبحنا في الهاوية. فقال: وما الهاوية؟ فقال: سجيّن. قال: وما سجيّن؟ قال: جبال من جمر توقَد علينا إلى يوم القيامة. قال: فما قلتم وما قيل لكم؟ قال: قلنا رُدَّنا إلى الدنيا فنزهد فيها. قيل لنا: كذبتم. قال: ويحك كيف لم يكلمني غيرك من بينهم؟ قال: يا روح الله! إنهم ملجمون بلجام من نار بأيدي ملائكة غلاظ شداد، وإنّي كنت فيهم ولم أكن منهم، فلما نزل العذاب عمّني معهم، فأنا معلق بشعرة على شفير جهنم لا أدري أُكَبْكَب فيها أم أنجو منها، فالتفتَ عيسى عليه السلام إلى الحواريين فقال: يا أولياء الله! أكل الخبز اليابس بالملح الجريش والنوم على المزابل خير كثير مع عافية الدنيا والآخرة»[(١)].

---

(١) الكافي: ج٢، ص٣١٨ - ٣١٩، ح١١.

وفي الحديث دلالات عديدة وهامة:

منها: أنّ الاهتمام بالدنيا والانشغال بها والتخاصم عليها مصيره الهلكة.

ومنها: وجوب اعتزال أهل المعاصي في العمل ونصيحتهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر. أما السكوت أو الكون معهم فنتيجته مشاركتهم في المصير.

ولو سأل سائل مَن هم أهل الدنيا الذين نتجنبهم وأهل الآخرة الذين نتبعهم؟ فالجواب ورد عن الله سبحانه في حديث المعراج. يقول سبحانه لرسوله المصطفى صلى الله عليه وآله – من باب إياك أعني واسمعي يا جارة – : ﴿يا أحمد! ابغَض الدنيا وأهلها، وأحبّ الآخرة وأهلها. قال: يا رب ومَن أهل الدنيا ومَن أهل الآخرة؟ قال: أهل الدنيا مَن كثر أكله وضحكه ونومه وغضبه، قليل الرضا، لا يعتذر إلى مَن أساء إليه، ولا يقبل معذرة مَن اعتذرَ إليه كسلان عند الطاعة، شجاع عند المعصية، أمله بعيد، وأجله قريب، لا يحاسب نفسه، قليل المنفعة، كثير الكلام، قليل الخوف، كثير الفرح عند الطعام.

وإنَّ أهل الدنيا لا يشكرون عند الرخاء، ولا يصبرون عند البلاء، كثير الناس عندهم قليل، يحمدون أنفسهم بما لا يفعلون، ويَدّعُون بما ليس لهم، ويتكلمون بما يتمنون، ويذكرون مساوي الناس ويخفون حسناتهم.

قال: يا رب هل يكون سوى هذا العيب في أهل الدنيا؟ قال: يا أحمدّ إنَّ عيب أهل الدنيا كثير، فيهم الجهل والحمق، لا يتواضعون لِمَن يتعلمون منه، وهم عند أنفسهم عقلاء وعند العارفين حمقاء﴾[1].

---

(١) البحار: ج٧٤، ص٢٣ – ٢٤، ح٦؛ وانظر الجواهر السنية: ص١٩٤.

وفي الحديث دلالات كثيرة ولكن ما يهمنا هنا هو الإشارة إلى أمرين:

الأول: أنّ بعض فقرات الحديث وجمله تحتاج إلى بيان وشرح، ولا ينبغي أنْ تُفهَم على إطلاقها، والجامع المشترك فيها أنّ أهل الدنيا يتخذون الدنيا غاية وليس طريقاً إلى الآخرة.

الثاني: أنّ أهل الدنيا ليسوا بعيدين ولا غرباء عنّا، ولعل الكثير ممن يتصور نفسه أنه من أهل الآخرة إذا التفت إلى بعض تصرفاته وأعماله يجد نفسه من أهل الدنيا وهو غافل.

وعلى هذا فإنه لا ينبغي للإنسان أن يعشق الدنيا ويهتمّ لها، فكلّما ازداد حباً بها ازداد إثماً، وقسا قلبه، وبعد حين يصبح كل ما جمع لها وأعدّ هباءً ووزره عليه.

التعليم الثالث: العقوبات الإلهية متنوعة

إنّ تأخير العذاب لا يعني عدم وقوعه بل إرجاؤه لوقته المناسب بمقتضى الحكمة، فلا ينبغي أن ييأس المؤمن إذا لاحظ تمادي الكفر وأهله وتقلبهم بالنعم؛ لأن الدنيا جنتهم والآخرة سجنهم، كما لا ينبغي للكافر الذي يحرص على نفسه أنْ يتمادى في كفره ويطمئن من العقاب، فإنّ العقاب آتيه ويفاجئه بغتة، وما زالت البشرية تتعرض إلى عقوبات جماعية وشخصية لكنها في غفلة:

منها: الأمراض الخطيرة المستشرية في العالم التي تهلك في كل عام الملايين من البشر.

ومنها: الجوع والفقر اللذان يهلكان الملايين.

ومنها: الحروب وانعدام الأمن والاستقرار.

ومنها: السيول والزلازل والبراكين.

وبعض هذه الحوادث يفعلها البشر وبسبب سوء سياسته ونواياه وحرصه وطغيانه، وبعضها تحدث بأسباب طبيعية إلّا أنّ الجامع المشترك فيها هو معاقبة العباد ببعض ذنوبهم. قال تعالى: ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ**﴾(١) وبعض هذه الحوادث حين تقع تأتي فجأة ولا تبقي ولا تَذَر، وهي مرتبة من مراتب أخذ الباري عزّ وجلّ الناس بظلمهم، وبعضها تحدث للأفراد، فإنّ ما ينزل بهم من مصائب وآلام تحدث فجأة، فإنّ الفعل يحدث بلحظة مفاجئة، كاحتراق الدور والأموال وسقوط الطائرات وخسارة بعض التجارات في الأسواق وأمثال ذلك، وبعض هذه الحوادث قد تكون عقوبات يصاب بها البعض نتيجة تماديهم في الدنيا، وهذه كلها مظاهر أو مقدمات للصيحة الكبرى التي تأخذهم وهم يخصّمون، فلا ينبغي للإنسان العاقل أن يغفل أو يغترَّ بما لديه.

---

(١) سورة الروم: الآية ٤١.

فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ

يس/ ٥٠

وهي متممة لبيان حال أهل الدنيا حينما تحل بهم الصيحة، والبحث فيها يقع في مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآية

وهي عديدة:

المفردة الأولى: (الفاء)

هي تفريع عن الصيحة؛ لتدل على أنها إذا حدثت تباغتهم فلا يستطيعون أن يوصوا أحداً بشيء، أو ينقلوا لأهلهم وصاياهم، ولا يستطيعون أن يرجعوا لأهلهم بأنفسهم.

المفردة الثانية: ﴿لَا﴾

وهي نافية وتفيد نفي الموضوع؛ لأن الجميع يهلك ولا يبقى وصي يتوصّى، ولا أهل يرجع إليهم، ولكن خصّص الضمير بالكفار لأجل إشعارهم بأنهم المعنيون بالصيحة والهلاك وإيحاشهم، وكأن الحشر والحساب يكون لهم فقط، وأما المؤمنون فلا؛ لأنهم ينتقلون من حياة إلى أخرى افضل منها، ولعلّ التوصية تكون لمن كان داخل داره وبين أهله ونزلت الصيحة، والثاني لمن كان في الشارع والسوق فيحتاج الرجوع لأهله؛ لحاجة الإنسان في مواضع الخطر إلى الأمن والسكينة، ولا يكون إلّا عند أهله.

المفردة الثالثة: ﴿تَوْصِيَةً﴾

مأخوذة من الوصية وهي العهد بالمال والعيال وكل ما يهم الموصي من الأمور، فالوصية هنا تشمل قسميها المالية والعهدية؛ لأن الموت يداهمهم فجأة، ولا يدع لهم مجالاً للتوصية بأموالهم، أو العهد للأبناء والأوصياء بأداء ما عليهم من حقوق وواجبات، والتوصية مصدر، وتنكيرها للإشارة إلى أنّ أدنى الوصايا حتى بالأمر البسيط القليل يتعذَّر عليهم، و (التاء) في توصية تفيد العجز حتى عن الوصية الشفوية السريعة التي يقولها الراحل على عجل.

وإذا عجزوا عن التوصية وعن الرجوع إلى الأهل فمعناه أنهم ماتوا حيثما كانوا في الشوارع والأسواق والأزقّة، وهو ما وردَ في رواية القمي قال: يُصاح فيهم صيحة وهم في أسواقهم يتخاصمون، فيموتون كلهم في مكانهم لا يرجع أحد منهم إلى منزله، ولا يوصي بوصية[١].

(١) تفسير القمي: ج٢، ص٢١٥؛ البحار: ج٦، ص٣٢٣، ح١.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: لماذا قدمت الوصية؟

لعلّ الآية قدمت الوصية على الرجوع إلى الأهل لسببين:

الأول: لأنها تقع بالقول، والرجوع يقع بالفعل، والقول أسرع حصولاً، فربما يوافق سرعة الصيحة إلّا أنه مهما كان سريعاً ولا يستغرق أقل من الثانية حتى يصدر إلّا أنهم لا يستطيعونه، ومعنى ذلك أنّ الصيحة حينما تأتي تكون أسرع من جزء الثانية.

والثاني: لأن التوصية يمكن أن تقع بالإشارة وهي أسرع حتى من القول، وربما يعجز الإنسان عن الكلام في مواقع الفزع والذهول أو المرض الشديد، فيستعمل الإشارة لبيان مطالبه، ولكن مفاجأة الصيحة وسرعتها أسرع حتى من هذا.

وإنما ذكر التوصية والرجوع إلى الأهل حين نزول الصيحة دون غيرهما لأنهما أهم ما يحتاجه الإنسان في وقت موته أو شدته، فإنّ الإنسان يحب أولاده وأمواله وشؤونه، ويحرص على أن لا تضيع حتى بعد موته، فلذا يزداد في همه كثيراً التوصية بها، كما يحب أن يكون في وقت موته بين أهله؛

لأنهم يرفعون عنه وحشة الموت، ولذا من أشدّ ما يبعث الحزن بين الناس موت الغربة والوحدة، وفي عين الحال ربما يساعدونه على إجراء الأحكام والآداب التي قررها الشرع للمحتضر لكي يلقى ربه عن استعداد روحي كالدعاء والتوجيه للقبلة وقراءة القرآن ونحو ذلك كما قرره الفقه.

ولكن لأن هؤلاء الكفار أعرضوا عن آيات الله وعن مشاعرهم الإنسانية واستهزؤوا بالموت والمعاد فإنّ مصيرهم يكون الحرمان، فيموتون بوحشتهم، ويتركون كل شيء جمعوه وحاربوا الأنبياء والمؤمنين وتخاصموا مع بعضهم لأجله، فكما هم أعرضوا وصرفوا وجوههم عن الحق يُعرَض عنهم عند هلاكهم، وهذا من العِبَر العظيمة التي تُعلِّم الإنسان أنه كما يزرع يحصد.

اللطيفة الثانية: لماذا نفت عنهم الاستطاعة؟

الآية نفت عنهم الاستطاعة ولم تنف عنهم القدرة فقالت: ﴿**فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً**﴾[1] ولم تقل: (لا يقدرون على التوصية) وذلك لسببين:

الأول: لبيان أنّ المقتضي للتوصية موجود إلّا إنّ المانع يحول دونه، فإنّ الاستطاعة فعلية القدرة وعدمها ينفي الفعلية بسبب المانع وهو سرعة أخذهم بالصيحة، بخلاف نفي القدرة فإنه يفيد العجز الذاتي، ولذا لا يوصَف الباري عزّ وجلّ بالاستطاعة بل بالقدرة؛ لأن قدرته لا يمنعها مانع.

---

(١) سورة يس: الآية ٥٠.

الثاني: لأن القدرة أعم من الاستطاعة، فكل مستطيع قادر وليس كل قادر مستطيع. هذا في المخلوق، وأما الخالق عزّ وجل فلا يتصور فيه استطاعة بل هو قادر على كل شيء(١)، وقدرة الله سبحانه بمعنى نفي العجز عنه وبهذا يتضح أنّ الاستطاعة من شؤون المخلوق، وأما القدرة فهي من شؤون الخالق عزّ وجلّ، وعلى هذا فإنّ الكفار كانوا لا يستطيعون التوصية والرجوع وليس لا يقدرون؛ لأن المقتضي كان موجوداً لذلك ولكن المانع حال دونهم.

اللطيفة الثالثة: ما المراد بالأهل؟

قوله تعالى: ﴿**وَلَا إلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ**﴾(٢) قدَّم النفي ولم يقل: (ولا يرجعون إلى أهلهم) لبيان التأكيد وشدة العجز فيهم، والأهل يطلق على معان:

الأول: مَن يجتمع معهم الرجل في مسكن واحد، وبهذا الاعتبار يطلق الأهل على الزوجة والأم والأولاد.

والثاني: مطلق الأقارب والعشيرة.

والثالث: الأصحاب ومَن يشترك معهم الرجل في دين أو صناعة أو أرض، كما يقال أهل الإسلام وأهل البلد وأهل التجارة وأهل العلم(٣)،

---

(١) معجم الفروق اللغوية: ص٤٧، (١٦٣- ١٦٤- ١٦٥)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٣٠، (طوع).

(٢) سورة يس: الآية ٥٠.

(٣) انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٩٦، (أهل).

والجامع بينها ما يكون به الإنسان مؤهلاً ومستقراً في روحه وعيشه، وكل إنسان يحن ويستقر إلى جماعته وأهله ويحنون عليه، ويتعلقون به، وإطلاق الآية يشمل الجميع وهو ما تقتضيه القرينة الحالية؛ لأن الناس أصناف، والصيحة لا تميزهم حينما تأتي، فتأخذ مَن له زوجة وأولاد ومَن له عشيرة أو أصحاب، وفي ذلك دلالة على أنهم يموتون غرباء في وحشة وانفراد كلٌ يواجه مصيره بمفرده، وليس له من يأويه، أو يرتكن إليه.

وأما أهل البيت الوارد في القرآن والسُنَّة فهو مصطلح خاص يُراد به أهل بيت النبيﷺ المعنوي، وهم عليّ وفاطمة والحسنان عليهم السلام ولا يُراد به غيرهم. اتفقت عليه كلمة المسلمين على ما حققناه في الحقائق والدقائق[1]، والبحث ليس فيه.

---

(١) الحقائق والدقائق: ج٥، ص١٥٥.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

وهي عديدة:

التعليم الأول: ضرورة الوصيةوغايتها

إنّ الوصية لازمة على كل مَن يريد الانتقال من الدنيا، وهي حاجة نفسية؛ لأن بها يستطيع الإنسان أن يحقق بعض ما قصرت يده عن تحقيقه، أو أهمله وضيَّعه في حياته، وتشتمل على نوعين من الحق: حق النفس في أن يجعلها صاحبها في أحسن حال من أداء الواجبات والمستحبات وتحقيق الرغبات، وحق الغير إذا تعلقت بحقوقهم، وفي ذلك وردت الأخبار الشريفة، ففي الحديث الشريف: ﴿الوصية حق على كل مسلم﴾[1] أي واجب، وعنهﷺ: ﴿المحروم مَن حُرِمَ الوصية﴾[2] وفي الحديث النبوي: ﴿أنّ الله عزّ وجلّ أعطاكم ثلث أموالكم عند وفاتكم زيادة في أعمالكم﴾[3]

---

(١) التهذيب: ج٩، ص١٧٢، ح٧٠١، ح٧٠٢؛ الوسائل: ج١٩، الباب ١ من أبواب كتاب الوصايا، ص٢٥٨، ح٢٤٥٤١.

(٢) كنز العمال: ج١٦، ص٦١٣، ح٤٦٠٥١؛ مغني المحتاج: ج٣، ص٣٩.

(٣) كنز العمال: ج١٦، ص٦١٣، ح٤٦٠٥٥؛ وانظر شرح مسند أبي حنيفة: ص٣٢٥.

وفي رواية أخرى: ﴿أنّ الله تعالى تصدَّق عليكم عند وفاتكم بثلث أموالكم زيادةً لكم في حسناتكم﴾[1] وفي ذلك دلالة على أمور:

الأول: أنّ مال الإنسان ليس ملكه وإنما يجعل له ليستفيد منه في حياته، فإذا مات رجع إلى مالكه الأصلي وهو الله سبحانه؛ لذا قال إنه سبحانه يتصدَّق عليكم بثلث أموالكم، والصدقة لا تكون إلّا من المال المملوك، والإضافة إليهم في قوله: (أموالكم) باعتبار ما مضى.

الثاني: أنّ الوصية رحمة إلهية بالعباد تمنحهم فرصاً أخرى ليحققوا آمالهم وما كانوا يطمحون إليه في حياتهم، أو يدخروا لأنفسهم بعد مماتهم. فبها يعيشون عمرين عمراً في الدنيا وعمراً في الآخرة، وأفضل ما يعيش الإنسان فيه بالوصية بالثلث هو الإنفاق على القرابة من غير الوارثين له، والصدقات الجارية، خصوصاً المدارس التي تُعلِّم وتُربّي وتُهذِّب، وطباعة الكتب وأمثالها.

الثالث: أنّ على الإنسان أن يستثمر هذه الرحمة الإلهية ولا يضيّعها. البعض يتصور أنّ الوصية فقط في الحقوق الواجبة عليه كالصلاة والصيام والحج وأمثالها، بينما الروايات تحث على الوصية بالثلث في المستحبات وأعمال البرِّ والصدقات الجارية، وعن الصادق عليه السلام عن آبائه عن رسول

---

(١) مستدرك الوسائل: ج١٤، ص٩٦، ح١٦١٨٥؛ جامع أحاديث الشيعة: ج١٩، ص١٧٧، ح٤٤.

الله صلى الله عليه وآله: «مَن لم يحسن الوصية عند موته كان نقصاً في عقله ومروءته»[١] لأنه تضييع لفرص الخير، وكاشف عن عدم الحرص على حياته الأبدية.

ولا يشترط في الوصية أن تكون مكتوبة، بل يستفاد من الآية أنّ التوصية كافية، وهي أن تكون بالقول ولو بالقليل من الشيء.

التعليم الثاني: الحاجة إلى الأهل فطرية

أنّ الحاجة إلى الأهل فطرية، وهي دائمة حتى في الموت وبعده؛ لأنهم سكن الإنسان وعزته ومحققو غرضه، والآية دالة على هذه الحقيقة ومشيرة إلى أنّ الإنسان في وقت الشدائد يرجع إلى أهله؛ لأنهم نجاته وسكنه، فكيف يجب أن يتعامل معهم في حياته ليكونوا له الملجأ والمأوى. بعض الناس يقسوا على أهله وأرحامه ويقطعهم أو يتنافر معهم، وهذا يحرم نفسه من خير كثير فضلاً عن أنّ قطيعة الرحم من المحرمات.

وفي ذلك دلالة كبيرة على لطف التشريع وسعة الرحمة الإلهية بالعباد؛ إذ يحثهم على التواصل والتراحم في حياتهم وبعد مماتهم، فعن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «وأكرِم عشيرتك فإنهم جناحك الذي به تطير، وأصلك الذي إليه تصير، ويدك التي بها تصول»[٢].

---

(١) مستدرك الوسائل: ج٢، ص١٣١، ح١٦١٩؛ ج١٤، ص٨٨، ح١٦١٦٤؛ البحار: ج٧٨، ص٢٤٢، ح٢٨.

(٢) نهج البلاغة: ج٣، ص٥٧، الخطبة ٣١؛ البحار: ج٧١، ص١٠٥، ح٦٧.

وعن الصادقعليه السلام: ﴿مَن أحبَّ أنْ يخفف الله عزّ وجلّ عنه سكرات الموت فليكن لقرابته وصولاً، وبوالديه باراً، فإذا كان كذلك هوَّن الله عزّ وجلّ عليه سكرات الموت، ولم يُصبه في حياته فقر أبداً﴾[١] ولعلّ من أسباب التهوين هو حضورهم عنده وانقيادهم إليه ورفع وحشته وتنفيذ وصاياه.

التعليم الثالث: العناد يحرم الإنسان من الفرص

أنّ المكابرة والعناد والخصومات تحرم الإنسان من فرص كثيرة، وتقوده إلى سوء العاقبة، وهؤلاء الكفار لو استجابوا لنداء عقولهم وسمعوا لنصيحة المؤمنين ولم يكابروا لسعدوا في الدنيا، ولم يصبهم أذاها، ونجوا في الآخرة، والكثير من الناس الذين يتصفون بالعناد والمكابرة يعيشون الشقاء والتعاسة، ولا يحظون بفرص التقدم والنجاح، بل في الغالب يعانون مشكلتين:

الأولى: التخلف عن تحقيق الأهداف، وهذا يشعرهم باليأس والكآبة والحزن الدائم، وبالنتيجة العاقبة السيئة.

الثانية: فقدان المحبوبية بين الناس.

فعن الصادقعليه السلام: ﴿إياكم والخصومة فإنها تُشْغِل القلب، وتورِث النفاق، وتكسب الضغائن﴾[٢] والضغائن جمع ضغينة وهي الحقد، والحقد

---

(١) الأمالي (للصدوق): ص٤٧٣، ح٦٣٥؛ الأمالي (للطوسي): ص٤٣٢، ح٩٦٧؛ البحار: ج٧١، ص٦٦، ح٣٣.

(٢) الكافي: ج٢، ص٣٠١، ح٨؛ شرح أصول الكافي: ج٩، ص٣٠٨، ح٨؛ الوسائل: ج١٢، الباب ١٣٥ من أبواب أحكام العشرة، ص٢٣٧، ح١٦١٨٤.

يمنع من تقبل الحق، ويحث على المكابرة في الباطل؛ لذا تكون عاقبته الهلكة، وقد ذكر علماء الأخلاق جملة من الآثار السلبية للمراء والجدال والخصومة التي هي صفات المعاندين المكابرين(١)، ومنها أنه يوجب الشك في العقيدة والخروج عن التقوى والورع في الدين، ويتحقق ذلك بما بيَّنته الآيات الشريفة من أسلوب الكفار في المحاورة والعناد، فعن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «إيّاكم والجدال فإنه يورث الشك في دين الله»(٢) وفي رواية أبي بصير قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: لا يخاصم إلّا شاك في دينه، أو مَن لا ورع له»(٣) وفي بعض الروايات أنّ ذلك من خُلُق إبليس وسجاياه(٤)، فعلى المؤمن أن يكون بين حالتين: إما عالمٍ أو مُتعلِّم، وكلاهما يضادان الجدال والمكابرة.

---

(١) انظر مرآة العقول: ج١٠، ص١٣١؛ جامع السعادات: ج٢، ٢٩٢.

(٢) كنز الفوائد: ص١٢٨؛ البحار: ج٢، ص١٣٨، ح٤٩.

(٣) مستدرك الوسائل: ج٩، ص٧٥، ح١٠٢٤٦؛ البحار: ج٢، ص١٤٠، ح٦١.

(٤) انظر مصباح الشريعة: ص٣٢؛ البحار: ج٢، ص١٣٤، ح٣١؛ مجمع الفائدة والبرهان: ج٥، ص٣٩٦، الحاشية.

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ

يس/ ٥١

وهي متممة لأحداث الآيتين السابقتين وحاكية عن أحوال منكري المعاد في البرزخ، وإخبار عن الاستقبال بلسان الحال لحتمية الوقوع.

والبحث فيها يقع في مباحث:

المبحث الأول : في مفردات الآية

وهي عديدة:

المفردة الأولى: (الواو)

في قوله ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ تحتمل معاني[1] عمدتها ثلاثة:

منها: أن تكون استئنافية للإشارة إلى حدوث النفخة بعد الصيحة، وهي نفخة الإحياء بعد أن كانت الصيحة للإماتة، فالنفخة تعلن ابتداء مرحلة النشور، وتضافرت الأدلّة على وجود فترة بين الإماتة والإحياء، فتكون مُبيّنة لموضوع جديد.

ومنها: أن تكون حاليّة تعود إلى نظر القوم إلى الصيحة في حال نَفْخ الصور.

ومنها: أن تكون عاطفة تفيد المصاحبة، والمعنى أنهم ينظرون إلى الصيحة المصحوبة بنفخ الصور.

والأول أظهر و أنسب بغرض الآية.

---

(١) انظر التحرير والتنوير: ص٣٦.

المفردة الثانية: ﴿نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾

النفخ معناه واضح ويُراد به بعث الريح من الفم ونحوه بقوة، ويلازمه الصوت(١)، ولوضوحه عرَّفه بعض أهل اللغة بنفسه، وهو من تعريف الشيء بنفسه، ولولا الركون إلى استغنائه عن التعريف لورد عليه إشكال الدور، وقد ورد النفخ بصيغة الماضي المبني للمجهول لأسباب:

أولها: لإثبات أنّ الأمر حتمي الوقوع لا تردُّد فيه ولا شكّ.

ثانيها: لبيان أنّ العناية للنفخ بغض النظر عن النافخ؛ لإشعار السامعين بأن القضية كأنها حاصلة الآن لا في المستقبل.

ثالثها: لمزيد التخويف والتحذير، فإنّ الريح والصوت إذا جهل مصدره كان مخيفاً، وهي تفيد الظرفية للإشارة إلى أنّ النفخ يمرّ في الصور ويخرج.

والصور فيه أكثر من قراءة، بفتح الصاد وتسكين الواو (صَوْر) وبضم الصاد وفتح الواو (صُوَر) وبضم الصاد وتسكين الواو (صُوْر) وهو الحق لما قررناه من توقيفية القراءة القرآنية وكتابتها.

والمشهور المعروف أنّ الصور يشبه البوق في الشكل، والبوق أداة مجوَّفة يُنفَخ فيها ويُزمَر ويُستعمَل عادةً للإعلان عن أمر مُهمّ كالحرب ونحوها(٢)، وفرقه أنّ البوق لنفخ الصوت المرتفع. أمّا الصور فيستعمل لنفخ الأرواح وإلحاقها بأجسادها لدى نفخة الإحياء، وقد اختلفوا في حقيقته على أقوال:

---

(١) المعجم الوسيط: ج٢، ص٩٣٨، (نفخ).

(٢) المعجم الوسيط: ج١، ص٧٧، (بوق).

القول الأول: ذهب إليه أكثر المفسرين، وأهل الكلام قالوا هو قرن يشبه قرن الحيوان ينفخ فيه إسرافيل فيخرج منه صوت عظيم يميل إليه العباد، أي هو مُخيف وليس بمزعج؛ لأنه كالداعي لهم إلى نفسه[١].

وقالوا: قد ورد في النصوص أنّ إسرافيل ينفخ في الصور ثلاث نفخات، النفخة الأولى هي نفخة الفزع وهي الصيحة التي تحدَّثت عنها الآية، والثانية نفخة الصعق التي يصعق بها مَن في السماوات والأرض فيموتون بها إلّا ما شاء الله وهم محمد وآل محمد عليهم السلام كما في الأخبار المعتبرة، والثالثة نفخة القيام لربِّ العالمين فيُحشَر الناس بها من قبورهم، ويجتمعون في صعيد واحد للقيامة[٢]، وهو ما يستفاد من منطوق الآيات والروايات وظاهرها أنه جسم مادي.

القول الثاني: أنه جمع صُوَر وعليه يكون منطوق الآية: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ**﴾[٣] لأن الله سبحانه يصوِّر الخلق في القبور كما صوَّرهم في أرحام الأُمَّهات، ثم ينفخ فيهم الأرواح كما نفخها وهم في أرحام أُمَّهاتهم.

نسب إلى الشيخ المفيد و الطبرسي قدس سرهما من أعلامنا[٤] وغيرهم[٥].

---

(١) التبيان: ج٨، ص٣٥٣؛ روح البيان: ج٧، ص٤٠٨.

(٢) انظر مجمع البيان: ج٣، ص٧٦٦.

(٣) سورة يس: الآية ٥١.

(٤) انظر البحار: ج٦، ص٣٣٦، باب٢ نفخ الصور وفناء الدنيا؛ بيان السعادة:ج٣، ص١٠٤.

(٥) الجامع لأحكام القرآن: ج٨، ص٣٧.

وهذا القول أقرب إلى الفهم وأوفق بمعنى الإحياء والخلق، لكن يرد عليه أكثر من إشكال:

الإشكال الأول: أنه خلاف القراءة المتواترة، فلا يصح إلّا بتأويل القراءة من الصُور إلى الصُوَر وهو خلاف القاعدة، بل قد عرفت بطلانه؛ لتوقيفية القراءة والكتابة القرآنية.

الإشكال الثاني: أنه مخالف لصريح النصوص في الآيات والروايات الواصفة للصور، ففي تفسير القمّي في معنى قوله تعالى: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء الله ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ**﴾[1] روى علي بن إبراهيم بسند متصل صحيح عن الإمام علي بن الحسين عليهما السلام لمّا سُئِل عن النفختين كم بينهما؟ قال: «ما شاء الله» فقيل له: فأخبرني يا ابن رسول الله كيف يُنفخ فيه؟ فقال: «أمّا النفخة الأولى فإنّ الله يأمر إسرافيل فيهبط إلى الأرض ومعه صور، وللصور رأس واحد وطرفان، وبين طرف كل رأس منهما ما بين السماء والأرض. قال: فإذا رأت الملائكة إسرافيل وقد هبط إلى الدنيا ومعه الصور قالوا: قد أذِنَ الله في موت أهل الأرض وفي موت أهل السماء. قال: فيهبط إسرافيل بحظيرة بيت المقدس، ويستقبل الكعبة، فإذا رأوه أهل الأرض قالوا: قد أذن الله في موت أهل الأرض. قال: فينفخ فيه نفخة فيخرج الصوت من الطرف الذي يلي أهل الأرض، فلا يبقى في الأرض ذو روح إلّا صُعِق

---

(١) سورة الزمر: الآية ٦٨.

ومات، ويخرج الصوت من الطرف الذي يلي السماوات فلا يبقى في السماوات ذو روح إلّا صُعِق ومات إلّا إسرافيل»[١] إلى آخر الرواية.

ولا يخفى أنّ قوله تعالى: ﴿**فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللّه**﴾[٢] يدل على وجود جماعة يُستثنون من الصعق والموت العام، وقد دلَّت الأدلّة القطعية على أنهم محمد وآل محمد عليهم السلام؛ لأنّ إليهم الإياب وعليهم الحساب[٣]، والبحث مفصل في محلّه.

ونلاحظ أنّ الأدلّة ظاهرة أو صريحة في وجود آلة ينفخ فيها إسرافيل فيُميت أهل السماء والأرض، وينفخ فيها أخرى فيحييهم.

ويعزِّزه ما ورد في الدعاء الثالث من أدعية الصحيفة السجادية: «وإسرافيل صاحب الصور الشاخص الذي ينتظر منك الإذن وحلول الأمر، فيُنبِّه بالنفخة صرعى رهائن القبور»[٤]

والخلاصة: أنّ الأدلّة ظاهرة في أنّ الصور آلة يُنفَخ فيها وليس هو جمع الصوَر فلا يُصار إليه.

الإشكال الثالث: أنّ حمل الصور على جمع الصُوَر ممتنع عقلاً لاستلزامه التناقض؛ لأن النصوص صريحة في أنّ النفخة الأولى تقع في

---

(١) تفسير القمي: ج٢، ص ٢٥٢.

(٢) سورة الزمر: الآية ٦٨.

(٣) الكافي: ج٨، ص١٦٢، ح١٦٧؛ مناقب آل أبي طالب: ج٢، ص٣٠٢؛ الفصول المهمة: ج١، ص٤٤٧؛ البحار: ج٧، ص٢٠٢، ح٨٨.

(٤) الصحيفة السجادية: ص٤٠؛ البحار: ج٦، ص٣٣٦.

الصور وهي للإماتة وليست لنفخ الصور، على أنّ المراد بالصور مجمل؛ لأنه يحتمل معنيين:

الأول: الصُوَر البدنية أي الشكل والهيئة.

والثاني: الأرواح، فإن كان الأول فهو ممتنع؛ لأن الصُوَر ليست حقائق واقعية، بل هي أعراض تظهر بها الأبدان، فلا يصح فيها النفخ، بل التسوية والخلق، وإن كان الثاني فالإشكال أوضح؛ للتباين بين الصُوَر والأرواح في المادة فلا يشتق منها.

القول الثالث: إنّ الصور أمر مبهم لا نعلمه، والعقل لا يدرِك شكله؛ لأنه من عالَم الملكوت، وإنما شُبِّه بالبوق من باب تشبيه المعقول بالمحسوس لتقريبه إلى الأذهان[١].

نعم ورد في بعض الأخبار أنه قرن من نور[٢]، ولكنه لم يرفع إبهامه، والوجه في هذا القول هو أنّ الكتاب العزيز ما بيّنَ حقيقة الصور واكتفى ببيان أثره والنفخ فيه، وأنه سبب للإماتة والإحياء. نعم وردت بعض تفاصيله في الروايات لكنها أخبار آحاد، ولا دليل على حجيتها في غير الأحكام الفرعية، لاسيّما المعارف الأصلية؛ لأن مدار حجية الأخبار إمّا سيرة العقلاء أو التعبُّد الشرعي على الخلاف بين الأصوليين، ولا يوجد بناء

---

(١) انظر تفسير تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٤، ص ٤٥٣.

(٢) تفسير الأصفى: ج٢، ص٩١٧؛ التفسير الصافي: ج٢، ص١٣٠؛ بيان السعادة: ج٣، ص١٠٣.

عقلائي على تصديق أخبار الآحاد وبناء العقيدة عليها في الأصول، كما لا يوجد دليل شرعي يثبت حجيتها في غير الأحكام.

وعليه فالواجب عقلاً وشرعاً الإيمان بالصور وبأثره وعقد القلب عليه لوروده في الكتاب العزيز، وكذا ما ورد في الأخبار من باب التسليم وعدم جواز طرحها لعدم مخالفتها للكتاب.

وأمّا التفاصيل فيوكل علمها إلى الله وحججه المعصومين عليهم السلام.

وهنا نلفت النظر إلى أمرين:

الأول: أنّ بعض ما بني عليه هذا القول محل تأمُّل، فقد حققنا في الأصول إمكان القول بحجية أخبار الآحاد في أصول العقيدة[1] بالرغم من عدم الحاجة إليها؛ لأن ما تقوم عليه عقائد المذهب الحق ثابت بالأدلة القطعية لا الظنيّة.

الثاني: أنّ الظاهر عدم تنافي الأقوال الثلاثة، أو يمكن الجمع بينها، وتقرير ذلك يتم ببيان مقدمتين:

المقدمة الأولى: أنّ عالم المُلك والدنيا يفترق كثيراً عن عالم الملكوت والآخرة، فلا يصح أن نقيس الأوصاف الواردة عن عالم الملكوت بالموجود في عالَم المُلك، ولو لوحظ اشتراك في الأسماء والعناوين فذلك من باب الضرورة؛ لأننا لا ندرك المعاني إلّا بالألفاظ المستعملة والمتداولة لدينا،

---

(١) انظر أصول الفقه وقواعد الاستنباط: ج١، ص١٤٧؛ المهذب في أصول الفقه: ص١٠٧.

فيعبَّر عن تلك المعاني الملكوتية العظيمة بالتسميات عندنا لكي ندرك شيئاً ونتعرَّف عليها ولو من بعض الجهات، والتعريف للشيء من وجه يرفع شيئاً من الغموض والإجمال ولكن لا يعرِّفه بتمامه، وهذه قضية متداولة حتى في الاستعمالات العرفية، فحينما يسأل السائل ما هي سُعدانة؟ تعرَّف له بأنها نَبتٌ، وهذا التعريف ليس للحقيقة وإنما لمجرد تمييزها وبيان أنها ليست من الحيوانات ولا من الجمادات، وليست امرأة اسمها سُعدانة، والغاية منه رفع بعض الإبهام.

وهكذا حيث يُعرِّف المناطقة الإنسان بأنه حيوان ناطق، فإن هذا التعريف ليس حقيقياً للإنسان، وإنما مميزٌ له عن باقي الحيوان، ومرادهم من الحيوان ليس الدابة والحشرة، وإنما حسّاس متحرِّك بالإرادة، وهذه صفة يشترك فيها الإنسان وغيره.

وبقولهم ناطق يميزونه عن باقي الحيوان، ويريدون به أنه يفكر وينطق بفكرِهِ، ولكن هل هذا تعريف لحقيقة الإنسان بجميع خصائصه وأطواره؟ لا، وإنما للاكتفاء ببعض التعريف والتقريب للذهن.

وكذلك الأمر حينما تَرِد النصوص ببعض المعاني من عالَم الغيب وتعرِّفها لنا بالأسماء والعناوين التي نحن نعرفها. مثلاً: العسل والخمر واللبن التي هي أنهار في الجنة، هذه الأسماء لتقريب هذه المعاني إذ لا يُقاس عسل الجنة ولا خمرها ولا لبنها بما عندنا في الدنيا بأي وجه ولا يوجد اشتراك فيما بينها في الجوهر والحقيقة إلّا بالاسم للتوضيح والتقريب.

وكذلك حوض الكوثر وماؤه فإنه يُذكَر لتقريب المعنى وليس لبيان الحقيقة، فإن ماء الكوثر يجتمع فيه جميع اللذات والنِعَم، وبشربة واحدة يَحسّ الشارِب بكل ما يشتهي ويلذ، وأين هذا من ماء الدنيا الذي يكون سبباً للكثير من الأمراض والآفات.

(صُوَر الخلائق الملكوتية)

المقدمة الثانية: أن المخلوقات الإلهية لها صورتان: صورة مُلكية لها شكل وحجم ووجود مادي، وصورة ملكوتية أعظم منها وأكثر أثراً، وقد وردت الأخبار بكِلا الصورتين، فبعضها ناظر إلى الصورة المُلكية وبعضها ناظر إلى الصورة الملكوتية، وإذا لا يُلتفَت إلى الفرق بينهما يقع الناظر والباحث في اضطراب الفهم والجمع بينها. أضرب لذلك أمثلة:

المثال الأول: العرش فإنه في اللغة والعُرف هو الكرسي العظيم الذي يجلس عليه الملوك والسلاطين، وهو رمز الملوكية، نظير عرش يوسف وبلقيس وسليمان، وقد ورد في الآيات الشريفة نسبة العرش إليه تبارك وتعالى. قال تعالى: ﴿**وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ**﴾[1] وهو ظاهر في أنّ العرش الإلهي له شكل وحجم وأركان ثمانية يحمله ثمانية أشخاص، وفي آيات أخرى أنهم ملائكة، وهي تحفّ به تُسبِّح الباري عزّ

(١) سورة الحاقة: الآية ١٧.

وجلّ وتعبُد ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾(١) وفي أخرى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾(٢).

وفي آيات أخرى يقول سبحانه: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾(٣) و: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾(٤) و: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾(٥).

الظاهر في أنه أعظم مما تحمله الملائكة، ويسع السماوات والأرض، ويمتنع أن يكون عرشه محدداً بحجم وشكل مادي، والمراد به مصدر القوة والسلطة والهيمنة الإلهية على الوجود.

ولهذا قد يتصور وقوع التناقض أو الاضطراب في البيان، والحال أنّ الطائفة الأولى من الآيات ناظرة إلى الصورة المُلكية، والثانية إلى الملكوتية، واذا اختلفت الجهة واللحاظ ارتفع الاضطراب.

وإن سأل سائل أنّ الأنسب به سبحانه هو العرش الملكوتي فلماذا خلق العرش المُلكي؟

والجواب: لا شكّ أنّه سبحانه لا يحتاج إلى العرش المُلكي وهو مخلوق من مخلوقاته عزّ وجلّ كسائر المخلوقات، ولكنه عزّ وجلّ يخلقهُ لأسباب وحِكَم عديدة:

---

(١) سورة الزمر: الآية ٧٥.

(٢) سورة غافر: الآية ٧.

(٣) سورة هود: الآية ٧.

(٤) سورة طه: الآية ٥.

(٥) سورة يونس: الآية ٣.

أحدها: أن يكون مظهراً لقدرته وجماله وجلاله للمحدودات، فإنّ المخلوقات محدودة ولا تستطيع أن تدرك اللامحدود، فيخلق لكل حقيقة لا محدودة صورة محدودة تدل عليه سبحانه وتعالى، وتهدي المخلوقات إليه، فيكون مُعرّفاً.

ثانيها: أن يكون علامة على قدرته وجماله وجلاله؛ لأنه سبحانه يخلق كل ما يستحق الخلق إمّا بنفسه أو بغيره، ولا يمنع منه مانع؛ لأنه غني كريم وحكيم.

ثالثها: أن يكون مظهراً ورمزاً لتعظيمه تبارك وتعالى وتمجيده وتسبيحه، فإذا أراد الخلق تعظيمه عزّ وجل احتفوا حوله وسبَّحوه وعظَّموه.

ونلاحظ أن الروايات الواردة في تفسير العرش على قسمين: قسم منها فسَّر العرش الرمزي الذي هو مُلكي وله جهة تشريفية رمزية للباري تحمله الملائكة وهي محتُفَّة به تُعظِّم وتحمد وتسبِّح بحمده تبارك وتعالى.

وقسم آخر فسَّر العرش بالصورة الملكوتية اللّامحدودة التي تَسَع السماوات والأرض، وهي مصدر القدرة والتدبير، كما ورد تفسير العرش بالعلم، وأن حملة العرش ثمانية الأربعة الأساس هم آل محمد عليهم السلام أي علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، والأربعة الأخرى ما شاء الله، وفي بعضها فسرَّتهم بسلمان والمقداد وأبي ذر وعمار، وهذا شاهد على أنّ هذه الأربعة من أصحابهم هم حملة علومهم عليهم السلام [1].

---

(١) انظر مجمع البحرين: ج٤، ص١٤١، (عرش).

والمثال الثاني: الكعبة المشرَّفة فإنّها بيت الله سبحانه، وإليها يحج أهل الأرض، وهي صورتها المُلكية، وقد جعلها الباري عزّ وجلّ رمزاً ومظهراً لتعظيمه وعبادته، وفي السماء لها صورة ملكوتية تسمى بالبيت المعمور تحجّه الملائكة وأهل السماء.

ومثلها النبيّ والإمام عليهما السلام فإنهما مظهر جمال الله وجلاله، ورمزان له عزّ وجلّ في الأرض، بهما يُعرَف الله ويُطاع، وبإنكارهما يُنكَر الله سبحانه ويُعصى، ولذا لابدّ وأن يظهرا بصورتهما المُلكية، وأمّا صورتهما الملكوتية فهي أعظم بكثير وفوق ما تدركه العقول في الدنيا.

والمثال الثالث: الإنسان، له صورتان مُلكية يعيش بها في الدنيا، تتكون بالأسباب الطبيعية، وهي محدودة وعاجزة قاصرة تُبتلى بالأمراض والآفات، وهي مدار التكليف والاختبار، وتتكون بالوراثة والغذاء ونحوهما، وصورة ملكوتية أعظم وأكثر قدرة ولا محدودية تشكلها، سجاياه الروحية والأخلاقية.

فإن الصفات الأخلاقية والنفسيّة للإنسان هي التي تكوِّن صورته الملكوتية؛ لذا تتحدَّث الروايات عن صورتين للإنسان، صورة يعيش فيها في الدنيا بين الناس وهي صورة آدمية، ولكنه في البرزخ والحشر يعيش بصورته الملكوتية التي كوّنتها أخلاقه وسجاياه[1]، ولذا يحشر بعض الناس في الآخرة لهم كتلة من النور، ونورهم يسعى من بين أيديهم، وبعض الناس

---

(١) الحقائق والدقائق: ج٧، ص٢٤٧.

ظلمانيون، وبعضهم يُحشَرون على هيئة القردة والخنازير والعقارب؛ لأن سجاياهم النفسية كانت هكذا، وهو واقعهم الملكوتي، وبعض الناس يُحشرون في أجمل صورة.

كما أنّ الإنسان في صورته المُلكية عاجز فقير لا يستطيع أن يرى ما وراء الجدار، وإذا أرادَ السفر لابدّ له من وسيلة نقل، ولا يَعْلَم إلّا بما يتعلَّم، إلّا أنه في صورته الملكوتية يرى الأشياء، ويقطع المسافات الطويلة جداً بمجرَّد الإرادة والاتجاه، وعلمه يتّسع كثيراً؛ لأنه يرى، وبصره حديد، والغطاء مكشوف عنه كما قال سبحانه: ﴿**فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ**﴾[1].

والخلاصة: أنّ المخلوقات لها صورتان، وبينهما تفاوت كبير، واحدة محدودة ولها شكل وحجم يُطابق ما تدركه عقولنا في عالم الدنيا، وواحدة أعظم من ذلك بكثير تقصر العقول عن دركها، وإنّما تُدرك إذا رأيناها في ذلك العالَم. إذا عرفت هذا تتضّح ثلاث نتائج هامة:

النتيجة الأولى: الروايات الكثيرة الواردة في بيان الحقائق بمنطوق متفاوت مثل العرش والصور وجبرئيل والكرسي وغير ذلك، فإن التفاوت ليس تناقضاً، بل بعضه ناظر إلى الجهة المُلكية وبعضه ناظر إلى الجهة الملكوتية.

النتيجة الثانية: الروايات الواردة في وصف أعداء آل محمد عليهم السلام والنواصب بصور الحيوانات كالوزغ ونحوه، فإنه قد يستهجنها البعض أو

---

(١) سورة ق: الآية ٢٢.

يردّها لأنه يجدها غير واقعية؛ لأنّ هؤلاء كانوا بشراً ويعيشون بين الناس وليسوا حيوانات، ولم يلتفتوا إلى أن تلك الروايات تتحدَّث عن صورتهم الملكوتية لا المُلكية.

النتيجة الثالثة: أنّ اختلاف الأقوال الثلاثة في معنى الصور في الآية مورد البحث اختلاف ليس حقيقياً وإنما ناشئ من اختلاف اللحاظ، فالقول الأول والروايات الواردة فيه ناظر إلى الصورة المُلكية، والقول الثاني ناظر إلى الصورة الملكوتية.

أما الروايات التي تحدَّثت عن الصور ووصفته بأنه شبيه القرن وأنّ له رأساً واحداً وطرفين، والطرفان أحدهما للأرض والآخر للسماء فناظرة إلى الصورة الأولى، والمسافة التي ذكرتها الروايات بين الطرفين ما بين السماء والارض ناظرة إلى الثانية[1].

والصور الملكوتي نوري ويمثل إرادة الله تعالى وقدرته في إعادة الأرواح إلى أبدانها، ولأن الباري عزّ وجلّ أخبر أنه كما خلقنا أول مرة يعيدنا كما قال: ﴿**كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ**﴾[2] وقال: ﴿**كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ**﴾[3] و (كما) تفيد وحدة الكيفية في العَود، فإن الخلق الأول كان بنفخ الأرواح في الأجساد بعد تكوينها في الرحم، فكذلك لدى الإحياء فإن الأجساد تتكوَّن في قبورها، وهي بمنزلة الرحم، ثمَّ يُنفَخ فيها الأرواح.

---

(١) انظر تفسير القمي: ج٢، ص٢٥٢.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ١٠٤.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٢٩.

وهذا ما وردَ بيانه في بعض الأخبار، فإنَّ صور إسرافيل له ثُقَب بعدد أرواح الخلائق فيخرج الصوت منها وكل روح تلتحق بجسدها، وحيث إنّ عالَمَ الملكوت لا محدود لابدّ وأن يكون الصور كذلك، فيكون كناية عن مصدر المشيئة الإلهية في إعادة الأموات وإحيائهم، ويتم بالنفخ؛ لأنّ السببيّة سُنّة إلهية قائمة، كما أنّه سبحانه يخلق الأجنّة ولكن في الأرحام[١].

هذا وهناك وجه آخر للجمع وخلاصته: أنّ المستفاد من النصوص أنّ صُوَر الناس في الآخرة تكون مطابقة لسجاياهم وصفاتهم النفسية، فالأخيار صُوَرهم جميلة، والأشرار قبيحة تبعاً لسِمات الروح وسجاياها.

ولعلّ بهذا الاعتبار سُمّيت الأرواح صُوَراً فتصبح في الأبدان على سجاياها، وبه يرتفع الخِلاف بين القول الأول والثاني، كما يصح القول الثالث؛ لأن هذا ما يمكن معرفته من الصور بحسب الجمع الدلالي، وأمّا حقيقته الواقعية فمتعذرة لقصور البشر عن إدراك عالَمَ الملكوت ما داموا في عالم المُلك، ولعلّ لهذا السبب لم يفصِّل القرآن معالمه وخصائصه، واكتفت الروايات ببعض المعاني المقرِّبة على أنّ كون الصور حقيقة نورية لا ينفي عنه الإلهية ولا المادية؛ لعدم وجود مجرَّد حقيقي غير الله سبحانه.

---

(١) انظر بيان السعادة: ج٣، ص١٠٣-١٠٤.

المفردة الثالثة: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ﴾

﴿فإذا﴾ تفيد المفاجأة للإشارة إلى سرعة الحدث ووقوعه من دون سابق إنذار أو تَوقّع، والضمير عام يشمل جميع الناس إلّا أنّ المعني به أولاً هم الكفار؛ لأنّهم سألوا عنه بقولهم: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾[1] ولإشعارهم بمزيد الخوف والوحشة، ولأنهم أولى من غيرهم بالحساب والمؤاخذة.

وأمّا المؤمنون فإنهم فرحون بمصيرهم وإن أخافتهم الصيحة لكنهم سُرعانَ ما تستقرّ نفوسهم وقلوبهم لسببين:

السبب الأول: لأنّهم يجدون حقانيّة معتقدهم وصدق ما آمنوا به وبنوا حياتهم عليه من العدل والرحمة والثواب.

والسبب الثاني: لأنهم أيقنوا بذلك في ساعة احتضارهم وفي برزخهم؛ لأنهم يرون النبيّ والأئمة عليهم السلام ويطمئنونهم بحسن المصير والخاتمة، ويعيشون في عالَم البرزخ مُنعَّمين.

وهكذا سائر المفردات والعناوين والصور منها، وهذه قضية هامّة لو ألتفت إليها لحصلنا ثمرتين مهمتين جداً في فهم النصوص والروايات:

الأولى: اتضاح جُملة من الروايات التي اشتملت على بعض المفردات التي نستغربها نحن بحسب لغة أهل الأرض وعالَم المُلك، وتعذَّر على البعض فهمها فردّها وكذَّبها لعدم التفاته إلى خطأ المقايسة بين عالَم المُلك

---

(١) سورة يس: الآية ٤٨.

وعالَمِ الملكوت، وإنّ ما يُستعمل من ألفاظ عندنا للتعبير عن عالَمِ الملكوت غايته التقريب والتوضيح لا التطبيق والحقيقة.

الثانية: أنّ التفسير العلمي للقرآن والسُنَّة طبقاً لقواعد العلوم الحديثة غير صحيح؛ لأن العلوم تتبدَّل وتتغيَّر وتتطوَّر، وما يقوله القرآن والسُنَّة حقائق واقعية ثابتة، ولا يمكن تفسير الثابت بالمتغيّر. نعم ربما تُتَّخذ بعض القواعد أو النتائج العلمية كقرائن مُقرِّبة للمفهوم، ولكن لا يمكن اعتبارها مفسِّرة لها على نحو التفسير الدقيق، ولمّا لم يلتفت إلى هذه الحقيقة وقع البعض في هفوة ردّ النصوص؛ بزعم أنّها تنافي اظهارات العلم الحديث، وغفل عن أنّ ما يقوله العلم ربما يتغير، وقد تغيَّر الكثير منها، وغفل عن أنّ ما يقوله القرآن والسُنَّة استعمل ألفاظاً لتقريب المعنى إلى الذهن وليس للتطبيق.

نعم ما يقوله القرآن والسُنَّة كله مطابق للواقع، وله قواعد علمية دقيقة، ولكن ليس بالضرورة يدركها البشر أو يصل إليها؛ لذا اتفقت الكلمة على أنّ الدين أكبر من العقل والعلم؛ لأنهما قاصران، والدين ناظر إلى الواقع الحقيقي للأشياء وليس للواقع العلمي الذي قد يُطابق الواقع وقد يكون جهلاً مركباً.

نعم يستثنى من ذلك نوعان من الروايات:

الأولى: الروايات التي تتنافى مع حكم العقل البديهي، أي أنّ العقل يرى استحالتها، فإن ذلك دالّ على كذبها لأسباب ثلاثة:

الأول: لأن المستحيل عقلاً لا يفترق بين عالَم المُلك وعالَم الملكوت، والعقل حاكم في العالمين.

الثاني: للعلم بوقوع الكذب والوضع على النبي والأئمة عليهم السلام، وقد أمرونا بمراعاة القواعد الصحيحة لتوثيق الروايات.

الثالث: لأن القرآن والسُنَّة جعلا العقل حجة علينا في الموارد التي يستقل بالحكم بها، وهي في الأحكام الثابتة التي لا تختلف عن عالم المُلك والملكوت.

والثانية: الروايات المنافية لكتاب الله سبحانه؛ للعلم ببطلانها وعدم صدورها عنهم، وأمّا الروايات المخالفة للشهرة أو المبتلاة بالإعراض أو المتعارضة فهي وإن تسقط عن الاعتبار إثباتاً لكنها لا تسقط واقعاً وثبوتاً، بل يمكن الاستفادة منها والتعرف على مداليلها وإن لا يصح العمل بها؛ لأن عدم جواز العمل بها ناشئ من وجود المانع لا من عدم المقتضي، وهذا بحث أصولي عميق نوكله لمحله.

وقوله: ﴿**فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ**﴾[1] صريح في أن المحشورين هم أنفسهم بكل تكوينهم الجسدي والروحي، وفي ذلك دلالة على أن المعاد جسماني و يتعلق بالأجساد الدنيوية التي تقبر وتثوى في مواضعها، ويعاد تكوينها منها، فقول جمع من الحكماء بأن المعاد روحاني لا جسماني غير سديد لشاهدين في هذه الآية، فضلاً عن الأدلة القطعية الأخرى:

---

(١) سورة يس: الآية ٥١.

الشاهد الأول: ظهور نسبة الإحياء إليهم وهم في أجداثهم والانسلال إلى ربهم.

الشاهد الثاني: انسلاهم من الأجداث، وهي مثاويهم التي رقدوا فيها بعد موتهم لا من غيرها، فإن ذلك دليل على أن أبدانهم يعاد تركيبها من مثواها الذي تحللت فيه، ولو كان المعاد روحانياً لم تكن حاجة إلى ذلك؛ لأن الأرواح لم تمت كما يستفاد من النصوص الكثيرة فيكفي في حشرها الإذن أو الأمر بالحشر.

إن قلت: لعل الأجداث مثوى الأرواح في عالم البرزخ ومنها تحشر.

قلت :

أولاً: هذا لا يستقيم على مسلك القائلين بالمعاد الروحاني؛ لأنهم يرون فناء الأجساد وزوالها واستحالة عودها.

وثانياً: لو صحّ لخالف منطوق الآية؛ لأنها صريحة في أن النشأة تكون من الأجداث، والأرواح حدوثاً تحصل بالنفخ، وأما بقاءً وحشراً فلا تحتاج إلّا إلى الأمر، بينما الآية تصرِّح بوجود نفخ في الصور، وبه يتم الحشر من الأجداث، ولا يتصور إلّا إذا كان المعاد جسمانياً؛ لأن الأجساد ميتة فتحيا بنفخ الارواح فيها ثانيةً.

المفردة الرابعة: ﴿إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾

الرب المصلح للشيء والقائم عليه، ويطلق على الباري لأنه المصلح لخلقه والقائم على أحوالهم[١]، وبهذا الاعتبار يقال للأب رب الأسرة، ولصاحب العمل رب العمل، وقال سيّد مكة: ((أنا رب الإبل ولهذا البيت رب يحميه))[٢] وقال يوسف عليه السلام: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾[٣] أي سيدك والقائم على أمرك، والقيمومة على الشيء إنشاؤه حالاً فحالاً إلى حدّ التمام، ومنه أخذت التربية[٤].

والنسل الانفصال عن الشيء، ومنه يقال للأولاد نسل؛ لأنهم ينسلون عن آبائهم، والتناسل هو التوالد، وأضاف بعض أهل اللغة له معنى آخر هو الإسراع[٥]، وبه أخذ جمع من المفسرين، وفسَّروا الآية بأنهم يخرجون من قبورهم مسرعين[٦]، وفيه نظر؛ لأن الإسراع صفة للنسل وليس معنىً له، ويقال له ذلك لأن المسرع في مشيه ينفصل عن مكانه بسرعة.

---

(١) معجم مقاييس اللغة: ص٣٧٨، (رب) ؛ مجمع البحرين: ج٢، ص٦٤، (ربب).

(٢) الفقيه: ج٣، ص٨٩، الهامش؛ الكافي: ج١، ص٤٤٧، ح٢٥.

(٣) سورة يوسف: الآية ٤٢.

(٤) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٣٣٦، (رب).

(٥) معجم مقاييس اللغة: ص٩٨٧، (نسل)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٠٢؛ مجمع البحرين: ج٥، ص٤٨٣، (نسل)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٩١٩، (نسل).

(٦) التبيان: ج٨، ص٨ ؛ مجمع البيان : ج٨، ص٢٨٢؛ تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٦٤؛ تقريب القرآن إلى الأذهان : ج٤، ص٤٥٤؛ تفسير الرازي: ج٩، ص٨٢ ؛ روح المعاني: ج ٢٣، ص٤٤؛ التحرير والتنوير: ص٣٦.

وفسره آخر بالروح[١]، وهو أضعف من سابقه؛ لأن الانسلال خروج من شيء وليس مطلق الخروج، ولعل ما ذكرناه أنسب بمعنى الآية، والمراد أنهم يتولدون وينسلون من ترابهم الأصلي الذي كانوا فيه للغاية والمقصد، والمعنى أنهم يتولدون ويمشون وإلى ربهم مقصدهم. نعم بناءً على قول اللغويين والمفسرين يدل على أمرين:

الأول: أن أهل الأجداث بعد أن يحيوا يمشون مسرعين إلى حشرهم، وصيغة المضارع المبنية للمعلوم تفيد المشي الاختياري لا القهري.

والثاني: أن الحشر يكون في الأرض لكن بعضهم لم يلتزموا بذلك؛ لأن الأرض في الآخرة تُبدَّل غير الأرض، والناس يحشرون إلى ربهم بلا اختيار وإرادة[٢].

ولا تنافي بين المعنيين للملازمة بين التولد والإسراع لربهم؛ لأنه سبحانه دعاهم إليه تكويناً لا تشريعاً فلا يملكون لأنفسهم إرادة أو خياراً للمنع سوى الاستجابة السريعة له سبحانه؛ وإنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

و (من) ابتدائية أو نشوية، والمعنى على الأول أن رحلة الناس للآخرة تبدأ من مثاويهم، وعلى الثاني أن منشأهم وحياتهم تكون من مثاويهم، ولا تنافي بينهما للملازمة بين الابتداء والنشوء.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ج٨، ص٣٨.

(٢) انظر مجمع البيان:ج٨، ص٢٨١؛ روح المعاني: ج٢٣، ص٤٤.

و (الأجداث) جمع جَدَث، وعرَّفه أهل اللغة[١] والمفسِّرون بالقبر[٢]، وبعضهم فرَّق بينهما في اللهجة، فقالوا: الجَدَث هو القبر بلغة أهل الحجاز، والجَدَف بالفاء هو لغة نجد[٣].

وبناءً على امتناع الترادف في اللغة كما هو الحق وأن الاستعمال القرآني لا يكون إلّا لحكمة وفرق في المعنى فإن الجدث غير القبر، وهو المحل الذي ينبعث منه الميت ليوم الحساب، وربما يكون قبراً وربما لا، وتشهد له قرينتان:

الأولى: الواقع؛ لأنه ليس لجميع الناس قبور، فبعضهم يغرقون في البحر ويصيرون طعاماً للحيوان، وبعضهم يموتون حرقاً، وبعضهم يتلاشون في مثل التفجير ونحوه.

والثانية: الآية التي تليها فإنّهم حينما يحيون وينسلون من أجداثهم يقولون: ﴿**يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا**﴾[٤] ولم يقولوا من قبورنا.

---

(١) معجم مقاييس اللغة: ص١٩٠، (جدث)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص١٨٨، (جدث)؛ مجمع البحرين: ج٢، ص٢٤٣، (جدث)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص١٠٩، (جدث)

(٢) التبيان: ج٨، ص٣٥٣؛ مجمع البيان: ج٨، ص٢٨١؛ تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٦٤؛ نفحات الرحمن : ج٥، ص٢٧١ ؛ تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٤، ص٤٥٣؛ تفسير الرازي: ج٩، ص٨٢ ؛ روح المعاني: ج٢٣، ص٤٤.

(٣) التبيان: ج٨، ص٣٥٣؛ المصباح المنير : ج١، ص٩٢؛ الإتقان : ج١، ص١٣١؛ التحرير والتنوير: ص٣٦.

(٤) سورة يس: الآية ٥٢.

فبين الجدث والقبر فروق عديدة:

الأول: أن الجدث أعمّ؛ لأنه يشمل القبر والمحل الذي يُحيا منه ويحشر؛ لذا يوصف بالنسل والخروج في الآيات، وهما أعمّ من شق القبر. قال تعالى: ﴿**خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ**﴾(١).

الثاني: أنّ الجدث يقال باعتبار إحياء الميت فيه وخروجه منه. أمّا القبر فناظر إلى رقود صاحبه فيه وهو ميت؛ لذا يقال إقبار للميت ولا يقال إجداث، فما دام الميت في مثواه يقال له قبر، والشاهد عليه قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ**﴾(٢) فسماه قبراً؛ لأنه ثاوٍ فيه.

وقوله تعالى: ﴿**وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ**﴾(٣) لأن الأموات لا يسمعون، وما ورد استعمال الجدث إلّا فيما إذا دبَّت الحياة في أهل القبور، وحُشِروا كما في الآية مورد البحث وآية القمر المتقدمة، وقوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا**﴾(٤).

الثالث: أن الجدث يتحقق بجمع الأجزاء المتفرقة من الناس استعداداً للحشر، وربما يكون في القبر الواحد أكثر من جدث؛ لأنه صار مثوى للعديدين، بخلاف القبر فإنه ظاهر في المثوى الواحد، ولذا تُبعثَر القبور

(١) سورة القمر: الآية ٧.

(٢) سورة التوبة: الآية ٨٤.

(٣) سورة فاطر: الآية ٢٢.

(٤) سورة المعارج: الآية ٤٣.

ومَن فيها يوم الحشر. يقول تعالى: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾[(١)] اي قُلِّب ترابها وأُثيرَ ما فيها[(٢)]، أو الشيء مزَّقه لينظره ويفتّشه[(٣)]، ويقول سبحانه: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾[(٤)].

وأما الأجداث فينسل منها أهلها واحداً بعد واحد، ونلاحظ أن بعثرة القبور واردة بصيغة المبني للمجهول الظاهرة في حصولها من دون إرادة واختيار من أهلها، بينما الانسلال مبني للمعلوم الظاهر في نسبته إلى أهلها الدال على الحياة والحركة والإرادة، ووجه الإرادة فيها هو استجابة إرادتهم لإرادة ربهم، وبهذا يصح أن ينسب إلى الاختيار باعتبار الاستجابة الذاتية، وينسب إلى الجبر لأنهم لا يملكون سلطة الامتناع.

و ذهب جماعة إلى التقدير في قوله: ﴿إِلَى رَبِّهِمْ﴾[(٥)] فقالوا: أي إلى حُكم ربهم، وهو مجمل، فإن أرادوا يسرعون إلى حُكم ربهم التكويني بإحضارهم للحشر والحساب فهو من تحصيل الحاصل؛ لأن مفاد الآية هو هذا، وإن أرادوا يسرعون إلى قضاء الآخرة والحكم بينهم فلا حاجة إليه؛ لأن قوله تعالى: ﴿إلى رَبِّهِمْ﴾ دال عليه، ولعلَّ السبب الذي دعاهم إلى التقدير هو أنّ

---

(١) سورة الانفطار : الآية ٤.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص١٣٣، (بعثر)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص٢٢٧، (بعثر).

(٣) المعجم الوسيط: ج١، ص٦٢، (بعثر).

(٤) سورة العاديات: الآية ٩.

(٥) سورة يس: الآية ٥١.

الرب ليس في مكان أو جهة فيمتنع الرجوع إليه، فلا حاجة إلى التقدير، لكن الصحيح هو ما نصَّت عليه الآية من دون تقدير، أي أنهم ينسلون إلى ربهم بأحد توجيهين:

الأول: ما ذكرناه من أنّ (إلى) تفيد الغاية والمقصد، وهذه لا تتوقف على أن يكون ربهم في جهة؛ لأنه في كل جهة ومكان ﴿**فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ**﴾[1].

الثاني: أنّ المراد بربهم من ربّاهم وعلَّمهم وتولّى أمرهم، وهم محمد وآل محمد عليهم السلام أولياء الوجود وسادته بإذن الله وأمره، فإنّ الإياب إليهم والحساب عليهم كما تضافر في النصوص.

فقد روى الصدوق قدس سره في الفقيه والطوسي قدس سره في التهذيب في وصف الأئمة عليهم السلام عن الجواد والهادي عليهما السلام أنَّ إياب الخلق إليهم عليهم السلام وحسابهم عليهم[2]، وفي الكافي عن سماعة قال: كنت قاعداً مع أبي الحسن الأول عليه السلام والناس في الطواف في جوف الليل، فقال لي: «يا سُماعة! إلينا إياب هذا الخلق وعلينا حسابهم»[3]، وفي الكافي بسنده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال: «يا جابر! إذا كان يوم القيامة جمع الله عزّ وجلّ الأولين

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٥٥.

(٢) الفقيه: ج٢، ص٦١٢، ح٣٢١٣؛ التهذيب: ج٦، ص٩٧، ح١٧٧؛ وانظر البحار: ج٢٧، ص٣١١.

(٣) الكافي: ج٨، ص١٦٢، ح١٦٧؛ البحار: ج٧، ص٢٠٢، ح٨٨.

والآخرين لفصل الخطاب ودعا رسول الله صلى الله عليه وآله، ودعا أمير المؤمنين عليه السلام، فيُكسى رسول الله صلى الله عليه وآله حُلّة خضراء تضيء ما بين المشرق والمغرب، ويُكسى علي عليه السلام مثلها، ويكسى رسول الله صلى الله عليه وآله حلّة وردية يضيء لها ما بين المشرق والمغرب، ويُكسى علي عليه السلام مثلها، ثم يصعدان عندها، ثم يُدعى بنا فيُدفع إلينا حساب الناس، فنحن والله نُدخِل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار»[١] إلى غير ذلك من الأحاديث المتواترة في هذا المعنى، ويمكن الجمع بين القولين بأن الحشر يكون إلى الله سبحانه، والواسطة هم محمد وآل محمد ولا تنافي بين المتنين:

كيف يكون الرجوع إلى الله؟

ويمكن تلخيص ذلك بالقول: إن الرجوع إلى رب العالمين بالرجوع المكاني ممتنع؛ لأنه سبحانه ليس في مكان ولا في جهة، ومن هنا اختلف في معناه على قولين:

القول الأول: إنّ الرجوع يكون إلى حكمه تعالى، فيكون المنطوق محمولاً على مجاز التقدير. ذهب إليه جماعة من المفسرين لاسيّما العامّة[٢].

---

(١) الكافي: ج٨، ص١٥٩، ح١٥٤؛ الفصول المهمة: ج١، ص٤٤٦؛ الأنوار اللامعة: ص١٣٧، الهامش؛ تأويل الآيات: ج٢، ص٧٨٩، وفيه: ((دعي برسول الله صلى الله عليه وآله ودعي بأمير المؤمنين عليه السلام)).

(٢) التحرير والتنوير: ص٣٧.

القول الثاني: إن الرجوع يكون إلى مَن ربّى الناس وعلّمهم وقام بأمرهم، والمستفاد من الآيات والروايات أنهم سلسلة طولية مكونة من ثلاث حلقات:

الأولى: كل قوم وأمّة تحشر بإمامها، فالأمم السابقون الصالحون منهم يحشرون مع أنبيائهم، والطالحون منهم يحشرون بأئمتهم، ويكون حسابهم على أنبيائهم

الثانية: أمة الإسلام كل جيل منها يحشر مع إمامه، فأصحاب النبي المصطفى صلى الله عليه وآله ومَن عاصره يحشر معه، وأصحاب أمير المؤمنين عليه السلام كذلك وهكذا، وأهل هذا الزمان يحشرون مع إمامهم عجل الله تعالى فرجه الشريف.

الثالثة: أن جميع الأمم بأنبيائها وأئمتها تحشر عند آل محمد عليهم السلام؛ لأن الإياب إليهم والحساب عليهم بما أنهم خلفاء الله وحججه وشهوده على الخلق أجمعين، ومنه يعرف ان الحشر خاص وعام، والمحاكمة كذلك خاصة وعامة، والحكومة الكاملة الشاملة هي لمحمد وآل محمد عليهم السلام.

أما القول الأول: فيرد عليه إشكالات:

الإشكال الأول: أنه مخالف لمبناهم في أن الله سبحانه يرى في الآخرة، وبعضهم ذهب إلى التجسيم فيه والعياذ بالله، فلو كان يرى كان في مكان و جهة، ولذا يظهر من بعض مفسريهم القول به(١).

---

(١) انظر تفسير الرازي: ج٦، ص٨٢؛ روح المعاني: ج٢٣، ص٤٤.

الإشكال الثاني: لو سلّمنا ما ذكر فإن الرجوع إلى حكم الله لا يصح إلّا بوجود حاكم ومنفِّذ للحكم، فمن هو الحاكم؟ والجواب لا يخلو إما أن يقولوا هم خلفاء الله وحججه فثبت المطلوب، أو يقولوا الملائكة، ويرد عليه ان الملائكة لا تحكم وإنما تنفذ وتُدبِّر.

الإشكال الثالث: أن مجاز التقدير على خلاف القاعدة، ومخالف لظهور قوله تعالى: ﴿**إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۞ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ**﴾(١) وضمير الجمع صريح في وجود جماعة يرجع إليهم، وحيث امتنع أن يكون الرجوع المباشر إلى الله سبحانه، وامتنع أن يكونوا الملائكة؛ لأنهم منفذون وليسوا بحاكمين، فتعيَّن أن يكون لخلفائه وحججه وشهدائه على خلقه، وأعلاهم رتبة ومقاماً هم محمد وآل محمد عليهم السلام، ويؤيِّد ذلك قوله تعالى: ﴿**وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا**﴾(٢) أي من حوض الكوثر، والساقي ليس هو الله سبحانه بالمباشرة وإنما بواسطة محمد وعلي عليهما السلام، وقد سمّاهما (رب) وكذا سماهم في قوله: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۞ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾(٣).

يبقى هنا سؤالان:

السؤال الأول: أن ذلك يصح في تربية المؤمنين، وأما الكفار فكيف يتصور تربيتهم لهم؟

---

(١) سورة الغاشية: الآيتان ٢٥-٢٦.

(٢) سورة الإنسان: الآية ٢١.

(٣) سورة القيامة: الآيتان ٢٢-٢٣.

فالجواب: أن التربية قسمان تكوينية وتعليمية

التربية التكوينية حاصلة قهراً؛ لأنهم وسائط الفيوضات الإلهية إلى العباد، ورزق الله وعطاؤه لخلقه يصل بواسطتهم، وهذه التربية موجودة ولا اختيار للعباد فيها، وكذلك التربية التعليمية؛ لأنهم ربّوا وعلّموا وزكّوا النفوس البشرية، إلّا أن الكفار بقوا على عصيانهم وكفرهم عناداً منهم فحرموا أنفسهم منها، والطاعة والعصيان اختياريان، وعدم استجابة الكفار لهم لا ينفي عنهم عنوان الربوبية والتربية.

ولو صحَّ الإشكال المذكور عليهم لصحَّ حتى على الباري عزّ وجلّ؛ لأن الكفار بقوا على كفرهم فكيف يقال له ربهم؟ والجواب: لأنه سبحانه يغذيهم ويربيهم تكويناً وتشريعاً.

والسؤال الثاني: أنّ آل محمد عليهم السلام جمع، والرب في الآية مفرد، فكيف قلتم إن الرجوع لآل محمد عليهم السلام وهم جماعة؟

فالجواب من وجوه:

الوجه الأول: أن الرب يراد به الجنس، أي من ربّى وعلَّم وقام بالأمر، وهو يشمل الجميع.

الوجه الثاني: أن الرب الحقيقي هو الله سبحانه، وأمّا همّ عليهم السلام المباشرون المنفذون لأمره وتدبيره؛ لأنهم خلفاؤه، كما هو حال الملائكة في التدبير، وتسميتهم بالرب صحيحة باعتبار أنهم باشروا القيمومة والإصلاح للناس بأمر الله وإذنه، أو باعتبار أنهم مظهر ربوبية الله لخلقه.

الوجه الثالث: أنّ كل جيل يحشر ويرجع إلى إمام زمانه، وبهذا الاعتبار يكون المرجع لكل أمة واحداً، إلى ذلك أشار قوله تعالى ﴿**يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ**﴾[1] وهو صريح في أن الحشر يكون مجموعات مجموعات، وكل مجموعة تحشر بإمامها.

و (الباء) إمّا للسببية والتوسيط أو للمصاحبة، ولا وجه لحشر الناس بإمامهم إلّا لأنّه الذي ربّاهم وعلّمهم وقام على أمورهم، فإن كان إمام خير قادهم إلى الجنّة، وإلّا فإلى الجحيم.

ففي محاسن البرقي بسنده عن يعقوب بن شعيب قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام ﴿**يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ**﴾ فقال: «يدعو كل قرن من هذه الأمة بإمامهم» قلت: فيجيء رسول الله صلى الله عليه وآله في قرنه وعلي عليه السلام في قرنه والحسن عليه السلام في قرنه والحسين عليه السلام في قرنه وكل إمام في قرنه.. قال: «نعم»[2].

وفي عيون الأخبار عن الرضا عليه السلام عن النبي المصطفى صلى الله عليه وآله في معنى الآية قال: «يدعى كل قوم بإمام زمانهم وكتاب الله وسنّة نبيّهم»[3] وفي تفسير علي بن إبراهيم عن أبي جعفر عليه السلام مثلها[4].

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٧١.

(٢) المحاسن: ج١، ص١٤٤، ح٤٤.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص٢٣، ح٦١.

(٤) تفسير القمي: ج٢، ص٢٣.

وفي الكافي بسنده عن عبد الله بن سنان قال: قلت: لأبي عبد الله عليه السلام ﴿يوم ندعو كلّ أناس بإمامهم﴾ قال: ﴿إمامهم الذي بين أظهرهم، وهو قائم أهل زمانه﴾(١) ولفظة القائم تشير إلى معنى الرب، أي الذي يصلحهم ويقوم بأمرهم.

وفي الكافي بسنده عن الفضيل بن يسار قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿**يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ**﴾ فقال: ﴿يا فضيل! اعرف إمامك، فإنك إذا عرفت إمامك لم يضرّ تقدَّم هذا الأمر أو تأخّر، ومَن عرفَ إمامه ثم مات قبل أن يقوم صاحب هذا الأمر كان بمنزلة مَن كان قاعداً في عسكره، لا بل بمنزلة مَن قعد تحت لوائه﴾(٢).

وكون المؤمن في عسكره أعمّ من كونه تحت لوائه، فإن الثاني يفيد أنه من خلصائه وصفوته، والروايات بهذا المعنى كثيرة(٣).

وفي ذلك دلالة على أمور:

الأول: أنّ أهم ما يجب على الإنسان في حياته كضمان لآخرته هو معرفة إمام زمانه، فالذي لا يعرف إمام زمانه أو يتخذ إماماً غيره مصيره النار، وتضافر هذا المعنى في الروايات(٤).

---

(١) الكافي: ج١، ص٥٣٦، ح٣.

(٢) الكافي: ج١، ص٣٧١، ح٢؛ معجم أحاديث الإمام المهدي عجل الله فرجه: ج٥، ص٢٣١، ح١٦٥٥.

(٣) انظر تفسير نور الثقلين: ج٤، ص٢١٢- ٢١٧، الأحاديث من ٣٢٧- ٣٤٧.

(٤) انظر الإمامة والتبصرة: ص١٠، مقدمة التحقيق؛ الكافي: ج١، ص٣٧٧، ح٣.

الثاني: أنّ الإمام في كل زمان موجود، ولا يخلو عصر ولا جيل من الأجيال من إمام لله قائم، وعلى الناس معرفته واتّباعه؛ لأنهم يحشرون معه ويحاسبون عليه.

الثالث: أن الناس منذ عصر الغَيبة إلى الحشر إمامهم ووليّهم حجة الزمان مولانا المهدي عجل الله تعالى فرجه، ويحشرون مع، ويجب عليهم أن يهتمّوا لمعرفته وطاعته والعمل بأحكامه وتعاليمه، وأن يهتمّوا لذلك، ولا يهم بعد ذلك أدركهم الموت قبل ظهوره أو بعده؛ لأن المهم امتثال أوامره والمسير معه في المنهج.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: لماذا يتم الإحياء بالنفخ؟

إن الآية دلَّت على أنّ الإحياء يتم بالنفخ، فلو سأل سائل لماذا النفخ دون غيره من الوسائط كالصيحة مثلاً؟

فالجواب: لأن النفخ يتميّز بخصائص تناسب الإحياء.

الأولى: أنه يصدر من حيّ بخلاف الصيحة، بناءً على أنها الصوت المرتفع فإنها أعمّ، ولابدّ أن يكون المحيي حيّاً؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه.

الثانية: لأنّ الروح مشتقّة من الريح، والريح تحدث بالنفخ كما ذكروا في معناها[1]، وبعضهم جعل الروح اسماً للنفس؛ لأنّها به تحيا وتبقى، وبهذا الاعتبار تطلق الروح على عدة حقائق؛ لأن بها الحياة المادية أو المعنوية كالقرآن وجبرئيل وعيسى عليهما السلام[2].

---

(١) مجمع البحرين: ج٢، ص٣٥٤، (روح).

(٢) بصائر ذوي التمييز: ج٣، ص١٠٣-١٠٤.

وفي معجم الفروق اللغوية أن الروح والريح في العربية من أصل واحد، ولهذا يستعمل فيه النفخ، فيقال نفخ فيه الروح، وسمي جبرئيل عليه السلام روحاً لأن الناس ينتفعون به في دينهم كانتفاعهم بالروح، وبهذا المعنى سمي القرآن روحاً[١].

ويعزز ذلك إطلاق النسمّة على النفس، وفي الدعاء: ﴿سبحان الله بارئ النَسَم﴾[٢] أي خالق النفوس، وأصل النسمة النسيم وهو الريح الطيّبة[٣].

الثالثة: لأنّ النفخ فيه تهييج وإثارة. يقال نفخ النار أي هيَّجها وأذكاها بريحه، ونفخ التراب أثاره، فهو يهيج الموجود ولا يوجِد المعدوم، وهو ما يوافق الإحياء؛ لأنه عبارة عن عود الأرواح إلى أبدانها وليس إيجادها.

الرابعة: لأنّ النفخ فيه تعظيم وتكبير وتربية في الماديات والمعنويات، ولذا يطلق على الشيء المتعاظم بأنه منتفخ. يقال انتفخ بطنه إذا كبر، ويقال للمتكبر المتفاخر بأنه منفوخ، ونفخة الربيع إعشابه، لأن الأرض تربو فيه[٤]، فلو ورد النفخ في الأجداث عظمَّها وكبرَّها وأهاجها لتكوّن الأبدان فيها، فالنفخ في خصائصه الوجودية أنسب بإحياء الأموات وبعثهم من مراقدهم.

---

(١) معجم الفروق اللغوية: ص٢٦١، (١٠٣٠).

(٢) مصباح المتهجد: ص١٦٥؛ التهذيب: ج٣، ص١١٦، أولها.

(٣) مجمع البحرين: ج٦، ص١٧٥، (نسم).

(٤) معجم مقاييس اللغة: ص١٠٠٢، (نفخ)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨١٧، (نفخ)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٩٣٨، (نفخ)

وربما يرد سؤال أن النفخة حقيقة واحدة فكيف تصدر أمرين متضادين هما الإحياء والإماتة؟ فإنّ هذا خرق لمقتضيات قانون العليّة؛ لأن الشيء يُصدِر ما يسانخه ويناسبه لا ما يضاده، فإنّ النار لا تصدر البرودة، والثلج لا يصدر الحرارة، والجواب من وجوه:

أحدها: أنّ الإحياء غير الإماتة، والسبب مختلف، فالإحياء بالنفخ والإماتة بالصيحة.

ثانيها: سلّمنا، إلّا أنّ الإحياء والإماتة ليسا متضادين، بل هما فعلان أحدهما يتحقق بقبض الروح والثاني ببسطها، وكلا الفعلين يرجعان إلى القدرة، وهي حقيقة واحدة، نظير حركة الإنسان وسكونه، فإنهما مفهوماً متضادان ولكنهما من حيث الفعل أمر واحد يعود إلى القدرة، وهي علّة واحدة.

ثالثها: أنّ النفخ ليس هو سبب الإحياء والإماتة، بل هو واسطة الفعل الإلهي، والفاعل هو الله تبارك وتعالى، والفاعل المختار يمكن أن يُصدر أمرين متضادين كالإنسان الذي يحب ويبغض ويريد ولا يريد، وأما استحالة صدور الكثير عن الواحد فيختص بالعلل المجبورة.

رابعها: أنّ نفخة الإحياء غير نفخة الإماتة، لكل منهما سماته ومشخصاته، وإليها تعود جهة العلية، نظير النار والاحتكاك كلاهما يصدران الحرارة، ولكن عليّة النار للحرارة غير عليّة الاحتكاك لها، وإن رجعا في المآل إلى علّة نوعية واحدة، وللكلام تفصيل في علم المعقول.

اللطيفة الثانية: ما علاقة الصوت بالإحياء والإماتة؟

إن النفخ والصيحة كلاهما مقترنان بالصوت، وهذا يدل على أنّ للصوت الأثر البالغ في ذلك، فإن صوت الإماتة يُفرِّق الأجزاء المجتمعة، وصوت الإحياء يجمع الأجزاء المتفرِّقة ويعيدها إلى أصولها؛ لأنه إمّا أن يكون نداءً تكوينيّاً جعله الباري عزّ وجلّ لذلك كما جعل الرعد نداءً للمطر كقانون طبيعي، وكما جعل الأصوات في الكائنات الحيّة علامات و دلالات، وإمّا أن يكون مظهراً لإرادة الله سبحانه في الإماتة والإحياء.

ولو سأل سائل لماذا جعل الصوت كذلك؟ فالجواب لوجود خصوصيات ومزايا فيه تناسب الإحياء والإماتة.

الأولى: لأنّ الصوت يتعلَّق بالسامعة، وهي أول الحواس وجوداً في الإنسان، وآخرها زوالاً وأقواها أثراً، وفي عين الحال الصوت يخترق مسامع الإنسان قبل انتباهه أو نظره أو حضوره الجسدي؛ لذا يقول عز وجل في النار ﴿**إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا**﴾[1] فالنار هي التي تراهم وليسوا هم، ولكنهم يسمعون غيظها وزفيرها، وفي آيات خلق الإنسان قدَّم ذكر السمع على البصر والأفئدة قال تعالى: ﴿**وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾[2].

---

(١) سورة الفرقان: الآية١٢

(٢) سورة النحل: الآية ٧٨

وفي موارد السؤال والمحاسبة كذلك؛ إذ قال سبحانه: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[1] والحكمة تقتضي بدء الحساب بالأقوى لا الأضعف، والنائم آخر ما يغلق من حواسّه سمعه، والمريض والمحتضر كذلك، فإنه قد يغمض عينيه ولا يتكلَّم، وربما لا يدرك ولكن سمعه حاضر، ولذا يُلَقَّن وهو في القبر، بل أول أدب مستحب يعمل للإنسان عند ولادته هو أن يؤذَّن في إذنه اليمنى، ويُقام في اليسرى[2]، وفي نواقض الوضوء يقولون النوم الغالب على السمع ناقض دون غيره[3]، ومعنى ذلك أن مداركه تبدأ بالسمع وتُختَم به.

الثانية: أن الصوت أوسع مدى من البصر، ويدركه الإنسان أينما يكون لثلاثة أسباب:

١- لأنه لا يحتجب بالحواجز والموانع.

٢- ولعدم حاجته إلى النور كما هو حال البصر.

٣- ولا يتوقف حصوله على المقابلة بين الرائي والمرئي.

فالسامعة أكثر الحواس تأثراً واستجابة للأشياء.

---

(١) سورة الاسراء: الآية٣٦

(٢) المحاسن: ج٢، ص٤٦٦، الهامش؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج١، ص٢٨؛ التهذيب: ج٧، ٤٣٧، ح١٧٤٢.

(٣) الاستبصار: ج١، ص٨٠، ح٢٥١؛ التهذيب: ج١، ص٧، ح٩؛ الوسائل: ج١، الباب ٣ من أبواب نواقض الوضوء، ص٢٥٢، ح٦٥٧.

الثالثة: أن الإحياء والإماتة لا يتحققان إلّا بالتأثير على الأجسام حتى تَحيا وتموت، وهو يحصل بالصوت، فإن سنّة الباري عزّ وجلّ في الخلق قائمة على ذلك.

أضرب لذلك مثلاً: وهو ما ذكره الباري عزّ وجلّ في سورة الحج من دلائل لإثبات المعاد للشاكّين به. قال سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**﴾[1] وقد أشارت الآية إلى حقيقتين:

الأولى: بيان كيفية الخلق والإحياء للبشر منذ بدء الخليقة الأولى كخلق آدم وقد تمَّت بالتراب مباشرة، والمرحلة البعديّة قد تمّت بالنطف في الأرحام.

والثانية: بيان أن المعاد يكون على صورة الخلق الأول في القانون، وقد ضرب لذلك مثلاً بالأرض ليكون دليلاً حسيّاً يقرِّب الأمر الغيبي المعقول إلى الأذهان، وينبنى على مقدمتين حسّيتين ونتيجة:

الأولى: ﴿**وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً**﴾[2] أي ميتة، وهو أمر مُشاهَد بالعين.

---

(١) سورة الحج: الآية ٥.

(٢) سورة الحج: الآية ٥.

الثانية: ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء﴾[1] وهو كذلك أمر ميت محسوس.

والنتيجة: ﴿اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[2] فهذه نتيجة حسيّة لوحظ فيها نشوء حياة متنوعة المظاهر والآثار والخصائص بحسب نبات الأرض من أمرين ميّتين بحسب الظاهر، وبذلك أبان للناس أمرين في غاية الأهميّة:

الأول: أن خلقهم وإحياءهم وبعثهم يكون من الأرض وإن كانوا أمواتاً؛ لأن البشر هو الآخر من نبات الأرض بقوله تعالى: ﴿أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾[3] والذي يشاهد أن الأرض الميتة تحيا بالماء لا ينبغي أن يستغرب خلق الإنسان من الماء، وبعثه من الأرض كذلك.

الثاني: أنّ المعاد يكون جسمانياً ويكون من التربة التي أُقبر فيها الإنسان، وهذا الآخر لا ينبغي أن يشك فيه أو يستغرب؛ لأن أعشاب الأرض ونباتاتها تخرج بعد المطر من دون بذر أو زرع مسبق، حتى الصحراء القاحلة تتبدل إلى مراع وحقول ومزاهر من دون اختلاط أو تشابه، فكيف نبتت؟ وأين كانت أصولها؟ وليس ذلك إلّا بإحدى الجهات:

الأولى: أن نقول إنّ البذور مودعة في الأرض وتنتظر حصول الظروف الملائمة للإنبات والظهور، وهذا ما يقوله أصحاب العلم اليوم.

---

(١) سورة الحج: الآية ٥.

(٢) سورة الحج: الآية ٥.

(٣) سورة نوح: الآية ١٧.

الثانية: أن نقول بأن القضية تحصل بدون بذور، بل بإرادة الله وقدرته؛ لأن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، وإرادته تتعلّق بالإنبات عند نزول الماء.

الثالثة: أن نقول بالاثنين معاً، وهو الحق؛ لأن سنَّة الله جرت على الأسباب والمسببات، فلابد وأن يكون النبات من بذور، ومن جهة أخرى فإن الكثرة الكاثرة الحاصلة من نبات الأرض وأعشابها تنفي أن يكون كل ذلك كانت بذوراً مودعة في الأرض من دون أن تتدخل يد الباري في تكوينها بهذه الكثرة المنتشرة بحيث تغطي آلاف الكيلومترات في مدة وجيزة، وكيف لم تعطب وتهلكها الشمس والحيوانات؟ وإذا كانت الأرض هكذا تحيا ومن دون بذور وإعدادات مسبقة فإن إحياء الناس وبعثهم من قبورهم أيسر وأقرب إلى الفهم؛ لأن أصولهم تبقى في مدافنهم، ومنها يحشرون، فيكون مثلهم مثل البذور المودعة في الأرض وتنمو بنزول المطر.

ونلاحظ أن الآية المباركة نصَّت على أن الأرض حين تحيا تهتز وتربو وبعدها تنبت، والاهتزاز من الهزّ وهو حركة واضطراب يحصل في الشيء[1]، والاهتزاز يفيد الحركة الذاتية الداخلية فيه، وقولهم: اهتزّ النبات إذا تحرّك لنضارته[2]، وحيث إن الوجود الفعلي لا يكون إلّا عن وجود بالقوة وإمكان استعدادي على قول أهل الحكمة فإن الاهتزاز يدل على

(١) معجم مقاييس اللغة: ص١٠١٥، (هز).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٤١، (هز)؛ مجمع البحرين: ج٤، ص٤٢، (هز)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٩٨٤، (هز).

وجود استعداد للحركة والحياة، وهذا وضّحه العلم، فإن كل شيء له حركة في ذاته وليس ميتاً بالمعنى الدقيق للموت والجمود، فإذا توفرت عوامل ظهور الحياة ظهرت وربت، أي نمت وزاد حجمها.

ويتحصَّل من ذلك: أن الإحياء مسبوق بالاهتزاز، وهذا ما لا يحصل إلّا بالصوت والنفخ؛ لأن النفخ يوصله، والصوت يهز التراب ويحركه ويثيره لتنمو فيه الحياة، وتحلّه الروح ويحشر، ومثل ذلك يقال في نفخة الإماتة فإنها توجب اضطراب الأجساد والأرواح حتى تفرق بينهما.

ويستفاد من مجموع ما ذكر حقائق:

الحقيقة الأولى: أن المعاد جسماني وليس بروحاني.

الحقيقة الثانية: أن رفات الإنسان في قبره لا يموت دقياً وإنما يهمد؛ إذ لابد وأن تبقى أجزاء منه سامعة ومدركة بحيث تسمع الصوت وتستجيب له، وعدم إدراكنا لها لا ينفي وجودها، كما أن عدم إدراكنا للحياة في الأرض لا ينفي وجودها؛ لذا تظهر عند نزول المطر، كذلك القبور والأجداث.

الحقيقة الثالثة: أن شبهة الآكل والمأكول التي طال الكلام فيها بين أهل المعقول تبدو باطلة؛ لأن الإحياء يكون للأجزاء المدركة المستعدة للاهتزاز لدى نداء النفخ، وهذه تكون الأصل لنمو الجسد وتضخمه، وكونها في القبور والأجداث لا يمنع؛ لأن الصيحة سماوية ملكوتية وأهل الدنيا يسمونها صوت الملكوت، ولكن يعجزون عن رؤيته، وقد وقع كثيراً سماعهم لذلك.

وتواتر نقله كما في الصيحة التي سمعت في واقعة الخندق والصيحة التي سمعها الناس يوم جرح الإمام أمير المؤمنين عليه السلام والنداءات الكثيرة التي سمعها الناس حين شهادة سيد الشهداء عليه السلام والصيحة في زمن الظهور المبارك، فإن هذه شواهد على أن أصوات الملكوت تسمع وإن عجزت العيون عن النظر.

اللطيفة الثالثة : الاستنساخ نظرة قرآنية

قوله تعالى ﴿إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾[1] يفيد رجوع الخلق إلى الرب من حيث الربوبية دون غيره من الأسماء كلفظ الجلالة (الله) أو (الرحمن) لأن الإحياء يتقوّم بالإنشاء والتربية والتنمية، وهي من شؤون الربوبية، ولأن الرجوع لا يكون إلى الله سبحانه مباشرةً بل بواسطة النبي والإمام عليهما السلام، والرب اسم عام يشمل كل مَن يُصِلح الشيء ويقوم عليه، بخلاف لفظ الجلالة والرحمن فإنّها أسماء خاصة لا تُطلق على غيره عزّ وجلّ، ويتضمَّن لفظ الرب دلالتين أخريين:

الأولى: الإشعار باللطف والرحمة الإلهيتين؛ لأنّ الرب يحب مربوبه ويحنّ عليه، ولا يريد له الأذى والضر، وبه يشعر العبد بأن ربه إذا عاقبه فلأجل مصلحته، كما هو شأن المُربي حينما يؤدِّب ويعاقِب.

الثانية: الإشعار بالحكمة والحلم الإلهي بعباده، فإنّ هؤلاء الكفار بعضهم أنكروا ربوبية الباري عزّ وجلّ في الدنيا ولم ينكروا خالقيته فكانوا

---

(١) سورة يس: الآية ٥١.

مشركين، وبعضهم أنكروا الاثنين معاً، وحاربوا الأنبياء والمؤمنين على ذلك، وكانوا مختارين في مواقفهم، فلابدّ وأن يظهر لهم صدق ما قاله الأنبياء وأتباعهم، ويثبت ربوبيته لهم بشهادة أنه سبحانه أحياهم من أجداثهم، وحشرهم إليه دون اختيار منهم، بل على خلاف رغبتهم كما سيتّضح من الآية التالية، أو لأنّ الربوبية تقتضي وجود يوم تظهر فيها آثارها ونتائجها.

وقوله ﴿يَنسِلُونَ﴾ أي ينفصلون عن ترابهم وأجداثهم، وصيغة المضارع تفيد السرعة والانسياب في ذلك دون موانع ومعرقلات، ويكون عن اختيار منهم وطواعية، ولكن هذا الاختيار ليس عن رضا وإرادة، بل اختيار الاستجابة والإذعان للحق الذي ظهر لهم، وفي ذلك دلالة على أنَّ النفخة تحييهم أولاً، وهم بعد ذلك يدركون ساعة الحشر فيخرجون من مراقدهم بأنفسهم إجابة لنداء الحق وإذعاناً للواقع.

ودلالة أخرى على أن الناس ينسلون من التراب الجاثم المتراكم في طبقات الأرض وذهاب الزوائد عنهم، وأن الجدث الواحد إذا اشتمل على أكثر من جسد فإن كل جسد تجتمع أجزاؤه إلى بعضها البعض ولا تختلط بأجزاء غيره ويحشر، وفي ذلك دلالتان:

الأولى: أنَّ السرعة والدقة المتناهية في جمع الأجساد من مثاويها، وإحكام الاجتماع بحيث يكون الرأس في محله، وكذلك اليد والرجل، ويعود الإنسان كما كان في الدنيا دالّ على سعة القدرة والعلم الإلهيين، وقد شبّه البعض هذه العملية السريعة والمفاجئة في الإحياء والحشر بنفخة

واحدة بصافرة الجيش في ساعة الاجتماع، فإن نفخة واحدة يطلقها الآمر ينهض الجنود كلهم من رقادهم، وينفضون عن أنفسهم النعاس والكسل، ويخرجون من أماكنهم مسرعين مصطفّين أمامه.

الثانية: أنَّ العظام البالية تتركب وتُغطى باللحم والجلد، وتنتفض بشراً سويّاً كاملاً، ولا يمرّ بمراحل الطفولة، وربما يسأل سائل ما هو حال الأطفال الذين ماتوا وهم صغار وكذلك الأجنّة؟

الجواب: أنهم يحشرون كاملين كسائر الناس، و القاعدة العقلية تقتضي أن يحشروا إلى الجنة؛ لأنهم بلا ذنب، أو بلا مؤاخذة عليه، وهو نوع تعويض لهم عن فقدانهم الحياة في فترة مبكرة من أعمارهم، حيث حُرِموا من نِعَم الدنيا وملذاتها يعوَّضون بالآخرة عن ذلك، فيُحشرون إلى الجنة بلا حساب ولا كتاب، ومثل ذلك يُقال في المجانين والمستضعفين لِذات الملاك.

إلّا أنّ الأخبار الشريفة تدل على أنهم في البرزخ يكبرون وينمون؛ لأن الصديقة فاطمة عليها السلام تتولى تربيتهم، لاسيّما أولاد الشيعة والموالين، وسارة زوجة إبراهيم عليهما السلام تتولى تربية أولاد أهل الأديان الأخرى، وكذلك إبراهيم، ولعلَّ وجه التناسب هو التعويض؛ لأن الصديقة سلام الله عليها قدّمت أولادها ضحايا لله تعالى ولإحياء دينه حتى جنينها، وسارة حرمت من الذريّة في الدنيا لابتلائها وابتلاء إبراهيم فعوَّضها الله سبحانه بأطفال المؤمنين، وبعض الروايات أشارت إلى أن الأطفال يُسلَّمون لآبائهم وأرحامهم في البرزخ، فإن لم يكن لهم أرحام ربّتهم فاطمة سلام الله عليها، ووجه الجمع بين هذه الأخبار وسائر ما ورد في المعاد والحشر هو أن تربية الأطفال يكون بأمر فاطمة عليها السلام، والباقون يعملون بأمرها سلام الله عليها.

وأما أولاد الكفار فلا يدخلون النار لأنهم لم يذنبوا، وكفرهم انتسابي باعتبار آبائهم وليس اختيارياً، فإمّا يختبرون في الآخرة أو يعفى عنهم ويدخلون الجنة، خلافاً للعامّة حيث ذهبوا إلى أنهم يدخلون النار إلحاقاً لهم بآبائهم، وهو باطل من وجوه عديدة ترجع إلى الظلم(١).

ففي تفسير القمي عن الصادق عليه السلام قال: «إن أطفال شيعتنا من المؤمنين تربيهم فاطمة عليها السلام، وقوله: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قال: ويهدون إلى آبائهم يوم القيامة»(٢) أي يهدون كباراً ليعيشوا مع آبائهم؛ لأن في ذلك قرّة عين ولذة للآباء والأبناء معاً.

وفي الفقيه بسند صحيح عن أبي بصير قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «اذا مات طفل من أطفال المؤمنين نادى منادٍ في ملكوت السماوات والأرض ألا إنّ فلان بن فلان قد مات، فإن كان مات والداه أو أحدهما أو بعض أهل بيته من المؤمنين دفع إليه يَغْذوه، وإلّا دفع إلى فاطمة عليها السلام تغذوه حتى يقدم أبواه أو أحدهما أو بعض أهل بيته فتدفعه إليه»(٣).

وفي هذا الحديث دلالة على أمرين:

الأول: أن أهل البرزخ يعيشون حياة أسرية جماعية، وفيها الطعام والشراب، وأن الأطفال يتنعمون بحياة طيبة.

---

(١) انظر حق اليقين: ص٤١٧، ص٤١٩.

(٢) تفسير القمي: ج٢، ص٣٣٢؛ وانظر حق اليقين: ص٤١٨.

(٣) الفقيه: ج٣، ص٤٩٠، ح٤٧٣١؛ وانظر التوحيد: ص٣٩٤، ح٨.

الثاني: أن تربية الأطفال وغذاءهم في ذلك العالم يعود إلى فاطمة سلام الله عليها، ولعل هذا أحد معاني الفطم الذي يعود إلى اسمها المبارك.

وفي صحيحة الحلبي عن الصادقعليه السلام: ﴿أنَّ إبراهيم وسارة معنيّان بغذاء أطفال المؤمنين﴾[(١)] والجمع بينها وبين ما ورد في صحيحة أبي بصير إمّا بتخصيصهما بأطفال المؤمنين من غير الإسلام، وأمّا فاطمة فبأولاد المؤمنين، وإمّا بالقول بأنهما المنفّذان، وهي عليها السلام الحاكمة في ذلك وهو الأقوى.

وأمّا أطفال الكفار والمجانين وغيرهم من القاصرين فقد روى الصدوققدس سره في الصحيح عن زرارة عن أبي جعفرعليه السلام قال: ﴿إذا كان يوم القيامة احتجَّ الله عزّ وجلّ على خمسة، على الطفل والذي مات بين النبيين – أي في زمان الفترة وغلبة الجور وخفاء الحُجة والحق – والذي أدرك النبيصلى الله عليه وآله وهو لا يعقل، والأبلَه – من تغلب عليه الغفلة لضعف عقله[(٢)]– والمجنون الذي لا يعقل، والأصمّ والأبكم – أي الذي لا يسمع والذي لا يتكلم – فكل واحد يحتجّ على الله عزّ وجلّ. قال: فيبعث الله إليهم رسولاً فيؤجِّج لهم ناراً، فيقول لهم: ربكم يأمركم أن تثبوا فيها، فمن وثب فيها كانت عليه برداً وسلاماً، ومَن عصى سيق إلى النار﴾[(٣)].

---

(١) الفقيه: ج٣، ص٤٩٠، ح٤٧٣٢؛ عوالي اللآلئ: ج٣، ص٢٨٧، ح٣٣؛ حق اليقين: ص٤١٨.

(٢) انظر مجمع البحرين: ج٦، ص٣٤٣، (بَلَه)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٧٠، (بَلَه).

(٣) الخصال: ص٢٨٣، ح٣١؛ وانظر التوحيد: ص٣٩٢، ح٤؛ الفقيه: ج٣، ص٤٩٢، ح٤٧٤٢، وفيها: ((إذا كان يوم القيامة احتج عزّ وجلّ على سبعة)).

وفي صحيح زرارة الذي رواه الكليني قدس سره في الكافي والصدوق قدس سره في معاني الأخبار قال: سألتُ أبا جعفر عليه السلام هل سئل رسول الله صلى الله عليه وآله عن الأطفال؟ فقال: ﴿قد سئل فقال: الله أعلم بما كانوا عاملين﴾ ثم قال: ﴿يا زرارة! هل تدري ما قوله: الله أعلم بما كانوا عاملين؟﴾ قال: لا. قال: ﴿لله عز وجل فيهم المشيئة إنه إذا كان يوم القيامة وأتي بالأطفال والشيخ الكبير الذي قد أدرك النبي صلى الله عليه وآله ولم يعقل من الكبر والخرف، والذي مات في الفترة بين النبيين، والمجنون والأبله الذي لا يعقل، فكل واحد يحتج على الله عزّ وجل، فيبعث الله تعالى إليهم ملكاً من الملائكة فيؤجج ناراً فيقول: إن ربكم يأمركم أن تثبوا فيها، فمن وثب فيها كانت عليه برداً وسلاماً، ومن عصاه سيق إلى النار﴾[1] والروايات بهذا المعنى كثيرة[2]، وفي الحديثين دلالتان أخريان:

الأولى: أن الأطفال تكتمل أبدانهم وأرواحهم في الآخرة، ثم يكلَّفون ويجازون.

الثانية: أن في الآخرة يوجد تكليف لبعض العباد وهم القاصرون في الدنيا، وهذا هو ما يقتضيه العدل والرحمة الإلهية.

---

(١) معاني الأخبار: ص٤٠٨، ح٨٦؛ الكافي: ج٣، ص٢٤٨، ح١.

(٢) انظر حق اليقين: ص٤١٨-٤٢٠.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

وهي عديدة:

التعليم الأول : يحشرون بأبدانهم

إن البشر يحشرون إلى ربهم بأجسامهم وأرواحهم التي كانوا عليها في الدنيا، وبذلك تبطل ثلاث نظريات: نظرية أن الحشر يكون بالأبدان البرزخية التي تحل بها الأرواح بعد الموت، ونظرية أن الحشر يكون للأرواح دون الأبدان بناءً على أنهما نظريتان مختلفتان، ويمكن أن تكون واحدة؛ لأن الروح لا يمكن أن تتجسد إلّا في البدن، فالقول بالمعاد الروحاني يستلزم القول بأن الحشر يكون بالبدن المثالي البرزخي، إلّا أن الآية المباركة تنفي الاثنين.

كما تبطل نظرية الطبيعيين وأمثالهم الذين يقولون بأن الأرواح تموت في نفسها كالأجسام، فإن الآية تبطل ذلك، وتفيد أنها تنفصل عن أجسادها وتبقى حيَّة وتنفخ في الأبدان ثانيةً. نعم في نفخة الصعق يستفاد أن الأرواح أيضاً تموت ثم تحيا، وذلك كلّه بإرادة الله وقدرته وليس في نفسها، فإن

الأرواح في نفسها تأبى الموت، وبه يتّضح معنى الروايات التي نصَّت على أن البشر خُلِقوا للبقاء لا للفناء[١].

التعليم الثاني: أن الأحداث الكبرى في الوجود تقترن بالصوت، والغاية منه الإعلان والبيان وإتمام الحجة، وهذا يدلنا على أهمية الصوت خصوصاً في القضايا التي تهمّ البشر والمصالح الكبرى، فإن الصوت أي الكلمة الحرة والمطالبة بالحقوق والصيحة بوجه الظلم والفساد ما لم تكن لا يمكن أن تُقام عدالة، ولا تُحمى حقوق.

التعليم الثالث: أن البشر يجهد نفسه في التخطيط والتدبير والعمل لأجل تحقيق الإنجازات والطموحات، وهذا أمر جيد ومطلوب، ولكن مثله يسلك السبل الطبيعية في المقدمات والنتائج، وإذا انضمَّ إليه التوكل على الله سبحانه والتوسل به والاستعانة بحوله وقوته فإن النتائج ستكون أسرع وأعظم بكثير، فإن إرادة الله ومشيئته اذا انضمت إلى شيء حققت فيه التوفيق والبركة، وأزالت الموانع والأضرار، بخلاف الاتكال على النفس والركون إلى الأسباب الطبيعية فقط.

وهذا ما تؤكدّه الأخبار الشريفة:

فعن النبي المصطفى ﷺ: «من انقطع إلى الله كفاه الله مؤنته، ورَزَقَهُ من حيث لا يحتسب، ومَن انقطع إلى الدنيا وكَلَه إليها»[٢].

---

(١) شرح نهج البلاغة: ج٢، ص١٠٢.

(٢) روضة الواعظين: ص٤٢٦؛ تفسير نور الثقلين: ج٥، ص٣٥٧، ح٥٠؛ مشكاة الأنوار: ص١٨.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «مَن توكل على الله ذلَّت له الصعاب، وتسهلَّت عليه الأسباب، وتبوّأ الخفض والكرامة»(١) والخفض اي بسط العيش ورغده.

وفي حديث آخر : «مَن توكل على الله أضاءت له الشبهات، وكُفيَ المؤونات، وأمِن التبعات»(٢) وأضاءت له الشبهات اي تبصّر أموره، فلا تشتبه عليه أموره، ولم يعدم الصواب في الرأي.

وعن النبي المصطفى صلى الله عليه وآله: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خِماصاً و تروح بِطاناً»(٣).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «مَن وثِقَ بالله أراه السرور، ومَن توكل على الله كفاه الأمور»(٤).

وفي جوامع كلمه عليه السلام قال: «مَن وثِقَ بالله أراه السرور، ومَن توكل عليه كفاه الأمور، والثقة بالله حصن لا يتحصَّن فيه إلّا مؤمن أمين، والتوكل على الله نجاة من كل سوء، وحِرْز من كل عدو»(٥).

---

(١) تصنيف غرر الحكم: ص١٩٧، ح٣٨٨٨؛ عيون الحكم والمواعظ: ص٤٢٦.

(٢) تصنيف غرر الحكم: ص١٩٧، ح٣٨٨٧؛ عيون الحكم والمواعظ: ص٤٦٣.

(٣) البحار: ج٧١، ص١٥١، ح٥١؛ وانظر عوالي اللآلئ: ج٤، ص٥٧، ح٢٠٠.

(٤) معارج اليقين: ص٣٢٢، ح٩٠٥؛ البحار: ج٦٨، ص١٥١، ح٥١.

(٥) كشف الغمة: ج٣، ص١٣٨؛ البحار: ج٧٥، ص٧٩، ح٥٦.

التعليم الرابع: لا يمكن الفرار من العقاب

على الإنسان أن يتدبَّر في عواقب أموره دائماً، فإنه مهما ارتكب من الذنوب والمعاصي ومهما ارتكب من الجرائم والجنايات وفكّر في أن يفرَّ من العدالة وتَخفّى بالقوانين وتحصَّن بالقوى والنفوذ أو بالأموال والرشاوى وغيرها من وسائل التضليل والظُلم السائدة في العالم اليوم فإنه لا يمكن أن يفلت من الموت، ولا من المحشر، ولا من الإحضار عند رب العالمين.

والأمر الذي يستفاد من الآيات والروايات وأقرّته التجارب أنّ المجرم مهما تحايل للهروب من الجريمة أو أخفى الأدلّة والإثبات فإن القرائن والشواهد تجمع عليه وتظهر ولو بعد حين، فالذي يتمكن أن يفرَّ من العدالة فإنّ فراره محدود، ومصيره يعرف ويحاكم ويخاصم، وهذه تجارب الملوك والسلاطين والسُرّاق الكبار والراشين والمرتشين الكبار فإنهم مهما أُوتوا من قوة انكشفوا وانفضحوا ونالوا جزاءهم. هذا في الدنيا، وإن فرّوا منها في الدنيا فإنها تلاحقهم في الآخرة.

وهذا يعلمنا أمرين هامين:

الأول: أن لا نرتكب الذنب والمعصية، ولا نجرأ على خيانة الناس في أموالهم أو أعراضهم فضلاً عن خيانة الأوطان، فإن قناع القانون والأقنعة الأخرى التي يتخفّى خلفها الخائنون تزول ولو بعد حين.

الثاني: أن المجرم إذا ارتكب جُرماً لا ينبغي له أن يفرّ منه، بل يواجهه بشجاعة وإذعان لينال جزاءه العادل، فإن ذلك هو ما تقتضيه راحة الضمير والشعور الانساني وتخفيف العقوبة الأخروية، فإن الفرار من الجرم ليس

هو الحل وإن أتاح للمجرم فرصة الهروب برهة فإنه لا يتيحها دائماً، وحكومة الله حاكمة على كل حكم وقانون، ولذا قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام في الدعاء المشهور: «ولا يمكن الفرار من حكومتك»[1].

التعليم الخامس: هل الاستنساخ للأبدان أم للأرواح؟

إنّ الاستنساخ الذي أشتهر في الأندية العلمية والمحاولات التي تبذل لتطويره والوصول فيه إلى نتائج ربما يصح في استنساخ الحيوان وفي بدن الإنسان أو أعضاء من بدنه على أنها إلى الآن لم تثبُت، وأكثر التجارب التي أُقيمت حتى في الحيوان فاشلة، وأما استنساخ روح الإنسان فهو أمر ممتنع؛ لأن الروح ليست بيد العِلم ولا بيد المختبرات، وإنما هي بيد الله سبحانه، فهو الذي ينفخ الأرواح في أبدانها.

وأمّا البدن الإنساني فربما يمكن حصوله؛ لأنه يتقوم بالروح الحيوانية والنباتية لا الإنسانية، وما ثبت بالأدلة أن للإنسان ثلاثة أنواع من الأرواح هي النباتية والحيوانية وهي موجودة في النطفة التي تُزرع في الرحم، والنباتية سبب النمو فيه والحيوانية سبب الحس والحركة، ولذا يتكوّن الجنين في الرحم وينمو قبل حلول الروح الإنسانية، فإذا اكتمل وطوى مراحل التكوين من النطفة إلى العلقة ثم المضغة ثم اكتساء العظام باللحم ينفخ فيه الباري عزّ وجلّ الروح الإنسانية، فهي من أمر الله سبحانه وليس من الأسباب الطبيعية.

---

(١) إقبال الأعمال: ج٣، ص٣٣٢؛ المصباح: ص٥٥٦.

وعلى هذا ربما يتمكن العلم من استنساخ بدن الإنسان وأعضائه كما تمكَّن من استنساخ الحيوان، وأمّا استنساخ الإنسان الكامل في بدنه وروحه الإنسانية فهو ممتنع.

وهذا ما تشير إليه الآية المباركة، فإنّها دلّت على أنّ الناس ينسلون من رفاتهم وأجداثهم، وتتكون أبدانهم وتحيا، ولكن الأرواح تأتي من نفخة إسرافيل وتلتحق بأبدانها.

وبهذا البيان ربما تنحل الشبهة المطروحة كثيراً على الفقهاء في الاستنساخ، وأنه جائز ام ليس بجائز، فإن ما ذكرناه يتعلق بأصل الموضوع وتنقيحه، وإذا ثبت أن الاستنساخ الكامل للروح ممتنع يبقى الكلام في استنساخ البدن وهو جائز في أصله؛ لعدم وجود مانع عقلي أو شرعي منه.

ومنه يتضح أن استبدال وجه الإنسان مكان آخر او رأسه لو تمكنوا من استنساخ الرأس أو البدن فإنه ليس من انتقال الروح، فيبقى صاحب الروح الأصلية هو الأصل، والباقي أعضاء مستبدلة.

نعم ربما يفترض أن الباري عزّ وجلّ يفيض الروح عند إكمال عملية الاستنساخ البدني، وتكون روحاً إنسانية بدعوى أن الاستنساخ سبب من الأسباب، كما أن النطفة في الرحم والولادة سبب، لكن هذا يخرج عن الاستنساخ الروحي موضوعاً وأثره الفقهي والاجتماعي والحقوقي يختلف؛ لأن الروح واحدة، وتفاض على البدن، فيكون لكل بدن روح مستقلة يفيضها الباري كما يفيض روحين مستقلتين على أخوين توأمين متشابهين من كل الجهات، وهذا ليس استنساخ الروح وإنّما البدن.

قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن
مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ
وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ

يس/ ٥٢

وهذا القول جاء كنتيجة طبيعية للحدث العظيم، فإنهم بعد أن كانوا في قبورهم وانقطعوا عن الدنيا وأدركهم الموت يحيون من جديد ويحشرون، فلابدّ وأن يفاجئهم هذا الحدث ويثير غرابتهم وخوفهم من المصير فيسألوا عن ذلك، وقد تضمَّنت الآية دلالات وإشارات هامّة نستعرضها في مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآية

المفردة الأولى: ﴿قَالُوا﴾

والقائل هم الكفار؛ لأن المؤمن لا يدعو على نفسه بالهلكة، ولا يخاف من عاقبة أمره؛ لأنه ضمن الآخرة بوعد الله سبحانه للمؤمنين بأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وقد عاش في فترة البرزخ في نعمة ربه مكرَّماً وسعيداً فلا وجه للخوف، وقول الكفار هذا فيه داعيان: داعي الأسف على ما فرّطوا وأضاعوا في حياتهم الدنيا، وداعي الخوف من المصير الذي سيلاقونه.

والملفت أنّهم قالوا ولم يصيحوا أو يصرخوا، وهذا يشعر بأمرين:

الأول: أن كل واحد منهم يُحدِّث نفسه بذلك، وهو ما يشهد له الواقع؛ لأنَّ مَنْ سجيته العناد والمكابرة لا يصرِّح بخلجات نفسه لكل أحد لغروره وتكبّره فيخاطب نفسه.

الثاني: أنهم يحشرون أمَّة وجماعة كما نص عليه قوله: ﴿**يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ**﴾[1] فيتحاورون مع بعضهم؛ لأنهم على شاكلة واحدة

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٧١.

ومصير واحد، وتشهد له صيغة الجمع، ولا تنافي بين الأمرين؛ لأن مَن يُحدِّث نفسه يُحدِّث غيره ممن يتعاطف معه، ومَن يُحدِّث غيره يعيش الحديث في خلده أولاً، ثم يظهره للآخرين، ولا يخفى ما في نسبة القول إليهم من دلالة على حرية الكلام وإظهار خلجات النفوس .

المفردة الثانية: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾

هو نداء وندبة، والويل الهلاك والفضيحة، وقيل هي كلمة رحمة لمن تنزل به بليّة[1]، والمعنى يا ويلنا احضر لتخلصنا مما نحن فيه، وهو متعارف في الاستعمالات العرفية، ولم يقولوا (يا ويحنا) لأنّ الويح تأتي قبل وقوع الهلكة، ويتضمن الاستغاثة، والويل بعد الوقوع فيها[2]، وتتضمن الدعوة للخلاص.

ودواعي الويل أربعة:

الأول: الندبة والدعاء على أنفسهم بالهلاك، وهو أمر كثير الوقوع في الاستعمالات العرفية؛ إذ يدعو الإنسان على نفسه إذا وقع في مصيبة كبيرة.

الثاني: التحسُّر على ما فاتهم وما سيلاقونه، والمعنى يا حسرةً على المصير الذي سنقع فيه[3]، فإن أهل الدنيا يستقتلون عليها ويضحون بالكثير من القيم لأجل حيازتها، وحاربوا الأنبياء وكابروا وعاندوا لأجلها، فإذا وجدوها قد زالت ولم يبقَ إلّا المصير تحسّروا.

---

(١) معجم مقاييس اللغة: ص١٠٤١، (ويح).

(٢) معجم الفروق اللغوية : ص٥٧٩، (٢٣٤٥).

(٣) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٨٨، (ويل).

الثالث: التمنّي، والمراد أنهم تمنوا لأنفسهم الهلاك لانفضاحهم وظهور سوءاتهم التي كابروا عنها في الدنيا وما سيلاقونه من العذاب، فإنّ ويل اسم وادٍ في جهنم[(١)] لو أرسلت فيه الجبال لماعت من حرِّه[(٢)].

والرابع: الاستفهام والتعجب أيضاً، وقد ورد في الآية تعجب القوم من إحيائهم وحشرِهم، وقد كانوا لا يؤمنون بذلك في الدنيا[(٣)]، فإنّ الافكار والأخلاق تصبح سجايا في النفوس يحشرون عليها؛ لذا يتعجبون ويندهشون، ويشهد له أن سؤالهم كان عن الباعث وليس أصل البعث فقالوا ﴿**مَن بَعَثَنَا**﴾[(٤)] وفي ذلك دلالة على أنَّ نكرانهم للبعث كان من جهة توهم العجز في المقدور أو في القادر عليه كما يرى بعض أهل الحكمة استحالة إعادة المعدوم، فلاحظوا عجز المقدور وغفلوا عن قدرة القادر.

ويدل أيضاً على حكم عقولهم البديهية أن كل معلول يفتقر إلى علة، فلا توجد صدفة في الوجود، كما أن الخالق فاعل مختار وعليم وحكيم، فليس في الوجود عبث، أو حدوث للأشياء، أو تطور وارتقاء بلا حكمة، وبذلك يكونون قد أظهروا أن إنكار بعضهم لوجود الخالق وقولهم بالدهر والصدفة كان مكابرة، وقول بعضهم بالعبثية في الخلق كذلك، فإنّهم حينما يعودون إلى أنفسهم وعقولهم السليمة يذعنون لوجود الخالق الحكيم.

---

(١) معجم الفروق اللغوية: ص٥٧٩، (٢٣٤٥).

(٢) مجمع البحرين: ج٥، ص ٤٩٦، (ويل).

(٣) مجمع البحرين: ج٥، ص٤٩٦، (ويل).

(٤) سورة يس: الآية ٥٢.

المفردة الثالثة: ﴿مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾

قُرِئت ﴿مَن بَعَثَنَا﴾ بأكثر من قراءة عمدتها قراءتان:

الأولى: ما وردت في الآية أي (مَن) الاستفهامية وبعثنا فعل وفاعل ومفعول.

والثانية: (مِنْ بعْثِنا) أو (يا ويلتنا) على (مِن) الجارَّة والمصدر، وهي منسوبة إلى أمير المؤمنين عليه السلام[1].

ولا تكون القراءة الثانية على القاعدة عندنا، وإنّما ناظرة إلى بيان المعنى، وقراءة اللفظ بنحو يوضِّح المعنى وهو المعهود من طريقة أهل البيت عليهم السلام؛ إذ ربما يقرؤون الآية بالتصرُّف في بعض مفرداتها لأجل بيان المعنى أو توضيحه، ولا يريدون به نزول القراءة بالكيفية التي قرؤوا بها، ولمّا لم يلتفت إلى هذه النكتة تصوَّر البعض أنّ القراءات الواردة عنهم تنفي القراءة الأصلية للقرآن، أو قالوا بوقوع التحريف في التلاوة مع أن هذا التصوّر غير صحيح؛ لأنه ينتهي إلى التناقض؛ لأن القراءة المتداولة أيضاً واردة عنهم عليهم السلام؛ وهي قراءة حفص عن عاصم عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام.

والبعض يشكل على من نقلوا القراءة بالضعف لكن إشكالهم ضعيف؛ لأن القراءة متواترة، وهي فوق المناقشة السندية فضلاً عن الأدلّة الأخرى القاضية بذلك.

---

(١) الجامع لأحكام القران: ج٨، ص٣٩.

والبعث اسم لإخراج الناس من قبورهم إلى المحشر، وفي اللغة عُرِّف بالإثارة، وهو يوافق معنى النفخ الذي تقدّم[١]، وهو أعمّ من الإرسال؛ لأنّ البعث يكون للحاجة الهامّة، بخلاف الإرسال فإنه لا يكون إلّا برسالة وما يجري مجراها؛ لذا يقال للنبي مُرسَل إذا كان له رسالة، وإذا لم يكن له رسالة يقال له مبعوث.

ولم يقولوا: (مَنْ نَشَرنا) لأنّ النشور اسم لظهور الخلق وظهور أعمالهم وانتشارها[٢]، وهي حالة متأخرة عن البعث؛ لأنّها تتحصل في ساحة القيامة وعند الحساب، والآية تتحدث عن الإحياء والبعث.

ويتضمَّن البعث ثلاث دلالات :

الأولى: وجود توجيه وتسيير في المبعوث[٣]، ومنه قوله تعالى ﴿**فَبَعَثَ اللّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ**﴾[٤] أي سيَّره وقيَّضه له لأجل أن يعلّمه كيف يواري أخاه المقتول.

الثانية: وجود غاية للبعث، فمن دون غاية لا يكون الإرسال بعثاً.

الثالثة: وجود حياة للمبعوث، فالميت لا يقال له مبعوث، ولذا خصَّصه بعض أهل اللغة بما يعقل، فيصحّ أن تقول بعثت فلاناً بكتابي ولا يجوز أن تقول بعثت كتابي إليك، والصحيح أن تقول أنفذت كتابي، ولو اشتهر

---

(١) معجم مقاييس اللغة : ص١٢٤، (بعث).

(٢) انظر معجم الفروق اللغوية: ص١٠٣، (٤٠٦)، (٤٠٨).

(٣) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص١٣٢، (بعث).

(٤) سورة المائدة: الآية ٣١.

التعبير بذلك فهو على خلاف القاعدة[١]، ومنه تسمى الهيئة المرسلة في عمل أو مهمة مؤقتة بالبعثة كالبعثة، الدراسية والسياسية ونحوهما[٢].

ومن هنا ورد التعبير في الآية بالبعث دون غيره.

والمرقد إمّا مصدر أي الرقاد وهو النوم[٣]، أو اسم مكان وهو محل الرقود، وأفرد لأنّ المراد به الجنس، والمعنى مَن بعثنا من مراقدنا[٤] وهو الأظهر، وإطلاق الرقود على الموت دال على أمرين:

الأول: أنّهم لا يموتون بالمعنى الدقيق للموت، وإنّما يهمدون في قبورهم، ولهم شيء من الحياة، وهذا يؤكد ما ذكرناه من أنّهم يسمعون ويستعلمون أحوال الدنيا، وتصلهم أعمالهم وثواباتهم كما تنالهم المساوئ لو كانت من آثارهم، وبذلك يُعرف أن إطلاق الموت على البشر بمفارقتهم للدنيا إمّا بلحاظ موت الجسد أو بالقياس إلى الحياة الدنيوية؛ إذ لا موت حقيقي لهم، أو أنّ الموت اسم عَلَم لانفصال الروح عن الجسد، ولذا عرّفه البعض بزهوق الروح.

---

(١) معجم الفروق اللغوية:ص٨٢، (٣٢٤)؛ مجمع البحرين: ج٢، ص٢٣٦، (بعث).

(٢) المعجم الوسيط : ج٢، ص٦٢، (بعث).

(٣) معجم مقاييس اللغة: ص٣٩٧، (رقد)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم : ص٣٦٢، (رقد)؛ المعجم الوسيط : ج١، ص٣٦٤، (رقد)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص٥٤، (رقد).

(٤) مقتنيات الدرر: ج٩، ص٩٠.

الثاني: أنهم لا يتحركون بل باقون في مواطنهم، وهذا ما تؤكده الإضافة إلى ضمير الجمع المتكلم، فإنه المحل الذي فيه مقيمون في حياتهم البرزخية.

وإنّما عبّر عن الحياة البرزخية بالمرقد لأنهم بحكم النائم، مدة ينامون ومدة يستيقظون ويأكلون ويشربون، وأوقات ذلك الصبح والعشي كما قال تعالى: ﴿**لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا**﴾[1] وأما الكفار فيعرضون على النار بكرة وعشيّاً[2].

والأخبار الشريفة تؤكد ذلك؛ إذ صنَّفت الموتى ثلاثة أصناف، صنف كالمخدر وهو الذي تتساوى محاسنه ومساوئه، وصنف مُعذَّب لغلبة مساوئه على محاسنه، وقسم مُنعّم وله حرية الحركة والانتقال في جنة البرزخ وهو مَن غَلَبَت محاسنه مساوئه.

فقد ورد عن الصادقعَلَيْهِالسَّلَامُ أنه سُئِل عمَّن مات في هذه الدار أين تكون روحه؟ فقالعَلَيْهِالسَّلَامُ: «مَن مات وهو ماحض للإيمان محضاً -اي الإيمان الخالص الذي لم يخالطه شيء[3]- أو ماحض للكفر محضاً نُقِلت روحه من هيكله إلى مَثلِه في الصورة، وجوزي بأعماله إلى يوم القيامة، فإذا بعث الله من في القبور أنشأ جسمه، وردَّ روحه إلى جسده، وحشره

---

(١) سورة مريم: الآية ٦٢.

(٢) انظر سورة غافر: الآية٤٦.

(٣) مجمع البحرين: ج٤، ص٢٢٩، (محض).

ليوفيه أعماله، فالمؤمن تنتقل روحه من جسده إلى مثل جسده في الصورة، فيجعل في جنة من جنان الله يتنعم فيها إلى يوم المآب، والكافر تنتقل روحه من جسده إلى مثله بعينه، فتجعل في نار فيُعَذَّب بها إلى يوم القيامة، وشاهد ذلك في المؤمن قوله تعالى: ﴿**قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۞ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي**﴾[1] وشاهد ما ذكرناه في الكافر قوله تعالى: ﴿**النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ**﴾[2] فأخبر سبحانه أنّ مؤمناً قال بعد موته وقد أُدخِلَ الجنة يا ليت قومي يعلمون، وأخبر أنّ كافراً يعذَب بعد موته غدوّاً وعشيّاً، ويوم تقوم الساعة يخلد في النار، والضرب الآخر: من يلهى عنه وتعدم نفسه عند فساد جسمه – النفس الحيوانية أو تخدُّر الإنسانية – فلا يشعر بشيء حتى يبعث، وهو من لم يمحض الإيمان ولا الكفر محضاً»[3].

وفي رواية إسحاق بن عمار عن أبي الحسن الأول عليه السلام قال: سألته عن الميت يزور اهله؟ قال: «نعم» فقلت: في كم يزور؟ قال: «في الجمعة وفي الشهر وفي السنة على قدر منزلته»[4].

---

(١) سورة يس: الآيتان ٢٦- ٢٧.

(٢) سورة غافر: الآية ٤٦.

(٣) تصحيح اعتقادات الإمامية: ص٨٩؛ وانظر البحار: ج٦، ص٢٥٣، ح٨٧؛ ج٥٨، ص٨١.

(٤) الكافي: ج٣، ص٢٣٠، ح٤٧٠٥؛ البحار: ج٦، ص٢٥٧، ح٩١.

وفي رواية أخرى قال: قلت لأبي الحسن الأولعليه السلام: يزور المؤمن أهله؟ فقال: ﴿نعم﴾ فقلت: في كم؟ قال: ﴿على قدر فضائلهم، منهم مَن يزور في كل يوم، ومنهم من يزور في كل يومين، ومنهم من يزور في كل ثلاثة أيام﴾ قال: ثم رأيت في مجرى كلامه أنه يقول: ﴿وأدناهم منزلة يزور كل جمعة﴾(١).

وعن أبي بصير قال سألت أبا عبد اللهعليه السلام عن أرواح المؤمنين فقال: ﴿في حُجرات في الجنة يأكلون من طعامها، ويشربون من شرابها، ويقولون: ربنا أَقِم الساعة لنا، وأنجز لنا ما وعدتنا، وألحِق آخرنا بأولنا﴾(٢) وسألته عن أرواح المشركين فقال: ﴿في النار يُعَذبون، يقولون: ربنا لا تُقِم لنا الساعة، ولا تنجز لنا ما وعدتنا، ولا تُلحِق أخرنا بأولنا﴾(٣).

والمؤمنون يستعجلون الساعة شوقاً لمزيد النعم، والكفار عكسهم.

وفي رواية أخرى عنهعليه السلام: ﴿أنّ أرواح المؤمنين ترى آل محمدعليهم السلام في جبال رضوى فتأكل من طعامهم، وتشرب من شرابهم، وتتحدّث معهم في مجالسهم حتى يقوم قائمنا أهل البيتعليه السلام، فإذا قام قائمنا بعثهم الله، وأقبلوا معه يُلَبّون زُمراً زُمراً، فعند ذلك يرتاب المبطلون، ويضمحلّ المنتحلون، وينجو المُقرّبون﴾(٤).

---

(١) الكافي: ج٣، ص٢٣١، ح٤٧٠٧؛ وانظر الفقيه: ج١، ص١٨١، ح٥٤٢؛ حق اليقين: ص٣٨٠.
(٢) الكافي: ج٣، ص٢٤٤، ح٤٧٣؛ البحار: ج٦، ص٢٦٩، ح١٢٢.
(٣) الكافي: ج٣، ص٢٤٥، ح٤٧٤٣؛ البحار: ج٦، ص٢٧٠، ح١٢٦.
(٤) المحتضر: ص٢٠، ح١٠؛ البحار: ج٦، ص٢٤٣، ح٦٦؛ حق اليقين: ص٣٧٣.

ويعزز ذلك ما تضافر أن النبي صلى الله عليه وآله كلَّم قتلى بدر وقال: هم يسمعون الخطاب وممنوعون عن الجواب[١].

وورد أن أمير المؤمنين عليه السلام وصل إلى جبّانة الكوفة - أي المقبرة - عند عودته من حرب صفين، فتوجّه إلى القبور ونادى بالأموات قائلا: ﴿يا أهل الديار الموحشة، والمحال المُقفَرة، والقبور المظلمة، يا أهل التُربة، يا أهل الغُربة، يا أهل الوحدة، يا أهل الوحشة أنتم لنا فرط سابق، ونحن لكم تَبَع لاحِق، امّا الدور فقد سُكِنَت، وأما الأزواج فقد نُكِحت، وأما الأموال فقد قُسِّمَت. هذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم ؟﴾ ثم التفت إلى اصحابه فقال: ﴿أما لو أُذِنَ لهم في الكلام لأخبروكم أنّ خير الزاد التقوى﴾[٢].

وفي حديث الأصبغ بن نباتة قال: إن أمير المؤمنين عليه السلام خرج من الكوفة ومرَّ حتى أتى الغريين فجازه - الغريّ البناء الجديد، والغريّان بناءان مشهوران وقتها، وهو مدفن أمير المؤمنين عليه السلام[٣]، ولعله قَدِمَ إلى وادي السلام وهو ظهر الكوفة، ويشمل ما بين النجف وكربلاء، لا يبقى مؤمن في شرق الأرض و غربها إلّا حشر الله روحه إليه[٤] فلحقناه وهو مستلق على الأرض بجسده ليس تحته ثوب، فقال له قنبر: يا أمير المؤمنين!

---

(١) انظر البحار: ج١٩، ص٣٤٦؛ مسند أحمد: ج١، ص٢٧؛ ج٣٠، ص١٠٤؛ صحيح مسلم: ج٨، ص١٦٣.

(٢) نهج البلاغة : ج٤، ص٣٠-٣١، الكلمات القصار ١٣٠.

(٣) مجمع البحرين: ج١، ص٣١٥، (غرا).

(٤) انظر حق اليقين: ص٣٩٣.

ألا ابسط ثوبي تحتك؟ فقال عليه السلام: ﴿لا، هل هي إلّا تربة مؤمن أو مزاحمته في مجلسه؟﴾.

قال الأصبغ: فقلت: يا أمير المؤمنين! تربة مؤمن قد عرفناها كانت أو تكون، فما مزاحمته في مجلسه؟ فقال عليه السلام: ﴿يا بن نباتة! لو كُشِفَ لكم لألفيتم أرواح المؤمنين في هذا الظهر حَلَقاً يتزاورون ويتحدّثون. إنّ في هذا الظهر روح كل مؤمن، وفي وادي برهوت نسمة كل كافر﴾(١).

و دلالته على حياة البرزخ للمؤمنين والكافرين جليّة، وأنهم قريبون منا ولكننا محجوبون عن رؤيتهم، وهم غير مأذونين بالإخبار عن أحوالهم؛ لضرورة الاختبار والامتحان لأهل الدنيا.

وتنكير الأرواح شاهد على أن التزاور والحضور عند الرفات ليس لكل ميت، بل لقسم خاص منهم، وهم الذين محضوا الإيمان أو محضوا الكفر.

وبرهوت وادي حضرَموت من توابع اليمن، فعن الصادق عليه السلام قال: ﴿إنّ من وراء اليمن وادياً يُقال له: وادي برهوت، ولا يجاور ذلك الوادي إلّا الحيّات السود والبوُم من الطير. في ذلك الوادي بئر يقال لها: بلهوت يُغدى ويُراح إليها بأرواح المشركين يُسقَون من ماء الصديد﴾(٢).

وفي رواية محمد بن مسلم قال: جاء أعرابي إلى أبي جعفر عليه السلام فقال: ﴿مِن أين جئت يا أعرابي؟﴾.

---

(١) المحتضر: ص١٨-١٩، ح٨؛ وانظر البحار: ج٦، ص٢٤٢، ح٦٥.

(٢) البحار: ج٦، ص٢٩١، ح١٤؛ الكافي: ج٨، ص٢٦١، ح٣٧٥؛ شرح أصول الكافي: ج١٢، ص٣٦١، ح٣٧٥.

قال: من الأحقاف أحقاف عاد – وهي رمال خاصة[١] – قال رأيتُ وادياً مُظلماً فيه الهامّ والبوم لا يُبصَر قعرُه. قال: ﴿وتدري ما ذاك الوادي؟﴾ قال: لا والله ما ادري. قال: ﴿ذلك برهوت فيه نَسَمَة كل كافر﴾[٢] والنسمة النفس، ولعلّ وجه تسميتها بذلك دون الروح لأنها مُنحطّة بالشهوات والرذائل.

هذا واحتمل البعض أن يكون المراد من الرقود النوم الحقيقي أو ما بحكمه وهو ناظر إلى وجود فترة بين نفخة الإحياء ونفخة الحشر تمتد أربعين سنة فيها يكونون بلا عذاب، فإذا جاءت نفخة الحشر ورأوا العذاب يستذكرون حشرهم وإيقاظهم من نومهم[٣]، لكنك عرفت ضعفه، ولذا وصف صاحب القول قولهم هذا بأنه من اختلاط العقول.

المفردة الرابعة: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾

(هذا) إشارة للقريب يراد به الإحياء والحشر الذي وعدوا به وتساءلوا عنه بقولهم ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾[٤] فإنه إذا تحقق بالفعل كان قريباً، وكان الكفار يستبعدونه أو يمنعونه ويقولون باستحالته.

(ما) إمّا مصدرية أو موصولة[٥] تعود على الإحياء والحشر، والموصولة أظهر، و لا فرق بينهما في إفادة المعنى هنا.

وقد نسبوا الوعد إلى الرحمن مع أنّ الإحياء والحشر نسبا إلى الرب لسببين:

---

(١) انظر مجمع البحرين: ج٥، ص٣٩، (حقف).
(٢) البحار: ج٦، ص٢٩٢، ح١٧؛ حق اليقين: ص٣٩٦.
(٣) انظر روح البيان: ج٧، ص٤١٠.
(٤) سورة يس: الآية ٤٨.
(٥) تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٦٦؛ تفسير الميزان: ج١٧، ص١١٠.

الأول: لأنّ صفة الرحمن من مختصّات عالم الآخرة بخلاف الرحيم فإنها من مختصّات عالم الدنيا، وفيه نظر بيّن لما قرّرناه في بحث البسملة، و قد ورد في النصوص أنّه سبحانه رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما[١].

الثاني: أنّ الرحمن صفة الذات الإلهية كالعِلم والقدرة، والرحيم صفة الفعل، وهؤلاء كانوا يعلمون بأنهم لا يستحقون الرحمة الإلهية بأفعالهم فالتجؤوا إلى صفة الرحمن الذاتية، كما هو الحال في كل مُستنجِد مُستغيث إذا أيسَ من الواسطة يلجأ إلى الأصل، وإذا كانت الرحمة في الرحمن صفة الذات فإنها لا تنفك عنها، فلابدّ وأن تشملهم إمّا برفع العذاب أو بتخفيفه عنهم. وحيث إنّ المقام مقام الاسترحام استغاثوا باسم الرحمن ورحمته الذاتية، وقد أمر الباري عزّ وجلّ عباده بأن يدعوه ويلتجؤوا إليه بأسمائه الحسنى؛ إذ قال سبحانه: ﴿**وَلِلَّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا**﴾[٢] والآمر الحكيم والغني الرحيم إذا أمر بالدعاء ووعد بالإجابة فإنه لا يخلف وعده.

وهذا شاهد آخر على أنّ القوم كانوا عقلاء حكماء يعرفون الحق وينكرونه مكابرة خوفاً على مصالحهم أو اتّباعاً لنفوسهم وشياطينهم.

وربما يشير إلى جواب لسؤال سابق كانوا يسألونه في الدنيا لماّ دُعُوا إلى الايمان بالرحمن والسجود له قالوا: ﴿**وَمَا الرَّحْمَنُ**﴾[٣] فعرَّفهم به، وأنه إليه مرجع العباد في الحشر والقيامة وحاجة الكل إلى رحمته.

---

(١) الكافي: ج٢، ص٥٥٧، ح٦؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج١، ص١٩، ح٣٧.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٨٠.

(٣) سورة الفرقان: الآية ٦٠.

المفردة الخامسة: ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾

وإنّما قال صدق لأنّ دأب الكفار قائم على تكذيب الرسل عناداً منهم. قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾[(١)] وقال: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون﴾[(٢)] والاستهزاء ملازم للتكذيب، ولكن حيث ظهرت الحقائق بالنفخ وبطلت دواعي الكبر والعناد أقرّوا بصدقهم، ولعلَّ قولهم ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ جواب لقول الكفار سابقاً حينما سألوا عن زمان الوعد وقالوا: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[(٣)] ولّما ظهر صدق الوعد أقرّوا بصدق المرسلين.

وصيغة الجمع في القائلين وفي المرسلين تدل على أمرين:

أحدهما: أنّ نهج الكفار في كل حين و زمان ومكان واحد قائم على تكذيب الرسل.

ثانيهما: أن جميع الرسل كُذِّبوا وأتُّهِموا في أقوالهم .

وصيغة الماضي تدل على حتميّة الصدق ونفي الشك فيه نصرة لهم، وقد اختلفوا في القائل ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾[(٤)] على أقوال:

---

(١) سورة الشعراء: الآية ١٠٥.

(٢) سورة يس: الآية ٣٠.

(٣) سورة يس: الآية ٤٨.

(٤) سورة يس: الآية ٥٢.

القول الأول: ذهب إلى أنّهم الكفار بقرينة السياق[١]، ويستدعي أن يكون السؤال لأجل الاستفهام والتعجب.

القول الثاني: إنّ القائل هم المؤمنون أو المسلمون[٢].

القول الثالث: إنّه من الله سبحانه[٣].

القول الرابع: هم الملائكة؛ لأنهم يُجيبون عن الله سبحانه، وهو المروي عن أئمتنا عليهم السلام، فعن الباقر عليه السلام قال: «إن القوم كانوا في القبور فلما قاموا حسبوا أنّهم كانوا نياماً. قالوا: ﴿**يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا**﴾ قالت الملائكة: ﴿**هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ**﴾[٤] »[٥].

ويشهد له قول الصادق عليه السلام: «كان أبو ذر يقول في خطبة: وما بين الموت والبعث إلّا كَنومة نِمتها ثم استيقظت منها»[٦].

واعتبار قول أبي ذر إما باعتبار قيام قرينة الحال على أنه لا ينقل إلّا عن المعصوم عليه السلام، أو باعتبار تقرير الصادق عليه السلام له ولا تنافي بين الأقوال. أما الأقوال الثلاثة الأخيرة فواضحة؛ لأن الباري عزّ وجلّ

(١) التبيان: ج٨، ص٣٥٤؛ مجمع البيان: ج٨، ص٢٨٢ ؛ مقتنيات الدرر:ج١٠، ص٩٠-٩١؛ تفسير الأمثل: ج١٤ ص١٥٣.
(٢) مقتنيات الدرر: ج٩، ص٩١.
(٣) الميزان: ج١٧، ص١٠٠.
(٤) سورة يس: الآية ٥٢.
(٥) تفسير القمي: ج٢، ص٢١٦.
(٦) الكافي: ج٢، ص١٠٨، ح١٨، تفسير الصافي: ج٤، ص٢٥٦.

يُكلِّم العباد بالواسطة و هم المؤمنون، وهو عنوان عام يشمل الأنبياء والأئمة والصالحين من عباد الله والملائكة، وبه يجمع بين كون الرجوع إلى النبي والأئمة عليهم السلام وبين القول المذكور.

وأما القول الأول فهو على مقتضى الطبيعة في البشر إنهم يُحدِّثون أنفسهم بذلك، أو يتحدثون مع بعضهم كما ذكرناه في قولهم: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ ولا مانع من أن يقولوا هم بذلك، وتقول الوسائط الإلهية به وإثبات الشيء لا ينفي ما عداه.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: يستغيث المؤمن من أمرين

ربما يقال إنّ إطلاق الويل والقول بقرينة ضمير الجمع يشمل المؤمن والكافر، فكيف يُتصوّر ذلك في المؤمن؟

والجواب: أن المؤمن يستغيث من أمرين:

أحدهما: شدة الهول والفزع من أحداث الآخرة، فإنّ هذا الخوف ورد كثيراً في أدعية المعصومين ومناجاتهم، ويسمّون ذلك بالفزع الأكبر[(١)].

وثانيهما: من التقصير في حقوق الله سبحانه إما بالمعصية أو بقلة الشكر، و به ورد قول الصادقعليه السلام: ﴿ما من عبد إلّا ولله عليه حجة إما في ذنب اقترفه، وإما في نعمة قصَّر عن شكرها﴾[(٢)] ووجه الأول ظاهر، أما الثاني

---

(١) انظر مصباح المتهجد: ص٥٢١، ح٦٠٣؛ ص٥٩٩، ح٦٩٢؛ المفاتيح : ص٢٥٣.

(٢) الأمالي الطوسي: ص٢١١، ح٣٦٦؛ البحار: ج٧، ص٢٦٢، ح١٣؛ ح٦٨، ص٤٦، ح٥٥.

فلأن كل نعمة لله على عبده تستحق شكراً يليق بها، ومهما عمل العبد فإنه لا يطمئن بأنّ شكره مما يليق، خصوصاً وأنّ عبادات العبد محفوفة غالباً بالصوارف والانشغالات وقلة الانقطاع، وحياته محفوفة بموانع قبول الأعمال من المعاصي والذنوب الجارحية والجانحية؛ لذا يشعر بأنّ ذمته مشغولة أمام ربّه، بل لا يمكن أن يقوم عمل مهما عظم بمقتضى الشكر؛ لأن كل عمل يعمله لله أداءً للشكر هو الآخر نعمة جديدة تفتقر إلى شكر، فسلسلة الشكر والحمد لا تنتهي ولا تقف عند حد، ولعل هذا أحد وجوه حمد الملائكة وشكرهم وسجودهم الدائم؛ لأن النِعَم لا تنقطع، فالشكر والتسبيح والحمد لا ينتهي.

وفي مناجاة الشاكرين الواردة عن الإمام زين العابدين عليه السلام ورد: ﴿فكيف لي بتحصيل الشكر وشكري إيّاك يفتقر إلى شكر﴾[(١)].

وهذا الشعور والإحساس لا يختص بالمؤمنين العاديين، بل يشمل المعصومين عليهم السلام، بل هم أكثر شعوراً وفهماً من غيرهم بهذه الحقيقة، ولذا يقومون لله تائبين مستغفرين وفزعين خائفين كما يُعرَف ذلك من مناجاتهم.

هذا كله لو لم نقل بانصراف القول إلى الكفار خاصة للوجوه التي ذكرناها.

---

(١) الصحيفة السجادية: ص٤١٠؛ البحار: ٩١، ص١٤٦.

اللطيفة الثانية: بعد الإحياء يتذكرون

إنّ قولهم: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾[(١)] شاهد على أمرين:

أحدهما: أنّ الناس بعد إحيائهم يتذكرون ما كانوا عليه في الدنيا ولم ينسوا أو يغفلوا، وهو على خلاف عالم الذر، فإن في الذر حصلت وقائع و أحداث واختبارات للعباد لكنهم نسوا كل ذلك لما جاؤوا إلى دار الدنيا؛ لأنّها دار الاختبار والابتلاء.

وأمّا الآخرة فلأنّها عالم الحساب والجزاء فلا نسيان فيها ولا غفلة، وفي ذلك دلالة أيضاً على أنّ الملكات العقلية والنفسية تكون كاملة في ذاك الوقت، وهي ميزة ثانية لعالم الآخرة على الدنيا، فإنّ الملكات في الدنيا تضعف وربما تزول لكنها في ذاك العالم تقوى.

ولعلَّ إطلاق الآية يفيد أنّ المجنون والمريض النفسي والوسواسي وغيرهم من المُبتَلين بالأمراض النفسية يعودون صحيحين سالمين منها .

وثانيهما: أنّ عالم الملكوت هو عالم الواقعية والصدق لا مجال للزيف والخداع فيه، وما كان يصنعه أهل الدنيا من مكابرات ومعاندات وتضليلات طمعاً فيها كله يتكشَّف ويتعرّى؛ لذا يقرّون ويذعنون للحقيقة، وحينئذ يتندمون ويتمنون الهلكة؛ لأنّ المصيبة في عذاب الآخرة أن يعرّى الإنسان ويفضح أمام ناسه وأحبابه من المؤمنين وغيرهم، ولذا يطلب المؤمن في الأدعية أن لا يفتضح على رؤوس الأشهاد، وأصحاب النفوس الكبيرة ألمهم الروحي أشدّ من ألمهم المادي، وفي ذاك العالم تنكشف

---

(١) سورة يس: الآية٥٢.

الحقائق، وكل الناس يكونون هكذا، ولذا يشدّد القرآن على ذكر الخزي مع العذاب في الآخرة؛ لأنه عذاب مضاعف.

اللطيفة الثالثة: أنّ الآية وصفت الحشر بالوعد مع أنّه في موضع العذاب، ويناسبه الوعيد لسببين:

الأول: لأنّ الآية هنا مخبرة عن الواقع وما حذَّر به المؤمنون الكافرين وليست في مقام الوعد والوعيد، وقد كانوا أخبروهم بوجود موعد يحشرون فيه إلى ربهم ويُحاسبهم، والآن أخبروهم بوقوعه.

الثاني: لأنها تحذِّر من وقوع الشر، وهو من الخير الذي يناسب الوعد دون الوعيد.

اللطيفة الرابعة: لعلَّ سؤالهم عن الباعث من المراقد يشير إلى أن السائل هم الضرب الثالث من أهل البرزخ، وهم الهُمَّل الذين لم يمحضوا الكفر، وتساوت محاسنهم و مساويهم؛ لأنّ مَن محض الكفر منهم معذَّب في النار وليس براقد، وهو عالمٍ بالبعث والباعث فلا معنى لسؤاله، ولعلَّ روايتي الباقر والصادق عليهما السلام المتقدمتين شاهدتان عليه.

نعم يمكن القول بشموله لمن محض الكفر أيضاً بتوجيهين:

الأول: أن نقول بأنّ عذاب البرزخ روحاني، ولمّا حشروا بأبدانهم الدنيوية علموا بأنّ عذابهم سيكون جسدياً أيضاً، وهو أقسى وأشدّ عليهم، ولكن المستفاد من الأدلة أن أول العذاب في القبر جسدي أيضاً.

الثاني: أنّهم علموا بأنّ عذاب الآخرة أشدّ و أقسى من عذاب القبر، لكن الظهور يقوي أن يكونوا هم الهُمَّل.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

وهي عديدة :

التعليم الأول: أثر الاعتقاد بحياة القبر

فإنّ للاعتقاد بالحياة في القبر وبعد الموت أثراً كبيراً على فكر الإنسان وسلوكه وشعوره بالراحة والسعادة في الدنيا من جهات عديدة أشير إلى بعضها:

الأولى: أنّه يجعل الإنسان هدفياً، فتكون هويته وشخصيته مطابقة لهذا الهدف. فالفرق كبير بين من يؤمن بوجود يوم يرجع فيه إلى حكم عدل تنجلي فيه الحقائق، وتنكشف الأسرار، ويؤخذ للمظلوم حقّه من الظالم، وبين مَن لا يؤمن بذلك، فإنه لا يمكن أن يكون غير المعتقد بالمعاد إنساناً سويّاً كاملاً، ويُوثَق به في جميع المجالات.

الثانية: أنه يجعل الإنسان فاضلاً وازناً ذا قيم وأصول و مبادئ يحتكم إليها، والذي لا يؤمن بالمعاد والحياة الخالدة بعد الموت مهما كان نزيهاً وحسن التعامل فإنه يقصرُ عن إدراك معاني القيم والفضائل بمستواها اللائق، وإن كان له قيم ومبادئ فإنّها ستكون محدودة بموازين الدنيا، وهي

قائمة على المصالح، فلذا يمكن أن تتبدَّل مواقفه وفضائله، وهذا ما يؤكده حال العالَم اليوم، فإنّ الظُّلم والفساد والعدوان المستشري في ربوع الأرض ناشئ من عقيدة الحقوق والقانون ونحوهما، لكنها -في كثير من الأحيان- ليست إلّا أغلفة تقف وراءها الجريمة والفساد.

فإنّ غير المؤمن بيوم القيامة يُدرِك أن تحلّيه بالفضائل وتمسُّكه بالقيم ممّا لا هدفية له ولا سبب حقيقي يستحق للتحلي بها والتضحية في سبيلها، بخلاف المعتقد بالمعاد فإن له الإجابة الكافية عن هذا السؤال، فالحق أن الفضيلة والكمال والقيم والمبادئ لا معنى حقيقي لها لولا الاعتقاد بالمعاد.

الثالثة: أنه يجعل الإنسان منضبطاً معتدلاً متوازناً ملتزماً بالأنظمة والقوانين، وبعيداً عن الظلم والعدوان والفوضى؛ لأنه يدرك أنه مهما سبب من أذى وضرر لنفسه أو لغيره فإنه سوف يقتصّ منه، ولمّا يتجرَّد عن هذه العقيدة – لاسيّما الأقوياء والسلاطين – فإنّ الظلم سيكون هو أساس نهجهم وأسلوبهم، وفي القرآن الكريم إشارات إلى هذه الحقائق التي ذكرناها في آيات عديدة:

منها: قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾[١].

---

(١) سورة الكهف: الآية ١١٠.

ونلاحظ أنّ العقيدة الحقَّة بالتوحيد -التي تبْعد الإنسان عن الخرافة والعقائد الباطلة- والعمل الصالح -الذي هو قوام شخصية الإنسان الكامل- يقومان على رجاء لقاء الله سبحانه، وبمقتضى مفهوم الشرط فإنّ من لا يرجو ذلك لا يتمتع بعقيدة صحيحة ولا بعمل صالح.

ومنها: ارتقاء الشعور الإنساني ومواساة الضعفاء والمساهمة في رفع معاناتهم لله وليس لمصالح دنيوية. قال تعالى: ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۞ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُورًا ۞ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا**﴾[1] وظاهرها أنّ خوف اليوم الآخِر صار سبباً للتفاني في إطعام الجياع والمحتاجين؛ لأنّ مَن كان غنياً وشبعاناً ولا يساهم في رفع جوع الفقراء سيسأله ربُّه عن ذلك، ويحاسبه عليه.

ومنها: التحذُّر من الإجحاف بحق الآخرين و أكل حقوقهم. يقول تعالى: ﴿**وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۞ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۞ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۞ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۞ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۞ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[2].

والسؤال الاستنكاري يدل على أنّ الذين يسرقون في الميازين والمكاييل ماديّاً والذين يبخسون الناس حقوقهم وأشياءهم معنوياً ليسوا بمؤمنين

---

(١) سورة الإنسان: الآيات ٨-١٠.

(٢) سورة المطففين: الآيات ١-٦.

بالآخرة، فإنّ من يؤمن بها يعلم بأنّه مهما أخذ من حقوق غيره سيحاسب عليه ويعوضُّه بالأعلى والأعظم.

ومنها: الجهاد والدفاع عن الحقوق بما فيها الدفاع عن الوطن، فإنّ المؤمن بالمعاد أكثر ثبوتاً وحماساً، وربما يتوثَّب لأنه لا يرى الشهادة موتاً. يقول تعالى: ﴿**لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ**﴾[١].

التعليم الثاني: فقهي

وهو أنّ جواب العمل أقوى من جواب القول؛ لذا قال رداً على الكفار: ﴿**هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ**﴾[٢] إشارة إلى وجود الحدث وهو كثير الوقوع في الاستعمالات العرفية، فإنّ من يمشي مسرعاً في سيارته فيصطدم يقال له: هذا جزاؤك أو شاهد عملك كناية عن أنّ السرعة الطائشة هذا مصيرها، وفي ذلك دلالة على أنّ ظهور الحال والإشارة والعمل أقوى دلالة من المقال، وأنّ القرائن الحالية تصنع الظهور وتغني عن البيان. ويستفاد من الآية أيضاً جواز تمنّي الهلكة أو الدعاء على النفس لو وقعت في مفسدة أعظم، كما أقرَّ الباري عزّ وجلّ قول الكافر بناءً على أنّ قولهم من باب الدعاء أو التمنّي.

---

(١) سورة التوبة: الآيات ٤٤-٤٥.

(٢) سورة يس: الآية ٥٢.

التعليم الثالث: لا ينبغي الإصرار والمعاندة

لأنّ العناد مصيره الاصطدام بالواقع، وحينئذٍ يقعون في ضرر الواقع والفضيحة، وربّما لا يملك بعض أهل العناد القدرة على المواجهة الشجاعة معها فيقدم على الانتقام من الغير، فإن لم يجد يؤذي نفسه، أو يقدم على الانتحار؛ لأنه يجد ذلك أهون عليه من القضاء العادل، كما تمنّى الكفار موتهم، ولو كان الأمر باختيارهم لأتلفوا نفوسهم أو أبقوها في القبور المظلمة فراراً من المصير.

إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً
فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ

يس/ ٥٣

يتناغم مضمون هذه الآية المباركة مع مضمون آيات سابقة:

منها: الآية التي تحدثت عن قضية حبيب النجّار لمّا وعظَ أهل أنطاكية ونصحهم أن يتبعوا الرسل ولم يسمعوا له فقتلوه، فأهلكهم الله سبحانه وقال تعالى: ﴿**إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ**﴾[1] وقد أشار إلى هلاك الكفار الذين لم يستجيبوا للرسل ولا لنصيحة حبيب، وعرّض بها بمشركي مكة الذين انتهجوا ذات النهج في عنادهم ومكابرتهم وإيذائهم للمؤمنين بإمكان ملاقاة نفس المصير.

وإطلاق الآية و(كان) التامّة يشيران إلى الصيحة في آخر الزمان التي يُميت فيها الباري عزّ وجلّ أهل الأرض جميعا إلّا مَن شاء الله سبحانه.

ومنها: الآيات الثلاثون إلى الثلاث والثلاثين التي أظهرت تحسّر السماء وأهلها على أهل الأرض؛ إذ استهزؤوا بالرسل وكذبوهم، وحذرتهم من مصير واجه كل الأقوام الذين كذبوا وهو الهلاك، وتضمَّنت وعداً إلهياً بإحضار الجميع عنده سبحانه للحساب. قال تعالى: ﴿**وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ**﴾[2] و(لمّا) تفيد الوقوع الاستقبالي، وفي الآية الأولى أشار إلى صيحة الإخماد، وفي هذه الآية أشار إلى صيحة الإحضار، وقد وصفت كلا الصيحتين بالواحدة، وفي ذلك دلالة ستعرفها.

وتفصيل البحث في الآيات السابقة مرّ، وأمّا هذه الآية فالبحث فيها يقع في مباحث:

---

(١) سورة يس: الآية ٢٩.

(٢) سورة يس: الآية ٣٢.

المبحث الأول: في مفردات الآية

المفردة الأولى: ﴿إِن كَانَتْ﴾

(إن) نافية بمعنى ما، و(كانت) إمّا ناقصة اسمها مقدَّر وهو الواقعة أو الحادثة، وصيحة واحدة خبرها، أو تكون تامّة. والمعنى: ما وقعت إلّا صيحة واحدة، والبعض حملها على اختلاف القراءات وقد عرفتَ بطلانها[1]، وصيغة الماضي مع الاستثناء يفيد الإخبار عن حتمّية وقوعه، وكأنّه حاضر في أذهان الكل، كمن يتحدَّث لجماعة عن ماضٍ مرّوا به وعايشوه.

المفردة الثانية: ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾

الاستثناء بعد النفي يفيد الحصر، والصيحة الواحدة مرَّ معناها، وتفيد هنا معنىً مكملاً للنفخ، فقد مرَّ أنّ النفخ والصيحة يقترنان مع بعضهما، وأحدهما يكمِّل الآخر في التأثير، فإنّ النفخ يثير القبور ويهيجها، والصيحة تهزها لتدبّ فيها الحياة، وبهذا تكتمل صورة المعاد، فإن الصيحة الأولى

---

(١) انظر التحرير والتنوير: ص٤٠؛ تفسير كنز الدقائق:ج١١، ص٦٦؛ روح المعاني: ج٢٣، ص٢٤٦.

تخمد أهل الأرض وهي الصاعقة، ثم تأتي صيحة النفخ لكي ينسلوا من ترابهم ورفاتهم، ثم صيحة الإحياء فيحضرون إلى القيامة.

وهذا التسلسل المرحلي للإماتة والإحياء والحشر طولي، وتتخلّله فترات زمنية كما تشير إليه رواية عبيد بن زرارة عن الصادق عليه السلام الواردة في تفسير القمي[(١)].

وحيث إنّ الصيحة تتضمن قولاً فقد ورد أنّ إسرافيل يُنادي بالأجداث: أيتُّها العظام البالية والأوصال المتقطِّعة واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة إنّ الله المصوِّر الخالق يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء[(٢)] فاجتمعوا، وهلمّوا إلى العرض على الرحمن[(٣)].

المفردة الثالثة: ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا﴾

(فإذا) لبيان سرعة الحضور عند الصيحة وفجأتها، والضمير يعود على الجميع، إلّا أنّه أكّده بجميع الدال على العموم الاستغراقي؛ لبيان أن لا يوجد استثناءات في هذا الإحضار السادة والعبيد والاغنياء والفقراء وكل ما كان يعيش فيه الناس في الدنيا من طبقيات ومراتب. كل هذا يلغى

---

(١) تفسير القمي: ج٢، ص٢٥٦؛ تفسير نور الثقلين: ج٦، ص١٧٩، ح٦٤.

(٢) انظر جامع البيان: ج٢٦، ص٢٣٥؛ تفسير الواحدي: ج٢، ص١٠٢؛ تفسير النسفي: ج٤، ص١٧٥؛ الجامع لأحكام القرآن: ج٨، ص٤٠.

(٣) تفسير البحر المحيط: ج٦، ص٢٥٩؛ روح البيان: ج٧، ص٤١٠؛ تفسير الأمثل: ج١٤، ص١٥٤.

ويتساوى الجميع؛ لأنّ المقام مقام القضاء، وعند القضاء يجب أن يتساوى الجميع بلا محاباة أو تمييز وهذا ما يقتضيه العدل الإلهي.

و (لدينا) ظرف مكان يدل على مزيد القرب، وهو أخص من عند[١]، ولدي ولدني واحد، أو يتقاربان كما في المفردات[٢]، ويفترقان في أنّ (لدى) بلحاظ الخارج عن الذات ولدن بلحاظ الداخل، ولا يستعمل لدن إلّا في الحاضر، بينما (عندي) يشمل الحاضر والغائب؛ لذا يصح أن تقول عندي مال وهو ليس في يدك، ولا يصح أن تقول لدني مال؛ لأن لدن هو لما يليك[٣]، ويتضمَّن اللين والرقّة، لذا يشمل القرب المادي كما في هذه الآية، والمعنوي كما في قوله تعالى: ﴿**وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا**﴾[٤] و: ﴿**رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً**﴾[٥] أي من قربنا الخاص، وهو إشارة إلى أنّ علمه أخذ من أقرب الخلق إلى الله وهم محمد وآل محمد عليهم السلام، أو من جهة المحبة الخاصة بهما أفضنا عليه النور، ولا تنافي بين المعنيين؛ لأنهم عليهم السلام الواسطة في كل رحمة وخير، ومنه سمّي العلم الرباني باللدني لأنه يصل من جهة القرب الخاص.

---

(١) انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٧٣٩، (لدن)؛ مجمع البحرين: ج٦، ص٣٠٨، (لدن)؛ معجم مقاييس اللغة: ص٩١٧، (لدن).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٧٣٩، (لدى)؛ وانظر المعجم الوسيط:ج٢، ص٨٢٢، (لدى).

(٣) معجم الفروق اللغوية: ص٤٦٢، (١٨٥٦)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٨٢٢، (لدن).

(٤) سورة الكهف: الآية ٦٥.

(٥) سورة الكهف : الآية ١٠.

وضمير الجمع يؤكد وجود العلل التوسيطية من جهتين:

إحداهما: نقلية؛ لما تضافرت فيه النصوص من أنّ الحساب والجزاء يتم على يد آل محمد عليهم السلام[١].

ثانيتهما: عقلية؛ لاستحالة أن يكون الباري عزّ وجلّ في مكان أو جهة فيحضر عباده عند أوليائه وحججه ليقوموا بتطهيرهم من ظلمات الكفر والذنوب كما كانوا يطهرونهم في الدنيا من ظلماتهما.

المفردة الرابعة: ﴿**مُحْضَرُونَ**﴾

اسم مفعول مأخوذ من الحضور أي الوجود المُشاهَد في المكان القريب. يقال حضر الشيء أي ورد قريباً بحيث يعاين ويشاهد[٢]، ومنه المَحضَر أي المشهد، ووقعت الواقعة بمحضر فلان أي بمشهده[٣].

وصيغة المجهول تدل على أمرين:

الأول: أنّ حضورهم إجباري إمّا بالإرادة التكوينية الإلهية، فإنّ أمره إذا قال له كن فيكون، أو بإحضار الملائكة لهم كما أخبر الباري عزّ وجلّ أنّ كل نفس تحضر معها سائق وشهيد. قال تعالى: ﴿**وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ**﴾[٤] وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «سائق يسوقها إلى محشرها،

---

(١) الأمالي (للطوسي): ص٤٠٦، ح٩١١؛ مناقب آل أبي طالب: ج٢، ص٥.

(٢) معجم مقاييس اللغة: ص٢٥١، (حضر) ؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢٤١، (حضر) ؛ المعجم الوسيط : ج١، ص١٨٠، (حضر).

(٣) مجمع البحرين: ج٣، ص٢٧٣، (حضر).

(٤) سورة ق: الآية ٢١.

وشاهد يشهد عليها بعملها﴾[١] أو أنهم ملزمون بالحضور اختياراً فلا يملكون غير الاستجابة، وهناك يتمّنى جماعة منهم أنّهم كانوا تراباً.

الثاني: أنّ حضورهم من الإحضار، فيدلّ على أنه عن سخط وغضب كما هو المتبادر، والشاهد قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ**﴾[٢] وفي ذلك إشارة إلى أن المحضرين هم الكفار والهُمَّل، وأمّا المؤمنون فيحشرون في نعمة وتكريم وليس في إحضار، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ويستفاد من مجموع المفردات أنّ الصيحة إذا وقعت يحضر الجميع إلى الحشر والقيامة، ولكن الكفار بالإحضار والمؤمنون بالحضور.

---

(١) نهج البلاغة: ج١، ص١٤٨، خطبة ٨٥؛ البحار: ج٧، ص١١٣، ح٤٧.

(٢) سورة القصص: الآيه٦١؛ وانظر معجم الفروق اللغوية: ص٢٩١، (١١٦٤).

المبحث الثاني: في لطائف الآية

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: عجز الطب عن الإحياء والإماتة

في قوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾(١) الاستثناء والوصف بالوحدة يدلان على أمرين:

الأول: حدوث أمرين عظيمين من أدق وأعقد ما يحدث في الوجود الإمكاني هما الإماتة والإحياء، فإنه لو قيل ما هي أعقد وأصعب عملية لكانتا هما، وباقي الأمور كلها تحدث بالفعل المباشر أو الآلي حتى الصعود على القمر والفتوحات العلمية والتقنية لا تبلغ دقة الحياة والموت، ولذا يعجز البشر عنهما مهما أوتي من قوة وقدرة، أي أن يخرج الروح من الجسد دون سبب، بأن يأمر الروح أن تخرج من الجسد فيموت الإنسان، أو يأمر الروح أن تعود إلى البدن فيحيا الإنسان؛ لذا يعجز الطب والعلم عن ذلك، وكل قدرته على معالجة الجسد، وفي الكثير من الأحيان يتوقف، فلو شاء الله أن يموت الإنسان لو اجتمعت كل علمائهم وعلومهم على إبقائه حياً

(١) سورة يس: الآية ٥٣.

لتعذر، ولو أراد الله حياته وهو أرادوا موته و إخراج روحه من جسده دون قتل لتعذر، لكنّ الباري عزّ وجل بشيء واحد وهو من أبسط الأمور وهي النفخة والصيحة يميت ويحيي، وأما الصيحة والنفخة بما هما فعلان يقدر عليهما كل أحد ولكن بلا أثر.

أما نفخته وصيحته ففيهما أعظم الحوادث، وهما الحياة والموت، ولا يقال إنهم قادرون على قتله، فالجواب أن القتل غير الإماتة، فالإماتة إخراج الروح من الجسد بدون سبب قاهر، فلو حدث سبب قاهر مثل السم والسيف ونحوهما كان قتلاً لا موتاً.

الثاني: أن ذلك دال على قلة شأنهم وسهولة خلقهم وبعثهم وإماتتهم، فهم لا يملكون لأنفسهم حولاً ولا قوة، وكل ما كانوا يتفاخرون به ويتعالى بعضهم على بعض من مال وقوة وسلطان يصبح هباء وصيحة واحدة تكفي لإماتتهم، وواحدة تكفي لبعثهم.

اللطيفة الثانية: الحشر جماعات وأفراداً

أنّ ضمير (هم) و (جميع) في قوله: ﴿**فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ**﴾[١] يدلان على أمرين:

الأول: أنّ الحشر يكون لهم بما كانوا عليه في الدنيا من أجساد وأرواح بخصوصياتهم ومشخصاتهم، فحشرهم يكون جسمانياً لا روحانياً، ولا بالأجساد المثالية.

---

(١) سورة يس: الآية ٥٣.

الثاني: أن الحشر يكون للجميع وليس للمجموع فقط؛ للإشارة إلى أنهم على فئتين:

فئة تحشر جماعات جماعات كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ**﴾[1] وفي هذا حكمة بالغة؛ إذ تكون الجماعة شاهدة على إمامها، والإمام شاهد على أمته، فيعرف الضال والمضل والتابع والمتبوع، وقد قيل إن هذه الآية المباركة تسمى بالفاضحة لهذه الجهة[2].

وفئة أخرى عبارة عن أفراد يحشرون بمفردهم كأبي ذر الغفاري رضوان الله عليه؛ إذ أخبره النبي صلى الله عليه وآله بأنه يعيش وحده ويموت وحده ويحشر يوم القيامة وحده[3]؛ لأنه كان أمة، وقام بوجه الظلم والفساد بمفرده، وعذِّب وشرد ونفي وحده، فلابد وأن يكون له تكريم خاص في الآخرة، ولا يحسب مثل الآخرين يأتي ضمن جماعة فيضيع بينها، وقد تفرَّد بخصائص شهد لها النبي وأمير المؤمنين عليهما السلام منها قول النبي صلى الله عليه وآله في حقه: «إنه صدّيق هذه الأمة»[4] وإن السماء ما أظلت والأرض ما أقلت أصدق منه[5]، والمقصود غير المعصومين.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٧١.

(٢) انظر تفسير الشعراوي: ج١٧، ص٥٠.

(٣) البحار: ج٦، ص٥٩، ح٦٢٥؛ سفينة البحار: ج٣، ص١٩٢.

(٤) سفينة البحار: ج٣، ص١٩٣.

(٥) البحار: ج٦، ص١، ح٢٦؛ سفينة البحار: ج٣، ص١٩١.

وكان من الأركان الأربعة الذين قام عليهم الحق والولاية، ومن الشواهد على وحدانيته شدة المعرفة، فقد روي عن أبي بصير أنه قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ﴿أرسل عثمان إلى أبي ذرّ موليين له ومعهما مائتا دينار، فقال لهما انطلقا بها إلى أبي ذر فقولا له: إن عثمان يقرئك السلام وهو يقول لك: هذه مائتا دينار فاستعن بها على ما نابك، فقال أبو ذر: هل أعطي أحد من المسلمين مثل ما أعطاني؟ قالا: لا. قال: فإنما أنا رجل من المسلمين يسعني ما يسع المسلمين. قالا له: إنه يقول هذا من صلب مالي، وبالله الذي لا إله إلّا هو ما خالطها حرام، ولا بعثت بها إليك إلّا من حلال، فقال: لا حاجة لي فيها وقد أصبحت يومي هذا وأنا من أغنى الناس، فقالا له: عافاك الله وأصلحك: ما نرى في بيتك قليلاً ولا كثيراً مما يستمتع به! فقال: بلى تحت هذه الأكاف[1] التي ترون رغيفا شعير قد أتى عليهما أيام فما أصنع بهذه الدنانير، لا والله حتى يعلم الله أني لا أقدر على قليل ولا كثير، ولقد أصبحت غنياً بولاية علي بن أبي طالب عليه السلام وعترته الهادين المهديين﴾[2] وكل من كان على شاكلة أبي ذر مثله يحشر لذات الملاك والدليل.

---

(١) مجمع البحرين: ج١، ص٣٥٩، (كفأ)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٧٩١، (كفأ)؛ ((الأكاف الإناء. يقال ذلك إذا قلب فالأكفاء الأواني المقلوبة)).

(٢) اختيار معرفة الرجال: ج١، ص١١٩؛ البحار: ج٦، ص٧٩، ح٧٦٨؛ سفينة البحار: ج٣، ص١٩٣.

اللطيفة الثالثة: آخر حديث لعلي عليه السلام

إن ضمير الجمع في قوله ﴿لَّدَيْنَا﴾ يدل على أنّ الحشر والحضور يكون عند النبي صلى الله عليه وآله والعترة عليهم السلام كما عرفتَ، وبه أشارت الآيات وتواترت الروايات، واكتفي برواية واحدة.

فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديثه للأصبغ بن نباتة رواية أتسمت بمزايا ثلاث:

الأولى: أنّه عليه السلام آخر حديث حدَّثه به وهو على فراش جرحه وبعده فارق الدنيا.

الثانية: أنه عليه السلام هو الذي بادره بالحديث، وفي ذلك دلالة عظيمة و هامّة لجميع الخلق على مضمونه ووجوب الالتفات إليه.

الثالثة: أنه تضمَّن توجيه النبي والإمام عليهما السلام للخلق أجمعين، وهو خلاصة قولهما للخلق.

قال له: «يا أصبغ! لقيني رسول الله صلى الله عليه وآله في بعض طُرقات المدينة وأنا مغموم قد تبيَّن الغم في وجهي، فقال لي: يا أبا الحسن! أراك مغموماً، ألا أحدثك بحديث لا تغتمّ بعده أبداً؟ قلت: نعم. قال: إذا كان يوم القيامة نصبَ الله منبراً يعلو منابر النبيين والشهداء، ثم يأمرني الله أصعد فوقه، ثم يأمرك الله أن تصعد دوني بمرقاة، ثم يأمر الله مَلَكين فيجلسان دونك بمرقاة، فإذا استقللنا على المنبر لا يبقى أحد من الأولين والآخرين إلّا حضر، فينادي المَلَك الذي دونك بمرقاة: معاشر الناس! ألا مَن عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أُعرِّفُه بنفسي. أنا رضوان خازن الجنان، ألا إنّ

الله بمنِّه وكرمه وفضله وجلاله أمرني أن أدفع مفاتيح الجنة إلى محمَّد، وإنّ محمَّداً أمرني أن أدفعها إلى علي بن أبي طالب فاشهدوا لي عليه.

ثم يقوم ذلك الذي تحت ذلك الملك بمرقاة مناديا يسمع أهل الموقف: معاشر الناس! مَن عَرفَني فقد عَرفَني، ومن لم يعرفني فأنا أعرّفه بنفسي. أنا مالك خازن النيران، ألا إنّ الله بمنِّه وفضله وكرمه وجلاله قد أمرني أن أدفعَ مفاتيح النار إلى محمد، وإنّ محمَّداً قد أمرني ان أدفعها إلى عليّ بن أبي طالب، فاشهدوا لي عليه، فآخذ مفاتيح الجنان والنيران.

ثم قال يا علي! فتأخذ بحجزتي، وأهل بيتك يأخذون بحجزتك، وشيعتك يأخذون بحجزة أهل بيتك. قال: فصفّقت بكلتا يديَّ وقلت: وإلى الجنة يا رسول الله؟ قال إي وربّ الكعبة»[١].

---

(١) مستدركات الفضائل: ص٦٣١؛ وانظر البحار: ج٤٠، ص٤٥ -٤٦، ح٨٢؛ الأنوار البهية: ص٧٧.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

وهي عديدة:

التعليم الأول: ضرورة المعاد والإعتقاد به

إنّ الإيمان بالمعاد والإذعان له وعقد القلب عليه من الواجبات العقلية والشرعية، فلا يجوز إنكاره أو تكذيب تفاصيله؛ لأن العقل يقضي بوجوب وجوده، والشرع أخبر عنه وتحدّث عن تفاصيله، وأمر الناس بالاعتقاد به، ولذا اتفقت جميع الشرائع السماوية والفلاسفة وأهل المعقول على وجوب وجوده وإن اختلفوا في بعض تفاصيله، ولأن القضية من المسائل الهامّة التي يتوقف عليها إيمان الإنسان وحاضره ومستقبله، وهي من ضروريات الإسلام وجب التعرّض إلى بعض أسسها وبإيجاز في أمور ثلاثة، وندع التفاصيل إلى مباحث العقائد والكلام:

الأمر الأول: في حقيقة الموت

لا يشك أحد في أن الموت حقيقة واقعة وكل نفس ذائقة الموت[1]، ولا ينجو من هذه الحقيقة إنس ولا جان ولا ملك، ولا يختلف فيها نبيّ أو وصيّ أو ملك أو فقير.

---

(١) انظر سورة العنكبوت: الآية ٥٧.

والموت ضد الحياة[١]، ولا يوجد تعريف جامع له لشدة وضوحه حساً أو لشدة خفائه معنىً، ولذا عرَّفه اللغويون بضده، والأخبار عرَّفته بآثاره ولوازمه، فقد قيل للإمام الصادقعليه السلام: صِف لنا الموت، فقالعليه السلام: «هو للمؤمن كأطيب ريح يشمُّه فينعس لطيبه، فينقطع التعب والألم كله عنه، وللكافر كلسع الأفاعي ولدغ العقارب وأشدّ»[٢] وفي بعض النصوص أنّ الموت والحياة خلقان من خلق الله تعالى ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾[٣] فإذا جاء الموت فدخل الإنسان لم يدخل في شيء إلّا وخرجت منه الحياة[٤]، ومنه يتضح أنّ الموت ليس بأمر عدمي بل وجودي و له آثاره، وهو لا يعني فناء الحياة بل سكونها، و قد أطلقت العرب على السكون لفظ الموت. يقال ماتت الريح إذا سكنت[٥] وشبّهوا النوم به لذات العلّة، وقالوا النوم موت خفيف والموت نوم ثقيل[٦]، كما أطلقوا على كل ما يقتضي الحركة والقوة بما يناسب وصار ساكناً بأنه ميت، كموت الضمير و موت العقل و موت

(١) معجم مقاييس اللغة: ص٩٣١، (موت)؛ مجمع البحرين:ج٢، ص٢٢٣، (موت).

(٢) الاعتقادات في دين الإمامية: ص٥٣؛ علل الشرائع: ج١، ص٢٩٨، ح١؛ عيون أخبار الرضاعليه السلام: ج٢، ص٢٤٨، ح٩؛ معاني الأخبار: ص٢٨٧، ح١.

(٣) سورة الملك: الآية ٢.

(٤) تفسير نور الثقلين: ج٥، ص٣٧٩، ح٧؛ مجمع البحرين:ج٢، ص٢٢٣، (موت).

(٥) مجمع البحرين:ج٢، ص٢٢٢، (موت).

(٦) رياض السالكين: ج٥، ص٣٤٢؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٧٨١، (موت).

القلب و موت الأخلاق في مقابل حياتها، و كل ذلك لا يعني الفناء بل السكون بعد الحركة[١].

وهذا ما يستفاد من النصوص الشرعية، فإن حقيقة الموت عبارة عن خروج الروح الإنسانية من الجسد و رجوعها إلى بارئها، و خروجها من عالم المادة والشهادة إلى عالم الغيب، فهو ليس فناء الروح ولا سكونها الحقيقي بل هو سكون الجسد و زوال قواه وقد ورد في الحديث: «ما خُلِقتم للفناء بل خلقتم للبقاء، وإنما تنقلون من دار إلى دار»[٢].

ولدى الموت تقبض الأرواح بأمر خالقها، و يعبَّر عنه بالتوفّي والاستيفاء؛ لأنها كانت مودعة في الأجساد لاقتضاء حكمتين: حكمة الإكمال والتكامل وحكمة الاختبار، والقبض والتوفّي يكون للموجود.

وفي أمالي الصدوق قدس سره: «لمّا أراد الله تبارك وتعالى قبض روح إبراهيم عليه السلام أهبطَ ملك الموت فقال: السلام عليك يا إبراهيم. قال: وعليك السلام يا ملك الموت أداعٍ أم ناعٍ؟ قال: بل داعٍ يا إبراهيم فأجب. قال إبراهيم عليه السلام: فهل رأيتَ خليلاً يُميت خليله؟

قال: فرجع مَلَك الموت حتى وقف بين يدي الله جلّ جلاله، فقال: إلهي قد سمعتَ ما قال خليلك إبراهيم، فقال الله جلّ جلاله: يا مَلك

---

(١) مفردات ألفاظ لقرآن الكريم: ص٧٨١-٧٨٢، (موت) ؛المعجم الوسيط: ج٢، ص٨٩١، (مات).

(٢) الاعتقادات في دين الإمامية: ص٤٨؛ شرح أصول الكافي: ج٦، ص٧٠.

الموت! اذهب إليه وقل له: هل رأيتَ حبيباً يكرَه لقاء حبيبه؟ إنّ الحبيب يحب لقاء حبيبه[١].

فالموت عود الروح إلى خالقها ولقاؤها به وليس فناءها وللحكماء والمتكلمين في التعريف بحقيقة الموت ما يقارب ما ذكرنا، وقد برهنوا على ذلك بجملة براهين عقلية يمكن مراجعتها[٢].

ولو سأل سائل أنه إذا كان الموت انتقال من دار إلى دار للقاء الحبيب فلماذا يخافه الناس؟

فالجواب: أنّ ذلك لأسباب عديدة تتلخّص في سببين:

الأول: لأنهم يجهلون حقيقته، وكل مجهول يحتمل فيه الضرر مخيف.

الثاني: لأنهم خرَّبوا آخرتهم بدنياهم، وكل مجرم مذنب يخاف من عاقبة أمره، فلا يخاف من الموت إلّا المذنب العاصي، وأمّا المؤمن الذي عمَّر دنياه وأُخراه بالصالحات فيحب الموت ويتمناه. قال تعالى في ردّ مزاعم اليهود الذين يدّعون أنهم شعب الله المختار وأن لهم العلوّ على سائر الخلق: ﴿**قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمينَ**﴾[٣] وهي دالّة على أمرين:

---

(١) الأمالي (للصدوق): ص٢٦٤، ح٢٨١؛ البحار: ج٦، ص١٢٧، ح٨.

(٢) انظر الشفاء (الالهيات): ص١٦١، الفصل السابع: ص٣٦٣؛ شرح الإشارات (للطوسي): ج٣، ص٤٠٧-٤٠٨.

(٣) سورة البقرة: الآيتان ٩٤- ٩٥.

أحدهما: أن العبد المخلص لله يتمنى الموت لأنه لقاء به.

والثاني: أنّ الذين يفرّون من الموت هم غير الصالحين؛ لذا قال: بما قدّمت أيديهم، أي من الذنوب والمعاصي، ولو كانوا صالحين لتمنّوه؛ لأنه يوصلهم إلى النعيم الخالد، ولذا ورد أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان ينتظر ليلة شهادته وكان يقول: «والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أُمه»[1] وفي تفسير القُمّي أنّ في التوراة مكتوباً: أنّ أولياء الله يتمنّون الموت ولا يرهبونه[2].

والموت عندهم ليس إلّا تبديل ثوب بثوب وانتقاله من دار إلى دار، بل تحوّل من عالم دان إلى عالم أفضل وأرقى.

وهذه الانتقالة في الموت الأول تحصل ثم تعود من جديد إلى الأبدان في القبور في النفخة الأولى، ثم في الصيحة تعود إلى يوم القيامة، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**﴾[3] وقد اختلفوا في أن الرجوع إليه سبحانه كيف يكون؟

الأمر الثاني: الأقوال في المعاد

كان ولازال البحث في المعاد دائراً بين أهل النظر، ويدور البحث على محورين:

الأول: هل المعاد حقيقة ممكنة معقولة أم مستحيلة؟

الثاني: على فرض الإمكان فهل المعاد يكون للأرواح أم للأبدان أم للأرواح والأبدان معاً؟

---

(١) نهج البلاغة: ج١، ص٤١، الخطبة ٥؛ البحار: ج٢٨، ص٢٣٤، ح٢٠.

(٢) تفسير القمي: ج١، ص٥٤؛ مواهب الرحمن: ج١، ص٤٧١.

(٣) سورة العنكبوت: الآية ٥٧.

والاختلاف الأول واقع بين الإلهيين والماديين، فالإلهيون يقولون بأن المعاد أمر ممكن ذاتاً، بل وواقع خارجاً. والماديون ينفون ذلك.

والاختلاف الثاني بين الإلهيين أنفسهم.

في الاختلاف الأول يقول الماديون والملاحدة بعدم وجود المعاد، وإنكارهم يقوم على دعويين:

الأولى: إنكار وجود الخالق عزّ وجلّ، وهو الأصل للمعاد، فإذا أنكروا الأصل أنكروا فروعه.

والثانية: أنّ المعاد أمر غير محسوس، وكل غير محسوس غير موجود، وهذا القول بدعوييه باطل.

أمّا الأولى فباطلة من وجوه :

الوجه الأول: موضوعي؛ لأن أدلة إثبات الخالق لو تمَّت وهي تامّة تكفي لردِّها، وهذا أصل موضوعي ليس هنا مجاله.

الوجه الثاني: منطقي؛ لأن المنكرين ليس لديهم دليل على العدم، بل مدَّعاهم مبني على الاستبعاد وعدم المعرفة، والجهل بالشيء لا يعني عدم وجوده منطقياً؛ لأن عدم الوجدان لا يدلّ على عدم الوجود.

وهذه الدعوى ليست جديدة بل منذ قديم الأيام كان الكفار يقولون: ﴿**أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ**﴾[1] فهم لا يملكون دليلاً على العدم، بل يستبعدون الوجود لعدم تعقّلهم له، وفي آيات أخرى حكى تعجّبهم

(١) سورة ق: الآية ٣.

واستفهامهم عنه بقولهم: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾[١] فهم لا يملكون دليلاً، ولو كان لهم لأقاموه لكنهم عاجزون.

الوجه الثالث: عقلي وعلمي، فإن العقل يرى إمكان المعاد وعدم استحالته عقلاً، وكل ما لا يحكم العقل باستحالته يمكن أن يوجد، بل قد يجب وجوده إذا توقفت بعض المصالح الوجودية الواجبة عليه .

كما يرى العقل بأن المعاد من عالم الغيب الذي لا يُحَسّ ولا يدرك بالحواس، وما لا يُحَسّ ينحصر طريق العلم به بالنقل من قبل العالم الصادق به، وهذا أمر لا يختلف عليه اثنان، وعلى هذا الأساس يتمّ تبادل المعلومات والمعارف، وتنتقل من العالمين إلى الجاهلين.

فمثلا: حينما يخبرنا علماء الأحياء عن الكائنات المجهرية وطريقة تفاعلاتها وآثارها ونموّها وتكاثرها فإننا نصدّقهم مع أنَّهم يُخبرون عن أمور لا ندركها ولا نحسُّها، ولكن لأنهم مطّلعون على ذلك العالَم وعالِمون به فإنّ العقل يقضي بتصديقهم والثقة بما يقولونه، و يعدّ تكذيبهم خروجاً عن النهج العلمي والعقلي السليم.

وكذلك حينما يخبرنا علماء الفلك عن الأفلاك والأجرام السماوية ويخبرنا الأطباء عن أسرار الأمراض وخفاياها، وهكذا في كل علم و فَنّ هناك حقائق ومعلومات غير محسوسة لنا، ولكننا نصدّقها ونؤمن بها إذا أخبرنا الخبير الصادق بها. هذه قضية عقلية وعقلائية تبنى عليها العلوم والمعارف.

---

(١) سورة الصافات: الآية ١٦.

وذات القضية تقال في المعاد، فإن العقل يحكم بإمكانه وعدم استحالته في نفسه أي بالذات، ويحكم بوجوب وجوده بالعرض؛ لتوقّف الكثير من الواجبات التكوينية والتشريعية عليه، وقد فصلت هذه الواجبات في أبحاث العقائد.

وقد أخبر العالم الصادق به فيحكم بوجوب تصديقه والإذعان له، وتكذيبه من قبل الجاهل به خروج عن النهج العلمي والمنطقي في البحث.

وأمّا الثانية فهي بديهية البطلان، ولا تقوم على أساس علمي أو منطقي، والعلم الحديث أثبت الكثير من الحقائق غير المحسوسة يقوم عليها نظام الوجود والإنسان، بل أثبت العلم والوجدان أنّ المدارك الإنسانية لا تنحصر بالحسيّات، بل هناك مدارك غير حسيّة تعلم وتنقل المعلومات كالعقل والإلهام والخبرة والفراسات ونحوها، فإن هذه من أدوات المعرفة لدى الإنسان وهي غير محسوسة، فلو صحَّ مدعّى الماديين لوجب نفي هذه، ولو نفوها وجب إلغاء كل البراهين والأدلة وإلغاء الخبرات والإلهامات والمشاعر ونحوها مما يتقوَّم بالعقول والأرواح والقلوب، فهذه الدعوى في نفسها باطلة .

ويتحصَّل: لا يوجد فكر ولا مدرسة علمية تقول باستحالة المعاد عقلاً، وكل ما قاله الماديون والملاحدة هو عدم العلِم بوجوده، فالقاعدة العلمية والعقلية تقضي بأن الدليل إذا قام على المعاد أو أخبر الصادق العالم به يجب أن يصدَّق ولا ينفى، وإذا ثبت المعاد علمياً ومنطقياً وجب أن يثبت المبدأ؛ لأن المعاد فرعه، فلو ثبت أحدهما يثبت الآخر بالملازمة، وبهذا تبطل

نظرية الطبيعيين والملاحدة، وينبغي أن ينحصر الخلاف في أقوال الإلهيين وهي ثلاثة: قول ذهب إلى أنّ المعاد للأرواح فقط دون الأجساد، وهو قول جمهرة من الحكماء؛ لأن الأرواح مجردات – بزعمهم –، والمجردات باقية، وأمّا الأبدان فهي مادية مركبة من أجزاء وعناصر تتحلل بعد الموت وتنعدم، والمعدوم يستحيل إعادته بنفسه، وعليه فلا تُحشر في الآخرة إلّا الأرواح، ويكون الثواب والعقاب للأرواح، فهي تنسرّ بالثواب وتتألم بالعقاب كإحساسها بالفرح والحزن.

وقول ذهب إلى أنّ المعاد للأجساد فقط. نسب قولاً إلى أهل الظاهر من المسلمين وبعض المتكلمين، وهو لازم مَن أنكر وجود المجردات بما فيها الروح والنفس، وخصّص التجرُّد بالله سبحانه[1]، ولم يُفرِّق بين مراتب المادة بين الغليظ والشفاف.

وقول ذهب إلى أنّ المعاد جسماني وروحاني معاً، أي أنّ الأرواح تُحشر بأجسادها الدنيوية، وهو قول أكثر المتكلمين وعلماء الشريعة، وهو الذي دلَّت عليه الآيات والروايات.

والقول الثاني لا نظنه تامّاً، ولا أنّ القائلين به يريدون حشر الأجساد وحدها دون الأرواح؛ لوضوح أنّ الإنسان إنسان بروحه لا بجسده، وليس للجسد حسّ ولا حياة ولا عمل إلّا بالروح، لكن عبارات بعضهم وإن نصَّت على المعاد الجسماني لكنهم لا يريدون به عود الأجساد فقط، بل

---

(١) انظر الفردوس الأعلى: ص٢٨٢.

الأجساد بأرواحها؛ لعدم انفكاك الأرواح عن الأجساد، وذِكْر أحدهما يغني عن الآخر، والأمر ظاهر جليّ عقلاً فضلاً عن دلالة النقل، وعليه يتوافق هذا القول مع القول الثالث، فينحصر البحث بين قول الحكماء وقول المتكلمين وعلماء الشريعة.

والقول بالمعاد الروحاني مبتن على كبرى وصغرى ونتيجة.

الأولى: أنّ الموت فناء وانعدام للجسد.

الثانية: أنّ المعدوم يستحيل أن يعود، فالجسد يستحيل أن يعود، فيتعين أن يكون العود للروح، وفي كلا الدعويين نظر.

أمّا الصغرى فلأنّ دعواهم أنّ الموت انعدام للجسد فيها احتمالات:

الأول: فناء كل الجسد وانعدامه بحيث يتحوَّل من الشيء إلى اللاشيء، وهذا باطل باتفاق الكلمة والحكماء أنفسهم يقرون بأن الجسد يتحلل إلى عناصره الأولية ولا يفنى.

الثاني: أنّ الفناء يكون لمادة الجسد وعناصره الأولية، وهذا ليس فناء، بل انحلال الموجود المركب إلى عناصره فهو كالأول.

والثالث: أنه فناء لصورة الجسد. بأن تتفرَّق أجزاؤه وتذهب، وأمّا مادته الأولية فتبقى، وهذا هو الفرض الممكن المعقول والذي يشهد به الوجدان والعلم، ولو تم فإنه يدل على إمكان إعادة البدن لا استحالته؛ لأن المركب تزول صورته التركيبية بانحلاله إلى أجزائه، وتعود إذا جُمعت ثانيةً كما هو الشأن في كل المركبّات.

يبقى الكلام في أنه حيث يعاد يعاد بصورته الأولى أم بصورته الثانية؟

والجواب: على كلا التقديرين فإنّ ذاتية الجسد بمادته الحقيقية، وأمّا الصورة فهي عرضية، فقد تتبدل كما تتبدل صورة الوجه بعمليات التجميل من دون تغيير على الذّات. **هذا أولاً**.

وثانياً: لا نسلِّم بأن الموت فناء للصورة، بل هو انفصال لها على مادتها الحسية لكنها متلبسة بمادتها المثالية، ولدى انفصالها فهي تغيب عن البصر ولا تغيب عن الواقع؛ لذا تُحفَظ في الوجود وتُستحضَر يوم القيامة كما أخبر عن ذلك الباري عزّ وجلّ: ﴿**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا**﴾[1] وقوله: ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾[2] فالعمل الخير والشر كلاهما يحضران بصورتهما الدنيوية الواقعية، وقد أثبت علم الفيزياء الحديث أن الصور محفوظة في الفضاء ولا تضمحل، ولو تطورت الأدوات والوسائل فربما أمكن استعادة صور الأشخاص والحوادث الواقعة قبل آلاف السنوات، وهناك أدوات لبعض الأجهزة الأمنية قادرة على تحصيل صورة الجريمة الواقعة قبل ساعة أو أكثر أو أقل، والأمر ظاهر، وعلى هذا فإن انحلال الجسد بالموت لا يعني انعدام صورته، بل انفصالها عنه وانحفاظها، فإذا جاءت الصيحة عادت الصورة إلى جسدها كما تعود الروح إليه.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٣٠.

(٢) سورة الزلزلة: الآيتان ٧-٨.

وثالثاً: لو سلّمنا بأن الموت انعدام لصورة الجسد فإن العود يكون للجسد ليس بصورته الأولى الدنيوية، بل بصورة جديدة، وهي صورة الجسد المستخلص من الزوائد الدنيوية، فإن القائلين بالمعاد الجسماني لا يقولون بعود الجسد برمَّته، بل يتكون الجسد من جديد بإذن الله وأمره من المادة الأصلية الباقية منه، وهي خلاصة مادته، وأما الزوائد فتزول، وهذه الصورة الجديدة هي التي يُحشر بها الإنسان، فلا إعادة للمعدوم، بل تلبُّس الموجود لصورته الأصلية مجردة عن الزوائد.

ولعل إليه يشير قوله تعالى: ﴿**أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأول بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ**﴾[1] أي كما أننا في الخلق الأول ألبسنا الأجساد صورها كذلك في مدة العمر دائماً تتلبَّس الأجساد بالصور على حسب مراحل العمر من النطفة إلى أن يردَّ الإنسان إلى أرذل العمر، كذلك إذا أعيد تكوين الأجساد في قبورها لأجل الحشر فإنها تُلبَّس بصورة وتُحشر.

فدعوى انعدام صورة الجسد الأول لا يستلزم نفي المعاد الجسماني، بل يستلزم القول بوجوده بصورة أخرى جديدة، وهي صورة المادة الأصلية التي يتكون منها الجسد.

والخلاصة: أن الصغرى التي بنى الحكماء عليها دعواهم غير سديدة؛ لأن الموت ليس فناء للصورة، وعلى فرض كونه فناء فإن فناء الصورة لا يستلزم نفي المعاد الجسماني، بل وجوده بصورته الأصلية.

---

(١) سورة ق: الآية ١٥.

وأما الكبرى – أي أن المعدوم يستحيل ان يعود – فهي باطلة من وجهين نقضي و حلّي. أما النقضي فبالخلق الأول، فإنه كانت الأشياء معدومة فكيف أُوجِدَتْ؟ وبالأرواح بعد نفخة الصعق التي تموت فيها حتى أرواح الملائكة والأنبياء ثم تَحيا من جديد بالصيحة، وبين الصيحة والنفخة مدة طويلة كما مرَّ ذكره، وبناءً على أن الموت إعدام للميت كما يقولون فالإحياء إعادة للمعدوم وحشر لها بنفسها.

وأما الحلّي فمن وجوه:

الوجه الأول: أنّ أدل دليل على إمكان الشيء وقوعه، وهذه من القواعد المسلَّمة لهم، وحيث يثبت وقوع إعادة المعدوم في الأرواح كما يقرّون به ثبت بطلان دعوى الاستحالة بلا مؤونة.

الوجه الثاني: أنّ منشأ الاستحالة المدعاة يعود إلى تقيّد الحوادث بالزمان باعتبار أن الصورة الأولى الفانية في القبر ذهبت بزمانها، والصورة الثانية العائدة لها زمانها، فتميزا في الزمان، فلا يمكن أن تكون الثانية عين الأولى، ولدى التأمل نجد أن هذا المدعى لا ينفي المعاد الجسماني، بل يؤكده؛ لأن استحالة إعادة الأولى لا ينفي حلول صورة ثانية للجسد بها يُحشر. **هذا أولاً**.

وثانياً: أن الزمان على مبانيهم أمر اعتباري وليس حقيقياً، فلا يغير من واقع الصورة شيئاً، فإنّ الصورة هي نفسها في الزمانين، ولكننا حينما نقرن الصورة بالزمان يتميزان، وهذا التميّز ذهني اعتباري لا واقعي، كما لو افترضنا الحادثة الواقعة في الزمان الأول وافترضنا وقوعها في الزمان الثاني،

فإنّ الافتراض لم يصيّر الصورة صورتين في الواقع وإنما فقط في عالم الاعتبار والذهن، والمعاد لا يقوم على الاعتباريات بل الواقعيات.

الوجه الثالث: لو سلّمنا ما ذكروا من حكم العقل باستحالة إعادة المعدوم إلّا أنّ هذا ليس من المستحيلات الذاتية، بل العرضية الناشئة من وجود المانع، فاستحالة إعادة المعدوم ليست من جهة استلزامها التناقض، بل من جهة استحالة عود الزمان؛ لأنه حقيقة متصرمة الوجود، أي لا تحدث الحصّة الثانية من الزمان كالثانية الثانية إلّا بانعدام الحصّة الأولى منه، فإذا انعدمت امتنع وجودها ثانيةً؛ لأنها لو عادت كانت حصّة ثالثة للزمان وليست هي الحصّة الأولى.

ولنا أن نسأل عن حقيقة الزمان وهي لا تخلو إمّا أن تكون حقيقة واقعية موجودة أو هي أمر اعتباري لا واقعي ناشئ من حساب حركة الأجسام أو الأفلاك.

وهم لا يقولون بالأول، لكن على فرض القول به فإن الزمان يكون مثل الكلام ونحوه من الوجودات المتصرمة وغير القارة، فإن الحرف الثاني في الكلام لا يحدث إلّا بانعدام الأول، والكلمة الثانية في الجملة لا تحدث إلّا بانعدام الكلمة الأولى وهكذا، ولكن الكلام لا ينعدم ويفنى بالمعنى الدقيق وإنما يغيب عن الأسماع، ولذا يحفظ في الجو، ويمكن تسجيله وإعادته، ويحمل في الفضاء من مكان إلى مكان كما هو ملحوظ في أجهزة التواصل والتقنية الحديثة، فإذا كان الكلام هكذا كان الزمان كذلك؛ لأن حكم الأمثال فيما يجوز ولا يجوز واحد، وعلى الفرض الثاني فإنّ الأمور

الاعتبارية راجعة إلى اعتبارات المعتبرين، وللخالق أن يعتبر الصورة المعادة هي ذاتها الأولى ويرتفع الإشكال.

الوجه الرابع: سلّمنا، إلّا أنّ المسألة تندرج في القضايا العقلية التي يتعارض فيها حكم العقل والنقل وتكون على قسمين:

القسم الأول: القضايا العقلية التي يستقل العقل بالحكم بها، وتعدّ من مدركاته القطعية، والشاهد على كونها قطعية عدم اختلاف العقلاء عليها مثل حكمه بقبح الظلم وحسن العدل، أو حكمه باستحالة الجسمية على الخالق سبحانه، وفي مثلها لا يمكن للنقل أن يخالف حكم العقل، ولو وقعت وجب تأويل النقل ليتوافق مع حكم العقل لسببين:

الأول: لأن النقل نفسه عقلائي، ولا يحكم بشيء يحكم بامتناعه العقل.

الثاني: أنّ العقل هو الدليل على حجيَّة النقل واعتباره، فلو خالف النقل العقل امتنع تقديم النقل عليه؛ إذ يلزم من وجوده عدمه كما يلزم الدور، فلا مناص من تأويل النقل طبقاً لمقتضى العقل، ولذا اتفقت كلمة أصحابنا على أنّ الآيات الشريفة الظاهرة في نسبة الجسمية إلى الخالق تعالى تؤوَّل وتحمل على خلاف ظاهرها لكيلا تناقض حكم العقل مثل قوله تعالى: ﴿**يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**﴾[1] فإن العقل البديهي يمنع أن تكون لله سبحانه جارحة؛ لانتهاء ذلك إلى التناقض، وخروج الواجب عن الوجوب وصيرورته قاصراً ناقصاً محتاجاً إلى الغير؛ لذا تحمل اليد على الواسطة كيد

---

(١) سورة الفتح: الآية ١٠.

النبي ﷺ، فإنها يد الله سبحانه بالاعتبار وبالمظهرية المعنوية، أو تحمل على اليد المعنوية أي القوة والسند، والمعنى أنّ قوة الله فوق قوّتهم تؤيدهم وتسندهم، والأمر ظاهر.

والقسم الثاني: القضايا العقلية التي يحكم بها العقل، وتعد من مدركاته، ولكنها ليست قطعية، والشاهد على كونها غير قطعية وقوع الاختلاف فيها، وتبدّل أحكامها بالوجوه والاعتبارات مثل: الإحسان إلى الفقير فإنه قد يكون حسناً من جهة وقبيحاً من جهة أخرى، فلو كان الإحسان إليه لأجل سدّ جوعته وستر عورته كان حسناً وفيه الثواب، ولو كان لأجل شراء ذمّته واستغلاله كان قبيحاً؛ لذا يختلف حكم العقلاء فيه، فالناظر إليه من الجهة الأولى يستحسنه، والناظر إليه من الجهة الثانية يستقبحه، وهكذا في الصدق والكذب وغير ذلك من قضايا يحكم بها العقل، ويختلف فيها العقلاء بحسب الوجوه والاعتبارات.

وفي مثلها إذا تعارض حكم النقل مع العقل فليس بالضرورة يؤوَّل النقل، بل قد يكشف النقل عن خطأ العقل فيه؛ لأنه نظر إلى القضية من جهة غير صحيحة؛ وفي مثلها يجب اتّباع النقل فيها واتّهام العقل فيما يحكم، والقضايا التي يشتبه فيها العقل بسبب عدم الإحاطة التامة بالموضوع كثيرة.

ومنها مسألة استحالة إعادة المعدوم، فإنّ حكم العقل على فرض تماميته ناشئ من جهتين:

إحداهما: ملاحظة كون الزمان قيداً للجسم، فلو فني في الزمان الأول استحال إرجاعه بنفسه في الزمان الثاني.

ثانيتهما: ملاحظة العجز في المقدور والغفلة عن جهة القادر.

وهذه النظرة العقلية ليست من المدركات القطعية؛ لذا لو اختلفت جهة اللحاظ تغيّر الحكم، فلو قلنا بأن الزمان أمر اعتباري بطلت الجهة الأولى، ولو لاحظنا المسألة من جهة القادر بطلت الجهة الثانية.

وقد عرفت بطلان الأولى، وأمّا الثانية فإن كل الأدلة النقلية الواردة لاسيّما الآيات التي تتحدث عن المعاد صريحة في النظر إلى جهة القادر لا المقدور، والقادر المطلق المحيط بكل الأشياء إذا أراد شيئاً فإنّما يقول له كن فيكون، وإذا أخبر العالم الصادق بالواقع والعقل لا ينفيه أو مجرد يحتمل عدمه يجب تصديقه.

وقد أخبر الخالق سبحانه أنّه قدر على إيجاد الأشياء غير الموجودة في أول الخلق فكذلك قادر على إعادتها في ثاني الخلق، ولّما يغفل العقل عن هذه الجهة ربما يحكم بالامتناع، لكن النقل يَدلُّه على توهّمه؛ لذا قال سبحانه: ﴿**وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۞ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ**﴾[١].

وقد ورد عن الصادق عليه السلام أن أحد زعماء الجاهليين (أبي بن خلف) جاء بعظم بالٍ مُتفتِّت وقال لرسول الله صلى الله عليه وآله: أتزعم أنّ الله يبعث هذا[٢]؟

ويشير الباري في جوابه إلى أمور يمكن أن نعدّها شواهد على ما ذكرنا:

---

(١) سورة يس: الآيتان ٧٨-٧٩.

(٢) انظر مجمع البيان: ج٨، ص٢٩١.

الأول: قال إنّ قول المنكر مبني على استعجاب واستبعاد وليس له دليل، ووجه الاستغراب يعود إلى قصور عقله عن درك ذلك.

الثاني: أن قوله ناشئ من الغفلة والنسيان عن خلقه الأول، فإنه خلق أولاً إبداعاً و لم يكن موجوداً فيمكن أن يعاد خلقه ثانياً؛ لأن حكم الأمثال واحد.

والثالث: أن المستشكل نظر إلى جهة المقدور، و أن الرميم البالي لا يمكن ان يعاد ثانيةً، وغفل عن جهة القادر الذي قدر على الإيجاد أولاً، فهو على الإعادة أقدر، ولذا قال سبحانه: ﴿**أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۞ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾[١].

ويتحصّل: أنّ قول الحكماء باستحالة إعادة المعدوم مبني على مقدمة عقلية قاصرة لا تصلح أن تكون دليلاً يثبت الاستحالة؛ لأنّها ناظرة إلى جهة الزمان وقصور المقدور عن الإعادة، وغفلت عن أن الزمان أمر اعتباري لا واقع له، وأن الإعادة تستند إلى القادر المطلق الذي لو أراد شيئاً يقول له كن فيكون.

ويعزز كل ذلك تكاثر الآيات والروايات لدى الحديث عن المعاد بعبارة إحياء الموتى، وهذا لا يستقيم إلّا إذا كان المقصود إحياء الأجساد بعد موتها، وأما الروح فلا معنى لإحيائها حتى على مبنى الحكماء أنفسهم؛ لأنهم يرون أنها باقية لا تموت، وبهذا يتّضح بطلان نظرية المعاد الروحاني.

---

(١) سورة يس: الآيتان ٨١-٨٢.

الأمر الثالث: في المعاد الجسماني والروحاني

يتّضح مما تقدَّم أنّ المعاد هو جسماني وروحاني معاً، أي أنّ الأرواح تحشر إلى القيامة بأجسادها الدنيوية لبطلان النظريات المقابلة أولاً، ولتضافر الأدلة العقلية والنقلية عليه ثانياً. أمّا الأول فقد عرفته، وأمّا الثاني فنكتفي ببيان دليلين:

الدليل الأول: عقلي.

وخلاصته: أنّ الأرواح وإن كانت إلهية المنشأ منزهة عن المادة الكثيفة والجسم الغليظ في ذاتها، إلّا أنّها اتحدت مع الجسم في الدنيا وتحتاجه في فعلها؛ لأنّها لا توجد إلّا في محل، وإذا كانت متحدة بالجسد في الدنيا وجب أن تحشر به في الآخرة لأسباب ثلاثة:

السبب الأول: للاتحاد الوجودي بينهما وحاجة الروح إليه، وحيث إنّ الروح باقية ومحشورة فكذلك المتحد بها. مثلهما مثل الحديدة المحماة فإنّ الحماوة لا تكون وحدها إلّا في الحديدة، وهما متداخلتان متحدتان.

السبب الثاني: لأنّه شاركها في الفعل في الدنيا فإن كل ما فعله الناس في عالم الدنيا كان بأرواحهم وأجسادهم، فلابد وأن تحشر الأجساد مع الأرواح، وعدم حشرها معه ممتنع على الحكيم؛ لأنّه خلاف الحكمة والعدل، فإنّ لسائل أن يسأل لماذا لا يحشر الجسم مع الروح؟

والجواب: لا يخلو من احتمالات:

أحدها: أن يقال لعجز الخالق عن إعادته وهو باطل.

ثانيها: أن يقال باستغناء الروح عن الجسد وهو ممتنع.

وثالثها: أن يقال لأنه سبحانه لا يريد ذلك، وحينئذٍ يعود السؤال لماذا لا يريد؟ ولا يخلو من الاحتمالات الثلاثة وهو دور، وحيث إنّ الكل ممتنع يتعين أن يكون الحشر بالبدن.

السبب الثالث: لاقتضاء العدل الإلهي ذلك، فإنه لو حُشِرت الروح بغير الجسد الدنيوي وجبَ أن تحشر بغيره لامتناع حشرها بلا بدن، وذلك يستلزم تنعيم غير المطيع وحرمان المطيع ومعاقبة غير العاصي وهو خلاف العدل، بل منافٍ للحكمة؛ لاستلزامه تكذيب القرآن والسُنَّة الناصين على أنّ الحشر يكون بالجسد نفسه.

فيتحصَّل: أنّ العقل يقضي بوجوب أن يكون الحشر في الآخرة بالأرواح والأجساد الدنيوية.

الدليل الثاني: نقلي، فقد تضافرت الآيات وتواترت الروايات على أنّ الحشر يكون للأجساد الدنيوية بأرواحها. أشرنا إلى بعض الروايات فيما تقدَّم، وأكتفي هنا بالإشارة إلى بعض الآيات منها: قوله تعالى: ﴿**أَيَحْسَبُ الإنسان أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ۞ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ۞ بَلْ يُرِيدُ الإنسان لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۞ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ**﴾[1].

جَمعت الآية بين أكبر شيء في أعضاء الإنسان وأصغره وهما العظام والبَنان، ولا خِلاف في أنّ البَنان يزول بانحلال الجسد، وتنعدم صورته،

---

(١) سورة القيامة: الآيات ٣-٦.

والعظام ربما تُرمّ وتُبلى ولكن تبقى مدة أطول، وهي قوام البدن، ولولاها لكان البدن كتلة لحم، والآية تنص على أنّ العظام مهما تناثرت وتفرقت وانحلَّ تركيبها يمكن أن يجمعها مرة، فيعيد المنخور إلى عظميته، والمتفرِّق إلى تركيبه؛ لذا قال: ﴿أَلَن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ أمّا البَنان فلأنّه ينعدم قال نسوّيه، والتسوية إعادته إلى هيئته الأولى مأخوذ من الاستقامة والاعتدال[1]، وكل ذلك الذي يراه العقل البسيط ممتنع، إذا لوحظت فيه قدرة الخالق يصبح ميسوراً هيّناً.

وفي الآية إشارات تهم المبحث:

الأولى: أنّ البَنان رؤوس الأصابع، وهي مكوّنة من اللحم والبشرة المرسوم عليها الخطوط الناعمة الدقيقة، وهي من أسرار الله في خلقه؛ إذ تُعَدّ من مميزات وعلائم الشخص، فلا يشترك اثنان في خطوط واحدة، وقد ذكروا أنّ من عجائب صنع الله سبحانه في البشر أنهم يختلفون في أربعة أشياء هي: الأصوات والوجوه وخطوط البنان وشكل الكتابة، فلا يشترك اثنان من الناس فيها.

وتعدّ هذه من أهم علائم التمييز في الأشخاص[2]، ولذا صارت في هذا الزمان من الدلائل الكاشفة في الأجهزة الأمنية، وإذا كانت هذه هي العلائم في الدنيا كانت هي العلائم في الآخرة أيضاً؛ لأنّ ما به يتمّيز

---

(١) معجم مقاييس اللغة: ج٣، ص١١٢، (سوي)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٤٦٦، (سوي).

(٢) انظر تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٥، ص٥٦١.

الشخص لابدّ أن يكون من خواصه، ومن هنا يسوّي الباري عزّ وجلّ بَنانَه ويعيده كما كان.

الثانية: أنّ الآية المباركة كشفت عن أمرين بهما يميز المنكرين للمعاد ويكشف بواطنهم:

الأول: أنّ إنكارهم للمعاد مبني على الظنون والاستبعاد، أي أنهم يظنون عدم القدرة على جمع رُفات القبور وإحيائها، فقال سبحانه: ﴿**أَيَحْسَبُ الإنسان أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ**﴾(١) والظن لا يغني من الحق شيئاً، وليس له اعتبار عقلي ولا شرعي لاسيّما في الغيبيات.

الثاني: أنّ قصور نظرهم ناشئ من ملاحظة عجز المقدور؛ لذا قال سبحانه: ﴿**بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ**﴾(٢) فلو لاحظ الإنسان قوة القادر وسِعة قدرته لم يستبعد ذلك؛ لأنه بدأ الخلق كذلك، و كذلك يُعيدُه؛ لذا قال سبحانه: ﴿**كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ**﴾(٣) وهذه الآية صريحة وقاطعة في المعاد الجسماني، وإنَّ الإرجاع يكون كالإبداع، وهذا وعد إلهي مؤكَّد لا يتخلَّف.

الثالثة: أنّ داعي إنكار المعاد لا يقوم على نهج علمي، وليس الداعي فقدان الدليل عليه كما يزعمون وجاريناهم فيما يقولون، وإنما الشهوة، والغاية منه التحرر من القيود والالتزامات. قال سبحانه: ﴿**بَلْ يُرِيدُ**

---

(١) سورة القيامة: الآية ٣.

(٢) سورة القيامة: الآية ٤.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ١٠٤.

الإنسان **لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾**[١] فداعي الإنكار هو تحصيل حرية التصرف والتحرر من الانضباط والمسؤولية لكي يعمل ما يُريد، ويبني حياته ومستقبله على شهوته لا عقله وأخلاقه، وهو معنى الفجور لغةً وعرفاً، ففي المفردات: الفجور شق ستر الديانة[٢].

والنتيجة: هي أنّ الباري أخبر عن قدرته على جمع العظام وتسوية البنان وإحيائها من جديد وإن بليت أو صارت تراباً، وإنّه يعيدها نفسها، فيجب تصديقه والإيمان بقوله، فدعوى الامتناع فيها محذوران: محذور التكذيب ومحذور تقديم الوهم العقلي والجهل على العلم.

ومنها: قوله تعالى: **﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾**[٣].

وهي دليل عملي وجداني يثبت أنّ البعث يكون للأرواح والأجساد معاً، وفي عين الحال يتضمن الإجابة عن استفهامات عديدة تدور حول الرجعة والمعاد والبرزخ، وأبحاث الآية كثيرة، ولكن نقتصر على ما يهم

---

(١) سورة القيامة: الآية ٥.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٢٦، (فجر).

(٣) سورة البقرة :الآية ٢٥٩.

البحث منها بعد شرح بعض المفردات، وهي: ﴿**خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا**﴾ و﴿**أَنَّى**﴾ و﴿**بَعَثَ**﴾ و ﴿**يَتَسَنَّهْ**﴾ و﴿**نُنشِزُهَا**﴾.

فنقول: العروش: جمع عرْش وهو ارتفاع في شيء مبني، ويُطلق على السقف بهذا الاعتبار، وكل بناء يُستظلّ به عرش وعريش، وقد قيل للنبي ﷺ يوم بدر (ألا نبني لك عريشاً)[(١)].

وخاوية: من الخواء وهو الخلا، ومنه قولهم للجائع خاوي البطن، وخَوَت الدار اذا خَلَتْ من ساكنيها[(٢)]، وقد ذهب جماعة من المفسرين وأهل اللغة إلى أنّ معنى خاوية على عروشها أي ساقطة؛ بأن سقطت سقوفها على الأرض، ثم سقطت حيطانها عليها[(٣)].

إلّا أنّ هذا لا يستقيم مع منطوق الآية؛ لأنّها ظاهرة في خِواء القرية على عروشها وليس عروشها خاوية عليها، وهذا يفيد خلوّ القرية وبيوتها من ساكنيها؛ لذا قال تعالى: ﴿**أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا**﴾[(٤)] أي يعيد الحياة إليها، والمقصود إرجاع الحياة لأهلها بعد موتهم، أو أنّ خواءها ناشئ من

---

(١) مجمع البحرين: ج١، ص١٣٢، (خوي)؛ معجم مقاييس اللغة: ج٤، ص٢٦٤، (عرش) ؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٥٨، (عرش)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٥٩٣، (عرش)؛ البحار: ج١٩، ص٣٢٤، الهامش؛ تفسير ابن كثير: ج٢، ص٣٢٧.

(٢) معجم مقاييس اللغة: ص٣١٥، (خويَ) ؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٣٠٥، (خوي).

(٣) انظر مجمع البحرين: ج١، ص١٣٢، (خوي).

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٥٩.

انقلاب عاليها على سافلها في عذاب نقمة، وعلى المعنى الأول فإن إحياء القرية يكون بإعادة حيطانها وسقوفها، وهذا أمر لا يخدم غرض الآية إلّا بالملازمة، بأن يقال إنّ إحياء الأبنية يتم بإحياء أهلها، وكيف كان فإن الآية المباركة دالّة على أن القرية كانت خالية من الحياة؛ لأنّ أهلها موتى.

و (أنّى) استفهامية يسأل بها عن الحال والمكان[(١)]، ومنه قوله تعالى: ﴿أَنَّى لَكِ هَذَا﴾[(٢)] أي من أين وكيف؟ وقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾[(٣)] أي كيف شئتم، وإطلاقها يشمل الزمان والمكان والكيف.

والسؤال في الآية عن كيفية الإحياء وليس عن إمكانه، وهو شاهد على أنّ السائل من المؤمنين، وقد تضافرت الأخبار في أنه نبيّ، والمشهور أنه عُزير، وهو المروي عن الصادق عليه السلام[(٤)].

و(بعث) هو إثارة الشيء وتوجيهه[(٥)]، وأطلق على إحياء الأموات وحشرهم للقيامة؛ لأنه يتمّ عن إثارة للأجساد وتوجيهها بإعادة الأرواح إليها.

و(يتسنَّه) أي يتغير ويفسد[(٦)]، و (نشوز العظام) أي ارتفاعها وإعادة تركيبها وإحياؤها[(٧)].

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٩٥، (أنّى).

(٢) سورة آل عمران: الآية ٣٧.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٢٣.

(٤) انظر مجمع البيان: ج١، ص٣٧٠.

(٥) مفردات ألفاظ القرآن الكريم : ص١٣٢، (بعث).

(٦) مفردات ألفاظ القرآن الكريم : ص ٤٢٩، (سنه).

(٧) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٠٦، (نشز).

وفي الآية وقع ذلك لعُزير بعد أن أماته الله سبحانه ثم أحياه، فقال: (بعثه).

وخلاصة معنى الآية أنَّ عُزيراً لمّا رأى القرية خالية من أهلها ووجدهم أمواتاً تساءل عن كيفية إحيائهم وبعثهم من جديد، فأماته الله سبحانه مائة عام ثم بعثه، فسأله كم لبثتَ؟ قال: لبثت يوماً أو بعض يوم إلى آخر المحاورة، ثم ألفته إلى طعامه الذي كان معه، وأبان أنّه بقي كما هو لم يتغيّر، والى حماره أراه أنه رميم ثم أحياه أمامه، ثم أحيا له البشر من أهل القرية، وبذلك دلَّ على حقائق:

الأولى: أنّ الموت أفنى جسد الحمار وأجساد أهل القرية، والقاعدة تقتضي أن يفنى جسد عُزير أيضاً لكنَّه لم يذكره تكريماً له، ولأنّ أجساد الأنبياء والصالحين لا تأكلها الأرض، ولمّا أحياهم أرجعهم بأنفسهم بأبدانهم وأرواحهم، وهو دليل وقوعي للمعاد الجسماني به تبطل دعوى الحكماء، والإرجاع أهون من الإبداع؛ لأن الإبداع إيجاد للمعدوم، وأمّا الإرجاع فهو إعادة للموجود، ولذا وصفه الباري بأنّه أهون عليه فقال سبحانه: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ**﴾[١].

الثانية: أنّ الأجساد تبقى حيّة في قبورها ولو بالحياة البسيطة، ثم تبعث من جديد، فالموت ليس عدميّاً ولا إعداماً للجسد بالمرة، بل إفناء لزوائده، وأما تكوينه الأصلي باقٍ، ومنه يحصل التمدد والنمو من جديد، وحيث إنّ هذا الأصل يحمل كل خصائص الإنسان يعاد بنفسه وخصائصه، وهذا ما يؤكده الواقع بشاهدين:

---

(١) سورة الروم: الآية ٢٧.

الأول: ما ثبت بالعلم والوجدان أنّ أصل الإنسان خلية مجهرية واحدة هي النطفة، وهي تحمل جميع خصائصه وخصوصياته، فتنمو وتتمدد حتى تكتمل وتصبح إنساناً كاملاً، وإذا كان هذا مبدأ وجوده فإنه يمكن أن تتمّ إعادته بخلية واحدة حاملة لخصائصه، ولا شك في أنّ الموت حتى على تقدير أنه فناء للجسد فإنّه ليس فناء لجميع خلاياه.

الثاني: ما أثبته العلم من أنّ جسم الإنسان مكوَّن من مليارات الخلايا، وكل خلية فيه تحمل جميع خصائصه، وعلى هذه الرؤية يقوم الاستنساخ، ولو أمكننا استنساخ إنسان كامل من خلية واحدة من خلايا جسد الإنسان -ونحن البشر القاصرون- فإنّ إحياء الإنسان وإعادة تكوين بدنه أهون على الله سبحانه القادر على كل شيء.

نعم ما يمكن تنميته من الإنسان هو جسده، و أمّا روحه فتعود إليه سبحانه بالنفخ؛ لذا قلنا سلفاً إنّ الاستنساخ يمكن أن يتحقَّق في الأجساد أمّا الأرواح فلا.

فيتحصل: أنّ وجود خلية واحدة حيّة من جسد الإنسان كافية لتنميته وبعثه من قبره بخصائصه وخصوصياته دون تبدّل أو تغيّر، وأنّ ما يزول هو الزوائد منه.

تعليق الحياة في القبور

الثالثة: أنّ الفترة التي يقضيها الناس في البرزخ بحسابهم قليلة جداً، ولكن بحساب أهل الدنيا كثيرة، بل الآية صريحة الدلالة على أنّ عُزيراً بالرغم من جلالة قدره و علوّ مقامه تصوَّر أنّه لبثَ في موته يوماً أو بعضَ يوم، لكنه بحساب الدنيا مات مائة عام، وهذا المضمون وردَ في آيات أخرى مثل تصوّر أهل الآخرة لمّا يسألوا عن حياتهم في الأرض. ﴿**قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۞ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ**﴾[١] وبناءً على أنّ البرزخ يكون في الأرض فإن السؤال يشمله، والملفت أنّ السؤال عن عدد السنين لكنهم أجابوا بيوم أو بعض يوم.

وذات القضية وردت في أهل الكهف فإنّهم لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وتسعاً، ولكن لمّا سئلوا كم لبثتم قالوا: ﴿**لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ**﴾[٢] ونلاحظ أنّ جواب عُزير وأهل المحشر وأهل الكهف واحد في لفظه ومدّته، والكل يقول يوماً أو بعض يوم، وفي ذلك دلالة على أنّ الزمان في عالَم البرزخ والآخرة منبسط، ومقبوض في عالم الدنيا، ولذا يعد اليوم الإلهي الواحد كـألف سنة مما تعدون، والنكتة اللطيفة أنّ الآية قالت: ﴿**وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ**﴾[٣] أي العدّ عند الله سبحانه غيره عند العادّين من البشر، وهذا هو الفارق بين عالم الملك وعالم الملكوت والبرزخ والدنيا.

---

(١) سورة المؤمنون: الآيتان ١١٢-١١٣.
(٢) انظر تفسير الأمثل: ج٢، ص١٩٠؛ تفسير الشعراوي: ج٢، ص٤٠٦.
(٣) سورة الحج: الآية ٤٧.

وعن الصادقعليه السلام قال: «إنّ الرجل في الجنة يبقى على مائدته أيام الدنيا، ويأكل في أكلة واحدة بمقدار أكلهِ في الدنيا»[1].

ويقرَّب هذا المعنى العميق بشاهدين حسيين:

الأول: ما يقوله العلم في أنّ بعض الحيوانات لها قدرة على تعليق حياتها، فينطوي عندها الزمن وينبسط، فقد ذكروا أنّ بعض الثعابين تقوم بالسُبات الشتوي أي تنكمش في ذاتها ولا تبدي حِراكاً ولا تزاول حياتها وتظل هكذا حتى يذهب الشتاء، وذكروا أنّ مدة السُبات هذه لا تحتسب من أعمارها، ولذا أسموها بعملية تعليق الحياة[2].

---

(١) تفسير القمي: ج٢، ص٢٨٨.

(٢) انظر تفسير الأمثل: ج٢، ص١٩٠؛ تفسير الشعراوي: ج٢، ص٤٠٦؛ ويبدو من فرض الصوم على البشر أنه عام على كل الأحياء التي على سطح الأرض، فبعض الكائنات الحيَّة تنقطع أشهراً في سُباتها، فالنبات يسبت في مواسم حسب طبيعة إنباته شتاءً أو صيفاً، فيتوقّف عن امتصاص الماء والغذاء إلى أن يحين بِدء النمو تتحفز جذوره لامتصاص الماء من التربة، ويتّجه إلى الأعلى، وتتحركُ العصارة النباتية إلى الدواير والبراعم فتتحرر إما إزهاراً أو إخضاراً.

أما باقي الحيوانات فإن معظمها تقضي فترة من عمرها خلال السنة في سُبات إما شتاءً أو صيفاً، أو ليلاً او نهاراً بلا طعام وشراب عدا التنفس، وهناك نوع من الضفادع تسبت في الثلوج فتتوقف عن الحركة أيضاً، وتضمحل حتى يتوقف قلبها نهائياً عن النبض، وبعد مجيء الربيع تتحرك بعض البكتيريا الموجودة في الدم في الشريان فتُحفِّز القلب، ثم يبدأ بالحركة، ويُعيد نشاطه ثانيةً، ويخرج الضفدع من الثلج من سُباته.

وهناك كثير من الأسماك تقوم بهذه الحالة في بعض أشهر السنة، فتمتنع عن الطعام والحركة أيضاً.

وهذه العملية تقرِّب إلى الذهن انطواء الزمن في البرزخ، وأنّ المدة الزمنية التي تمرّ في الدنيا لا تحتسب من أعمار أهل البرزخ؛ لذا قد يكون الشخص المتوفى قبل ألف عام في عالم البرزخ وكأنه هذه اللحظة منتقل إليه، وهذا يستفاد من جواب الثلاثة المذكورين.

وهناك بعض الإخبارات من قبل أهل البرزخ عن حالهم و أوقاتهم تؤيد هذا المعنى، ولعلَّ هذا أحد معاني الروايات الواردة بشأن زيارة الحسين عليه السلام، وتنصّ على أنّ أوقات الزيارة لا تحتسب من أعمار زائريه[1]؛ لأن الزمان بهم يتعلَّق، وهناك معنى آخر هو التعويض نوكله لمحلِّه.

الثاني: ما يقوله علماء الأحياء من إمكانية تجميد الحيوانات مدة زمنية ثم إعادة نشاطها، وأن فترة الانجماد لا تحتسب من أعمارها، وهي في هذه الفترة لا تموت، بل تبقى مجمّدة، وتتحدَّث بعض الأبحاث أن نطفة الإنسان يمكن ان تجمَّد وتدَّخر إلى الوقت الذي يراد إعادة تفعيلها وتنشيطها وتكوينها بشراً، وهناك كلام في تجميد الإنسان نفسه ولم يمت، وهذا يدل على:

١-أن الزمان يحتسب بالحركة والنشاط ولا يحتسب بالجمود، ويعزِّز القول بأنه أمر اعتباري وليس بحقيقي.

٢-أن البرزخ ليس فناء للأجساد بل تعليقاً للحياة، وما يفنى هو صورة الجسد، ومتى شاء الله أعادها للجسد، وبعث فيه الحياة.

---

(١) الأمالي (للطوسي): ص٣١٧، ح٦٤٤؛ البحار: ج٤٤، ص٢٢١.

ولذا قال سبحانه: ﴿فَأَمَاتَهُ اللّه مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾[1] فإنّ البعث يدلّ على إثارة الموجود لا إيجاد المعدوم، وتعزِّزه الروايات الكثيرة التي نصَّت على انكم خُلِقتُم للأبد وللبقاء، وأن الموت والنوم سواء[2].

الرابعة: أنّ الإحياء والإماتة لا يلحظ فيهما المقدور بل قدرة القادر، ولذا ضرب الباري عزّ وجلّ لعُزير مثالين متقابلين: مثال الطعام والشراب ومثال الحمار، وقد ذكروا أنّ شرابه كان العصير، وطعامه التين، وكلاهما مما يفسد سريعاً ولا يطول بقاؤه، بينما الحمار حيوان قوي ويطول عمره أمداً بعيداً، وفي ذلك غاية اللطف والبراعة والحكمة من جهتين:

الأولى: أنّ الحوار بين عُزير والباري عزّ وجلّ يدور عن إثبات كيفية إحياء الميت وبعثه، ولا يمكن أن يتخذ عدم تغيُّر الطعام وحده دليلاً على ذلك، لانَّ عُزيراً تصوَّر أن بقاءه يوماً أو بعض يوم، وهي مدة قصيرة لا يفسد فيها الطعام والشراب – عادة –، فلابد من إثبات ذلك بموت الحمار واستمراره مائة عام حتى يكون عدم تلف الطعام والشراب آية؛ لأن عدم تلف ما يفسد بيوم أو يومين في مدة مائة عام قضية إعجازية.

لذا لابدّ من اقتران عدم تغيّر الطعام والشراب مع إحياء الحمار ليكون المجموع دليلاً تامّاً على الحقيقة.

والثانية: أنّ عُزيراً نبيّ، وقد أخبر أنه لبث يوماً أو بعض يوم، وهو صادق في قوله؛ لأنه رأى طعامه وشرابه لم يتسنَّه ومثله يتسنّه لو بقي مدة أطول.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٩.

(٢) انظر الاعتقادات في دين الإمامية: ص٤٧؛ شرح أصول الكافي: ج٦، ص٧٠.

والباري عزّ وجلّ أخبره أنّه لبث في الموت مائة عام، وهي مدة تستدعي تسنّه الطعام والشراب فهنا تتكون دعويان كلتاهما صادقة تحتاجان إلى إثبات، وطريق الإثبات هو جمع أمرين أحدهما سريع التلف والآخر بطيء ليكون كل منهما شاهداً على صدق الدعوى.

لذا أرى الباري عزّ وجلّ الحمار وقد مات وتحلل بدنه وصارت عظامه رميماً مُبعثراً، وهذا دليل له على أن مُدة لبثه في الموت طويلة.

وفي عين الحال يصدّق دعوى عُزير في أنّ مدة بقائه يوماً أو بعض يوم؛ لأن طعامه لم يتسنّه، فموت الحمار صار شاهداً على طول مدة الموت، وعدم تسنّه الطعام صار شاهداً على قصرها، وهنا هو الأمر العجيب المذهل، وهو أنّ الزمان يمرّ على شيئين متعاصرين ولكنَّه يطول في أحدهما و يقصر في الثاني.

وهذه قضية تَجْمَع المتضادات ومخالفة للقواعد والقوانين لا يقدر عليها إلّا من سنَّ القوانين و وضعها و ملك زمامها بيده، فيبسطها ويقبضها كيف يشاء؛ لذلك قال: ﴿**وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً**﴾[1] وقال: ﴿**وَانظُرْ إِلى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا**﴾ سواء كانت عظام الحمار أو عظام أهل القرية، فإنّ هذا شاهد حِسّي لكيفية بعث الحياة في الأموات وحشرِهم بأجسادهم و أرواحهم، فلا استحالة في ذلك كما يقول الحكماء.

الخامسة: أن هذه الآية الحسيّة جعلت عُزيراً يرتقي من العلم إلى اليقين، ومن مرتبة التعقل إلى مرتبة المشاهدة والمعاينة، وهذه مسألة هامة

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٩.

يتفانى لأجل تحصيلها أهل المعرفة؛ لذا قال عُزير بعد أن رأى الآية الحسيّة وكيف أحياه الله وأحيا الحمار وبقيَ الطعام دون أن يفسد: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(١) وهذا ما يجب أن ينظر إليه الحكماء والمتكلمون. وكل طالبي المعرفة، ولا ينظروا إلى قصور المقدور، أو يستندوا إلى قصور عقولهم في فهم قضية المعاد.

والفرق بين العلم واليقين أنّ العلم يقنع العقل بالاستدلال ولكن لا يمنع من احتمال الخلل والخطأ والجهل المركب، بخلاف الشاهد الحسّي فإنه يبدِّل الاستدلال إلى معاينة فيقتنع بها القلب والفؤاد فيستقر فيهما، ولا تحتمل الخطأ والجهل.

وبهذا يتّضح لماذا إبراهيم عليه السلام طلب اطمئنان القلب وغيره من المؤمنين الصالحين يبحثون عن المشاهدات والمعاينات وإن كانوا يعلمون بالحقيقة، لأنّ العلم بواسطة الاستدلال العقلي لا يوجب استقرار القلب، ومثله يكون متقلِّباً يمكن أن يضعف أو يتبدّل، ولكن إذا تعزَّز بالمشاهدة الحسّية صار يقيناً لا شك فيه، ولذا قسّموا مراتب اليقين إلى أربعة: علم ويقين وحق اليقين وعين اليقين، وكلما ازدادت المشاهدة ارتفع اليقين.

ولو التفتوا إلى ما يحصل في الوجود من دلائل لانتقلوا هم أيضاً من العِلم إلى اليقين، فإن الخلق كان ولازال ولم يتوقف وفي كل آن ولحظة يخلق الباري الأشياء ويجعل المعدومات موجودات.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٩.

وفي فضلات الدواب والحيوانات يخلق الديدان والحشرات، ومن الأرض الميتة يخلق النبات والحيوان، ومن النطف البسيطة يجعل بشراً كاملاً، وفي بدن الإنسان دائماً حياة وموت مستمران، ويظهر ذلك في طول القامة وعرضها وطول الشعر والأظافر. هذه كلها تحيا وتنمو وتقصّ ثم تنمو من جديد. هذا خلق وإيجاد لها، وكذلك أبدان الأطفال تنمو وتكبر، ومع كل ذلك يقول: ﴿**وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾(١) وهذه القدرة المطلقة على الأشياء قادرة على إحياء الأجساد في أجداثها وإعادة الأرواح إليها وحشرها إليه في القيامة بالصيحة، وهو ما قاله سبحانه في الآية مورد البحث: ﴿**إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ**﴾(٢) أي هم بأنفسهم بأجسادهم وأرواحهم يحضرون للحساب.

السادسة: أنّ الآية المباركة تثبت واقعية الرجعة في الدنيا؛ لأنّ إحياء عُزير من مصاديق الرجوع، فيكون كذلك لغيره؛ لأنّ حُكم الأمثال واحد، ونجيب عن شبهة الآكل والمأكول التي يثيرها بعض الحكماء وغيرهم في كيفية جمع البدن ثانيةً لو كانت أجزاؤه انتقلت إلى أبدان حيوانات ونباتات أخرى، والجواب من وجهين:

الأول: أنّ الشبهة مبنيّة على أنّ كل البدن بأجزائه الأصلية والفرعية يعود مع أنه ليس كذلك، فإن الذي يعود هو الأجزاء الأصلية، وأما

---

(١) سورة النحل: الآية ٨.

(٢) سورة يس: الآية ٥٣.

الفرعية كالزوائد فليس بالضرورة تعود، وقد عرفت أنّ الجزء الأصلي يمكن أن يكون بخلية واحدة بسيطة، وهذه الخلية يمكن أن لا تنتقل إلى جسم آخر ولا تكون منه، وهذا ما ورد عن الصادقعليه السلام في الكافي والفقيه عن عمار: قال: سئل عن الميت يبلى جسده؟ فقال: ﴿نعم حتى لا يبقى لحم ولا عظم إلّا طينته التي خُلِقَ منها فإنها لا تبلى. تبقى في القبر مستديرة حتى يُخلَق منها كما خُلِق أول مرة﴾[١] والطينة التي خُلِق منها هي كنطفته الأولى، وكونها مستديرة إمّا لأنها شكل الخلية كما يقولون، أو مستديرة من الدوران، أي أنها تدور في قبرها حتى يحين موعد النفخ، وعلى التقديرين فإنّ خلقه الثاني كخلقه الأول من جزئه الأصلي، وهو لا يفنى ولا ينتقل إلى جسد آخر.

الثاني: على فرض التسليم فإنّ الباري عزّ وجلّ بقدرته اللّامتناهية على الأشياء يقول لكل شيء كن فيكون، فكما أنّه أبدع الإنسان و أوجده من العدم بلا وجود سابق له فإنه يمكن أن يعيده من جديد، ولعلَّ ما ثبت في العلم الحديث من إمكانية تحرير المادة إلى طاقة، ثم جمع الطاقة لتصير مادة يقرِّب هذا المعنى[٢]، بأن يحرِّر الباري الأجزاء الأصلية أينما تكون ثم يجمعها من جديد لتكوين البدن، وحينئذٍ يكون الشخص الجديد كالأول في جميع الخصوصيات والصفات، بحيث لو رأيته لقلت إنّه فلان، كما هو

---

(١) الفقيه: ج١، ص١٩١، ح٥٨٠؛ الكافي: ج٣، ص٢٥١، ح٧؛ حق اليقين: ص٣٥١.
(٢) انظر تفسير الأمثل: ج٢، ص٣١٧.

الحال في تبدُّل صور الإنسان من الصِبا إلى الشيخوخة مع أنّها متبدِّلة لكنها عينه، وهذا ما يعززه قول الصادقعليه السلام حينما سأله ابن أبي العوجاء عن قوله تعالى: ﴿**كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا**﴾[(١)].

ما ذنب الغير؟ قال: «ويحك هي هي وهي غيرها» قال: فمثِّل لي ذلك بشيء من أمر الدنيا؟ قال: «نعم أرأيت لو أن رجلاً أخذ لبنة فكسرها ثم ردها في ملبنها فهي هي وهي غيرها»[(٢)].

وواضح أنّها هي هي من حيث مادتها الأصلية، وهي غيرها من حيث شكلها وهيئتها الظاهرية، فإنّ الهيئة بعد الكسر غيرها قبله وإن كانت اللبنة من حيث مادتها هي هي، وكذلك الإنسان هو نفسه بمادته الأصليّة وغيره في صورته المعادة، ولا يلزم منه مخالفة العدل في الثواب والعقاب، لأنّ المتبدل - أي الشكل الخارجي - لا يتعذَّب ولا يتنعّم، وأما العذاب والنعيم للبدن الأصلي، وقوله تعالى: ﴿**بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا**﴾[(٣)] من أصل البدن، فإنّ الجلد امتداد للبدن وليس بأمر عارض عليه من خارجه، فعذابه عذاب البدن نفسه.

وأختم البحث برواية رواها الطبرسي في الاحتجاج عن هشام بن الحكم عن الصادقعليه السلام تكشف كيفية جمع الأجساد المتفرقة والتحاق

---

(١) سورة النساء: الآية ٥٦.

(٢) الاحتجاج: ص١٠٤؛ الفصول المهمة: ج١، ص٣٤٣، ح٤٢٨؛ البحار: ج٧، ص٣٨، ح٦، في المصادر: ((شيئاً بدل بشيء)).

(٣) سورة النساء: الآية ٥٦.

الأرواح بها؛ إذ قال الزنديق للصادق عليه السلام: أنّى للروح بالبعث والبدن قد بليَ والأعضاء قد تفرَّقت، فعضو في بلدة تأكله سباعها، وعضو بأخرى تمزّقه هوامها، وعضو قد صار تراباً بُنيَ به مع الطين حائط؟

قال عليه السلام: ﴿الذي أنشأه من غير شيء و صوَّره على غير مثال كان سبق إليه قادر أن يعيده كما بدأه﴾ قال أوضح لي: - ونلاحظ أن جواب الإمام اقتصر على قدرة القادر لا قصور المقدور- قال: ﴿إن الروح مُقيمة في مكانها، روح المحسن في ضياء و فسحة، و روح المسيء في ضيق وظلمة، والبدن يصير تراباً كما منه خُلِق، وما تقذف به السباع والهوام من أجوافها مما أكلته ومزقته. كل ذلك في التراب محفوظ عند من لا يعزب عنه مثقال ذرة في ظلمات الأرض، ويعلم عدد الأشياء ووزنها، وأنّ تراب الروحانيين بمنزلة الذهب في التراب، فإذا كان حين البعث مطرت الأرض مطر النشور، فتربو - أي تنمو - الأرض ثم تمخض مَخض السقاء - أي التحريك الشديد لانتزاع الزبد من اللبن، والسقاء وعاء من جلد يوضع فيه اللبن والماء لذلك-[1] فيصير تراب البشر كمصير الذهب من التراب إذا غسل بالماء، والزبد من اللبن إذا مخض، فيجتمع تراب كل قالب إلى قالبه، فينتقل بإذن الله القادر إلى حيث الروح، فتعود الصُوَر بإذن المصوِّر كهيئتها، و تَلِج الروح فيها، فإذا قد استوى لا ينكر من نفسه شيئاً﴾[2].

---

(١) المعجم الوسيط: ج١، ص٤٣٧، (سقى)؛ المصدر نفسه: ج٢، ص٨٥٧، (مخض).
(٢) الاحتجاج: ح٢، ص٩٧-٩٨.

ويتحصَّل: أنّ العقل والنقل متفقان على أنّ المعاد يجب أن يكون جسمانياً و روحانياً، وكل ما يقال من استحالته مبني على توهمات عقلية ناظرة إلى قصور المقدور، وغافلة عن قدرة الخالق المصوِّر، ولازمه تكذيب القرآن والسُنّة الصريحين فيه، فلا مناص للمؤمن إلّا بالاعتقاد بالمعاد الجسماني والإذعان له، سواء من جهة الإدراك العقلي له أو من جهة التعبّد الشرعي.

التعليم الثاني: القرآن أوسع من العقل والعلم

تتضمَّن الآية المباركة إلفاتاً لكل الباحثين و طلّاب المعرفة الذين تهمهم الأبحاث العلمية والعَقديّة – لاسيّما في مسألة المعاد التي تتحدَّث عنها الآية المباركة – أن يَدَعوا للصِدق والتصديق مجالاً، فإذا أخبرهم القرآن أو السُنّة بشيء من الغيب فلا ينبغي أن يحكِّموا العقول عليهما؛ لأنهما أوسع من العقول وأعلم، وتوضيح ذلك أن الحقائق الغيبية يتعامل معها بطريقين:

الأول: الطريق العقلي، بأن نعرضها على التحليل العقلي لكي يستوعبها العقل، فإذا استوعبها اعتقد بها، وهذا الطريق لا يوصل إلى المطلوب إلّا بشرطين:

أحدهما: ان يقدر العقل على الإحاطة بالشيء و معرفته حتى يستوعبه؛ لأن العلم العقلي مبني على التصورات، وما لم يتصوَّره لا يصدِّقه ولا يعتقد به، و هذا يفترض أن يكون الموضوع الذي يريد العقل أن يتعقّله قابلاً للتعّقل بأن يكون محسوساً، أو له أشباه ونظائر يدركها العقل فتجري المقارنة بينها، ولذا يشبِّهون المعقولات بالمحسوسات لأجل دركِها، ولكن

الملحوظ أن العقل قاصر عن درك الحقائق الغيبية، بل قد يقصر عن درك الحقائق المحسوسة والتي في متناوله؛ لذا كثيراً ما يخطأ العقلاء في أفكارهم و مواقفهم فكيف بالأمور غير المحسوسة.

ثانيهما: أن يكون العقل محايداً في نظرته وليس مبنيّاً على خلفيات فكرية او اعتقادية مسبقة، وإلّا حُجِبَ العقل عن الرؤية الصحيحة ولم يتوصل إلى الحقيقة، وقد يجد ما هو صحيح خطأ، نظراً لمبتنياته المُسبقة، وهذا أحد أهم الأسباب التي جعلت للكفر أهلاً وللشرك جماعة، ولا تؤثِّر فيهم آيات الله سبحانه بالرغم من أنّها قوية و محكمة، وكل من نظر إليها نظرة محايدة خالية من الدواعي والأغراض وأحاط بأبعادها آمن، إلّا أنّ جماعة ظلوا على الكفر إمّا لأنهم أرادوا إدراك أمور غيبية أكبر من سعة العقل و حدوده، أو لأنهم نظروا إلى هذه الحقائق عن خلفية مُخالفة لا مُحايدة.

الثاني: الطريق القلبي، ويعتمد التصديق بالشيء والإذعان له عبر تصديق العالِم الصادق الذي يستحيل أن يكذب، أو يضلِّل أهله و أتباعه، وهو الذي يصطلح عليه علمياً بالطريق النقلي، وهذا هو الطريق الغالب أو الوحيد في إثبات الحقائق الغيبية؛ لقصور العقل عن دركها.

نعم يجب أن لا يحكم العقل بامتناع ما يخبر به النقل، ولو افترضنا أن إنساناً لم يؤمن بالقضايا الغيبية فأنكر المعاد مثلاً وسأل ﴿**مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾[1] كما سأل كفار مكة ومشركوها فإنّ العقل السليم يقضي

(١) سورة يس: الآية ٤٨.

بأن ذلك لا يعني الإنكار والجحود ما دامت القضية ليست من المحالات الذاتية كجمع النقيضين، فإن العقل يذرها في بقعة الإمكان، وإنّما تكون ممكنة الوقوع، و إثبات الوقوع بالفعل ليس من مهام العقل بل من مهام النقل؛ لأن العقل يتوقف عند حدّ إثبات عدم الامتناع الذاتي، ولكن الوقوع وعدمه من مهام النقل؛ لأنه يخبر عن الخالق المكوِّن الذي أوجدَ الوجود وسنَّ سننه وأنظمته، فإذا أخبر بوقوعه فإنّ العقل يلزم العقلاء بالتصديق والإذعان .

ولو لم يلتفت الإنسان إلى هذه القضية و كابر في الإيمان بالغيب بدعوى أنّه غير محسوس فلا يتعقلها العقل، أو استناداً إلى الخلفيات الفكرية فإنه يكون قد خالف المنهج العقلي والعلمي من جهة، وعرَّض نفسه للضرر الكبير؛ لأن ما لم يحكم بامتناعه العقل يحكم بإمكان وقوعه، وحينئذٍ تترتب عليه كل الآثار المترتبة على وقوعه مثل المعاد وعذاب القيامة وثوابها.

ومن هنا ندعو الملاحدة الذين نفوا علمهم بالمعاد والحكماء وغيرهم الذين نفوا المعاد الجسماني إلى أن يأخذوا بالميزان العلمي للاعتقاد، وأن يَدَعوا للصِدْق مجالاً لكي يتجنبوا التعسُّف العلمي ولا يَقَعُوا في لوازم الإنكار وآثاره مادام العالِم الصادق أخبرَ بالوجود.

هذا النهج المتوازن في النظر إلى الأمور وتقويمها علمياً ومنطقياً قرَّره الإمام الصادقعليه السلام في محاورته مع بعض كبار الملاحدة، فقد روى الكليني في الكافي أن بعض الملاحدة -منهم ابن أبي العوجاء- كانوا في الحرم المكي والناس يطوفون حول البيت، فاستهزأ بعض هؤلاء بالطائفين وكان الإمام

الصادقعليه السلام جالساً في الحرم، فجاءَ ابن أبي العوجاء لمحاورته - فلمّا جلس عنده بادره الإمامعليه السلام قال: ﴿إن يكن الأمر على ما يقول هؤلاء - وهو على ما يقولون - يعني أهل الطواف - فقد سَلِموا وعَطِبتُم، وإن يكن الأمر على ما تقولون - وليس كما تقولون - فقد استويتم وهم - وهنا أعلمه الإمام بطوايا نفسه وما تحدَّث به مع أصحابه - فقال له: يرحمك الله وأيّ شيء نقول؟ وأيّ شيء يقولون؟ ما قولي وقولهم إلّا واحداً. فقال: ﴿وكيف يكون قولك وقولهم واحداً؟ وهم يقولون: إنّ لهم معاداً وثواباً وعقاباً، ويدينون بأنّ في السماء إلهاً، وأنّها عُمران - أي عامرة بأهلها - وأنتم تزعمون أن السماء خراب ليس فيها أحد قال: فاغتنمتها منه فقلت له: ما مَنَعَهُ إن كان الأمر كما يقولون أن يَظهَرَ لِخلقِهِ ويدعوهم إلى عبادته حتى لا يختلِف منهم اثنان؟ ولِمَ احتجبَ عنهم وأرسلَ إليهم الرُسُل؟ ولو باشرهم بنفسه كان اقرب إلى الايمان به ؟ - ونلاحظ كيف يُحكِّم عقله القاصر في أمر مُمتنِع عقلاً، ويتصوَّر أنّ الخالق جسم ويظهر - فقال لي: ﴿ويلك وكيف احتجبَ عنك مَن أراك قُدرته في نفسك؟ نشوؤك ولم تكن، وكبرك بعد صغرِك، وقوَّتكَ بعد ضَعفِك، وضَعفك بعدَ قوتك...﴾ وما زال يُعدد عليَّ قدرته التي هي في نفسي التي لا أدفعها حتى ظننت أنه سيظهر فيما بيني وبينه.... ولّما لم يجد الإمام منه إلّا عِناداً ومُكابرة قال له في نهاية الحوار: ﴿إن يكن الأمر كما تقول وليس كما تقول نجونا ونجوتَ، وإن يكن الأمر كما نقول وهو كما نقول نجونا وهلكتَ﴾[١].

---

(١) الكافي: ج١، ص٧٥-٧٨، ح٢.

ومن الملفت أنّ ابن أبي العوجاء بعدها مات. وقريب من هذا النص قاله الرضا عليه السلام لأحد الملاحدة المعاندين[1].

ففي المسائل الاعتقادية التي لا يستطيع العقل أن يحيط بها يجب الإذعان لما يقوله الدين ويصدِّقه؛ لأنه عالم وصادق لا يضلِّل أهله ولا يخدعهم، ويريد أن ينفعهم ولا ينتفع بهم، فإذا اعتمد الملاحدة على عقولهم القاصرة والحكماء على مبانيهم وكذّبوا ما يقوله القرآن والسُنّة يكونون قد خالفوا موازين العلم والمنطق، وعرَّضوا أنفسهم للهلاك.

التعليم الثالث: كيف يحضر الناس عند ربهم؟

إنّ الآية نصَّت على أنّ الناس مُحضَرون عند ربهم، ولهذا الحضور ثلاثة مظاهر و أوقات:

الأول: الحضور الأخروي في المحشر. يحضرون عند ربهم بواسطة محمد وآل محمد عليهم السلام بما أنّهم خلفاء الله في عباده.

الثاني: الحضور في الرجعة، ويحضرون عندهم عليهم السلام، وكلاهما يحصلان بالنفخة والصيحة، ولكل منهما غاية وحكمة.

الثالث: الحضور عند الإمام عليه السلام في الدنيا، وهذا حضور دائم لا ينقطع، وليس له وقت خاص بل متواصل، وهو قسمان: حضور قهري وحضور اختياري، والأول راجع إلى نظام التكوين، فإن الإمام صلوات الله عليه هو خليفة الله في أرضه والحجَّة على عباده، وبأمره تدبير الأمور،

---

(١) الكافي: ج١، ص٧٨، ح٣.

فلا يغيب عن حضوره شيء حتى أعمال العباد فإنها تُعرَض عليه كل صباح[١]، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿**وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى الله عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ**﴾[٢] والمؤمنون هم الأئمةعليهم السلام كما يقضي به العقل والنقل في الأخبار المتضافرة[٣]؛ لأنهم أئمة المؤمنين وقادتهم، وتضافر أن في ليلة القدر يقدّر الباري عزّ و جلّ الآجال والأرزاق، وكل أمر يحدث من موت أو حياة أو خصب أو جدب أو خير أو شر، ثم تنزل الملائكة والروح به على إمام الزمانعليه السلام، ويدفعون إليه ما كتبوه من هذه الأمور[٤]، فيُمضي منها ما يشاء، ويُمحي ما يشاء.

فلابدّ أن يحرص المؤمن على أن ينال رضا الإمامعليه السلام، ويتقرَّب إليه لينال منه أفضل الدرجات وأحسن العطايا والمقدَّرات، وهذا هو الحضور الاختياري لأنه بيدك أنت.

ولو سأل سائل كيف ندرك هذه الحقيقة وننتفع بها وهو غائب عنّا؟ ورد الجواب عن هذا السؤال في زمان رسول اللهصلى الله عليه وآله لمّا أخبر عن وليّ

---

(١) الكافي: ج١، ص٢١٩، ح١. عن أبي عبد اللهعليه السلام قال: تعرض الأعمال على رسول اللهصلى الله عليه وآله أعمال العباد كل صباح أبرارها وفجّارها فاحذروها، وهو قول الله تعالى: ﴿**اعْمَلُواْ فَسَيَرَى الله عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ**﴾.

(٢) سورة التوبة: الآية ١٠٥.

(٣) انظر الوسائل: ج١٦، باب ١٠١ من أبواب جهاد النفس، ص١٠٩، ح٢١١٠٧، وفيه: عن أبي جعفرعليه السلام أنه ذكر هذه الآية: ﴿**فَسَيَرَى الله عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ**﴾ قال: هو والله علي بن أبي طالبعليه السلام.

(٤) تفسير القمي: ج٢، ص٤٣٢؛ البحار: ج٩٤، ص١٤، ح٢٣.

الزمان صلوات الله عليه ودعا الناس إلى الإيمان به، فسُئِل هل ينتفع الناس به صلوات الله عليه؟ فأجاب رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿إي والذي بعثني بالنبوة إنهم لينتفعون به، ويستضيئون بنور ولايته في غيبته كانتفاع الناس بالشمس وإن جلَّلها السحاب﴾(١) والقَسَم المُغلَّظ يشير إلى تأكد الوقوع وحتميّته، وقد ورد قريب منه عن الصادق عليه السلام(٢).

وفي الاحتجاج ورد عنه صلوات الله عليه وعجل فرجه في جواب رسالة إسحاق بن يعقوب الواردة عن يد محمد بن عثمان قال: ﴿وأمّا وجه الانتفاع بي في غيبتي فكالانتفاع بالشمس إذا غيَّبها عن الأبصار السحاب، وإنّي لأمان لأهل الأرض كما أن النجوم أمان لأهل السماء، فاغلقوا أبواب السؤال عمّا لا يَعْنيكُم، ولا تتكلّفوا على ما قد كُفيتُم، وأكثِروا الدعاء بتعجيل الفرج، فإن ذلك فَرَجَكُم﴾(٣).

ونلاحظ أن الإمام صلوات الله عليه جمعَ في رسالته الشريفة الحضورين معاً التكويني القهري والاختياري.

ووجه التشبيه بين الإمام والشمس هو بيان أنّ الشمس على قسمين:

الشمس المادية المحسوسة التي تطلع في السماء وهي من أسباب بقاء الحياة في ضوئها وحرارتها وإشعاعاتها، وهي من أهم مصادر الطاقة في

---

(١) البحار: ج٣٦، ص٢٥٠، ح٦٧؛ إكمال الدين: ص٢٥٣، ح٣.

(٢) الأمالي (للصدوق): ص٢٥٢؛ ح٢٧٧؛ كمال الدين: ص٢٠٧، ح٢٢.

(٣) الاحتجاج: ج٢، ص٢٨٤؛ الغيبة (للطوسي): ص٢٩٢، ح٢٤٧؛ البحار: ج٥٢، ص٩٢، ح ٧.

الوجود، ولولاها لمات كل شيء، وقد وصفنا مثلها سابقاً بالشمس المُلكية، والشمس المعنوية وهي مصدر الطاقة الروحية، وتطلع في عالم الملكوت، وتؤثِّر على الوجود بأجمعه وبها تقوم الحياة المعنوية، وهم النبي والأئمة عليهم السلام لاسيّما النبي و الولي الأعظم صلوات الله عليه. وقد تضافر هذا المعنى في الروايات[1]، والتوصيف حقيقي وليس مجازياً، أي أن الإمام عليه السلام في عالم المعنويات هو الشمس الحقيقية التي تمدّ العالم بالطاقة الروحية والمعرفية.

وعدم رؤية الناس له وعدم اتصالهم به لا يمنعهم من فيوضاته وعطاياه، كما أن استتار الشمس المادية بالسحاب لا يمنع من فوائدها، فما من رزق ولا علم ولا حياة ولا موت إلّا بحيطة عِلمه وبتدبير أمره؛ لأنّ الله سبحانه فوَّض إليه ذلك، وجعل عطاءه بيده ﴿**هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾[2].

وفي التشبيه بالاستتار بالسحاب إشارة لطيفة إلى أنّ عدم رؤية الإمام عليه السلام ناشئة من وجود المانع، فإذا زال المانع أمكن رؤيته و الاتصال بوجوده المبارك، وهذا المانع اختياري وليس قهرياً بإمكان المؤمن أن يزيله بعمله.

وفي قوله عليه السلام نهي وأمر في قضيتين هامتين جداً غفل عنهما البعض:

الأولى: النهي عن الوقوع في فضول السؤال والمعرفة التي لم نكلَّف بها. وهذا ما نجده كثيراً أن بعض المؤمنين يخوضون كثيراً في علائم الظهور وكيفيته ويسألون عن أشياء لا تفيدهم، وانشغالهم بهذا إما أن يصرفهم عن

---

(١) انظر تفسير الصافي: ج٣، ص٥٤٩؛ تفسير البرهان : ج٢، ص١٧٨، ح٢.

(٢) سورة ص: الآية ٣٩.

الانشغال بالأهم منه وهو وظيفتهم تجاه إمامهم، وماذا يجب أن يعملوا في خدمته صلوات الله عليه، أو يهملوا ذلك، ويبدو أن هذه القضية قديمة، وكان بعض الموالين قد وقع فيها منذ زمان الغيبة الصغرى فنهاهم الإمام عليه السلام عن ذلك وقال: ﴿فاغلقوا أبواب السؤال عما لا يعنيكم، ولا تتكلّفوا على ما قد كفيتم﴾[1].

آثار الدعاء بالفرج

الثانية: الأمر بالإكثار من الدعاء بالفرج وليس الدعاء وحده، بل الإكثار منه، فإن بالإكثار يحصل فرجكم، وفي ذلك إشارة لطيفة وهامّة إلى المجتمع المؤمن، وهو أنه مأمور بالإكثار من الدعاء، وهذا يعني أن تصير قضية الدعاء بالفرج المهمة الأولى والقضية الأصلية لجميع طبقات المؤمنين من العلماء والخطباء والأفاضل والوجهاء إلى عموم الناس الكبار والصغار، وأن يكون ذكر الامام عليه السلام والدعاء له والدعاء بالفرج أهم ما يهمّهم، ويشغلهم أكثر من اشتغالهم بمصالحهم وأدعيتهم لأنفسهم.

وواضح أن جزاء هذا الإكثار هو الفرج لنفس المؤمنين، وهذا وعد منه صلوات الله عليه، فلابد وأن يفي به، وبيده أمور تدبير الرعية، وقوله: ﴿فإنّ ذلك فرجكم﴾ يفيد حصول الفرج للأمة بحل المشاكل والأزمات

---

(١) الاحتجاج: ج٢، ص٢٨٤؛ الغيبة (للطوسي): ص٩٢، ح٢٤٧؛ البحار: ج٥٢، ص٩٢، ح٧.

حتى وإن لم يظهر الإمام، وحصول الرفاه والراحة لهم، ولو نلاحظ الأمة الإسلامية اليوم كم تعاني من أزمات ومشاكل من جوانب كثيرة، أو من كل الجوانب، ومهما عقدت المؤتمرات والقِمم وجهزّت الجيوش فإنها لا تستطيع أن تعالج أزماتها المستعصية لأسباب عديدة، وعمدة أسبابها هو انقطاعها عن الله سبحانه وقطع ارتباطها بإمام زمانها عجل الله تعالى فرجه الشريف الذي هو كالشمس لها، ولو صارت ظاهرة الدعاء والتقرُّب إليه والكون في خدمته قضية اجتماعية كبيرة ومسؤولية عامّة فإن ذلك سيحقق أمرين عظيمين:

الأول: أنه يُصلِح النفوس والعلاقات، ويجعل المجتمع آمناً مطمئناً صالحاً متطلِّعاً للمستقبل.

الثاني: حصول الفرج، ولو حصل كان عامّاً شاملاً، والدعاء هو أعظم سلاح و أقوى أسلوب يتّبعه المؤمن لتحقيق القضايا الهامة والكبيرة اذا أعيته السبل، وقصرت يده عن الحلول؛ لذا وصف في الأخبار بأنه سلاح الأنبياء[(١)] بل الباري عزّ وجلّ يقول: ﴿**قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ**﴾[(٢)] أي لا يبالي بكم اي شيء يصيبكم ويؤذيكم[(٣)]، ولولا الدعاء لكنتم من الهالكين.

---

(١) الدعوات: ص١٨؛ الكافي: ج٢، ص٤٦٨، ح٥؛ عوالي اللآلئ: ج٤، ص١٩، ح٥٢؛ البحار: ج٩٠، ص٢٩٥، ح٢٣.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٧٧.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٤٤، (عبأ) ؛ مجمع البحرين: ج١، ص٢٨١، (عبأ).

وفي آية اخرى قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[١] وهي متضمِّنة للوعد المؤكد بالإجابة للدعاء لأي عبد من عباد الله سبحانه، لكنه مشروط بشرطين:

الأول: أن يكون العبد داعياً بالمعنى الحقيقي وليس متحدِّثاً أو متكلِّماً بالدعاء فلا يتجاوز الدعاء لسانه، بل يكون من عمق قلبه ووجدانه، ولذا وصف الداعي بالعبد، ولا يكون العبد عبداً إلّا اذا استشعر العبودية في نفسه.

الثاني: أن يكون العبد مستجيباً إلى ربه ومؤمناً به، أي منقطعاً إليه، فلو دعاه وهو غير واثق من الإجابة أو معوِّل على الوسائل والأسباب الأخرى لا تحصل الإجابة، وهو ما ورد في الأخبار[٢].

وفي الحديث النبوي الشريف: ﴿ألا أدلّكم على سلاح يُنجيكم من أعدائكم و يَدرّ أرزاقكم؟﴾ قالوا: بلى. قال: ﴿تدعون ربكم بالليل والنهار، فإن سلاح المؤمن الدعاء﴾. وفي حديث آخر ﴿ادفعوا البلاء بالدعاء﴾[٣].

و النكتة اللطيفة أنّها أشارت إلى أنّ الدعاء والاستجابة طريق الرشاد، أي أفضل الأعمال وأفضل النتائج تحصل بالدعاء.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٨٦.

(٢) الكافي: ج٢، ص٤٦٨، ح٣؛ وانظر ثواب الأعمال: ص٢٦؛ مواهب الرحمن: ج٣، ص٦٥.

(٣) الفقيه: ج٤، ص٣٨١، ح٥٨٢٥؛ الوسائل: ج٩، الباب ٧ من أبواب الصدقة، ص٣٨٠، ح١٢٢٨٦؛ مواهب الرحمن: ج٣، ص٧٠.

العالم في محضر الإمام عليه السلام

ويتحصَّل: أن العالم أجمع في محضر الإمام صلوات الله عليه، وينتفعون بوجوده المبارك في أرزاقهم و آجالهم ومستقبل أيامهم، فهل الإمام عليه السلام حاضر عندهم في عقولهم وقلوبهم وأعمالهم وأدعيتهم؟ فلو وجدوه حاضراً لكان فيه فرجهم ونجاتهم من كل الأزمات والمشاكل.

ولو توجَّه الناس إلى الإكثار بالدعاء له وعقد المجالس والمحافل لذكره والدعاء بالفرج كان له الأثر البالغ في خلاصهم وسعادتهم.

وإذا قصّروا في هذا أصيبوا بالتيه والخذلان والشقاء، وهو ما أشار إليه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته في الكوفة حيث بيَّن سبب معاناة الناس، يقول عليه السلام: «هذا ولو لم تتواكلوا أمركم ولم تتخاذلوا عن نصرة الحق بينكم ولم تهنوا عن توهين الباطل لم يتشجع عليكم مَن ليس مثلكم، ولم يقو من قوي عليكم وعلى هضم الطاعة وإزوائها عن أهلها فيكم. تهتم كما تاهتْ بنو إسرائيل على عهد موسى، وبحق أقول ليضعفن عليكم التيه من بعدي – باضطهادكم ولدي – ضعف ما تاهت بنو إسرائيل»[1].

(١) الإرشاد: ج١، ص٢٩٠؛ وانظر البحار ج٥١، ص١١١، ح٦.

فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا
تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ

يس/ ٥٤

وهي تفريع لتفصيل بعض ألوان الجزاء والحساب الذي ينال أهل الحشر بعد حضورهم، والبحث فيها يقع في مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآية

وأهمّها أربعة:

المفردة الأولى: ﴿فَالْيَوْمَ﴾

الفاء للتفريع عن الحضور في الحشر والرجعة، وكذا الحضور في الدنيا عند وليّ الزمان وإمامه، واليوم، معهود ذكري أو ذهني، وهو الوقت الذي يتم فيه الحضور، وفيه إشارة لطيفة إلى أنّ الظُلم والبخس من شؤون الدنيا وأيامها، وأمّا أيام الآخرة فتقوم على العدل، ويبدأ من زمان الظهور المبارك حتى الأبد، فقبل الآخرة كله ظلم حتى العدل الذي يتصوّره الإنسان أنه عدل في الكثير من الأحيان ليس بعدل، وفي الغالب يكون العدل عند البشر من باب تقديم المصلحة الأكبر على الأقل، أو دفع المفسدة الأكبر بالوقوع في الأقل، وقد قرّرنا في بعض أبحاثنا أنّ العدالة الدقيقة في الدنيا غير متحقّقة وإنّما نسبيّة، فبقوله (فاليوم) يشير أنه من هذا اليوم بدأ عصر العدل الإلهي أي في زمان الظهور والرجعة والآخرة.

المفردة الثانية: ﴿**نَفْس**﴾

تطلق على جملة الشيء وحقيقته[١]، وهي باعتبارات مختلفة تطلق على الروح، وعلى الشخص بروحه وجسده[٢] كقوله تعالى: ﴿**مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا**﴾[٣] والمقتول يطلق على الشخص بلحاظ روحه وجسده، وفي معجم الفروق اللغوية: وتسمى النفس إذا لوحظت متعلقة في البدن وهي النفس الناطقة، ويعَّبر عنها بـ (أنا) وفي النصوص ما يعزِّز ذلك[٤].

وإنّما سميت الروح نفساً لتولد النَفَس منها، ويستفاد من الآيات الشريفة أنّ النفس تتّصف بثلاث صفات تختلف فيها عن الروح في الآثار وإن كانت في الجوهر واحدة:

الأولى: أنّها من عالم الخلق والتكوين ﴿**وَهُوَ الَّذِيَ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ**﴾[٥] وفي أخرى: ﴿**خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ**﴾[٦] بينما الروح ينسبها إلى عالم الأمر، ويتعلّق بها النفخ ﴿**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن**

---

(١) مجمع البحرين: ج٤، ص١١٢، (نفس).

(٢) انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨١٨، (نفس)؛ معجم مقاييس اللغة: ص١٠٠٣، (نفس).

(٣) سورة المائدة: الآية ٣٢.

(٤) انظر معجم الفروق اللغوية: ص٥٢٠-٥٢١، (٢١٠٢).

(٥) سورة الأنعام: الآية ٩٨.

(٦) سورة النساء: الآية ١.

رُّوحِي﴾[١] وفي أخرى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[٢] والعالم قسمان عالم خلق وعالم أمر، وهو أرقى وأنقى من عالم الخلق.

الثانية: أنّ النفس منشأ العمل والكسب في الخير والشر؛ لذا ينسب الاكتساب لها. يقول تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾[٣] ووصفت النفس بأنها لوّامة ومطمئنة وأمّارة بالسوء باعتبار أعمالها، وأمّا الروح فهي منشأ القداسة والشرف وقوّة الإدراك.

الثالثة: أنّ البعث والحساب يكون على النفس لأنّها منشأ العمل والكسب، وأمّا الروح فيكون لها التكريم والتعظيم والتكميل؛ لذا قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾[٤] وبهذا الاعتبار قال: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾[٥] ولم يقل (روحاً).

وفي التعبير بالنفس دلالة لطيفة على الحشر بالجسد؛ لتعلق النفس بالجسد وعدم مفارقتها له، ولم يقل (لا يظلم عبد) أو (إنسان) لأن الجزاء يشمل الأعمال المادية والمعنوية وتناسبه النفس؛ لأن الأعمال بنحويها صادرة منها، بخلاف البدن فإنه لا يصدر منه إلّا العمل المادي، والعبد أعمّ من النفس؛ لأن ما يصدر من العبد بعضه معقول ولا حساب فيه.

---

(١) سورة الحجر: الآية ٢٩.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٨٥.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٢٥.

(٤) سورة النحل: الآية ١١١.

(٥) سورة يس: الآية ٥٤.

المفردة الثالثة: ﴿تُجْزَوْنَ﴾

من الجزاء وهو المكافأة والقضاء[١].

وفي المفردات: الجزاء ما فيه الكفاية من المقابلة إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ[٢]، وهو أعمّ من الأجر؛ لأنه لا يقال إلّا في النفع، وقد اختلفوا في أنّ الجزاء كيف يكون على قولين:

القول الأول: إنه يكون مكافأة مجعولة من الحاكِم العادل بسبب الأعمال، كمن يجعل مكافأة لإنجاز الأعمال في الدنيا، فيكافئ عمل الخير بعطاء مثله، وعمل الشر بجزاء مثله[٣]، فالثواب والعقاب أمران مغايران لذات العمل.

والقول الثاني: إنّ الجزاء هو نفس العمل وليس بأمر خارج عنه، والمعنى أنّ العمل الذي يعمله الإنسان ذاته يبقى وينحفظ ويحضر لديه في الآخرة، فمثله مثل من يصنع ثيابه ويحملها معه في سفره، فإن كانت نظيفة جميلة كان لباسه في سفره منها، وإن كانت سيئة رديئة كان لباسه كذلك، وهو ما عبَّر عنه علماء الكلام وأهل المعقول بتجسّم الأعمال، وهذا هو المستفاد من منطوق الآية بقرينتين:

أولاهما: إطلاق(ما) الموصولة أو المصدرية، فإنّها نص في حضور ذات العمل، ولو كان الجزاء من غيره لوجب أن تدخل عليها باء

---

(١) معجم مقاييس اللغة: ص١٩٨، (جزي).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص١٩٥، (جزاء).

(٣) انظر التبيان: ج٨، ص٣٥٤؛ تفسير الرازي: ج٩، ص٨٤-٨٥.

السببية، ومنطوق الآية: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[١] فيكون الجزاء سبب الأعمال التي عملوها.

ثانيتهما: تضافر الآيات والروايات على أنّ ما يعمله الإنسان يجده محضراً عنده ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾[٢].

وأنّ ما يعمله من خير يراه، وما يعمله من شر يراه، والأصل حمل اللفظ على ظهوره، وعلى القول الأول ينبغي حمله على مجاز التقدير وهو خلاف القاعدة.

فالحق أنّ الآية صريحة في أنّ الجزاء عبارة عن نفس العمل، وقد مرَّ أنّ لكل شيء صورتين: صورة ملكية وأخرى ملكوتية، والعمل الطالح الذي يقوم به العبد ربما تكون له صورة ملكية مغرية أو جميلة فيه اللذة والحلاوة، ولكن صورته الملكوتية قبيحة جداً ومخيفة، والعمل الصالح الذي يعمله المؤمن ربما تكون له صورة العناء والتعب والصبر على الطاعة كالصوم والحج والخمس والجهاد، إلّا أنّ صورته الملكوتية رائعة باعثة على النعمة والسرور.

المفردة الرابعة: ﴿تَعْمَلُونَ﴾

العمل أخص من الفعل، فإنّ الفعل يطلق على ما يصدر من سببه إنساناً كان أو حيواناً أو جماداً، فيشمل ما كان بعلم وقصد أو بدونهما مثل إنبات الأرض فإنّه فعل المطر، وحركة السحاب فعل الريح، ولا يقال ها عملهما،

(١) سورة الزمر: الآية ٧.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٣٠.

بخلاف العمل فإنه لا يطلق إلّا بلحاظ ما يصدر عن علم وقصد، كما أنّ العمل يطلق في الصالحات والطالحات، وأخصّ منهما الصنع، فإنه لا يقال إلّا لما كان عن علم وقصد وتقدير مسبق[١]؛ لذا قال سبحانه: ﴿**صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ**﴾[٢] سبحانه ليس عن فكر، بل عن صفة وعلم وتقدير وحكمة، ويرد الصنع أيضاً في تربية أوليائه للإشارة إلى تهذيب ملكاتهم وكمالاتهم بالعلم والحكمة: ﴿**وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي**﴾[٣].

لذا يختصّ بالإنسان، فيقال للنجار صانع، وكذلك لمن يصنع جهازاً أو آلة، وبفعل الباري عزّ وجلّ، ويقال للخالق عزّ وجلّ صانع إذ نسبَ إليه الفعل مباشرة، ولا يليق بشأنه سبحانه نسبة الفعل والعمل إليه مباشرة؛ لِما فيهما من نقص، ولذا ورد في أسمائه الحسنى الصانع دون العامل والفاعل، ولو ورد في بعض النصوص فباعتبار العلل التوسيطية كالزارع والحارث كما في قوله تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ**﴾[٤] وكذا في الفعل كما في قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ**﴾[٥] بناء على أن المراد هو الفعل لا العقاب.

---

(١) معجم الفروق اللغوية: ص٣٢٢-٣٢٣، (١٢٩٠)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٨٧، (عمل).

(٢) سورة النمل: الآية ٨٨.

(٣) سورة طه: الآية ٤١.

(٤) سورة الواقعة: الآيتان ٦٣- ٦٤.

(٥) سورة الفيل: الآية١.

والآية صريحة في أنّ العمل لا يفنى بعد صدوره بل يتجسّد ويحفظ، أو يتبدّل إلى وجود آخر أبقى، ويكون هو جزاء أهله، وفي ذلك دلالتان هامّتان:

إحداهما: أن القول بأن الأعمال وجودات عَرَضيّة تتصرّم بعد حدوثها[1] على قول جماعة، أو أنها وجودات لا تكون إلّا في محل كما يقول آخرون غير سديد؛ لأن الآية صريحة في أنّ العمل في حدوثه يتقوَّم بجوارح الإنسان وجوانحه، ويقوم فيها قياماً صدورياً، إلّا أنه يتجسَّد ويبقى محفوظاً إلى الأبد الذي قدّره الباري عزّ وجلّ، ويكون جزاءه وهذا ما قرّره بعض أهل المعرفة بالبرهان أيضاً، وتعضده الأخبار[2].

ثانيتهما: أن الحشر يكون بالأجساد الدنيوية التي صدرت منها الأعمال، فإنه إذا كان الفرع يتجسّد ويحضر بنفسه في الآخرة كان أصله وعلّته أوْلى بذلك، فإنّ الفرع لا يزيد على الأصل، وبه يظهر الوهم الذي بنيت عليه نظرية المعاد الروحاني؛ لأنها مبنيّة على دعوى استحالة إعادة المعدوم وتجسّم الأعمال تثبت أن لا انعدام للأعمال ولا للأجساد، وأنّ المحشر يكون بذات العمل وذات علّته.

---

(١) تفسير الشعراوي: ج٣، ص٦٥.

(٢) نفحات الرحمن: ج١، ص٦٠٤.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: أنّ لسان الآية يتضمَّن الخطاب ولم يتعيَّن من هو المخاطب، فالكلام في قوله تعالى: ﴿**هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ**﴾[1] كلام من؟ وذات الأقوال التي ذكرت هناك ترِد هنا، ووجه الجمع بينها ذكرناه، ولأن تعيين المتكلم لا يهمّ غرض الآية لم يذكر فيها.

يبقى الكلام في المُخاطَب من هو؟ وفيه احتمالان:

الأول: أنّهم الكفار حصراً؛ لقرينة السياق، والآية التي تليها فإنّها تنصّ على أنّ أهل الجنة ينشغلون بنعيمها، والكفار في الحساب والجزاء؛ إذ قال سبحانه: ﴿**إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ**﴾[2] وعليه يكون حاكياً عن واقع المعاملة والقضاء مع الكفار الذين بنوا الحياة الدنيا على التمايز بين البشر والمحاباة وتقديم الأقوياء على الضعفاء ونصرة الظالم على المظلوم بأنهم سوف يحاكمون بالعدل، فلا يُظلَمون ولا يُجزَون إلّا بأعمالهم.

---

(١) سورة يس: الآية٥٢.

(٢) سورة يس: الآية٥٥.

الثاني: أنهم الأعم منهم ومن المؤمنين، وحينئذٍ يتضمَّن تطميناً للمؤمنين وتخويفاً لغيرهم بأن القضاء الإلهي يدور على ذات العمل وليس على تقديرات القضاة وأصحاب القدرة، أو كشوف الأوراق والسجلات، أو نتائج التحقيق التي صنعها الإنسان لنفسه في الدنيا، وصارت بيد البشر يتلاعبون بها، ويكتبون بها ظنونهم وحساباتهم في الأعمال وجزاءاتها، وما أكثر من يخطأ من القضاة عمداً أو جهلاً؛ لأن العدل الإلهي لا ظُلم فيه ولا تلاعب ولا تقديرات ظنيّة، بل سجلّ المحاكمة هو ذات العمل، والجزاء يكون من جنسه، وهذا جزاء تكويني لا اعتباري، فالعمل الصالح جزاؤه مثله والطالح مثله.

وقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾[1] فيه إشارة إلى المؤمنين بأن يطمئنوا بأن كل ما عملوه ينالون أجره حتى الأشياء البسيطة التي لم تكن في حساباتهم في الدنيا، كإزاحة الحجر من الطريق، أو إدخال السرور على قلب المؤمن بكلمة أو ابتسامة فإنه محسوب، وينال أجره، كما يفيد تنكير (شيء) الذي يشمل أكبر شيء وأصغر شيء ولو كان بمقدار لا يحتسب عادة، فلا ينتقص من عملهم شيء.

ومن جهة أخرى يعطي ضماناً لهم بأنّ سجلّهم لا يتبدّل ولا يتغيَّر ولا يتلاعب به كما هو معهود في قضاء البشر، فكل شيء في سجلّ الاعمال ثابت وكل عمل يلازمه جزاؤه ملازمة المعلول للعلّة.

---

(١) سورة يس: الآية ٥٤.

اللطيفة الثانية: في قوله: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[(١)] الإثبات بعد النفي يفيد الحصر، ويدل على عدم وجود جزاء آخر غير ذات العمل. وفيه إشارة للكفار والعصاة بأن لا ظلم لكم ولا محاباة ولا انتقام أو تشف، بل القضاء الإلهي مبني على تكافؤ العمل والجزاء، وأن الجزاء يكون بذات العمل وبقدره فلا يزيد عليه، وهنا نكتة هامة وهي أن الجزاء يكون على نحوين تارةً بالاستحقاق والعدل، وتارةً بالتكريم والفضل.

وجزاء المؤمن لا يكون بالاستحقاق والعدل، بل بالفضل؛ لأنه سبحانه وعد المؤمنين بأنه يوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله، وأنه مضمون النتائج؛ لأنه من الوعد الإلهي، وهو لا يخلف الوعد، وأمّا الكافر والعاصي فيجازى أولاً بالعدل، وربما شمله الفضل فيجازى به، وهذا من الاحتمال الموكول لمشيئة الباري؛ لأنه من الوعيد.

فيتحصَّل: أنّ جزاء المؤمن والكافر في العقيدة أو العمل يفترقان في أمور:

الأول: أن جزاء المؤمن بالفضل، وأمّا الكافر فبالعدل.

الثاني: أنّ المؤمن يزداد أجره ويتعاظم بالفضل، وأمّا الفضل إذا نال الكافر فيخفف من عذابه ولا ينجيه منه إلّا بعد فترة من العذاب إن لم يكن من المُخلَّدين.

الثالث: أنّ تعاظم أجر المؤمن مضمون لأنه وعد، وأمّا غيره فلا ضمان له، بل موكول لأمر الله سبحانه، فلذا يكون المؤمن دائماً مطمئن البال ومستقرّ القلب، بخلاف غيره فإنه قلق لا يعرف مصيره، وهذا يزيده عذاباً.

---

(١) سورة يس: الآية ٥٤.

اللطيفة الثالثة: هل القضاء يضمن العدالة؟

أنّ (لا) في قوله تعالى: ﴿لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ﴾[١] و: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٢] نافية في الجملتين، وتفيد ضابطتين في القضاء الإلهي:

الأولى: أنّ المعاد بمراتبه لا ظلم فيه، فهي نفت الظلم ولم تثبت العدل، فلم تقل (فاليوم يحكم العدل) مثلاً، والفرق بين نفي الظلم وإثبات العدل هو أن نفي الظلم يلازم وجود أمرين هما: العدل والإحسان في القضاء، فلا يجازى الناس بالعدل فقط، بل هناك إحسان أيضاً يغمر أهل الإيمان وأهل الكفر، والإحسان يتضمن الزيادة للمؤمن بمزيد الفضل، وللكافر بتخفيف العذاب، وهذه مرتبة فوق العدل؛ لأنه يتوقف عند إعطاء كل مستحق حقه، فلا يزاد المؤمن في الثواب، ولا يخفف عن غيره العذاب، وأمّا الإحسان فهو ينظر إلى كرم المعطي أيضاً، ويتضمن زيادة الثواب وتخفيف العقاب.

الثانية: أنّ الجزاء في الآخرة بالعمل لا بالآراء والاجتهادات والتقديرات الخاصة، وهذا أضمن للعدل ونفي للظلم؛ لأن الحكم بغيره قد يشعر الآخرين بعدم العدل مع أنه حق وصواب، وهذا ظاهر في قضاء الدنيا، فإن بعض قواعد القضاء لمجرد حل الخصومة ومعالجة المشكلة، وليس بالضرورة توصل الحق لأهله.

---

(١) سورة يس: الآية ٥٤.

(٢) سورة يس: الآية ٥٤.

فمثلا: مِن أهم ما يقوم عليه القضاء في الدنيا ستة هي: البيّنة واليمين والإقرار والقرعة والعدل والانصاف والمصالحات، وهي قواعد إثباتية لا ثبوتية، فربما أوصلت الحق لغير أهله واقعاً لكنّها في الظاهر فضَّت النزاع، وتُعدّ قضائياً من العدل.

فمثلاً: إذا تنازع شخصان على مال وكُلّ منهما يدَّعيه فربما يكون المالك الحقيقي لا يملك بينة، أو كان متورِّعاً لا يقسم لأجل كسب المال، بينما الطرف الاخر لا يبالي بذلك، وجاء ببيّنة بحسب ظاهر الحال مستوفية للشروط، فإنّ القاضي يعطيه المال ولا يقدر المالك أن يفعل شيئاً ظاهراً، فلم يبقَ أمامه إلّا الصبر وإيكال الأمر إلى حُكم الله وقضائه العادل في الآخرة.

ولو كان للطرفين بيّنة فربما يقضي القاضي بتنصيف المال بينهما مع علمه بأنّ أحدهما لا يملك النصف الذي أخذه واقعاً لكنه غير قادر على تمييزه، وربما يحكم بالقرعة فيعطي المال للذي خرجت باسمه القرعة، وربما لم يكن هو المالك الحقيقي وهكذا.

ونلاحظ أن القضاء بالقواعد القضائية وإن كان صحيحاً وحقّاً إثباتاً لكنه لا يشعر بالعدل، بل قد يفيد العلم بعدم العدل أحياناً، ولكن يُرتضى من باب اللابدّية لحلّ النزاع، فمن أين نشأ هذا؟ نشأ من احتياج الحق إلى إثبات، وأمّا لو صار العدل نفسه حاضراً وشاهداً فإنّ الحقّ يصل إلى أهله ولا يمكن التلاعب به.

فالعدل لا يلازم وصول الحق لأهله دائماً، ولا يشعر بالرضا، بخلاف عدم الظلم فإنه يوصل الحق لأهله، ويشعر بالرضا.

ولذا قال تعالى: ﴿لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾[١] وإنّ الجزاء بالعمل، ولم يقل فاليوم يحكم بالعدل، والقضاء يكون بأدلّة الإثبات، بل بالأعمال أنفسها.

وفي هذا حكمة بالغة ورحمة عظيمة.

اللطيفة الرابعة: الاتجاهات في تجسم الأعمال

إنّ الآية المباركة نصت على أنّ الجزاء يكون بالعمل، وقد اتجهوا في تصوير ذلك إلى اتجاهات:

الأول: أن التجسم يكون بالإنبات والإثمار جمعاً بين مدلول مثل هذه الآية والآيات الأخرى والروايات التي دلّت على أن الدنيا مزرعة الآخرة[٢]، وأن العمل الصالح يكون بمنزلة البذرة الطيبة التي يودعها الفلاح في التراب فتنتج له في الآخرة مثلها، ومثله العمل الطالح، حتى تصبح آخرة العبد مزرعته التي هي حصيلة أعماله، وتكون مستقره ومحل إقامته.

الثاني: أنّ التجسم يكون من قبيل خلق المماثل المسانخ للعمل، وهذا الرأي يجمع بين نظرية الثواب والعقاب الجعلي وبين الإنبات؛ لأنه يقوم على أن الله سبحانه يجعل له الجزاء المسانخ لعمله، وهو مفاد قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[٣]

---

(١) سورة يس: الآية ٥٤.

(٢) انظر سورة الشورى: الآية٢٠؛ عوالي اللآلئ: ج١، ص٢٦٧، ح٦٦؛ نور البراهين: ج١، ص٣١٣.

(٣) سورة الزلزلة: الآيتان ٧-٨.

أي يرى الخير المسانخ لعمله والشر المسانخ له، وفي الأخبار ما يدل على هذه الحقيقة، ففي الحديث الشريف: «إذا بخس الميزان حبس القطر، وإذا كثر الزنا كثر القتل ووقع الطاعون، وإذا كثر الكذب كثر الهرج»[(١)].

ونلاحظ أن كل عمل يقابله ما يسانخه من الأثر، فإن بخس الميزان فيه إنقاص من حقوق الناس يتصور الزيادة في رزق الباخس فيكون سبباً أيضاً لنقصان المطر، وهو الآخر سبب لنقصان الرزق، فمن ينقص يُنقَص عليه والزنا فيه إهلاك للنفوس موضوعاً بإهدار النطف وجعلها في غير موضعها الصحيح وقتلها فيه، وحكماً بإهلاك الولد الناشئ منه وحرمانه من الكثير من حقوقه فيقابل بمثله، وهو الموت الكثير المفاجئ، وكذلك الكذب فإنه يوجب الهرج في تضييع الحقوق، ويسبب العداوة وفقدان الثقة بين الناس، فيقابل بالهرج والفتنة؛ لأنها تسانخه[(٢)].

وهكذا الأمر في العمل الصالح كحسن الخلق يطيل في العمر ويزيد في الرزق لأنه سنخه.

الثالث: أنّ التجسيم يتم بالصور، و يراد به تصوير العمل وعرضه على صاحبه، كما يلحظ اليوم من تصوير العمل بالكاميرات ويأتون به وقت القضاء ليكون شاهداً على العمل، والنموذج الحاصل في الدنيا هو بيان مصغر لما يحصل في الآخرة وإن كنا لا نعرف تفاصيله، وهذا الاتجاه قام على

---

(١) المستدرك: ج٤، ص٥٠٣.

(٢) انظر مقتنيات الدرر: ج١، ص١٧٩.

الجمع بين أدلة الثواب والعقاب الظاهرة في الجعل، أو تسجيلها في سجل الأعمال، وبين بعض الآيات الظاهرة في التجسيم كالآية مورد البحث(١).

الرابع: أن العمل نفسه يتجسد؛ لأن له صورتين ملكية ظاهرة وملكوتية باطنة، والعمل الصالح في الدنيا ظاهره صلاة وصيام، ولكن في الآخرة يظهر في صورته الواقعية الملكوتية بنور خاص وهيئة خاصة حية تنطق وتتكلم، وكذلك العمل الطالح، ويمكن تقريب ذلك بمثالين:

المثال الأول: الكلام الذي يتحدث به المتكلم فإنه يقوم على الصور الذهنية الحاصلة لديه والمعاني الكامنة في نفسه وهو يتحدث بها، فحينما يقول (بحر) يتصور هذه الحقيقة ثم يتكلم بها، فالسامع يراه حروفاً ولكن الحروف الصورة الظاهرة للمعنى، وأما الصورة الواقعية له في النفس فهي صورة البحر، ولتلك الصورة واقع خارجي هو البحر، وكلها من مراتب هذا المعنى، وإلى هذا يشير قول المناطقة أن للشيء ثلاث مراتب وجودية فقسمّوا الوجود إلى كتبي وذهني وخارجي، وعليه فإن القول الكاذب ناشئ من الصورة السلبية للكذب، والمعنى المخالف للواقع، وهذا يظهر في الواقع والصدق عكسه.

المثال الثاني: الصدقة حينما يعطيها الإنسان للفقير فإنّها بظاهرها قطعة نقدية لكنها في نفس المعطي عبارة عن محبة خاصة وسرور داخلي يعيشه، وفي نفس الفقير كذلك، وفي الآخرة تزول الصورة الملكية الظاهرة؛ لأنها

---

(١) انظر تفسير الشعراوي: ج٣، ص٦٥.

من شؤون الدنيا، وتبقى المحبة والسرور النفساني فيه؛ لأنها صورته الملكوتية، وهكذا الأعمال الطالحة.

يستفاد هذا من الكثير من الآيات الشريفة والروايات أقتصر على شاهدين منهما:

الأول: قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا**﴾[(١)].

وهي صريحة في أن ما يعمل الإنسان من خير أو شر يحضر بنفسه وليس بسنخه أو بثمرته أو صورته بقرينة (تجد) أي تراه موجوداً، وتنكير الخير والسوء يفيد العموم الشامل للاعتقادات والأقوال والأفعال، وصيغة المفعول في (محضرا) تفيد الحضور القهري، وذلك لا يكون إلّا بأحد طريقين: طريق الإحضار التكويني من باب السبب والمسبب، أو الإحضار الإلهي، وكلاهما ناتجان عن حفظ الأعمال وبقائها، وحينئذ يتمنى العصاة والمذنبون تأجيل ذلك وعدم حصوله؛ لما فيه من فضحهم وابتلائهم بما صنعته أيديهم، إما بالتأجيل الزماني أو المكاني أو كلاهما[(٢)]، ولعل قوله: ﴿**إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[(٣)] يشير إليه.

الثاني: الحديث النبوي الشريف في موعظة بعض الطالبين لها. قال صلى الله عليه وآله له: «لابد لك يا قيس من قرين يدفن معك وهو حي، وتدفن معه وأنت

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٣٠.

(٢) انظر تفسير الأمثل: ج٢، ص٣١٤.

(٣) سورة الجاثية: الآية ٢٩.

ميّت، فإن كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك، ثم لا يحشر إلّا معك، ولا تبعث إلّا معه، ولا تسأل إلّا عنه، فلا تجعله إلّا صالحاً، فإنه إن صلح أنست به، وإن فسد لا تستوحش إلّا منه، وهو فعلك﴾[١] وهو صريح في اقتران العمل بالإنسان، وأنه بصورته الملكوتية حي ولا يفارقه، وبه سعادته وشقاؤه.

فعن النبي صلى الله عليه وآله: ﴿من قال: (سبحان الله) غرس الله له بها شجرة في الجنة، ومن قال: (الحمد لله) غرس الله له بها شجرة في الجنة، ومن قال: (لا إله إلّا الله) غرس الله له بها شجرة في الجنة، ومن قال: (الله أكبر) غرس الله له شجرة في الجنة﴾[٢].

وفي حديث الإسراء قال: ﴿لما أُسري بي إلى السماء دخلت الجنة فرأيت فيها ... ملائكة يبنون لبنة من ذهب ولبنة من فضة وربما أمسكوا، فقلت لهم: مالكم ربما بنيتم وربما أمسكتم؟ قالوا: حتى تأتينا النفقة. قلت: وما نفقتكم؟ قالوا قول المؤمن: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر﴾[٣] وفيه أيضاً: ﴿ليلة أسري بي مرّ بي إبراهيم عليه السلام فقال: مر أمتك أن يكثروا من غرس الجنة، فإن أرضها واسعة، وتربتها طيبة. قلت: وما غرس الجنة؟ قال: (لا حول ولا قوة إلّا بالله) ﴾[٤].

---

(١) البحار: ج٧٤، ص١١١، ح١؛ الخصال: ص١١٤، ح٩٣.

(٢) الأمالي (للصدوق): ص٧٠٥، ح٩٦٨؛ ثواب الأعمال: ص١١؛ عدة الداعي: ص٢٤٨.

(٣) الأمالي (للطوسي): ص٤٧٤، ح١٠٣٥؛ وانظر البحار: ج٩٠، ص١٦٩، ح٧.

(٤) البحار: ج٨، ص١٤٩، ح٨٣؛ سفينة البحار: ج٢، ص٤٧١.

وهناك اتجاه خامس ذهب إلى أن الأعمال ناشئة من سجايا الإنسان وصفاته النفسية، وهي التي ستظهر في الآخرة، وإليه تشير الروايات التي نصت على أن بعض الناس يحشرون على صورة القردة والخنازير ونحو ذلك[(١)].

والحق الذي يقتضيه التحقيق هو أن الجزاء يكون بنحوين:

أحدهما: الثواب والعقاب الجعلي.

ثانيهما: التجسم باتجاهاته المختلفة.

ولا تنافي بين ذلك، والأدلة النقلية ظاهرة في الجميع، والعقل لا يمنع منها، وحيث لا تنافي بينها يؤخذ بها جميعاً، والجمع بين العطاء الجعلي والتجسيم واضح؛ لإمكان أن يكونا معاً، أو أن الجزاء الجعلي يكون بالتجسيم، وأما الجمع بين اتجاهات التجسيم فيتم بأحد طرق:

الأول: أن نحملها على اختلاف المراتب والنشآت في الآخرة، ففي بعضها يظهر العمل بشكل صورة، وفي بعضها بشكل ثمرة، وفي أخرى نفسه يظهر.

الثاني: أن نحملها على المراتب الوجودية للعمل، فالعمل أوله صورة تنحفظ، وفي المرحلة الثانية نبتة، وفي الثالثة تثمر المسانخ، وفي المرحلة الرابعة يأتي نفسه وهو عين ما فعله الإنسان في صورته ومادته كما قررناه في تصوير المعاد الجسماني.

---

(١) انظر مجمع البيان: ج١٠، ص٦٤٢.

الثالث: أن نحملها على اختلاف مراتب العباد، فبعضهم يجازى بالثواب والعقاب، وبعضهم يجازى بالثمرة، وبعضهم بالجنس المماثل، وآخر بنفس العمل وهكذا كما قد تشير إليه الآية بناء على أن المحاورة مع زعماء الكفر وأئمته كما ذكرنا، وعلى درجات العناد والمكابرة تكون صورة العمل، فالعبد المذعن بذنبه يسجل عليه في صحيفة عمله، والذي فيه شيء من العناد يكون بنحو البذر، والأشد يكون بنحو المسانخة، والأكثر عناداً تجسماً، وبخلافه في الطاعة، فإن المرتبة الأولى منها يكتب له ثواب، والثانية بذرة وهكذا، والملحوظ أن الآيات والروايات وردت بجميع هذه المعاني المذكورة.

ففي الثواب والعقاب الجعلي ورد قول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في الملكين الكاتبين: «صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكا النهار يكتبان عمل العبد بالنهار، وملكا الليل يكتبان عمل العبد في الليل»[1] وهو صريح في أن الأعمال تكتب وتدون على أهلها، وهناك سجل للعمل يجازى عليه. وهناك ما يدل على تجسم العمل بصورته أو بسنخه أو ثمرته أو نفسه، وتفصيل ذلك موكول إلى الأبحاث المفصلة.

وربما يقال بأنّ التجسيم يختص بأفعال الطاعات والمجازاة بخلق الفعل المسانخ، أو الإنبات يختص باجتناب المعاصي؛ لأنّ الترك والاجتناب فعل من حيث النفس لكفها عنه، وليس له تقرر خارجي يتجسم، وبه نجمع بين الاتجاهات، والمسألة تحتاج إلى مزيد بحث ومراجعة للنصوص الشريفة[2].

---

(١) البحار: ج٥، ص٣٢٧، ح٢٢؛ وانظر الاعتقادات في دين الإمامية: ص٦٩.
(٢) انظر ينابيع الحكمة: ج٢، ص٩٠-٩٦.

الاستغفار وتجسُّم الأعمال

ربما يخطر سؤال عن الغفران والتوبة كيف يكونان مع القول بتجسّم الأعمال؟

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: أنّ الاستغفار والتوبة يتعلقان بالذنوب التي تُدوّن في صحيفة العمل لا التي تتجسَّم، فيرتفع السؤال موضوعاً، وربما تشهد له الآيات والروايات الواردة في التوبة والاستغفار وأثرهما في المعاصي، فإنها صريحة في تعلّقها بالأعمال التي تُدوّن في صحيفة العمل وليست تلك التي تتجسَّم.

فإن قال قائل: ما هي الذنوب التي لم تتجسَّم؟

فالجواب: لعلَّها ما كانت بين العبد وربه، أو كانت الأعمّ التي يعلم سبحانه من أهلها التوبة والندم عليها؛ لأنها ستغفر، فإنّ عدم تجسّمها يستفاد من دليلين:

أولهما: دليل العقل، فإنّ الباري عزّ وجلّ عفوّ غفور وستّار لا يفضح عباده بذنوبهم وحليم، وقد وعدهم بالستر عليهم وقبول توبتهم ومحو ذنوبهم إذا تابوا واستغفروا، وهو لا يُخلِف الوعد، ولازم ذلك أن يمنع من تجسّد الذنب والمعصية ويبقيها في حيّز صحيفة العمل وكتابة الملكين دفعاً للغوية؛ لعلمه بأنّ عبده سيتوب ويستغفر وتمحى عنه.

ثانيهما: دليل النقل، فإنّ الآيات والروايات صريحة في أنّ التوبة والاستغفار يتعلقان بما كان بين العبد وربه.

فمن الآيات قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۞ أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ**﴾[١].

وبقرينة المقابلة بين الفاحشة -وهي ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال[٢]- وظلم النفس يحمل الأول على مُطلق الذنب، والثاني على ما كان بين العبد وربه، والآية صريحة في أنّ المغفرة والجزاء الحسن يكونان لمن لم يصرّ على ما فعل ويندم عليه.

ومنها: قوله تعالى: ﴿**وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾[٣].

ومن الروايات، رواية معاوية بن وهب قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إذا تابَ العبد توبةً نصوحاً أحبَّهُ الله فستر عليه في الدنيا والآخرة» فقلت: وكيف يستر عليه؟ قال: «يُنسي مَلَكَيه ما كتبا عليه من الذنوب، ويوحي إلى جوارحه اكتمي عليه ذنوبه، ويوحي إلى بقاع الأرض: اكتمي ما كان يعمل عليكِ من الذنوب، فيلقى الله حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه

---

(١) سورة آل عمران: الآيتان ١٣٥-١٣٦.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٢٦، (فحش).

(٣) سورة النساء: الآية ١١٠.

بشيء من الذنوب﴾[١] والتوبة النصوح أي الصادقة التي يَعزم العبد معها على عدم مُقارفة الذنب[٢].

وتؤيده الروايات الكثيرة التي تنصّ على أنّ المؤمن إذا أذنب يؤخر تسجيل الذنب عليه، فإذا استغفر أو عمل صالحاً لم يكتب عليه، ولعلّ المراد بعدم الكتابة عدم الثبوت في الكتاب التكويني أيضاً[٣].

الوجه الثاني: أنّ الاستغفار لا يمنع من تجسّم العمل وإنّما يُغطيه ويستره بحيث لا يرى ولا يظهر أثرُه. كما هو معنى الاستغفار لُغةً وعُرفاً[٤].

وفي المفردات: الغفران والمغفرة من الله هو أن يصون العبد مِن أن يمسّه العذاب[٥]، وإليه يُشير قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ**﴾[٦] ولا خِلاف في أنّ التوبة والاستغفار من الحسنات، والإذهاب الإزالة والمحو كما في قوله تعالى: ﴿**الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ**﴾[٧][٨] وصيغة المضارع تدل على الاستمرار.

---

(١) الكافي: ج٢، ص٤٣٠، ح١؛ وانظر ثواب الأعمال: ص١٧١.

(٢) انظر النهاية: ج٥، ص٦٣؛ الصحاح: ج١، ص٤١١، (نصح).

(٣)انظر الكافي: ج٢، ص٤٣٧، ح١، ح٣.

(٤) معجم مقاييس اللغة: ص٧٧٢، (غفر)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص٤٢٧، (غفر).

(٥) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٠٩، (غفر).

(٦) سورة هود: الآية ١١٤.

(٧) سورة فاطر: الآية ٣٤.

(٨) المعجم الوسيط: ج١، ص٣١٧، (ذهب).

وقد ذهب المفسرون إلى أنّ المراد بالحسنات الصلوات، لاسيّما صلاة الليل تمسّكاً بالسياق، وفيها بعض الروايات الواردة بطرق الفريقين إلّا أنّها لا تفيد الحصر؛ لظهور الجملة في أنّها كبرى كلية وقد طبقتها الأخبار على الصلوات.

والبحث في أنّ الإذهاب هل يكون بنحو الدفع أم الرفع؟ فلو كان بالنحو الأول فلا كلام، فيكون أثر الحسنة موافقاً لمضمون الروايات التي نصَّت على تأجيل كتابة الذنب، فإذا فعل الحسنة لم يكتب عليه، وإنّما الكلام لو كان بنحو الرفع، فإن كان الذنب من المدَّونات فلا إشكال وبه وردت الأخبار(١)، وإنّما الإشكال فيما لو كان من المكوّنات أي المجسّمات؛ إذ كيف تنمحي السيئة بعد وقوعها بناءً على تجسّم الأعمال؟

ولبعض العامة هنا جواب قائم على الجبر بدعوى أنّ الإذهاب يكون بنحو الدفع، أي يمنع من وقوع المعصية، وبطلانه ظاهر(٢).

والجواب: أنّ الإذهاب تارةً ينسب إلى فعل الباري عزّ وجلّ، فالجواب فيه واضح؛ لأنه سبحانه إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، فلو فعل العبد الحسنة يزيل السيئة بإرادته، وتارةً ينسب إلى الحسنة نفسها كما هو ظاهر الآية، فحينئذٍ تزيل السيئات إمّا لمحقها أو تبديل حقيقتها، أو المنع من اثرها، والأول نظير الرائحة الطيّبة إذا انتشرت أزالت الرائحة

---

(١) انظر تفسير نور الثقلين: ج٣، ص٣٢٤- ٣٢٧، الأحاديث ٢٣٤-٢٤٥.

(٢) انظر تفسير الشعراوي: ج١٠، ص١٩٧.

الكريهة، والنور الذي يمحق الظلمة، والصابون إذا أزالَ القذارة. والثاني نظير بعض العناصر الكيميائية اذا أُضيفت إلى الرمل صار زجاجاُ او ذهباً. والثالث نظير العازل الذي يمنع من الاحتراق. وأدلّ دليل على إمكان الشيء وقوعه.

وباعتبار أنّ الأعمال الحسنة تشتمل على مصالح واقعية وآثار وضعية تكوينية يكون أثرها كأثر سائر الأمور المادية، وعلى هذا يمكن أن تنقلب المعصية المجسَّمة بصورة سيئة وتتبدَّل إلى صورة حسنة، أو لا يَظهر أثرها بسبب التوبة والاستغفار.

الوجه الثالث: أنّهما يبدلان السيئات إلى حسنات بأمر الله سبحانه وإرادته كما نصَّ عليه قوله تعالى: ﴿**إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ**﴾[1] وقوله سبحانه: ﴿**ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ**﴾[2] والتبديل هو جعل شيء مكان آخر، ويتحقق بنحوين:

أحدهما: أن يزيل السيئة ويجعل مكانها الحسنة بإفنائها، أو تبديل حقيقتها، أو تغيير صورتها وجعل مكانها أخرى.

ثانيهما: أن يحاسب بدلاً عن السيئة بالحسنة، بأن يعفو عنها ويجازي أهلها بالحسنة[3].

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٧٠.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٩٥.

(٣) انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص١١١، (بدل).

وظاهر الآية أنّ التبديل يكون بنحو الرفع، وصيغة المضارع تدل على الاستمرار، ويظهر من بعض أهل اللغة والتفسير أنّ التبديل يكون بنحو الدفع، بمعنى أنه سبحانه يبدِّل ملكة المعصية في نفوسهم بملكة الطاعة[١].

وفيه نظر بيّن؛ لأنّه من الجبر، ومخالف للظهور، وقد تضافر في الاخبار الشريفة التبديل بنحويه المذكورين.

ففي أمالي الشيخ قدس سره بإسناده عن محمد بن مسلم الثقفي قال: سألت أبا جعفر محمد بن علي عليهما السلام عن قول الله تعالى: ﴿**فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ الله سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ الله غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾[٢] فقال عليه السلام: «يؤتى بالمؤمن المذنب يوم القيامة حتى يقام بموقف الحساب، فيكون الله تعالى هو الذي يتولّى حسابه لا يُطلِع على حسابه أحداً من الناس، فيُعرِّفه بذنوبه، حتى إذا أقرَّ بسيئاته قال الله عزّ وجلّ للكَتَبَة: بدِّلوها حسنات، وأظهِروها للناس، فيقول الناس حينئذٍ: أما كان لهذا العبد سيئة واحدة؟ ثم يأمر الله عزّ وجلّ به إلى الجنة، فهذا تأويل الآية وهي في المذنبين من شيعتنا خاصة»[٣] وقريب منها وردت في المحاسن عن سليمان بن خالد عن الصادق عليه السلام[٤].

وفي رواية أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال: أعرضوا عليه صِغارَ ذنوبه وتخبّأ كِبارها، فيقال له: عملت يوم كذا

(١) مجمع البحرين: ج٥، ص٣١٨-٣١٩، (بدل).
(٢) سورة الفرقان: الآية ٧٠.
(٣) الأمالي (للمفيد): ص٢٩٨، ح٨؛ وانظر الأمالي (للطوسي): ص٧٣، ح١٠٥.
(٤) المحاسن: ج١، ص١٧٠.

وكذا كذا وكذا وهو مقرّ ليس ينكر، وهو مُشفِق من الكبائر أن تجيء، فإذا أراد الله به خيراً قال: أعطوه مكان كل سيئة حَسَنة، فيقول: يا رب لي ذنوباً ما رأيتها هاهُنا. قال: ورأيت رسول الله صلى الله عليه وآله ضحك حتى بَدتْ نواجذه -أي الأضراس- ثم تلا: ﴿**فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللّه سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَا**﴾[1].

وتؤكد هذه الأخبار ثلاث حقائق:

الأولى: أنّ التبديل يتمّ أحياناً بالعطاء الإلهي بالمكافأة بالحسنة بدلاً عن السيئة.

الثانية: أنّ هذا النوع من الجزاء يكون للمذعنين التائبين النادمين لا المعاندين المكابرين.

الثالثة: أنّه يكون لصحيحي العقيدة، فمَن كانت عقيدته فاسدة لا يُجازى بمثله.

وفي الأخبار أيضاً ما يدل على القسم الثاني أي تبديل الحقيقة، ففي أمالي الشيخ قدس سره بإسناد عال عن الرضا عن أبيه عن جده عن آبائه عليهم السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: حُبُّنا أهل البيت يُكفِّر الذنوب، ويُضاعِف الحسنات، وإنّ الله ليتحمَّل عن محبينا أهل البيت ما عليهم من مظالم العباد إلّا ما كان منهم فيها على إصرار وظلم للمؤمنين، فيقول للسيئات كوني حسنات»[2]. ومفادها أنّ ذنوب المعاندين وما كانت في حقوق الناس لا تُجازى بالإبدال، وهو يؤكد ما ذكرناه في الوجه الأول.

---

(١) عوالي اللآلئ: ج١، ص١٢٤، ح٥٦؛ البحار: ج٧، ص٢٨٦.

(٢) الأمالي (للطوسي): ص ١٦٤، ح٢٧٤.

وقريب منها ما رواه الصدوق قدس سره في العيون عن الرضا عليه السلام قال: ﴿قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا كان يوم القيامة تجلّى الله عزّ وجلّ لعبده المؤمن فيوقفه على ذنوبه ذنباً ذَنباً، ثم يغفر الله له، لا يُطلِع الله على ذلك مَلَكَاً مقرّباً ولا نبيّاً مُرسلاً، ويستر عليه ما يكره أن يَقِف عليه أحد، ثم يقول لسيئاته كوني حسنات﴾[(١)] وهو صريح في تبديل الحقيقة، والروايات الواردة بهذا المضمون كثيرة[(٢)].

فيتحصَّل: أنّ التوبة والاستغفار لا يتنافيان مع القول بتجسّم الأعمال:

أولاً: لأنّ التجسّم لا يكون لجميع الأعمال بل لبعضها، فحينئذٍ تحمل التوبة والاستغفار على غير المجسمة منها كما عرفت.

ثانياً: على فرض شمولها للذنوب المجسّمة فإنّ التوبة والاستغفار إمّا يمنعان من ظهور الذنب ويسترانه أو يزيلانه أو يبدلانه، وهذه هي نتيجة الجمع الدلالي بين مختلف النصوص الواردة.

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج١، ص٣٦، ح٥٧؛ وانظر تفسير نور الثقلين: ج٤، ص٣٤، ح١٢٢؛ تفسير نور الثقلين: ج٥، ص٢٢٢، ح١٣٢.

(٢) انظر عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص١٦٧، ح١؛ علل الشرائع: ص٤٩٠، ح١؛ المصدر نفسه: ص٦٠٦، ح٨١.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

التعليم الأول: ثلاث قواعد لصناعة الحياة

أنّ قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[(١)] يُعلِّم الناس قواعد ثلاث تقوم عليها حياتهم الدنيوية والأخروية:

الأولى: أنّ حياتهم باختيارهم، وهي من صنعهم، وأنّ جزاءهم و مصيرهم الذي يصيرون إليه هو من صنع أيديهم، ولذا نَسبت الآية الجزاء إلى عملهم وهو باختيارهم، فلا يجني الإنسان في حياته إلّا ما يزرع، ولا يأكل إلّا ما يحصد، فلا ينبغي أن يلوم أحد غيره إذا صار في مصير سيّء، ولا يذمّ القدر ويبرِّر شقاءه بالظروف وغيرها من الأسباب، بل حياته في الدنيا بيده، وحياته في الآخرة بيده.

فإنّ السعيد في دنياه سعادته من عمله، والشقي يشقى بعمله، لأنّ النتائج تترتب على الأعمال ترتّب المسبّب على السبب. هذه الحقيقة التي كشفت عنها الآية المباركة لو عمل بها الإنسان فإنه يشعر أنّ كل شيء له ثمن، وأنّ لا شيء يذهب سُدى، وأنّ كل ما يعمله الإنسان يعود عليه أولاً

---

(١) سورة يس: الآية ٥٤.

في الصالحات والطالحات، وهو ما قرَّره أمير المؤمنينعليه السلام في قوله: «إنّي ما أحسنتُ إلى أحد ولا أسأتُ إلى أحد»[١] فأثار استغراب أصحابه فقال: «لأنّ الباري عزّ وجلّ يقول: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾»[٢].

وأضرب لذلك مثالين:

المثال الأول: يتعلَّق بجوهر الإنسان في سلامة النفس والقلب والشعور بالرضا والسعادة. هذه غاية جميع الناس في الدنيا والآخرة، والكثير ينفقون الملايين ويجهدون أنفسهم لأجل تحصيلها لكنهم لا يحصلون عليها، وبعض الناس يلجؤون إلى الدعاء لأجل تحصيلها ولا يصلون إليها، والسبب لأنّ السعادة نتيجة تُبنى على مقدمات، وإذا لا تتوفَّر مقدماتها لا تحصل، بل هناك أعمال يقوم بها الناس تحرمهم من هذه النعمة منها أكل المال الحرام.

قال النبي المصطفىصلى الله عليه وآله: «يا علي! مَن أكل الحرام سوّدَ قلبه، وخلّف دينه، وضعفت نفسه، وحجبَ الله دعوته، وقلَّت عبادته، يا علي! مَن أكل الشبهات اشتبه عليه دينُه، واظلمَ قلبُه، يا علي! مَن أكلَ الحلال صَفا دينه وقلبه، و دمعت عيناه من خشية الله، ولم يكن لدعوته حجاب»[٣].

---

(١) انظر تفسير جوامع الجامع: ج٢، ص٣٦١؛ تفسير الأصفى: ج١، ص٦٧١؛ الكشاف: ج٢، ص٤٣٩، الهامش.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٧.

(٣) لآلئ الأخبار: ج١، ص٣؛ ينابيع الحكمة : ج٢، ص١٠٢، ح٢٣٠٣.

وقد جمع هذا الحديث أهم ما يُميّز الإنسان الكامل السعيد، وهي:

١- أن يملك قلباً نيّراً مطمئناً خالياً من الأحقاد والضغائن والحسد وسوء الظن وغيرها من الأمراض التي تُعشعش في القلب الأسود، وتوجب له الشقاء.

٢- أن يكون على سلامة من دينه ليكون مستقيماً في دنياه، وسعيداً في أخراه.

٣- أن يملك نفساً رحيمة تخاف الله، وتحب الناس، وتحنّ عليهم.

٤- أن يكون قريباً من ربّه، فإذا دعاه استجاب له، وهذا هو الضمان الحقيقي لكل شؤونه في دنياه و أخراه.

والعناصر الأربعة هي مقومات الإنسان الكامل والسعيد الحقيقي، وهي مترابطة لا يمكن انفكاكها؛ لوضوح أنّ القلب النيّر يُلازم سلامة الدين وإنسانية النفس والقرب من الله سبحانه، فلو اسودّ القلب اختلّ الدين، وقسا الطبع، فابتعد عن الله سبحانه، وهي عناصر الشقاء.

ونلاحظ أنّ عناصر السعادة وعناصر الشقاء يدوران على فعل واحد هو الأكل، فإن كان من الحلال صار صاحبه سعيداً، وإن كان من الحرام صار شقياً.

وهذه ضابطة لكل من يريد أن يعرف أنه سعيد أو شقي، ولو أحسّ الإنسان بالشقاء ولم يعرف السبب فليبحث عن طعامه وشرابه وأكله للمال من أي طريق، فإنّ أكثر الشقاء يأتي منه، وأكثر السعادة تأتي من أكل الحلال.

وأكل مال الحرام مصاديقه كثيرة بعضها معروفة مثل مال السرقة والغَصْب ونحوهما، وبعضها خفيّة تحتاج إلى إلفات مثل اللّامبالاة بالميزان أو بالكيل، والغش في المعاملة، ومثل المماطلة في تسديد الديون وعدم إخراج الخُمس والزكاة ونحوهما من الحقوق الواجبة، وتصرّف الابن الكبير بحصص أخوته الصغار إذا مات والدهم.

المثال الثاني: يتعلق بتعامل الإنسان، وهو حُسن الخُلُق فإنه يُطيل الأعمار، ويُعمّر الديار[1]، ويدرّ الأرزاق[2]، ويوجب المحبّة والوجاهة عند الناس، ويوجب النجاح، ويُدخِل الجنة، وهي أهم غايات الناس في حياتهم، وهذه الآثار وردت بها النصوص، وهي نتائج طبيعية تترتب عليه، وبعكسها سوء الخُلُق.

ولا يفترق في طلبها مؤمن أو غير مؤمن، بل مَن أرادَ السعادة وتحقيق النجاح في حياته عليه بحُسن الخُلُق. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لو كنّا لا نرجو جنّة ولا نخشى ناراً ولا ثواباً ولا عقاباً لكان ينبغي لنا أن نطلب مكارم الأخلاق، فإنها ممّا تدل على سبيل النجاح» فقال رجل: فِداك أبي و أمي يا أمير المؤمنين، سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال: «نعم وما هو خيرٌ منه، لمّا أتانا سبايا طيّ فإذا فيها جارية ... فقالت: ... أنا ابنة حاتم طيّ، فقال صلى الله عليه وآله: خَلّوا عنها فإنّ أباها كان يُحبّ مكارم الأخلاق،

(١) الكافي: ج٢، ص١٠٠، ح٨؛ البحار: ج٦٨، ص٣٩٥، ح٧٣.
(٢) تحف العقول: ص٢٧٥؛ عيون الحكم والمواعظ: ص٢٢٨.

فقام أبو بردة فقال: يا رسول الله! الله يُحِبّ مكارم الأخلاق؟ فقال: يا أبا بردة! لا يدخل الجنّة أحد إلّا بحُسن الخُلُق»[1].

والاستثناء بعد النفي يفيد الحصر، ووجه الملازمة بين حسن الخلق ودخول الجنة هو الآثار والنتائج التي تترتب على العمل؛ لأنّ الخلق الحسن يقود أهله إلى راحة القلب و نورانيته وطمأنينة النفس واستقرارها ومحبة الناس وزيادة الرزق.

وإذا استنار القلب صار عارفاً بالله خاشعاً، واذا اطمأنت النفس ابتعدت عنها وساوس الشيطان وشكوكه، وإذا أحبَّت الناس عبداً تعاشرت معه فزادت وجاهته ورزقه، وهذه خِلال يحبها الله سبحانه فيقرّبه، ويستجيب دعاءه، ويدخله الجنة.

ونلاحظ أنّ الحياة التي يعيشها الإنسان هي من صنع يده، وأنّ ما يجنيه هو حصاد فعله، هكذا تكون حياته في الدنيا وفي الأخرى.

الثانية: أنّ الإنسان بعمله في الدنيا يصنع حياته الأخروية، فإن زرعها بالصالحات تبدَّلت في الآخرة إلى واحات غنّاء وحقول وجنّات فيها ما لذَّ له وطاب، فالكلمة الطيبة تكون شجرة، والمحبَّة الصادقة للناس تكون نهراً، وكشْف الغَمّ والهَمّ عن المؤمن وإدخال السرور في قلبه يتبدَّل إلى حورية فتّانة، فليس العمل في الدنيا يذهب هدراً، بل مَثله مَثل مَن يتعب

---

(١) مستدرك الوسائل: ج١١، ص١٩٣، ح١٢٧٢١؛ ينابيع الحكمة : ج٢، ص٢٦٥، ح٣١٤٩.

لأجل أن يبني له قصراً واسعاً ومُرفَّهاً، وبعكسه مَن يعمل الطالحات، فالدنيا مزرعة الآخرة، والعجب للإنسان الذي يبذل الغالي والنفيس لأجل أن يوفِّر لنفسه حياة طيبة في الدنيا كيف لا يبذل ذلك لأجل حياته الأخرى.

فليعلم الإنسان أنه في الدنيا يبني حياته في الآخرة، وأنّ ما يعمله سيرافقه في البرزخ والمحشر ولا ينفكّ عنه، فإن كان حريصاً على نفسه عليه أن يعمل الصالحات، ويصنع لنفسه حياة طيبة، وقد روي عن النبي المصطفى صلى الله عليه وآله: «يموت المرء على ما عاش عليه، ويُحشَر على ما مات عليه»[1] وهو في أحد معانيه يؤكد ما ذكرنا، وفي أحد معانيه أنه يُحشَر على سجاياه التي بناها لنفسه، وفي أحد معانيه على عقيدته التي عاش بها.

والثالثة: أنّ تجسُّم الأعمال هو أفضل شاهد ودليل للإنسان على أعماله الصالحة والطالحة، فعلى الإنسان الصالح أن يترك أعماله الطيبة تتحدث عنه، وتشيد بمناقبه وإنجازاته، وعلى الإنسان غير الصالح أن يعلم أنه مهما صنع ومهما بالغ في إظهار نفسه بمظهر الصالحين فإن أعماله تفضحه وتكشفه.

فالأنبياء والأولياء والعلماء والصالحون كم أنجزوا من إنجازات وكم حاول الطغاة والظَلَمَة أن يتّهموهم ويسقطوهم في أنظار الناس ويمحوا ذكرهم من التأريخ لكنهم فشلوا، لأنّ أعمالهم الصالحة تدلّ عليهم، وتهدي

---

(١) عجالة المعرفة: ص٤٥؛ وانظر الفتوحات المكية: ج٢، ص٢٩٥؛ روح البيان: ج٧، ص٤١٤.

إلى سنَنهم، وهؤلاء الظلمة والطغاة كم بذلوا من أموال ووظَّفوا جيوشاً من المؤرخين والشعراء والإعلاميين لأجل تلميع صورهم وتحسين سمعتهم فشلوا، وهذا مظهر آخر من مظاهر تجسّم الأعمال؛ لانّ السنن الخيّرة تتبدل إلى نهج وسيرة، والسنن السيئة كذلك. وهي التي تتحدث عن واقع الناس وجواهرهم ومناهجهم.

التعليم الثاني: استعدوا للآخرة

يجب الإعداد للآخرة بالعمل والسعي لإنجاز أفضل الأعمال؛ لأنّ بها سيجازى الإنسان، وتكون هي الناطقة عنه في الحساب، والعاقل هو الذي يجعل لنفسه موتاً وبعثاً وحشراً اختيارياً في الدنيا والآخرة، ويجعل أعماله شاهدة عليه، فيجعل لنفسه موتاً لشهوات النفس وغرورها قبل موت الأجل، فيبدِّد انشدادها للدنيا إذا كان بالحرام، ويُخمِد سِعارها إذا كان بالحلال، ويبعثها من رقادها وغفلتها بالذكر والمعرفة والتهذيب والمراقبة، ويحشرها بأعمالها لتكون صالحاته مظهر شخصيته.

وهذا تعليم يعلّمنا به الباري عزّ وجلّ؛ إذ جعل الجزاء بذات العمل.

التعليم الثالث: كيف تتحقق العدالة؟

إنّ الجزاء بالعمل يعلّمنا أنّ العدالة في السياسة والإدارة والقضاء تتحقق بأمور:

الأول: أن يكون معيار التقديم والتأخير والفوز والنجاح الإنجازات والأعمال وليس العنصرية والقومية والحزبية ونحوها، فالعمل والكفاءة فيه هو مدار التقديم والتأخير.

الثاني: أن يكون القضاء مبنيّاً على مستندات قطعية لا احتمالية أو اجتهادية مزاجية.

الثالث: أن يكون القضاء فورياً وسريعاً وليس متعجِّلاً، لأنّ تأخير القضاء بالإجراءات الإدارية وتأخير التنفيذ في العقوبة من أسباب الفساد والظلم.

الرابع: أن يكون الجزاء بقدر العمل لا أقل منه؛ لأنه يؤدي إلى التمادي، ولا أكثر منه لأنه تعسُّف وظُلم، وأمّا العفو والإحسان في الحكم فذلك يعود إلى تزاحم المصالح بحسب ما يراه الحاكم الشرعي.

إنّ أحد أسباب انتشار الجريمة والظلم بين البشر هو ضُعف القضاء أو اختلال موازينه الجزائية، وفي الكثير من العقوبات التي يتخذها القانون تكون العقوبة نفسها ظلماً وناقضة لغرض القضاء، فإنّ الكثير من الجنايات تعاقب بالسجن، والسجن ليس معاقبة للجاني وحده، بل لأهله ولأولاده ولِمَن يعولهم مع أنهم لا ذنب لهم، فهو بحكم العقوبة الجماعية، ومؤاخذة الآخرين بجريرة غيرهم، وتطول هذه العقوبة حتى لِما بعد السجن، وربما أضرت بسمعة الأهل والأولاد اجتماعياً، وحرمتهم من بعض فُرَص العمل والزواج ونحوها.

والسبب أنّ الجزاء ليس بمستوى العمل ولا سريعاً، بينما الشرع بنى العقوبات على العدالة والسرعة والتكافؤ، ولذا في الزمان الذي حكم فيه الشرع قلَّت الجرائم وتكاد تكون معدومة على ما فصّلنا في بعض أبحاثنا[1].

---

(١) انظر الحرية بين الدين والدولة، وفقه الدولة.

التعليم الرابع: ثمرة جعل الجزاء على العمل

أنّ العمل ما يفعله الإنسان عن علم وعمد كما بيَّنا معناه في المفردات[(١)]، ولازم ذلك أنّ العمل الصادر عن جهل أو غير عمد لا يكون الجزاء عليه مثل الصادر عن علم وعمد، وفي ذلك ثلاث ثمار هامة:

الأولى: أصولية، وهي تأييد أدلّة البراءة المبنية على رفع الجهل والنسيان، وكذلك أدلّة الإكراه والاضطرار[(٢)] ونحوها.

الثانية: فقهية، وهي في العبادات والمعاملات والقضاء كذلك، فإن الجاهل وغير العامد لا يؤاخذ بمثل العالِم العامد.

الثالثة: كلامية، وهي أن الثواب والعقاب يدوران مدار العِلم والعَمد، وأمّا الجهل والنسيان ففيهما العفو.

إن قلت: هناك مَن يُفرِّق - وأنتم أيضاً في أبحاثكم - بين الجاهل القاصر والمقصِّر، وكذا الناسي والساهي.

نقول: التفريق صحيح؛ لأن المُقصِّر يُلحَق بالعامد موضوعاً وعُرفاً؛ لأنه تسبَّبَ في جهله ونسيانه وسهوه، فالعفو يتعلَّق بالقاصر دون المقصِّر، وهذا عليه السيرة العقلائية أيضاً.

والسؤال عن كيفية الجمع بين القول بتجسم الأعمال والعفو عن الجهل والنسيان ونحوهما وجوابه اتّضح ممّا تقدّم، فإنَّ التجسم إمّا يمحيه الباري بإرادته، أو يمنع من ظهور أثره، أو يذره معلَّقاً، فإذا فعل حسنة محاه، أو إنّ الأعمال الصالحة تؤثر في ذلك.

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٨٧، (عمل).

(٢) انظر الكافي: ج٢، ص٤٦٣، ح١؛ التوحيد: ص٣٥٣، ح٢٤.

إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي
شُغُلٍ فَاكِهُونَ

يس/ ٥٥

الآية المباركة جملة استئنافية تبيّن نتائج الأعمال، وتثبت صدق الأنبياء والرسل بإخباراتهم للمطيعين بالجنة.

والبحث فيها يقع في مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآية

المفردة الأولى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾

خطاب وردت فيه (إنَّ) الناصبة للتأكيد، وتفيد استئناف الكلام وتغيير موضوعه من أحوال الكفار في حشرهم وحسابهم إلى المؤمنين وأهل الجنة، والخطاب فيه مُخاطِب ومُخاطَب، وقد احتملوا في المُخاطِب احتمالين:

الأول: أنهم الملائكة[1].

والثاني: أنه الأعمّ من ذلك، ويشمل واقع الحال[2]، ويتضمَّن أخباراً عن حال أهل الجنة لاسيّما على القول بتجسُّم الأعمال، فإنّ آثار أعمالهم شاهدة على مصيرهم الطيّب ونعيمهم الدائم، كما أنّ أعمال الكفار شاهدة على عذابهم الدائم.

واختلفوا في المُخاطَب على قولين: فقول ذهب إلى أنهم الكفار لمزيد توبيخهم على تفريطهم وعنادهم، وبيان نتائج أعمالهم التي ساقتهم إلى العذاب، بينما قادت أعمال أهل الجنة إلى النعيم.

---

(١) انظر التحرير والتنوير: ص٤١.

(٢) روح المعاني: ج٢٣، ص٤٧.

ويتضمّن هذا إشارات ثلاث:

الأولى: أنّ أهل الجنة عجِّل لهم بنعيمهم، وقد وردوه قبل أن يُحاسَب الكفار ويقضى فيهم.

الثانية: أنّ أهل الجنة لا يمرّون بمراحل الحساب في الحشر، ولا يَقفون للقضاء لسببين:

الأول: لأن أعمالهم مجسّمة، وهي مُلازمة لهم في النشآت فيُحشرون إليها.

الثاني: لأنّ نعيمهم من وَعْدِ الله سبحانه، وهو سبحانه لا يُخلِف الوَعْد، ولا يؤخِّر الوفاء به إذا حان ميعاده.

والثالثة: ظهور صِدْق الأنبياء والمؤمنين، وفي ذلك تطييب لخواطرهم؛ لأنّهم كانوا مُتَّهمين بالكذب، وتعرَّضوا للاستهزاء، وتوبيخ الكفار الذين كانوا يقسون عليهم بذلك، وهو مرتبة من مراتب العدل الإلهي؛ إذ يظهر صِدْق الوعد كما أظهر صِدْق الوعيد في الآيات السابقة.

والقول الآخر ذهب إلى أنّهم عموم الناس المؤمنون منهم والكافرون تمسّكاً بإطلاق الآية وبما تقتضيه قواعد يوم القيامة من إظهار حقانية الإيمان و أهله، وبطلان الكفر و أهله، ولا تنافي بين القولين؛ لأنّ الأول لا ينفي الثاني بل مندرج فيه.

المفردة الثانية: ﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾

الأصحاب جمع صاحب، وهو الملازم شخصاً كان كالإنسان أو زماناً أو مكاناً[١]، و(الجنة) معناها ظاهر، وقوله: ﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ ولم يقل(أهل الجنة) يتضمَّن عدة دلالات:

الأولى: أنّ الجنة كائن حيّ يقوم مقام الصاحب فيؤلَف و يألَف ويتعاطى مع صاحبه كما يتعاطى الإنسان مع الإنسان، وهذا ما تؤكده النصوص الكثيرة الدالة على أنّ الجنة مكان الحياة والحسّ والإدراك والنطق[٢].

الثانية: أنّ الجنة كانت ملازمة لهم في حياتهم الدنيوية والبرزخية والآخرة؛ لأنّ أعمال أهل الجنة هي الصالحات، وصفاتهم النفسية وسجاياهم الأخلاقية الفضائل العالية، وإذا تجسّمت كانت معهم دائماً، كما أنّ أهل النار نارهم تلازمهم، وهم فيها معذّبون، وحتى على القول بعدم تجسّم الأعمال فإنّها حاضرة لديهم، وملازمة لهم في أفكارهم وقلوبهم، وكانت هدفهم وغايتهم، فلا يعملون طاعة ولا يجتنبون معصية إلّا وقد نظروا إليها، ولذا وصفَهم أمير المؤمنين عليه السلام: «عظُمَ الخالق في أنفسِهم فصغر ما دونه في أعينِهم، فَهُم والجنة كمَن قد رآها، فهم فيها مُنعَّمون، وهم والنار كمَن قد رآها، فهم فيها مُعَذَّبون»[٣].

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٤٧٥، (صحب).

(٢) انظر سورة العنكبوت: الآية ٦٤؛ ومبادئ وأصول المعارف الإلهية: ص٤٠٣؛ الحقائق والدقائق: ج٨، ص٢٤١.

(٣) نهج البلاغة: ج٢، ص١٦١، الخطبة ١٩٣؛ وانظر الأمالي (للصدوق): ص٦٦٧، ح٨٩٧؛ ينابيع الحكمة : ج٥، ص٢٩٥، ح١٠٤٣٠.

الثالثة: أنّهم يملكون الجنة، ففي اللغة والعرف يقال للمالك للشيء الصاحب، وهو يفيد الاستقرار النفسي واطمئنان القلب لأهلها، وهو شعور المالكين لدى التصرّف فيما يملكون، فلا أحد يمنعهم من التصرّف، أو يتصرَّف فيما يملكون دون إذن منهم، بخلاف غير المالك.

ولو سأل سائل كيف يملكون الجنة وهم مملوكون؟

والجواب: أنّهم يملكونها باعتبار أنّهم صنعوها بأعمالهم، وسبب الشيء مالكه. هذا بناءً على تجسّم الأعمال، وبناءً على أنّ الثواب جعلي عطائي فإنّهم يملكونها باعتبار وعد الله سبحانه لهم بذلك، ووعدهم بالخلود فيها، والخلود يلازم الملكية.

بل قد يستفاد من مثل قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللّه اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ**﴾[١] أنه نوع تمليك اعتباري، ومن مثل قوله تعالى: ﴿**لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا**﴾[٢] إنّها نوع هبة تمليكية اعتباراً، وقريب منه ورد في بعض الأخبار[٣].

وهذه المعاني الثلاثة لا تشعر بها كلمة (أهل) لأنها تفيد معنيين لا يناسبان مقامات أهل الجنة:

الأول: أنّ الأهل من التأهيل والمؤهلية[٤]، فتفيد استحقاق النازلين بالجنة لها، ولكنها لا تفيد أنهم ملازمون لها أو مالكون للإقامة فيها.

---

(١) سورة التوبة: الآية ١١١.

(٢) سورة المائدة: الآية ١١٩.

(٣) انظر البحار: ج٧٥، ص١٣، ح٧١؛ غرر الحكم: ح٣٤٧٤، ح٩١٦٤.

(٤) المعجم الوسيط: ج١، ص٣١ (أهل).

الثاني: أنّ الأهل يطلق بلحاظ الاختصاص، كما يقال أهل الرجل أي مَن يختص به كزوجته، كما يقال أهل العلم أي المختصّون به، أو يُطلق بلحاظ المساكنة، ففي المفردات: أهل الرجل مَن يجمعه وإياهم مسكن واحد[١]، وحق الاختصاص والمساكنة لا يفيدان دوام البقاء، ويشهد له عدم ورود أهل الجنة في الآيات؛ لأنهم خالدون فيها فلا يخرج منها أحد ولا يخرج منها، وهم أحرار يتصرفون تصرُّف المالكين دون أن يمنعهم مانع. بينما ورد في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ**﴾[٢] لأنّ أهل النار ليسوا جميعاً خالدين فيها، فبعضهم يخرجون منها بانتهاء أمد العذاب أو الشفاعة، والظاهر أنه لم يرد تسميته للمعذبين بأهل النار إلّا في هذه الآية.

المفردة الثالثة: ﴿الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ﴾

اليوم معهود ذكري أو ذهني أو خارجي لو قيل بأن الخطاب يقع في وقت الجزاء، وهو مبدأ حياة أصحاب الجنة، ولا نهاية له؛ لأنه يوم ملكوتي، والأكثر استظهروا أنه يوم القيامة.

والإطلاق يشمل كل ما يتنعَّم فيه أهل الجنة فيشمل البرزخ والرجعة والآخرة.

و(الشغل) قُرِئ بأكثر من قراءة، وقد عرفت الإشكال في تعدد القراءات، والصحيح هي القراءة المعهودة أي بضم الشين والغين[٣]، وهو

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٩٦، (أهل).

(٢) سورة ص: الآية ٦٤.

(٣) انظر التحرير والتنوير: ص٤١.

كل ما يلهي الإنسان ويصرفه عن غيره، ولذا عرَّفه البعض بأنه ضد الفراغ[١]، ويجري في الماديات، وبهذا الاعتبار يطلق الشغل على العمل.

وفي المعنويات فيقال فكره مشغول بكذا أي منصرف عن التفكير في غيره، وكذا قلبه مشغول، ومنه قول هلال بن نافع في شهادة سيد الشهداءعليه السلام: (ولقد شغلني نور وجهه وجمال هيأته عن الفكرة في قتله)[٢]. وقول جمع من أهل اللغة والمفسرين بأنه العارض في قلبه الذي يذهل الإنسان غير دقيق؛ لعدم اشتراط الذهول في معناه[٣].

و (في) يفيد الظرفية، فيدل على انغمارهم فيه وانقطاعهم عن غيره، بخلاف (عن) فإنه يفيد الانصراف عنه إلى غيره، وتنكيره يتضمّن دلالتين:

إحداهما: عظمة ما انشغل به، فلا يدرك كنهه ولا تدرك لذّته حتى أوجبت الانغمار فيه والانصراف عنه بالرغم من أحداث وأهوال يوم القيامة.

ثانيتهما: سعته وتنوّعه، فيشمل كل اللذات و الصوارف، وقد اختلفوا في الشاغل على أقوال عمدتها قولان:

القول الأول: إنّه الثواب ونعيم الجنة بأنواعه وأصنافه، وعليه الأكثر، وهو ظاهر المنطوق بل صريحه، وهو يصرفهم عن غيره؛ لذا قال

---

(١) معجم مقاييس اللغة: ص٥٠٧، (شغل)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٤٨٦، (شغل).

(٢) الملهوف: ص١١٣-١١٤؛ مدينة المعاجز: ج٤، ص٧٧، ح١٠٩٣؛ نفس المهموم: ص٣٧٩؛ مثير الأحزان: ص٥٧؛ البحار: ج٤٥، ص٥٧، في بعض المصادر ((هيبته بدل هيئته)).

(٣) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٤٥٧، (شغل).

سبحانه: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾[(١)] وقال: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[(٢)].

القول الثاني: إنّهم مشغولون بشهود مولاهم في الجنة؛ لأنّ هذه كانت حالتهم في الدنيا؛ إذ انشغلوا بمعرفته وذكره والانقطاع إليه حتى صارت سجيّة لهم يكونون عليها في الآخرة كذلك[(٣)]، والقرينة الداخلية تُبطل هذا المدّعى لو أريد به حصر المعنى به، فالآيات التي تليها صريحة في انشغالهم بلذيذ الجنة وطعامها وأُنسها. نعم لو أُريد أنه أحد مصاديق الشغل فلا بأس به؛ بداهة أنّ النعيم الإلهي مادي ومعنوي. هذا لو أريد من الشهود شهود البصيرة، وأمّا شهود البصر فمُمتنع.

هذا وقد ذكر البعض معاني أخرى بعضها غير صحيحة، وبعضها تفسير بالمصداق[(٤)]. سنأتي إلى بيان بعضها.

المفردة الرابعة: ﴿فَاكِهُونَ﴾

اسم فاعل وهو جمع، وأصله فَكِهَ فَكهاً وفَكاهة، وتطلق على من هو طيّب النفس مزّاحاً، ويطلق التَفَكُّه على التمتُّع والتلذذ والتنعّم، وبهذا الاعتبار يقال للثمار الطيّبة اللذيذة فاكهة، ولما يتمتع به من الكلام فُكاهة[(٥)]،

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ١٠٣.

(٢) سورة الأحقاف: الآية ١٣.

(٣)انظر روح البيان: ج٧، ص٤١٤.

(٤) انظر تفسير الرازي:ج٩، ص٨٥

(٥) معجم مقاييس اللغة: ص٧٦٩، (فكه)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٦٩٩، (فكه)؛ مجمع البحرين : ج٦، ص٣٥٧، (فكه).

وبعض أئمة العامة استثنى من الفاكهة النخل والرمان لقوله تعالى: ﴿**فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ**﴾(١) بحجة أنّ العطف يقتضي المغايرة(٢)، وضعفه ظاهر؛ لأن العطف في الآية من قبيل عطف الخاص على العام لبيان أهمية المعطوف، كما في قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ**﴾(٣) إذ خصّص ذكر أولي العزم من الأنبياء بالتسمية لأهميتهم عليهم السلام، كما قدَّم ذكر النبي صلى الله عليه وآله لبيان علوّ الرتبة، ولذا نفى بعضهم أن تكون العرب قد استثنت النخل والرمان من الفاكهة، ونسب من قال بالاستثناء إلى عدم المعرفة بلغة العرب وتأويل القرآن(٤)، وبعضهم جعل بدل النخل العنب وهو كسابقه(٥).

وقُرِئتْ فاكهون بقراءات عديدة وكلها ضعيفة(٦)، والحق ما وردَ في نص الآية المباركة، واختلفوا في معناها على قولين:

الأول: الفاكهة؛ لأنّه من أهم أطعمة أهل الجنة.

---

(١) سورة الرحمن: الآية ٦٨.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٤٣، (فكه)

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٧.

(٤) مجمع البحرين: ج٦، ص٣٥٧، (فكه).

(٥) القول لأبي حنيفة إذ قال: (إذا حلف لا يأكل الفاكهة فأكل رماناً أو رطباً لم يحنث، واستدلّ بقوله:﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾)؛ انظر روح المعاني: ج٢٧، ص١٢٢؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٤٣، هامش (٤).

(٦) انظر تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٦٦؛ روح المعاني: ج٢٣، ص٤٨؛ التحرير والتنوير: ص٤١-٤٢.

والثاني: الفكاهة، أي السرور والمزاح الناشئان من طيْب النفس، وهو الأقوى لثلاث قرائن هي: قرينة اللغة بضميمة القاعدة القاضية بأصالة حمل الألفاظ على معانيها الحقيقية، وقرينة الآية التي تليها، إذ يقول سبحانه: ﴿**لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ**﴾(١) فلو حملت فاكهون على الفاكهة لزم التكرار القبيح، و قرينة المقابلة مع الكفار الذين كانوا يتكلمون في نفوسهم وفيما بينهم عن بَعثهم وما كانوا يشعرون به من خوف وقلق؛ إذ قالوا: ﴿**مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ**﴾(٢) فإنّ أصحاب الجنة أيضاً يتحدثون في نفوسهم. كل منهم يحدِّث نفسه ويُحدِّث أصحابه ومن يشاركه في نعيم الجنة، ويجمع بين القولين بحمل الأول على بيان المصداق.

وفي وصف سرور أهل الجنة بالفكاهة دلالة على صفتين لهم:

إحداهما: أنّهم في أتمّ راحة واطمئنان واستقرار نفسي.

ثانيتهما: أنّ لذَّتهم غير معكّرة بالمنغصات النفسية كالحسد والحقد والأنانية والعجب والغرور وخوف انقطاع النعمة و زوالها وغيرها من منغصات النعم بين أهل النعمة كما يلحظ في صفات أهل الدنيا.

وكلا الأمرين أي راحة البال وصفاء النفوس هما أهم ما يوجب اللّذة والنعمة، ولو اختل أحدهما ما عادت النعمة كاملة، فإن المنعَّم الخائف أو

---

(١) سورة يس: الآية ٥٧.

(٢) سورة يس: الآية ٥٢.

القلق أو المتضرِّم في نفسه حقداً أو حسداً لا يهنأ بطيب ما عنده، فلهما أثر السبب أو الشرط في التنّعم بسائر النعم، ومن كانت هذه صفاتهم يكونون قد انشغلوا بلذاتهم ونِعَمهم عن أهوال القيامة وأحوال أهل العذاب فيها.

وأضاف بعض المفسرين للتفكُّه معنى التعجب، وقال: إنهم فاكهون أي متعجبون ممّا هم فيه من النعيم، وضعفه ظاهر[1]؛ لأنه تعريف بالملازم المفارق.

فالتعجب ليس من معاني الفكاهة وإن قاله بعض اللغويين لكنه ضعيف، والمتبادر العرفي منه ما ذكرناه على أنّ ليس كل أهل الجنة يتعجبون؛ لأنّهم أخبروا من قبل بأنّ ما في الجنة من النعم ما لا يخطر على قلب بشر. نعم ربما يوجَّه التعجّب بما يرون من آثار في النِعَم والطعام والشراب الذي لم يكن يدركونه.

ويتحصَّل من كل ما تقدم: أنّ أهل الجنة مستقرّون فيها مرتاحو البال، مستقرّو النفوس، يتلذَّذون بنعيمها، وسابقون إليها بلا حساب ولا مواقف مخيفة؛ إذ لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ذكرت هذه الصورة في مقابل الصورة التي ذكرت لأهل النار الذين يحضرون للحساب و أعمالهم معهم شاهدة عليهم ويجازون بها.

---

(١)مجمع البيان: ج٨، ص٢٨٣؛ روح المعاني: ج٢٣، ص٤٧

المبحث الثاني: في لطائف الآية

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: ما هو شغل أهل الجنة؟

إنّ شغل أصحاب الجنة يختلف بحسب مراتب نشأتهم وحياتهم في الدنيا والآخرة، فهم في كل مرتبة في شغل، وهم فاكهون، وقد مرَّ أنَّ لهم أربع نشآت هي الدنيا والبرزخ والرجعة والآخرة، وتحديد اليوم في الآية لبيان مبدأ مرحلة الحياة لا حصرها باليوم؛ لأن اليوم الملكوتي له مبدأ ولا منتهى له، والزمان فيه مبسوط كما مرَّ بيانه.

ويستفاد من مجموع الآيات والروايات أنّ انشغالهم في كل نشأة بحسبها، ففي الدنيا مشغولون بأربعة أمور، وهي الجنة المعنوية :

الأول: طاعة الله واجتناب معاصيه، وهذه لأهل المعرفة جنّة حقيقية لما يجده الإنسان المؤمن من لذّة في الطاعة، فالقلب المتولّه بطاعة ربه ومناجاته وتلاوة كتابه لذَّته لا توصف إلّا أنه يحسُّها بإحساسه وشعوره، لذلك يترك لذَّة النوم في الأسحار ويقوم لمناجاة ربه، ويتحمَّل ألم العطش في الصيف للصيام ويترك الكثير من المغريات الدنيوية لأجل طاعة ربه، فالمؤمن يعيش الجنّة بإحساسه وشعوره، واللذة الحقيقية تتحقَّق بالإحساس والشعور؛ لذا

تجد المؤمن القنوع سعيداً في كوخه وطعامه الخشن وفراشه التراب، والسلطان والثري ليس سعيداً في قصره وأمواله إذا نغّصته الكدورات.

وفي حديث الصادق عليه السلام: ﴿قال الله تبارك وتعالى: يا عبادي الصديقين تنعَّموا بعبادتي في الدنيا، فإنكم تتنعَّمون بها في الآخرة﴾[١].

الثاني: إصلاح النفس بمحاربة الهوى والشيطان في مزاولة الحياة لكيلا يقعوا في محاذيرهما، فإنّ تهذيب النفس بالفضائل وتخليتها من الرذائل هو جنة للنفس تكون فيه آمنة مستقرة ومطمئنة، وبها يرتقي الإنسان لتسانخ طِباعه وسجاياه مع طِباع الجنة وسجاياها، فالإنسان الكامل في لذّة دائمة من كماله، وهذا يحتاج إلى أن الإنسان يُدرِك هذا المقام حتى يُدرِكه. فالكُمَّلون من البشر يتلذَّذون في كمالاتهم، ولذلك يتحملون الكثير من المشقَّة في أبدانهم تحصيلاً لكمالاتهم الروحية، فيقطّعون بالمناشير، ويُضّحون بالدنيا والسلطان والمغريات لأجل أن يحافظوا على كمالاتهم النفسية. هذه جنة هُم يَحسّونها ويعيشونها، ولو نلاحظ حياة الأنبياء والأولياء والعلماء الربانيين لوجدنا كم تحمَّلوا من مشقّات لأجل ارتقائهم.

الثالث: إصلاح الخلق وهدايتهم؛ لأنّ في ذلك تطهيراً للمحيط والمجتمع وتنظيفه من الكدورات النارية، فمثل المؤمن مثل من يزرع لنفسه بستاناً ثم ينظِّف محيطها، ويحثّ الآخرين على زراعتها لتكون حياتهم غابة من الجمال والجلال، فضلاً عن واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،

---

(١) الكافي: ج٢، ص٨٣، ح٢؛ وانظر الأمالي (للصدوق): ص٣٧٧، ح٤٧٧.

فإن وجود البستان الجميل بين العرصات والمستنقعات لا يُؤمَن عليه من الضرر والخراب، وإليه يُشير قول أمير المؤمنينعليه السلام: «مِن كمال السعادة السعي في صلاح الجمهور»(١).

الرابع: النظر والتطلُّع إلى نعيم الجنة، فهم يعايشون الجنة في أفكارهم، ومنقطعون إليها بقلوبهم، فهم والجنة كمن قد رآها، وهم فيها منعّمون.

ولذا تضافر عن النبي والأئمةعليهم السلام ذِكر أوصاف المؤمنين، وهي في مجموعها تكون جنتهم الواقعية.

والمراد بالمؤمنين من غلبت محاسنهم مساويهم، فقد ورد عن النبيصلى الله عليه وآله في ذِكر بعض أوصافه فقالصلى الله عليه وآله: «أوسع الناس صدراً وأذلّهم نفساً، ضحكه تبسُّماً، واجتماعه تعلّماً، مُذكّر الغافل، معلِّم الجاهل، لا يؤذي من يؤذيه، ولا يخوض فيما لا يعنيه، ولا يشمَت بمصيبة، ولا يذكر أحداً بغيبة، بريئاً من المحرَّمات، واقفاً عند الشبهات، كثير العطاء، قليل الأذى، عوناً للغريب، وأباً لليتيم. بِشْرُه في وجهه، وحزنه في قلبه ... لا يكشف سرّاً، ولا يهتك سِتْراً ... يُبجِّل الكبير ويرحم الصغير، أميناً على الأمانات بعيداً عن الخيانات ... مُقيل العثرة، ولا يتتبَّع العورة ... يطلب من الأمور أعلاها، ومن الأخلاق أسناها ... قلبه تقيّ، وعلمه زكيّ، إذا قَدَرَ عفا، وإذا وَعدَ وَفى ... ولا يَقبَل الباطل مِن صديقه، ولا يردّ الحق على عدوِّه، ولا يتعلَّم إلّا ليعلَم، ولا يَعلَم إلّا ليعمَل ... يَعطِف على أخيه بزلَّته، ويرعى ما مضى من قديم صحبته»(٢).

---

(١) عيون الحكم والمواعظ: ص٤٦٩.

(٢) البحار: ج٦٤، ص٣١٠، ح٤٥؛ كتاب التمحيص: ص٧٤-٧٥.

وإذا جمعنا هذه السجايا والخصال معنوياً كانت هي الجنة الحقيقية التي يعيشها الإنسان في نفسه، ولو تحلّى بها المؤمن صارت حياته جنة، وصيَّر حياة مَن حواليه جنة.

هذا كله في الدنيا، وما يكون عليه المؤمن في الدنيا سيكون عليه في البرزخ والآخرة أيضاً؛ ولما عرفت من أنّ حياة الإنسان في النشآت من صنع يده. وأمّا في البرزخ فهم مشغولون بثلاث هي: التنعّم بجنة رضوى، والذكر والتزاور ولقاء الأحبّة، وقد تضافر في الأخبار أنّ أهل البرزخ من المؤمنين يتزاورون ويتحدثون[١]، ولهم أبدان برزخية نورية كأبدانهم الدنيوية[٢]، وهم في حجرات في الجنة البرزخية يأكلون من طعامها ويشربون من شرابها ويقولون ربنا أقم الساعة لنا، وأنجز لنا ما وعدتنا[٣].

فقد روى البرقي في المحاسن عن أبي بصير رواية صحيحة عن الباقر أو الصادق عليهما السلام قال: «إذا مات العبد المؤمن دخل معه في قبره ست صور فيهنَّ صورة هي أحسنهُنَّ وجهاً، وأبهاهنَّ هيئة، وأطيبهُنَّ ريحاً، وأنظفهنَّ

---

(١) البحار: ج٦، ص٢٤٣، ح٦٥؛ المحتضر: ص١٩.

(٢) الكافي: ج٣، ص٢٤٤، ح٤٧٣٦؛ الفصول المهمة: ج١، ص٣٣١، ح٤٠٤؛ البحار: ج ٦، ص٢٦٨، ح١١٩، عن أبي ولّاد الحنّاط عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: جعلت فداك يروون أن أرواح المؤمنين في حواصل طيور خضر حول العرش؟ فقال: «لا، المؤمن أكرم على الله من أن يجعل روحه في حوصلة طير، ولكن في أبدان كأبدانهم».

(٣) الكافي: ج٣، ٢٤٤، ح٤٧٣٧؛ البحار: ج٦، ص٢٦٩، ح١٢٢.

صورة. قال: فَتَقِف صورة عن يمينه، وأخرى عن يساره، وأخرى بين يديه، وأخرى خلفه، وأخرى عند رجليه، وتَقِف التي هي أحسنهُنَّ فوق رأسه، فإنْ أُتيَ عن يمينه مَنَعَته التي عن يمينه - أي من سؤال مُنكر ونكير - ثم كذلك إلى انْ يُؤتى من الجهات الست. قال: فتقول أحسنهنَّ صورة: مَن أنتم جزاكم الله عني خيراً - وهو سؤال العارف- فتقول التي عن يمين العبد: أنا الصلاة، وتقول التي عن يساره: أنا الزكاة، وتقول التي بين يديه: أنا الصيام، وتقول التي خلفه: أنا الحَجّ والعُمرة، وتقول التي عند رجليه: أنا بِرّ مَن وصلتَ مِن إخوانك، ثم يَقُلْن: مَن أنت فأنت أحسننا وجهاً، وأطيبنا ريحاً، وأبهانا هيئة؟ فتقول: أنا الولاية لآل محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ﴾[1].

وفي رواية أخرى عن الإمام العسكري عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فعند ذلك يتحوَّل عليه قبره أنزه رياض الجنة﴾[2] أي قبره يتبدَّل إلى جنة وتعاشره معه أعماله الصالحة التي تجسّمت له.

وفي الكافي عن الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ في حال المؤمنين في البرزخ: قال: ﴿ثم يزور آل محمد في جنان رضوى، فيأكل معهم من طعامهم، ويشرب من شرابهم، ويتحدَّث معهم في مجالسهم حتى يقوم قائمنا أهل البيت، فإذا قام قائمنا بعثهم الله فأقبلوا معه يُلبّون زُمراً زُمراً، فعند ذلك يرتاب المُبطِلون﴾[3].

---

(١) المحاسن: ج١، ص٢٨٨، ح٤٣٢؛ حق اليقين: ص٣٨٨.
(٢) تفسير الإمام العسكري عَلَيْهِ السَّلَامُ: ص٣٤٦، ح٢٢٨؛ الاحتجاج: ج١، ص١١؛ الصراط المستقيم: ج٣، ص٥٨؛ البحار: ج٢، ص٨، ح١٤.
(٣) الكافي: ج٣، ص١٣٢، ح٤؛ حق اليقين: ص٣١٣.

وأمّا في الرجعة فقد تواترت النصوص على أنّ حياة المؤمنين فيها حياة الجنة يتنعَّمون بنعيمها المادي والمعنوي، وأنّ المؤمن يُخيَّر في الرجوع من البرزخ إليها.

فقد روى الشيخ قدس سره في الغَيْبَة عن المُفَضَّل قال: ذَكَرْنا القائم ومَن مات مِن أصحابنا ينتظره، فقال لنا أبو عبد الله عليه السلام: ﴿إذا قام أُتيَ المؤمن في قبره فيقال له يا هذا إنه قد ظهرَ صاحبُك، فإن تشأ أن تلحَقَ به فالحَق، وإنْ تشأ أن تُقيم في كرامة ربك فأقِم﴾[(١)].

وفي الزيارة الجامعة: ﴿ويكرّ في رجعتكم، ويُملَّك في دولتكم، ويُشرَّف في عافيتكم، ويُمكَّن في أيامكم، وتقرّ عينه غداً برؤيتكم﴾[(٢)] والتمليك والتمكين والتشريف كناية عن السُلْطة والحُكم والغنى وغيرها من النِعَم المادية، وقرار العين برؤيتهم عليهم السلام هي النِعمة المعنويّة الكبيرة، وقُرَّة العين الفرح والسرور والظَفَر بالمطلوب حتى ترضى النفس به وتستقر[(٣)].

وفي الزيارة الجامعة الرجبية التي رواها جماعة من أجلّاء الأصحاب: ﴿ويُرجعني من حضرتكم خير مَرجِع إلى جنابٍ مُمرِعٍ، وخَفضِ عيشٍ موسّع، ودَعَةٍ ومَهلٍ إلى حين الأجل، وخيرِ مصيرٍ ومَحَلٍّ في النعيم الأزل والعيش المُقتبَل ودوامِ الأكلِ وشرب الرحيقِ والسلسل وعل ونَهلٍ لا

---

(١) الغيبة (للطوسي): ص٤٥٩، ح٤٧٠؛ البحار: ج٥٣، ص٩١، ح٩٨.

(٢) التهذيب: ج٦، ص٩٩، ح١٧٧؛ الفقيه: ج٢، ص٦١٥، ح٣٢١٣؛ المزار: ص٥٣١.

(٣) مجمع البحرين: ج٣، ص٣١٣، (قرر).

سأم منه ولا مَلَل، ورحمة الله وبركاته وتحياته حتى العَوْد إلى حضرتكم والفوز في كرَّتكم﴾[١].

فإن الرجوع في حضرتهم ناظر إلى عالم الدنيا، ويراد به عالم البرزخ بعد الموت والعيش في جنته حتى الرجعة إليهم والفوز معهم.

ومن كان برزخه جنة كانت رجعته كذلك، وإلّا كان مخالفاً لِلُّطف والرحمة.

بل تضافر في النصوص أنّ زمان الرجعة يُمَلَّك فيه المؤمن، ويتمكَّن بالسُلْطة والقُدرة، وتقدّم بعضه[٢].

وفي الكافي والتهذيب عن الصادقعليه السلام قال: ﴿أما والله لا تذهب الأيام والليالي حتى يُحيي الله الموتى، ويُميت الأحياء، ويَردّ الحق إلى أهله، ويُقيم دينه الذي ارتضاه لنفسه﴾[٣].

ولو قام دين الله عمَّ الخير، وأظهرت الأرض بركاتها، وسَعِدَ المؤمنون.

وتضافرت الأخبار على أنّ الإمام الحسينعليه السلام هو سلطان الرجعة والحاكم فيها بعد الحُجّةعليه السلام.

---

(١) انظر البحار: ج٥٣، ص٩٤، ح١٠٦؛ إلزام الناصب: ج٢، ص٣١٥؛ مصباح المتهجد: ص٨٢٢؛ المزار (لابن المشهدي): ص٢٠٥، وفيهما: ﴿وشرب الرحيق والسلسل وعل ونهل﴾ وفي الحاشية شرح السلسل فقال: ماء سلسل: أي سهل الدخول في الحلق لعذوبته وصفائه، والعل: الشرب الثاني، والنهل: الشرب الأول.

(٢) التهذيب: ج٦، ص٩٩، ح١٧٧؛ الفقيه: ج٢، ص٦١٥، ح٣٢١٣؛ المزار: ص٥٣١؛ وانظر حق اليقين: ص٣١٣.

(٣) الكافي: ج٣، ص٥٣٨، ح١؛ التهذيب: ج٤، ص٩٧، ٢٧٤.

وفي كامل الزيارات عن المُفَضَّل عن الصادقعليه السلام قال: ﴿كأنّي بسرير من نور قد وُضِع، وقد ضُرِبَت عليه قُبّة من ياقوتة حمراء مُكَلّلة بالجواهر، وكأنّي بالحسين جالس على ذلك السرير وحوله تسعون ألف قُبّة خضراء، وكأنّي بالمؤمنين يزورونه ويُسلِّمون عليه، فيقول الله عزّ وجلّ لهم: أوليائي سَلوني فَطالما أوذيتم وذللتم واضطهدتم، فهذا يوم لا تسألون حاجة من حوائج الدنيا والآخرة إلّا قضيتها لكم، فيكون أكلُهُم وشربهم في الجنة، فهذه والله الكرامة﴾(١).

وتشتمل الرواية على ثلاث قرائن تدل على أنها تخص الرجعة لا الآخرة:

الأولى: تخصيص السلام والزيارة بالمؤمنين، وهذا الاختصاص بمَن محض الإيمان الذين يرجعهم الباري في الرجعة.

الثانية: حثّهم على الدعاء والمسألة لحوائج الدنيا والآخرة، ولو كانوا في الآخرة لم يكن وجه لسؤال حوائج الدنيا؛ لأنها انقضت، كما أنّ الجنة قائمة على الثواب لا السؤال.

الثالثة: كون أكلهم من الجنة أي يؤتى لهم به، ولو كان في الآخرة كانوا في الجنة، فلا معنى لأن يكون أكلهم منها؛ لأنه من بيان الحاصل

ويتحصَّل: أنّ المؤمن يعيش الجنة في رجعته كما يعيشها في برزخه ودنياه، وهو مشغول بها عن الآلام والمنغصات.

وأمّا في الآخرة فقد وردت الروايات بانشغال أصحاب الجنة فيها بأمور نذكر ثلاثة منها:

---

(١) كامل الزيارات: ص٢٥٩، ح٣٩٠؛ حق اليقين: ص٣١٧-٣١٨.

الأول: افتضاض العذارى، أي الزواج بخير البنات الأبكار، وتدلّ النصوص على أنّ كل النساء في الجنة كواعِب وأبكار، وإذا زالت البكارة عادت مرة أخرى؛ لأنّ الجنة كل شيء فيها باقٍ لا يزول(١)، فيفاكهونهنَّ ويلاعبونهن ويتبادلون معهُنَّ تناول الفاكهة، وفي بعض الأخبار وَصَفَتْ عيونهُنَّ بأنّ حواجبهنَّ كالأهلّة، وأشفار أعينهنَّ كقوادم النسور(٢)، والأهلّة جمع هِلال يُشبَّه به حاجِب المرأة الحسناء لشدَّة لُطفه ونورانيته وظهوره(٣)، ويتضمن الفرح والسرور، كما يُقال تَهلَّلَ وجه الرجل في فرحه، وتَهلَّلَ أي استنار وظهرت عليه أمارات السرور(٤)، فهُنَّ كواعب فرحات مسرورات لا مُكدَّرات ولا مُقطبات، والكدَر والقطوبة من الصفات السلبية في بنات الدنيا، فوصفهنَّ بالأهلّة لبيان أنهنَّ فارغات من الهمّ والعصبية وما يوجب الكَدَر ويمنع من التمتُّع بهنّ.

والقوادِم الريشات الكبار في مُقدَّم جناح النسر، وهي عشرة في كل جناح كناية عن طول الرموش وتوازنها في العدد(٥) التي هي من سواحر العيون.

---

(١) نفحات الرحمن: ج٥، ص٢٧٣.

(٢) نفحات الرحمن: ج٥، ص٢٧٣.

(٣) انظر المعجم الوسيط: ج٢، ص٩٩٢، (هلّ).

(٤) مجمع البحرين: ج٥، ص٥٠٠، (هلل).

(٥) مجمع البحرين: ج٦، ص١٣٦، (قدم)؛ وانظر المعجم الوسيط: ج٢، ص٧٢٠، (قدم)؛ لسان العرب: ج١١، ص٦٧، وفيه: (قوادم الطير مقاديم ريشه وهي عشرة في كل جناح).

وأنّ الرجل يُعطى طاقة مائة رجل في الأكل والشرب والجماع[١]، والمائة للتقريب وبيان الكثرة؛ لأنّ لذّات الجنة لا نهاية لها ولا شَبع ولا مَلَل.

الثاني: سَماع الأصوات الجميلة والألحان والنغمات الحلوة، وقد ورد أنه إذا اشتهى المؤمن سَماع الغِناء أرسلَ الله تعالى إسرافيل فيقوم إلى الجانب الأيمن من المؤمن فيقرأ القرآن، ويقوم داود على جانبه الأيسر فيقرأ الزبور[٢]، وورَدَ أنّ بعض الأشجار تُصدِر نسيماً لطيفاً فيه أصوات الغِناء والنَغَم العَذْب.

والثالث: التزاور واللقاء بالأحِبَّة والمُفاكهة معهم، وفي بعض التفاسير: أنَّ المؤمن في الجنة ينشغل بسبعة أنواع من الثواب، كل ثواب لعضو من أعضائه:

فثواب الرِجل بقوله: ﴿**ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ**﴾[٣] وثواب اليَد: ﴿**يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ**﴾[٤] والكأس مملوءة بشراب طيّب فيه لذة عظيمة لا تزيل العقل فيهذو أو يتفحَّش في الكلام أو السلوك، كما أنّ تنازعهم فيه فكاهة لا عن حقد وحسد وأنانيّة كما هو حال الدنيا وأهلها، ولا أحد يؤثِم الآخر ويتَّهمه بالنقص، وثواب الفَرْج: ﴿**وَحُورٌ عِينٌ**﴾[٥] وثواب البطن: ﴿**كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا**﴾[٦] وثواب

---

(١) نفحات الرحمن: ج٥، ص٢٧٣.

(٢) نفحات الرحمن: ج٥، ص٢٧٣.

(٣) سورة الحجر: الآية٤٦.

(٤) سورة الطور: الآية٢٣.

(٥) سورة الواقعة: الآية٢٢.

(٦) سورة الحاقة: الآية٢٤.

اللسان: ﴿**وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ**﴾[١] الآية، وثواب الأذن: ﴿**لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا**﴾[٢] بل يسمعون أصواتاً مُطرِبَة، وثواب العين: ﴿**وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ**﴾[٣] فاكهون فرحون، والبِشْر ظاهِر على وجوههم وجباهُم[٤].

اللطيفة الثانية: مجالس أهل الجنة

إنّ الآية وصفت أصحاب الجنة بصفتين: هما أنهم منشغلون فاكهون، والإطلاق وصيغة اسم الفاعل يُشعران بثلاث حالات لهم:

الأولى: دوام الشغل والفكاهة، فلا انقطاع لهم عن ذلك بتخلل ما يُنغِّص عليهم أنسهم، ولا يتعبون بدنياً من شغلهم فيستريحوا، ولا يملّون روحياً فيتوقفوا وهم قبل ذلك فارغون من الحساب؛ إذ لا حساب عليهم ولا هم يحزنون؛ لأنّ أعمالهم التي قدموها في دنياهم جمعت لهم الحور والقصور.

الثانية: أنّهم في نشاط وصحة تامّة وعافية كاملة، فلا يتألمون ولا يمرضون ولا يكسلون ولا يشيبون ولا يستوحشون، فهم في حياة دائمة وشباب ولذّة وصحة وعزّة وسرور وأُنس، ولذا قالت شُغل ولم تقل عمل؛ لأنّ العمل يوحي بالكدّ والتعب والاضطرار.

---

(١) سورة يونس: الآية١٠.

(٢) سورة الواقعة: الآية٢٥.

(٣) سورة الزخرف: الآية٧١.

(٤)انظر مجمع البيان: ج٨، ص٢٨٢ ؛ مقتنيات الدرر: ج٩، ص٩١.

الثالثة: طيب النفس وراحة البال، وهي عكس ما كانت عليه حياتهم في الدنيا، فإنّ الدنيا مليئة بالضجيج والقلق الدائم والكدورات النفسية كالحسد والحقد، أو المادية، والإنسان فيها مبتلى بالعاهات والأمراض والآفات، إلّا أنّ أصحاب الجنة في شُغلٍ فاكهون بالرغم من أهوال يوم القيامة، وهذه من أهمّ النعم التي يحتاجها الإنسان، فإنّ الأمن أفضل نعمة يحتاجها الإنسان في زمن الخوف، والسلام أفضل نعمة في زمن الحرب، وفي زمن القلق والاضطراب نعمة السكينة والطمأنينة، وهذه النِعَم هي الأفضل؛ لأنها أساس الاستمتاع بسائر النِعَم؛ إذ لا يصفو عَيش ولا يهنأ طعام ولا شراب ولا جماع ومؤانسة إلّا مع الأمن والسلام والعافية.

والنتيجة أنّ حياة أصحاب الجنة دائمة فلا موت فيها، ولذّة وفكاهة فلا تنغيص فيها، وهو ما تضافر في الأخبار.

فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «الجنة التي أعدّها الله تعالى للمؤمنين خطّافة لأبصار الناظرين. فيها درجات متفاضلات، ومنازل متعاليات، لا يبيد نعيمها ولا يضمحلّ حبورها – أي نعمتها وسعة العيش فيها–[1] ولا ينقطع سرورها، ولا يظعن مقيمها، ولا يهرم خالدها، ولا يبؤس ساكنها، أَمِنَ سُكّانُها من الموت فلا يخافون. صَفَا لهم العيش، ودامت لهم النعمة في أنهارٍ من ماءٍ غير آسن، وأنهارٍ من لبنٍ لم يتغيَّر طعمُه، وأنهار من خمر لذَّة للشاربين»[2] و«لذّاتها لا تُملّ، ومجتمعها لا

---

(١) مجمع البحرين: ج٣، ص٢٥٦، (حبر).

(٢) مطالب السؤول: ص٢٧١؛ البحار: ج٧٥، ص٣٠، ح٩٧.

يتفرَّق، وسكّانها قد جاوروا الرحمن، وقام بين أيديهم الغُلمان بصحاف من الذهب فيها الفاكهة والريحان»[١].

ولا يخفى أنّ تسمية الخمر والفاكهة والريحان من باب التقريب للذهن؛ لعدم وجود مقايسة بين ما هو موجود منها في الدنيا وما هو في الجنة، فمثل ما موجود في الدنيا كمثل الوردة المصنوعة إلى الوردة الحقيقية، والتمثال المنحوت للرجل بالقياس إلى الرجل الحقيقي، فإنه لا يوجد بينهما من تشابه إلّا في الشكل والمظهر الخارجي، وأمّا من حيث الحقيقة فبينهما اختلاف كبير؛ بداهة أنّ الرجل الحقيقي حيّ يعقل وينطق ويحسّ ويشعر، وأمّا التمثال فلا يُبدي حِراكاً، وهكذا حينما تُمثِّل النصوص نِعَم الجنة بما هو في الدنيا، فإنّ ذلك من جهة التقريب إلى الأفهام، وأمّا الواقع فلا يوجد قياس بينهما.

وعن رسول الله ﷺ: «أهل الجنة جُرْد مُرْد كُحَّل لا يفنى شبابهم، ولا تُبلى ثيابهم»[٢].

وفي حديث آخر: «يدخل أهل الجنة الجنة جرداً مرداً مكحلين أبناء الثلاثين أو ثلاث وثلاثين»[٣].

---

(١) الأمالي (للطوسي): ص٢٩، ح٣١؛ الأمالي (للمفيد): ص٢٦٦، ح٣؛ البحار: ج٧٤، ص٣٨٩، ح١١.

(٢) الجامع الصغير: ج١، ص٤٢٣، ح٢٧٦٣؛ كنز العمال: ج١٤، ص٤٧١، ح٣٩٣٠١.

(٣) سنن الترمذي: ج٤، ص٨٨، ح٢٦٦٩؛ وانظر كنز العمال: ج١٤، ص٤٧٧، ح٣٩٣٢٩؛ تحفة الآحوذي: ج٧، ص٢١٥.

جُرْد لا شَعرَ في أجسادهم إمّا بعدمه أو بغلبة نور أجسادهم عليه بحيث لا يظهر[١]، وله أثر بالِغ في زيادة لذّة الملامسة مع النساء، أو لأن طعام الجنة لا زيادة فيه لحاجة البدن، فلا يتبدّل إلى زوائد كالشَعر والظفر.

و مُرْد لا شعر في وجوههم[٢]، والكُحَّل أن يعلو جفون عيونهم سواد مثل الكحل من غير اكتحال[٣]، ولعلّ قوله لا تُبلى ثيابهم يُراد به الملابس كناية عن بقاء الأشياء جديدة زاهية لا تبلى، أو يُراد به البَشرة والشكل الخارجي للوجه واليدين وسائر البدن، فإنه لا يتجعَّد أو يتشوَّه شكله بسبب طول العُمر كما يلحظ في الدنيا، ولا تنافي بين المعنيين.

اللطيفة الثالثة: بطلان الرؤية

ذكرَ بعض مُفسّري العامة للشُغل معنيين باطلين عقلاً ونقلاً:

الأول: ذكره الآلوسي وهو أنّ أصحاب الجنة مشغولون برؤية الله ومشاهدته، وحددوا زمانه في يوم الجمعة، ومكانه في الفردوس الأعلى[٤]، وهذا ناشئ من مبانيهم في التوحيد المنتهية إلى التشبيه والتجسيم، وينقضها قوله تعالى: ﴿**لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ**﴾[٥] وحُكم العقل بامتناع الرؤية؛ لأنها تستلزم التجسيم والتحديد ونسبة النقص إليه سبحانه.

---

(١) مجمع البحرين: ج٣، ص٣٤، (جرد).
(٢) مجمع البحرين: ج٣، ص١٤٥، (مرد).
(٣) مجمع البحرين: ج٥، ص٤٦١، (كحل).
(٤) روح المعاني: ج٢٣، ص٤٧.
(٥) سورة الأنعام: الآية١٠٣.

نعم ورد عن الصادقعليه السلام: «أنّ لله كرامة في عباده المؤمنين في كل يوم جمعة ... فإذا اجتمعوا تجلّى لهم الرب تبارك وتعالى، فإذا نظروا إليه خرّوا سُجّداً»(١) والتجلّي ظهور جماله وجلاله، ولذا يسجدون وبه تظهر آياته وآثاره لا ذاته سبحانه.

الثاني: ذكره الرازي وهو أنهم في شُغل عمّا توقعوه في الدنيا وبنوا على أنهم إذا دخلوها سيطلبونها، فلمّا رأوا ما لم يخطر ببالهم اشتغلوا به، وانصرفوا عما تمنّوه، وردَّ التفسير الوارد في بعض الأخبار، وهو تفسير مبني على الرأي لم يقم عليه شاهد من منطوق الآية.

---

(١) تفسير القمي: ج٢، ص١٦٩؛ البحار: ج٨، ص١٢٦، ح٢٧.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

وهي عديدة:

التعليم الأول: الأفعال تتجسّم والتروك تتعوّض

أنّ عطاء الله سبحانه في الجنة يشمل فعل الواجبات واجتناب المعاصي، لأن الاثنين طاعة، ويستفاد من الأدلة أنّ فعل الطاعات تتجسم وأمّا اجتناب المعاصي فتعوض بالمسانخ، وتدل الوقائع والشواهد العلمية أنّ ما يقود الناس إلى الفساد وخراب الدين أفعال كثيرة لعلّ من أهمها ثلاثة هي: الاختلاط المُحرَّم، واستماع الغناء، ومجالس اللهو واللعب، فإن هذه الثلاثة تتفرَّع منها مفاسد كثيرة، فيتفرَّع عن الأول زوال الحياء والزنا، وعن الثاني النفاق وأكل المال الحرام، وعن الثالث السُكْر والغيبة والفِتَن الاجتماعية، وتتلخّص فيها كل المنكرات التي تضر بالأشخاص كأفراد، وبالمجتمع كمجموع، ولو أردنا أن نجري مقارنة بين الناجحين في الحياة والفاشلين لوجدنا أن الفاشلين لا يخلون من هذه الابتلاءات المذكورة، فبعضهم يُبتلى بواحدة، وبعضهم بأكثر، بينما الناجحون هم المنَّزهون عن ذلك.

وكذلك لو أجريت المقارنة بين المجتمع المتطور السعيد وغيره لوجدنا أن المجتمع السعيد مشغول بالعلم والعمل والنشاط والإبداع، وأما غيره فمشغول بمجالس اللهو واللعب وحفلات الرقص والغناء، وهذه كلها ضارة ومحطِّمة للإنسان والمجتمع، فحرّمها الشرع لأسباب عديدة منها هذه، فإذا اجتنبها الناس في الدنيا صاروا من أصحاب الجنة في دنياهم وآخرتهم، وحينئذٍ يعوضهم الباري بالنعيم المسانخ، فإذا اجتنبوا الاختلاط المُحرَّم في الدنيا جوزوا به في الجنة مع أجمل الناس وأصفاهم وداً، وهو من موجبات السعادة[١]، فعن أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿أسعد الناس مَن خالط كرام الناس﴾[٢].

وإذا تركوا الغناء وتفريعاته من موسيقى ومجالس طرب استمعوا في الجنة إلى أجمل الأصوات وأعذب الألحان، وإذا تركوا مجالس اللهو واللعب عاشوا في جنة الدنيا والبرزخ والآخرة أحلى المجالس وأرقاها.

فعن الإمام الصادق عليه السلام: ﴿أنّ في الجنة شجراً يأمر الله رياحها فتهب فتضرب تلك الشجرة بأصوات لم يسمع الخلائق بمثلها حسناً، ثم قال: هذا عوض لمن ترك السماع في الدنيا من مخافة الله﴾[٣].

---

(١) النوادر (للراوندي): ص١١.

(٢) البحار: ج٧١، ص١٨٥، ح٢، جامع أحاديث الشيعة: ج١٦، ص١٧٦، ح٣؛ مستدرك سفينة البحار: ج٢، ص٨٠.

(٣) البحار: ج٨، ص١٢٧، ح٢٧؛ ج٧٦، ص٢٤١، ح٦.

وفي عدَّة الداعي عنهم عليهم السلام: ﴿كل شيء من الدنيا سماعه أعظم من عيانه، وكل شيء من الآخرة عيانه أعظم من سماعه، وفي الوحي القديم: أعددتُ لعبادي ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر بقلب بشر﴾[١].

وفي حديث فيه ما يُبهِر العقول عن أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿لقد سبق إلى جنات عَدن أقوام ما كانوا أكثر الناس صلاة ولا صياماً ولا حَجّاً ولا اعتماراً ولكنهم عقلوا عن الله مواعظه﴾[٢].

والمواعظ جمع موعظة وأصلها العظة، وهي التخوُّف والتحذُّر من سوء العاقبة[٣]، وهو يشمل كل من يتجنَّب المعاصي لآثارها السلبية، ويعمل بالطاعات لآثارها الإيجابية.

التعليم الثاني: أنّ الفكاهة أمر مستحسن جميل وراجح لمحبوبية الاقتداء بأهل الجنة والتخلّق بأخلاقهم، وله آثار إيجابية على نفس الإنسان وعلى من يعاشره ويعايشه، وليس المراد بالفكاهة المعنى العُرفي السلبي أي الملازمة للتصرفات المخلّة، فإنّ هذا قبيح ومذموم، بل المعنى الإيجابي الذي نصَّت عليه الآية، أي أن يتحلى الإنسان بنفس طيّبة مسرورة تمازح بلطف، وتُدخِل السرور على قلوب الناس، وتتناسى الهموم والغموم.

---

(١) عدة الداعي: ص٩٩؛ البحار: ج٨، ص١٩١، ح١٦٨.

(٢) انظر شرح نهج البلاغة: ج٢٠، ص٢٧٠؛ كنز العمال: ج٢، ص١٤٩، ح٥٩١٦؛ فيض القدير: ج٤، ص٥٦٧، ح٥٨٥٨.

(٣) مجمع البحرين: ج٤، ص٢٩٢، (وعظ).

التعليم الثالث: الفراغ أساس الشرور

يجب الانشغال بالأمور النافعة التي تنّمي الإنسان فِكراً أو عِلماً، أو تنفعه في دنياه، فإنّ الفراغ مبغوض ومذموم، وهو أحد أسباب الكثير من الشرور والتعاسات للناس، كما أنّ الانشغال بالأمور التافهة الضارَّة قبيح ومذموم، وربما قادها إلى الحرام والمهالك.

وأفضل ما ينشغل به المؤمن أمور منها: مزاورة الأهل والإخوان في الله، والحضور في مزارات المعصومين عليهم السلام والاستماع لحديث العِلم والفضيلة وتلاوة القرآن، وقضاء الوقت مع الأهل والأولاد والقيام بخدمتهم ورعايتهم، وهذه هي صفات أهل الجنة.

الفهرس

وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ........ ٩

المبحث الأول: في مفردات الآية........ ١١

المفردة الأولى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ﴾........ ١١

المفردة الثانية: ﴿أَنَّا حَمَلْنَا﴾........ ١٥

المفردة الثالثة: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾........ ١٦

المفردة الرابعة: ﴿الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾........ ٢٢

المبحث الثاني: في لطائف الآية........ ٢٥

اللطيفة الأولى: كيف صارت السفينة آية؟........ ٢٥

اللطيفة الثانية:........ ٢٦

اللطيفة الثالثة:........ ٢٧

اللطيفة الرابعة: تشابه الأرض وسفينة نوح........ ٢٨

ما هو أصل اللغة؟........ ٣٠

اللطيفة الخامسة: سفينة الحسين عليه السلام أسرع........ ٣١

المبحث الثالث: في تعاليم الآية........ ٣٥

التعليم الأول: السعادة في ثلاث سفن يجب ركوبها........ ٣٥

التعليم الثاني: عجز القوى العظمى........ ٤٤

التعليم الثالث: ما هي مهام العلم؟........ ٤٥

التعليم الرابع: ٤٦
وَخَلَقْنَا لَـهُمْ مِن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ٤٧
المبحث الأول: في مفردات الآية........................... ٥١
المفردة الأولى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم﴾........................... ٥١
المفردة الثانية: ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾ ٥٣
المفردة الثالثة: ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾........................... ٥٤
المبحث الثاني: في لطائف الآية........................... ٥٧
اللطيفة الأولى: لماذا قال ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾؟........................... ٥٧
اللطيفة الثانية: الصناعات الحديثة من الله سبحانه........................... ٥٨
اللطيفة الثالثة:........................... ٥٨
المبحث الثالث: في تعاليم الآية المباركة........................... ٦١
التعليم الأول: كيف تعرف الحق من الباطل؟........................... ٦١
التعليم الثاني: انظروا إلى حياتكم يا شباب........................... ٦٢
التعليم الثالث: احذر من ركوب الموج ٦٤
وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يُنقَذُونَ ٦٥
المبحث الأول: في مفردات الآية........................... ٦٧
المفردة الأولى: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾........................... ٦٧
المفردة الثانية: ﴿فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ﴾........................... ٧٠
المفردة الثالثة: ﴿وَلاَ هُمْ يُنقَذُونَ﴾........................... ٧٣
المبحث الثاني: في لطائف الآية........................... ٧٥

اللطيفة الأولى:.. ٧٥

اللطيفة الثانية: ما جرى على الآباء يجري على الأبناء............ ٧٥

اللطيفة الثالثة: علاج الأمراض الروحية.......................... ٧٦

المبحث الثالث في تعاليم الآية ٧٩

التعليم الأول: كيف تنجو من الفتن؟ ٧٩

التعليم الثاني:... ٨٠

التعليم الثالث: السيادة عند الله سبحانه لا الغرب والشرق..... ٨١

التعليم الرابع:... ٨٢

إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعاً إلى حِينٍ ٨٣

المبحث الأول: في مفردات الآية.................................. ٨٥

المفردة الأولى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً﴾.................................... ٨٥

المفردة الثانية: ﴿مِّنَّا﴾ ٨٧

المفردة الثالثة: ﴿وَمَتَاعًا﴾ ٨٨

المفردة الرابعة: ﴿إِلَى حِينٍ﴾ ٨٩

المبحث الثاني: في لطائف الآية.................................... ٩١

اللطيفة الأولى: العقوبة بين الرحمة والرأفة ٩١

اللطيفة الثانية: العيش والحياة...................................... ٩٤

اللطيفة الثالثة: لماذا أبهم الأجل؟.................................. ٩٥

المبحث الثالث: في تعاليم الآية.................................... ٩٧

التعليم الأول: بالرحمة قامت الأشياء فكن رحيماً.................. ٩٧

لماذا خلق الإنسان؟........ ٩٨
الإبتلاءات رحمة........ ١٠٤
الغايات الطولية للخلق........ ١٠٦
التعليم الثاني: النظريات الباطلة في فهم القرآن........ ١٠٩
العلوم التي لا يعرفها إلّا الإمام عليه السلام........ ١١٣
التعليم الثالث:........ ١١٦
التعليم الرابع: لا بلاء مستمر ولا نعيم مستمر........ ١١٧
وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ........ ١١٩
تشابه أهل مكة وقوم نوح........ ١٢١
المبحث الأول: في مفردات الآية........ ١٢٣
المفردة الأولى: ﴿إِذَا﴾........ ١٢٣
المفردة الثانية: جواب الشرط........ ١٢٤
المفردة الثالثة: ﴿مَا﴾........ ١٢٥
المفردة الرابعة: ﴿اتَّقُوا﴾........ ١٢٨
المبحث الثاني: في لطائف الآية........ ١٣٣
اللطيفة الأولى: لماذا أبهم القائل؟........ ١٣٣
اللطيفة الثانية: سر توجيه الخطاب للحاضر........ ١٣٥
اللطيفة الثالثة: جهتان للرحمة الإلهية........ ١٣٦
المبحث الثالث: في تعاليم الآية........ ١٣٩
التعليم الأول: ترابط العلم والرزق والتقوى........ ١٣٩

التعليم الثاني:... ١٤١
التعليم الثالث: للفقهاء والأصوليين.............................. ١٤١
التعليم الرابع: للمحاورين والمبلغين ١٤٣
وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ١٤٥
المبحث الأول: في مفردات الآية..................................... ١٤٩
المفردة الأولى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم﴾ ١٤٩
المفردة الثانية: ﴿من آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ ١٥٠
المفردة الثالثة: ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ١٥١
المبحث الثاني: في لطائف الآية..................................... ١٥٥
اللطيفة الأولى: العلم والهداية من الله............................... ١٥٥
اللطيفة الثانية:... ١٥٦
اللطيفة الثالثة: النبي والأئمة أعظم آيات الله.......................... ١٥٧
المبحث الثالث: في تعاليم الآية المباركة............................ ١٦١
التعليم الأول: الملاكات العقلية لوجوب المعرفة ١٦١
التعليم الثاني: الإعراض عن آيات القرآن.............................. ١٦٩
التعليم الثالث: ثلاث وسائط إلهية للتربية ١٧٢
التعليم الرابع: للفقهاء والأصوليين ١٧٧
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ الله قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاء الله أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ.................................. ١٧٩
لماذا لم يُطعموا الجياع؟.. ١٨١

المبحث الأول: في مفردات الآية.......................١٨٧
المفردة الأولى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾ ١٨٧
المفردة الثانية: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاء اللهُ أَطْعَمَهُ﴾.......................................١٩٣
المفردة الثالثة: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.....................١٩٥
المبحث الثاني: في لطائف الآية.........................٢٠١
اللطيفة الأولى:..................................٢٠١
اللطيفة الثانية: لماذا أمر الكفار بالإنفاق؟ ٢٠٢
اللطيفة الثالثة: الرزق التكويني والتشريعي ٢٠٤
المبحث الثالث: في تعاليم الآية ٢٠٧
التعليم الأول: علائم الإيمان والكفر ٢٠٧
التعليم الثاني: الزعماء يقلبون الحقائق...................٢١٤
التعليم الثالث: خصائص رزق الله سبحانه ٢١٧
التعليم الرابع: تبرير الأخطاء مرض وتكبرّ ٢٢٢
التعليم الخامس: كيف ينجح الحوار؟......................٢٢٤
وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ٢٢٥
المبحث الأول: في مفردات الآية.........................٢٢٧
المفردة الأولى: (الواو)...............................٢٢٧
المفردة الثانية: ﴿الْوَعْدُ﴾...............................٢٢٧
المفردة الثالثة: ﴿إِن كُنتُمْ﴾ ٢٢٨

المبحث الثاني: في لطائف الآية........................ ٢٢٩
اللطيفة الأولى: سؤال الملاحدة والكفار واحد ٢٢٩
اللطيفة الثانية: لماذا الوعد دون الوعيد؟ ٢٣٠
اللطيفة الثالثة:........................ ٢٣٢
المبحث الثالث: في تعاليم الآية........................ ٢٣٥
التعليم الأول: الوفاء بالوعد واجب عقلي ٢٣٥
التعليم الثاني:........................ ٢٣٨
التعليم الثالث: ٢٣٩
التعليم الرابع: حجية خبر الواحد........................ ٢٣٩
التعليم الخامس:........................ ٢٤٠
التعليم السادس: ان التجري حرام........................ ٢٤٠
مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ٢٤١
زمان الوعد وعلائمه........................ ٢٤٣
المبحث الأول: في مفردات الآية........................ ٢٤٥
المفردة الأولى: ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ ٢٤٥
المفردة الثانية: ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾........................ ٢٤٨
المفردة الثالثة: ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾........................ ٢٥١
المبحث الثاني: في لطائف الآية........................ ٢٥٥
اللطيفة الأولى: لماذا تأخذهم صيحة لا صرخة؟ ٢٥٥
اللطيفة الثانية: بين الأخذ والإهلاك........................ ٢٥٧

اللطيفة الثالثة: لماذا يختصمون؟........................... ٢٥٨
المبحث الثالث: في تعاليم الآية........................... ٢٦١
التعليم الأول: الصيحات الإلهية........................... ٢٦١
التعليم الثاني: الهلاك مصير الخصومات........................... ٢٦٣
التعليم الثالث: العقوبات الإلهية متنوعة........................... ٢٦٧
فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ........................... ٢٦٩
المبحث الأول: في مفردات الآية........................... ٢٧١
المفردة الأولى: (الفاء)........................... ٢٧١
المفردة الثانية: ﴿لَا﴾........................... ٢٧١
المفردة الثالثة: ﴿تَوْصِيَةً﴾........................... ٢٧٢
المبحث الثاني: في لطائف الآية........................... ٢٧٣
اللطيفة الأولى: لماذا قدمت الوصية؟........................... ٢٧٣
اللطيفة الثانية: لماذا نفت عنهم الاستطاعة؟........................... ٢٧٤
اللطيفة الثالثة: ما المراد بالأهل؟........................... ٢٧٥
المبحث الثالث: في تعاليم الآية........................... ٢٧٧
التعليم الأول: ضرورة الوصيةوغايتها........................... ٢٧٧
التعليم الثاني: الحاجة إلى الأهل فطرية........................... ٢٧٩
التعليم الثالث: العناد يحرم الإنسان من الفرص........................... ٢٨٠
وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ........................... ٢٨٣
المبحث الأول : في مفردات الآية........................... ٢٨٥

المفردة الأولى: (الواو)...٢٨٥
المفردة الثانية: ﴿نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾...................................٢٨٦
(صُوَر الخلائق الملكوتية)...٢٩٣
المفردة الثالثة: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ﴾ ٣٠٠
المفردة الرابعة: ﴿إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾.................................٣٠٤
كيف يكون الرجوع إلى الله؟......................................٣١٠
المبحث الثاني: في لطائف الآية.......................................٣١٧
اللطيفة الأولى: لماذا يتم الإحياء بالنفخ؟...............................٣١٧
اللطيفة الثانية: ما علاقة الصوت بالإحياء والإماتة؟......................٣٢٠
اللطيفة الثالثة : الاستنساخ نظرة قرآنية ٣٢٦
المبحث الثالث: في تعاليم الآية......................................٣٣٣
التعليم الأول : يحشرون بأبدانهم.....................................٣٣٣
التعليم الثاني:...٣٣٤
التعليم الثالث:..٣٣٤
التعليم الرابع: لا يمكن الفرار من العقاب..............................٣٣٦
التعليم الخامس : هل الاستنساخ للأبدان أم للأرواح؟ ٣٣٧
قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ
....٣٣٩
المبحث الأول: في مفردات الآية.....................................٣٤١
المفردة الأولى: ﴿قَالُوا﴾...٣٤١

المفردة الثانية: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾.......................................٣٤٢
المفردة الثالثة: ﴿مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾..........................٣٤٤
المفردة الرابعة: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ ٣٥٢
المفردة الخامسة: ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ ٣٥٤
المبحث الثاني: في لطائف الآية.......................................٣٥٧
اللطيفة الأولى: يستغيث المؤمن من أمرين ٣٥٧
اللطيفة الثانية: بعد الإحياء يتذكرون..................................٣٥٩
اللطيفة الثالثة:..٣٦٠
اللطيفة الرابعة:..٣٦٠
المبحث الثالث: في تعاليم الآية..٣٦١
التعليم الأول: أثر الاعتقاد بحياة القبر ٣٦١
التعليم الثاني: فقهي...٣٦٤
التعليم الثالث: لا ينبغي الإصرار والمعاندة ٣٦٥
إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ٣٦٧
المبحث الأول: في مفردات الآية.......................................٣٧١
المفردة الأولى: ﴿إِن كَانَتْ﴾...٣٧١
المفردة الثانية: ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾...................................٣٧١
المفردة الثالثة: ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا﴾..............................٣٧٢
المفردة الرابعة: ﴿مُحْضَرُونَ﴾ ٣٧٤
المبحث الثاني: في لطائف الآية.......................................٣٧٧

اللطيفة الأولى: عجز الطب عن الإحياء والإماتة............٣٧٧
اللطيفة الثانية: الحشر جماعات وأفراداً.........................٣٧٨
اللطيفة الثالثة: آخر حديث لعلي عليه السلام..............................٣٨١
المبحث الثالث: في تعاليم الآية..............................٣٨٣
التعليم الأول: ضرورة المعاد والإعتقاد به ٣٨٣
الأمر الأول: في حقيقة الموت...........................٣٨٣
الأمر الثاني: الأقوال في المعاد...........................٣٨٧
الأمر الثالث: في المعاد الجسماني والروحاني...........٤٠١
تعليق الحياة في القبور.........................٤١٠
التعليم الثاني: القرآن أوسع من العقل والعلم...............٤٢٠
التعليم الثالث: كيف يحضر الناس عند ربهم؟ ٤٢٤
آثار الدعاء بالفرج..............................٤٢٨
العالم في محضر الإمام عليه السلام..........................٤٣١
فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٤٣٣
المبحث الأول: في مفردات الآية............................٤٣٥
المفردة الأولى: ﴿فَالْيَوْمَ﴾ ٤٣٥
المفردة الثانية: ﴿نَفْس﴾...............................٤٣٦
المفردة الثالثة: ﴿تُجْزَوْنَ﴾..............................٤٣٨
المفردة الرابعة: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ ٤٣٩
المبحث الثاني: في لطائف الآية..............................٤٤٣

اللطيفة الأولى:..................................٤٤٣
اللطيفة الثانية:..................................٤٤٥
اللطيفة الثالثة: هل القضاء يضمن العدالة؟..................٤٤٦
اللطيفة الرابعة: الاتجاهات في تجسم الأعمال...............٤٤٨
الاستغفار وتجسُّم الأعمال..........................٤٥٥
المبحث الثالث: في تعاليم الآية.......................٤٦٣
التعليم الأول: ثلاث قواعد لصناعة الحياة...................٤٦٣
التعليم الثاني: استعدوا للآخرة.......................٤٦٩
التعليم الثالث: كيف تتحقق العدالة؟......................٤٦٩
التعليم الرابع: ثمرة جعل الجزاء على العمل ٤٧١
إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ.......................٤٧٣
المبحث الأول: في مفردات الآية.......................٤٧٥
المفردة الأولى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ ٤٧٥
المفردة الثانية: ﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾...........................٤٧٧
المفردة الثالثة: ﴿الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ﴾ ٤٧٩
المفردة الرابعة: ﴿فَاكِهُونَ﴾...............................٤٨١
المبحث الثاني: في لطائف الآية.......................٤٨٥
اللطيفة الأولى: ما هو شغل أهل الجنة؟..................٤٨٥
اللطيفة الثانية: مجالس أهل الجنة.......................٤٩٥
اللطيفة الثالثة: بطلان الرؤية ٤٩٨

المبحث الثالث: في تعاليم الآية.. ٥٠١
التعليم الأول: الأفعال تتجسّم والتروك تتعوّض ٥٠١
التعليم الثاني:.. ٥٠٣
التعليم الثالث: الفراغ أساس الشرور ٥٠٤
الفهرس ٥٠٥